دراسة

الاسرائيليون من هُم ؟

دراسة نفسية

د.قدرى حفنى

الإسرائيليون من هُم؟
دراسة نفسية

دكتور

قدري حفني

إهــداء

إلى ذكرى الشهيدة المصرية

إنتصار إسماعيل

صباح الجمعة ١٧ سبتمبر ١٩٨٢

مستشفى عكا – بيروت

كلمات قبل البداية

إن ما بين يدي القاريء ليس كتابا بـالمعنى المـألوف، وإن اتخذ صورة الكتاب بأبوابه وفصوله. إنها مجموعة مـن الدراسات تجمع بينها وحدة القلم، ووحدة الموضوع. ولكنهـا أنجزت فرادى عبر حقبة امتدت من أوائل السبعينيات حتـى أوائل الثمانينيات. ولم تتح لها فرصة النشر العام لأي منهـا فيما عدا دراسة"تجسيد الوهم" التي كانت باكورة منشـورات مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية عام ١٩٧٢.

ولقد آثرت أن تنشر هذه الدراسات بصورتها التي كتبت بها دون تعديل مسجلاً لكل دراسة تاريخ أعدادها. ويرجـع هذا التفضيل إلى سببين:

أولاً:

ثمة ظاهرة تعاني منها حياتنا الفكرية كأشد مـا تكـون المعاناة، وخاصة كلما اقترب الفكر من مجال القضـايا ذات الطابع السياسي. وأعني بهذه الظاهرة ما يمكن أن نطلق عليه – إذا ما شئنا تعبيرا مهذبا –"الانتقائية". أي أن يعود الكاتـب إلى ما سبق أن كتب ونشر فينقي منه ما يتفق مع ما يتصوره رائجا مطلوبا للمرحلة. مسقطًا منه ما لم يعد صـالحا لهـا.

معتمدا على ضعف ذاكرة القاريء. ماضيا يهلل فرحا ويردد دون ملل" ألم أقل لكم؟!!".

ولذلك فقد فضلت أن أشرك معي القاريء في أن ننظر معا إلى تلك الدراسات لنتبين هل ثمة ما يتطلب تعديلاً؟.

ثانياً:

لقد مضت على كتابة هذه الدراسات سنوات طوال حافلة بالأحداث التي كان يمكن أن تضيف إلى هوامش الكتاب كما هائلاً من التفاصيل ولكن ماذا عن الجوهر؟ هل ثم ما غيرته تلك الأحداث في التكوين السيكولوجي الإسـرائيلي؟ أو فـي مجمل الاستراتيجية العربية حيال الصراع؟ وهما القضـيتان اللتان تمثلان جوهر دراستنا. لا أظن.

ممارساتنا العربية مازالت تدور – في مجملها – داخل إطار اللاحرب اللاسلم. قوانا الثورية مازالت – في مجملهـا – متمسكة بمواقعها الدفاعية تهدد منها ولا تتقدم عنها. مازلنا بعد محجمين عن ممارسة الهجوم بالسلام. ومازلنـا أيضـا بعيدين عن ممارسة الهجوم بالحرب. ومازالت مبرراتنا فـي الحالتين كما هي لم تتغير كثيرا. ومازالت الأحداث من حولنا تؤكد كل يوم حقيقة أن مناخ اللاسلم اللاحرب هـو المنـاخ

الأمثل لازدهار القوى العدوانية الإسـرائيلية، بـل وقـوى التخلف والقهر العربي أيضا.

ولكن، ترى هل نشهد هذه الأيام ما يمكن أن يكون بداية لتغيير مقبل؟ هل يمكن أن تكون الانتفاضة الفلسطينية التـي مازالت مستمرة بمثابة تلك البداية المرتقبة؟ إلى أين يمكن أن تؤدي عودة مصر إلى العرب أو عودة العرب إلى مصـر؟ وما هو موقع هذا كله من نـذر التغيـرات المحتملـة فـي استراتيجيات القوتين الأعظم؟ شواهد عديدة وهامة قد تنبيء بتغيير في دينامية الصراع. ولكن في أي اتجاه؟ أم أن تيـار اللاسلم اللاحرب سينجح في احتواء كل شيء كالمعتاد؟ هـذا هو السؤال!!

تبقى بعد ذلك كله شكر واجبة. لقد كانت غالبيـة تلـك الدراسات في البداية مجـرد أوراق تـداولها العديـد مـن الأصدقاء والأبناء.

ولقد أثارت حماس الكثيرين منهم سلبا أو إيجابا. تحمس البعض لها – بل ولصاحبها – حماسا بالغًا. وتحمس البعض ضدها حماسا بالغًا كذلك. ولقد أتيحت لي فرصـة الحـوار الجاد والعميق مع الكثيرين ممن شرفت باختلافهم أو باتفاقهم

معي في بعض ما طرحته أو حتى في مجمله. فلهم جميعـا اعترافي العميق بالفضل، ودعوتي المخلصـة لمزيـد مـن الحوار.

والله الموفق ،،،،،

قدري حفني

القاهرة يونيو ١٩٨٨

الكتاب والمؤلف

هذا الكتاب محاولة علمية جادة للتعرف على طبيعة التكوين النفسي للكيان الإسرائيلي، وانعكاسات ذلك على أسلوب تنشئة الجيل الجديد في إسرائيل. ويحاول الكتاب أن يوظف تلك المعرفة في فهم طبيعة الإستراتيجية العربية في إدارة الصراع منذ قيام الكيان الإسرائيلي وحتى الآن. ويطلق المؤلف تعبير "استراتيجية اللاسلم اللاحرب" على مجمل تلك الممارسات العربية، موضحا رؤيته لمخاطرها.

المؤلف د. قدري حفني، أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس، يعد رائدا للجهد العربي العلمي في مجال السيكولوجية الإسرائيلية. حصل عام ١٩٧٣م على درجة الدكتوراه في علم النفس بمرتبة الشرف الأولى مع التوصية بالطبع والتبادل عن أول رسالة جامعية عربية في الموضوع. حصل على جائزة الدولة التشجيعية في علم النفس لعام ١٩٧١م عن أول دراسة متخصصة في هذا المجال. يحمل وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى منذ عام ١٩٧٢ تقديرا لهذه الجهود. أشرف على عديد من الرسائل الجامعية التي تناولت الصراع العربي الإسرائيلي من مختلف أبعاده.

السلام الهجومي

- محاولات لتزييف الوعي العربي
- الصراع العربي الإسرائيلي بين النخبة والشارع
- الفلسطينيون والجماهيرية والحوار
- عرب ما قبل كامب دافيد.. والصراع
- مقدمات عصر كامب دافيد
- كامب دافيد والإمكانيات الجماهيرية
- استراتيجية السلام الهجومي

محاولات لتزييف الوعي العربي

إسرائيل هي قدر الأمة العربية، ونحن قدرها، أو علينا أن نسعى لكي نكون كذلك. ولا مهرب لفرد أو لشعب من ملاقاة قدره. قد يلاقيه مسلما راضيا مرضيا لو كان القدر إلهيا محتوما. وقد يلاقي شعب قدره الدنيوي مستسلما منهزما خاضعا، وقد يلاقيه مندفعا منبتًا أهوجا. وقد يلاقيه متحديا مستبسلاً مقاوما. وقد يلاقيه أيضا أو يلتقي به متجاهلاً إياه. مغمضا عينيه. منغلقًا على ذاته، مستسلما لخيالاته الوردية سائرا إلى حتفه بظلفه. ولكنه ملاق قدره لا محالة.

والقدر الإسرائيلي الذي نتحدث عنه شاءته لنا قوى عاتية كثيرة. ومازالت تلك القوى حريصة على ما شاءته لنا. وستظل حريصة عليه ما لم تنضب المنابع المادية لتلك المشيئة في منطقتنا العربية. وهو مالا يبدو وشيكًا على أية حال. ولسنا في معرض الحديث عن تلك القوى وقصتها معنا ومع منطقتنا فهو أمر يتجاوز كثيرا حدود سطور قليلة كهذه وكل ما نود أن نخلص إليه في هذا المقام هو أن تلك القوى العاتية قد حرصت – ضمن ما حرصت عليه لتحقيق أهدافها

– على تضليل العقـل العربـي وتزييـف صـورة القـدر الإسرائيلي لديه بحيث تطـيش محاولاتنـا للتعامـل معـه ومواجهته. وللحقيقة فإن الكثيرين منا قـد ابتلعـوا الطعـم، وساهموا مقتنعين متحمسين في ترويج صورة أو أخرى من تلك الصور الزائفة للقدر الإسرائيلي. ولعل ما أغراهم بـذلك أنها صورة أحكم أصحابها صـياغتها. وتنوعـت أشـكالها وتعددت بحيث يمكن أن تجـد هـوى ورضـى، وقناعـة واطمئنانًا، بل ويمكن حتى أن تستثير فـي العقـل العربـي انفعالاً بها، وحماسا لها، أيا كان الانتماء الفكـري لصـاحب هذا العقل.

فالعربي الليبرالـي قـد تسـتهويه صـورة"إسـرائيل الديمقراطيـة" التـي تسـمح لأبنائهـا بحريـة التظـاهر والاضطراب. والعربي الاشتراكي قد تجتذبه صورة الكيبوتز الإسرائيلي. وتلك العلاقات التاريخية القائمة بـين أحـزاب إسرائيلية وأحزاب اشتراكية في أوروبا. والعربي المتدين – أيا كانت ديانته – قد يرى في إسرائيل تجسيدا لفكرة الدولـة الدينية، وإمكانية قيامها من حيث المبدأ في العصر الحـديث. والعربي الأكاديمي قد يرى فيها – أي في صورة إسرائيل –

مثالاً للتقدم العلمي والتكنولوجي. وحتى العربي الرومانسـي الحالم، لم ينسه صناع الصور الزائفة، فالإسـرائيليون هـم الأبناء المساكين للهولوكوست النازي الرهيب الـذين لاقـوا عذابا لم يلاقه بشر غيرهم. وخرجوا مـن أتـون المحرقـة النازية يلتمسون وطنًا يأويهم دون أن يفقدوا قـدرتهم علـى التعمير والإبداع، بل وحتى القتال أيضا. أما العربي الذي لم يجد ضالته في أي من هذه الصور فقد بقيت له في الجعبـة صورتان أخيرتان عليه أن ينتقي منهما ما يناسب ذوقه، لـه أن يختار صورة إسرائيل الضعيفة الهزيلـة، الغارقـة فـي الطوفان العربي، والتي لابد وأن تندثر يوما بحكـم التـاريخ وبفعل تناقضاتها الداخلية، ودون حاجة إلى جهـده أو جهـد غيره. فإذا لم تجد هذه الصورة أيضا هوى في نفسه فلينظـر إذن إلى صورة إسرائيل الجبارة ذات القوة التـي لا تقهـر، ذات القنابل الذرية والتكنولوجيا المـدمرة، والقـدرة غيـر المحدودة على بلوغ ما تريد.

ويتوقع صانعوا القدر الإسرائيلي ألا يبقى أمـام العقـل العربي وقد انهالت عليه كـل تلـك الصـور، إلا خيـارات محدودة إما أن يؤخذ بالنموذج الإسرائيلي الوردي، منبهـرا

بما يحمله من ألوان التقدم والحضارة. مستنزفًا قواه الذاتيـة في محاولة الركض وراءه والسعي إلى محاكاته منشغلاً بذلك عن مواجهته والتصدي له. وإما أن يتعاطف العقل العربـي مع النموذج الإسرائيلي المأساوي فتستغرقه محاولات التبرير والتفسير منشغلاً بذلك أيضا عن أية مواجهة أو تصدي. وإما أن يطمئن للنموذج الإسرائيلي المتهالك. موفرا جهـده فـي مواجهته. صارفًا هذا الجهد في غير ذلك من الأوجه. تاركًا للتاريخ وحده مهمة التصدي والحسم. وإما أن يفزعه النموذج الإسرائيلي العنيف فزعا يكاد أن يهلكه. فينكفيء على ذاتـه عاكفًا على نقدها بلا هوادة. متحسرا على تاريخه الزاهـر. منصبا بلعناته على يهود الأرض جميعـا. حالمـا بمعركـة فاصلة ستقع يوما لا محالة.

ولا يعني زيف تلك الصور أنها خلو من الحقيقة تمامـا فصناعها ليسوا بهذه السذاجة أو الغفلة. الحكومة الإسرائيلية تسمح بالمظاهرات والاضطرابات. هذه حقيقة. ولكنها ليست كل الحقيقة. فهي تسمح بذلك لليهود وليس للعرب. ومن ثـم فإن الصورة تتضمن جانبا من الحقيقة ولكنها تجتزيء تلـك الحقيقة من محيطها. الكيبوتز الإسرائيلي لا يعترف بالملكية

الخاصة. هذا صحيح إلى درجة ما ولكنـه أيضـا لا يمثـل الحقيقة كلها فالكيبوتزات لا تمارس دعوتها للملكيـة العامـة خارج حدودها، والكيبوتزات تختلف وتتبـاين مـن حيـث انتماءاتها الحزبية الأيديولوجية. والكيبوتزات تكاد أن تكـون مغلقة تماما على الإشكنازيم. وفضلاً عن ذلك فإن مجمـوع أبناء الكيبوتزات لا يمثل أكثر من ٥% من يهود إسـرائيل. مرة أخرى فالصورة تتضمن جانبا من الحقيقة ولكنه جانـب فحسب. صحيح أيضا إن ثمة علاقات تاريخية بين أحـزاب إسرائيلية وأحزاب اشتراكية أوروبية. ولكن صحيح كذلك أن الصورة الراهنة لتلك العلاقات لا تمثل الطابع السائد للنموذج الإسرائيلي. كما أن تلك الأحزاب الإسرائيلية المعنية تمثـل قطاعا فحسب من الإشكنازيم الإسرائيليين أصحاب التـاريخ الأوروبي. ومن ثم فإنهم يرتبطون بمـا هـو أقـرب إلـى انتماءات أقرانهم من الأوروبيين. وفضلاً عـن ذلـك فـإن الاشتراكية الأوروبية المقصودة بالحديث ليست بالضـرورة تلك الاشتراكية التي يحلم بها العقل العربي.

والأمر كذلك بالنسبة لصورة"إسرائيل الدولـة الدينيـة". صحيح أن اليهودية هي الدين الرسمي في إسرائيل. ولكـن

صحيح أيضا أن الخلافات بين رجال الدين مـن إشـكنازيم وأقرانهم من السفارديم واضحة جلية. بل إن الخلافات بـين رجال الدين ورجال الدولة في إسرائيل لا تقل – إن لم تـزد عن نظيرتها في غيرها من الدول الدينية والعلمانية على حد سواء – أما صورة"إسرائيل مثال التقدم العلمي والتكنولوجي" فإنها تحوي أيضا جانبا من الحقيقة فالتكنولوجيا في إسرائيل متقدمة دون شك. ولكنها ليست مجال تكنولوجيـا إسـرائيلية متميزة، بل إنه العلم الغربي والتكنولوجيا الغربية. وغدا كأن الأمر كذلك. وإذا لم يكن بد من اختيـار مثـال أو نمـوذج. فالأصل أولى من الفرع. وكذلك صورة الإسرائيليون أبنـاء الهلوكوست النازي الرهيب صحيح أن الكثيـر مـن يهـود ألمانيا وأوروبا قد تعرضوا ضمن غيرهم لعسف نازي بشع. ولكن صحيح كذلك أن الهولوكوست كـان ظـاهرة ألمانيـة أوروبية، ومن ثم فإنه لـم يشـمل يهـود الأرض جميعـا. وصحيح أيضا أن أولئك اليهود الذين مستهم مباشرة عذابات النازية منذ ما يزيد عن الثلاثين عاما ليسوا حاليا سوى قلـة ضئيلة سواء في إسرائيل أو في خارج إسـرائيل. وصـحيح كذلك أن غالبية يهود إسرائيل اليوم من السفارديم والشرقيين

والسابرا وليس فيهم بالقطع من عانى من ذلك الهولوكوست الألماني الشهير. وكذلك الحال بالنسبة لصورة إسرائيل المتهالكة الممزقة من الداخل صحيح أن التجمع الإسرائيلي يضم أبناء أكثر م فئة قومية وصحيح أن التناقضات الإسرائيلية الداخلية بالغة الحدة. ولكن صحيح كذلك أن السلطة الإسرائيلية لا تكف عن محاول استخدام كافة السبل للتهدئة من حدة تلك المتناقضات، وأن سبيلها الأساسي لبلوغ ذلك هو الحرب مع العرب. كذلك فإن الولايات المتحدة الأمريكية حريصة على وحدة إسرائيل ضمانًا لبقائها. وفضلاً عن ذلك كله فإن الإنسان صانع تاريخه، والتاريخ لا يتحرك بمعزل عن أبناء العصر. وتبقى بعد ذلك صورة أخيرة هي"إسرائيل القوة التي لا تقهر". وهي بدورها تحوي جانبا لا يستهان به من الحقيقة. ولكن أليس من الحقيقة أيضا أن الولايات المتحدة الأمريكية هي المصدر الرئيسي للقوة العسكرية الإسرائيلية؟ ثم أليس صحيحا كذلك أن صراعا كالصراع العربي الإسرائيلي لا يمكن أن تحسمه القوة العسكرية وحدها أيا كان تفوقها؟ ثم ألا يمدنا تاريخنا القريب

بأكثر من نموذج واحد لإمكانية التصدي القتالي للجيش الإسرائيلي؟

خلاصة القول إذن أن تلك الصور جميعا، رغم تباينها واختلافاتها تتفق في أمر محدد هو أنها تنتقي جزءا من الحقيقة محاولة أن تعممه على الظاهرة بأكملها، وهنا مكمن الخطر. فقبول الصورة كما هي يؤدي إلى التردي في منزلق التزييف كما أن رفضها كاملة يؤدي إلى التردي في منزلق التجهيل وهما أمران كلاهما مر وخطر. وليس من سبيل إلى تلافيهما إلا بالحرص على تحصيل أكبر قدر ممكن من المعرفة الموضوعية بإسرائيل. معرفة تحاول أن تضع كل شيء في حجمه الواقعي دون تجاهل أو تضخيم. وإذا كان السعي للمعرفة الموضوعية بالآخر هدفًا إنسانيا دائما. وإذا كانت المعرفة الموضوعية بالخصم واجبا ضروريا. وإذا كانت المعرفة العربية الموضوعية بإسرائيل تعد – منذ بداية الصراع – جانبا أساسيا من جوانب المواجهة. فإن تلك المعرفة قد أصبحت مسألة حياة أو موت بالنسبة لنا بعد أن دخل الصراع العربي الإسرائيلي مرحلته الجديدة الراهنة: مرحلة عصر ما بعد كامب ديفيد.

الصراع العربي الإسرائيلي
بين النخبة والشارع

إننا نعيش جميعا عصر ما بعد كامب دافيد. يستوي في ذلك من يرون فيها الخير كل الخير، ومن يرونها شرا خالصا. الجميع يعيشون نفس العصر مهما تباينت رؤاهم له، وهي متباينة بالفعل وإلى آخر مدى. فالبعض يرون في كامب دافيد ذريعة تبرر انعزال مصر عن بقية أمتها العربية. داعين إلى البحث عن"أصدقاء" جدد، و"أعداء" جدد أيضا. كما لو كان الانتماء القومي مجرد صداقة تنعقد وتنفض وفقًا لأهواء أصحابها. وكما لو كان العداء القومي مجرد مشادة عابرة يمكن أن تذوب فجأة لتبدأ مشادات جديدة مع أطراف جدد. والبعض يرى في كامب دافيد ذريعة تبرر عزل مصر عن بقية الأمة العربية. متوهمين أنهم بذلك يزيحون من على أكتافهم عبئًا ثقيلاً، ويفسحون لأنفسهم الطريق لقيادة الأمة العربية بعد خلوه من ذلك المنافس العتيد. ناسين أو متناسين أن الجميع ما زالوا في سفينة واحدة. وأن الموجة القادمة – إذا لم نحسن الاستعداد لها – سوف لا تبقى منا ولا تذر.

والبعض يرى في كامب دافيد نهاية "سـعيدة" للصـراع مـع إسرائيل. كما لو كان صراعا مصريا – إسـرائيليا خالصـا يمكن أن ينتهي باتفاق يبرمه الطرفان المتصارعان مهملـين بذلك حقيقة أن مصر جزء من العالم العربي ومهملين كـذلك حقيقة العلاقة الوثيقة المتشابكة بين إسرائيل الولايات المتحدة الأمريكية. ومهملين في نهاية الأمر أن الصراع المصري – الإسرائيلي لا يعدو أن يكون جزءا من الصراع العربـي – الإسرائيلي الذي لا يعدو بدوره أن يكون جزءا من صراعات القوى الكبرى على المنطقة. والبعض لا يكاد يرى فيها شيئًا له دلالة، مجرد خيانة عابرة، سرعان ما تمضـي وتنـدثر آثارها. متجاهلين كل ما خلقته كامب دافيد، من واقع جديـد، الخاسر هو من يغمض عينيه عنه محاولاً العودة بالعجلة إلى الوراء.

والبعض – ونحن منهم – يرى في كامب دافيـد بدايـة لمرحلة جديدة من مراحل الصراع العربـي – الإسـرائيلي. مرحلة تختلف اختلافا جوهريا عن مراحل الصراع السـابقة بقدر ما هي امتداد جدلي لتلـك المراحـل. ويتمثـل هـذا الاختلاف الجوهري في بروز إمكانيـة جديـدة لاكتسـاب

الصراع طابعا جماهيريا حواريا، بعد أن كان قاصرا أو يكاد على الطابع السلطوي العسكري. والاستثناء الوحيد في هـذا الصدد هم"الفلسطينيون" فقد كان دورهم في الصـراع ومنـذ البداية، وبحكم ظروف تاريخية عديدة يتسم بحتميـة تواجـد الطابع الجماهيري الحواري إلى جانب الطـابع العسـكري السلطوي.

الطابع الجماهيري للصراع:

إننا لا نقصد باكتساب الصراع طابعا جماهيريا، مجرد إعلام"الجمهور بمجرياتـه وتاريخـه"، و"توعيتـه" بأبعـاده وتطوراتها. ولا نقصد به فحسب"ضرورة السـعي للتعـرف الموضوعي على رؤية الجماهير لطبيعة الصراع". بـل ولا حتى مجرد إشراك الجمهور في مناقشـة الأمـور المتعلقـة بالصراع، فكل ذلك رغم ضرورته ووجاهته لا يعني حتـى في حالة ممارسته على الوجه الأكمل واستجابة الجمهور لكل ذلك استجابة كاملة. لا يعني أن الصراع قد توافر له الطـابع الجماهيري بالمعنى الذي نقصده.

إن"الجماهيرية" التي نعنيها إنمـا هـي إفـراز حتمـي لظروف اجتماعية تاريخية محددة. ويقتصر دور النخبة فـي

هذا الصدد على دفع هذا الطابع الجماهيري والإسراع به أو السعي إلى قمعه وإعاقته. ولكنها لا تستطيع بحال أن تضفي ثوب الجماهيرية على مالا تتوافر له شروطها. كما أنهـا لا تستطيع أن تنزع هذا الثوب عن صراع توافرت له شـروط الجماهيرية.

إن جوهر"الجماهيرية" يتمثل في إقدام الجماهير بشـكل حر وتلقائي على ممارسة دور لها في الصراع. ولا يتحقـق مثل هذا الإقدام إلا بتوافر شرطان متكاملان:-

أولاً:

أن يكون موضوع الصراع من تلك الموضوعات التـي تفرض نفسها بحكم طبيعتهـا علـى الممارسـات اليوميـة للجماهير وذلك بحيث تكون الممارسة اليومية المعتادة لكـل فرد هي في حد ذاتها تعبيرا عن موقف اختاره بالفعل تجـاه هذا الصراع. ومن ثم تصبح جماهيرية الموضوع نابعة مـن داخله وليست منحة سلطوية يملك مانحها أن يمنعها. ولعـل ذلك الطابع المميز لهذه الخاصية هو ما يصعب مـن مهمـة النخبة أو السلطة إذا ما استهدفت إعاقة الطابع الجمـاهيري

للصراع. وفي نفس الوقت فإنه ييسر عليها تلك المهمة إذا ما استهدفت الدفع به إلى الأمام.

والأمثلة التي توضح مدى تمايز وتكامل هذين الشرطين عديدة متنوعة. ويكفي أن نشير علـى سـبيل المثـال إلـى نموذجين انتشار الأسلحة النووية لا يمس مصالح الجمـاهير فحسب، بل إنه يهدد وجودها أصلاً. ولكنـه رغـم ذلـك لا يفرض نفسه بحكم طبيعته على الممارسات اليومية المعتـادة للأفراد. ولذلك فإن إضفاء الطابع الجماهيري عليـه رغـم ضرورة ذلك ليس بالمهمة اليسيرة، أمـا موضـوع "الفتنـة الطائفية" مثلاً فإلى جانب أنه يمس مشاعر تلـك الجمـاهير، فإنه يفرض نفسه بحكم طبيعته علـى الممارسـات اليوميـة للأفراد، حتى أنه قد يشمل اختياراتهم لنوعية ما يرتدون من ملابس، ونوعية ما يستخدمون من تعبيرات لفظية... إلخ.

الطابع الحواري للصراع:

أما الطابع الحواري للصراع فإنه الوجه الآخر لطابعـه الجماهيري الذي تحدثنا عنه. ونحن لا نعني بالحوار في هذا السياق ذلك الحوار النخبوي الذي تشهده أروقة الأمم المتحدة ودهاليزها أيضا. أو كذلك الذي تشهده أروقة الأمم المتحـدة

ودهاليزها أيضا. أو كذلك الذي نشهده أحيانًا ويغيـب عنـا كثيرا بين قيـادات التنظيمـات السياسـية المتصـارعة أو المتحالفة أو كذلك الذي نسمع أصداءه وقد نرى بعضا مـن نتائجه خارج قاعات التفاوض ولقاءات القمم.. إلـى آخـره فتلك الحوارات جميعا، ورغم أهميتها البالغة. وضـرورتها الملحة في كثير من الأحيان، إنما تتسم بخاصيتين تبعـدانها عما نقصده:

الخاصية الأولى:

إن تلك الحوارات بحكم انتماء أصحابها إلى النخبة إنما تنعقد وتنفض بقرارات سلطوية.

الخاصية الثانية:

أن الجانب الأكبر والأهم من سياق مثل تلك الحـوارات يتم غالبا وبحكم الضرورة في غرف مغلقـة حيـث يتـولى المتخصصون مهام الإعداد لتلك اللقاءات، وإدارتها وصياغة نتائجها.

إن ما نقصده بالطابع الحواري للصراع هو أن تطـرح مجريات الصراع في سياق تاريخي معين إمكانية الحوار بين جماهير الأطراف المتصارعة. وتتسع هذه الإمكانية وتضيق

وفقًا لحجم التواجد المكاني المشترك لجماهير تلك الأطـراف المتصارعة.

ولابد لنا هنا من تفرقة واضحة بين تعبيـري"الحـوار" و"التعاون" فكثيرا ما يختلط أمرهما على الـبعض. الحـوار خاصية إنسانية عرفها الإنسان حتى قبـل أن يعـرف لغتـه المنطوقة حيث كان تبادل الأفكـار – أي الحـوار – يتخـذ صورا غير لغوية شتى. ومنذ بدء الخليقة وحتى الآن ما زال البشر يتحاورون عبر كافة وسائل الاتصال المتاحة. الجميـع يحاورون الجميع. ولكن هناك حوار، وحوار. نحن نحـاور الأصدقاء لكي نشد أزر بعضنا البعض، ولكي يدعم كل منـا الآخر. ولكن نتعلم منهم ونعلمهم. ونحن نحاور أيضا غيـر المصنفين ممن لا نعرف آراءهم على وجه التحديد، ذلك لكي نتبين مواقفهم. محاولين استمالتهم إلى جانبنا. ونحن كـذلك نحاور الخصوم بهدف فرز الأصدقاء المحتملين مـن بـين صفوفهم، فضلاً عن إضعاف الحجج التي يستخدمونها ومـن ثم الحد من تأثيرها بين صفوفنا نحن. أهـداف الحـوار إذن تتباين: هناك حوار تعاوني، وهناك حوار صراعي، وهنـاك حوار تصنيفي. والفوارق بين هذه الأنواع من الحوار غنيـة

عن البيان. بل لعل شيئًا لا يربط بينها سوى استخدامها جميعا لوسائل الاتصال المتاحة.

ونخلص من ذلك إلى أن الحوار مع الآخر أيا كـان لا يعني بالضرورة تعاونًا معه ولا حتى قبولاً بوجوده بصورته وبأفكاره الراهنة.. وغلا لما كان هناك حـوار مـثلاً بـين المتدينين والملحدين عبر التاريخ. أو بين العمال وأصـحاب الأعمال. ومن ناحية أخرى فإن الحوار مع الآخر مهما بلـغ هذا الحوار من الحرارة والصدق لا يعني بالضرورة تسـليم أي من طرفي الحوار بأن حوارهما يمكن أن يكـون نهايـة لتصارعهما فالأمر يتوقف في النهاية على طبيعة موضـوع الحوار.

إن الطابع الجماهيري للصراع لا يسـتبعد بحـال دور السلطة أو النخبة في محاولة إدارة مجرياتـه وفقًـا لرؤاهـا ومصالحها وكذلك فإن الطابع الحواري لا ينفي بحال الـدور الحاسم للقوى المادية في تحديد مساره طالما كان موضـوع الصراع اجتماعي اقتصادي في جوهره. بل لعلنا لا نجـاوز الحقيقة كثيرا إذا ما أكدنا أن ليس ثمة وجود واقعي لما يمكن أن يسمى بالصراع الفكري"الخالص" بين القوى الاجتماعيـة

التاريخية. وتكامل الأوجه الأربعة"للعملية" الصراعية هو ما ينبغي السعي إلى بلوغه والحرص على تطويره. فطغيان الطابع الجماهيري وحده يفقد العملية الصراعية إمكانيات التنظيم وشمولية النظرة ويؤدي إلى الإبطاء في حسم الصراع حسما نهائيا. كذلك فإن طغيان الطابع السلطوي – مهما كانت ثورية السلطة – يفقد العملية الصراعية إمكانية الاستمرار وواقعية النظرة، وقد يؤدي إلى إجهاض العملية الصراعية تماما بتمكين الطرف الآخر من تحقيق أهدافه. وكذلك الحال بالنسبة لتكامل الدور الحواري مع دور القوى المادية في العملية الصراعية. فالمحاور الذي لا يأخذ في اعتباره طبيعة موازين القوى المادية مهما كان الحق في جانبه ومهما كانت براعة حجته، مآله في النهاية إلى اليأس والاستسلام. وكذلك فإن المقاتل الذي يسقط الحوار من ترسانة أسلحته، مهما كانت موازين القوى في صالحه، إنما يحكم على معركته بالفشل على المدى البعيد.

الفلسطينيون.. والجماهيرية.. والحوار

لقد كان الدور الفلسطيني في الصـراع – ومـا زال – أقرب الأدوار إلى التكامل الرباعي المنشـود بـين القتـال والحوار والجماهير والقيادة، وذلك بحكم الظروف التاريخية للصراع العربي – الإسرائيلي – وإن كان التكامل التام بـين تلك الأوجه جميعا أمر يفوق طاقـة البشـر بعامـة ولـيس الفلسطينيون وحدهم. ويعنينا في هذا الصدد إبـراز أمـرين يؤكدان ما سبق أن ذهبنا إليه:

الأول:

إن الطابع الجماهيري لم يكن نتيجة قرار فوقي اتخذتـه القيادة الفلسطينية، بل أنه أمر اقتضته طبيعة الصراع فلـيس ثمة فرد فلسطيني يستطيع – حتى ولو اختار وحـاول – أن ينأى بوعيه وبممارسته اليومية عن هذا الصراع. إنه مطالب دائما باتخاذ موقف ما في هذا الصدد بصرف النظـر عـن مضمون هذا الموقف سلبا أو إيجابا. ويرجع"الفضل" في ذلك إلى طبيعة الاحتلال الإسرائيلي الاستيطاني التـي أدت إلـى الشتات الفلسطيني كما أدت من ناحية أخرى إلى تبلور القيادة

الفلسطينية ومؤسساتها خارج الأرض الفلسطينية، بل وخارج التواجد المكاني لقطاع كبير من الشعب الفلسطيني. ومن ثـم فإن القرار القيادي الفلسطيني. لا يستمد شـرعيته بالدرجـة الأولى من دستورية الهيئة التي أصدرته، بل من مدى صدق تعبيره عن الشعب الفلسطيني. كذلك فـإن القـرار القيـادي الفلسطيني. لا يستمد قدرته على الإلزام من القوة السـلطوية التنفيذية للهيئة التي أصدرته. بل من مدى إقتناع الجمـاهير الفلسطينية به. إن منظمة التحرير الفلسطينية تملك أن تتخـذ قرارا ولكنها لا تملك أن تجبر فلسطينيا في عكا أو نابلس أو غزة على الخروج في مظاهرة مثلاً كما أنهـا لا تملـك أن تعاقب فلسطينيا خرج على قرار لها في يافـا أو القـدس أو رفح بأن تسجنه أو تسحب جواز سفره. بل أنها توكـل إلـى جماهيرها الفلسطينية المقتنعة بقرارها أن تتولى تنفيـذه بـل وأن تتولى عقاب الخارج عليه. ومن هنا نبعت حتمية التكامل بين دوري السلطة وجماهيرها في الساحة الفلسطينية.

الثاني:

أن الطابع الحواري لم يكن كذلك نتيجة قـرار اتخذتـه القيادة الفلسطينية. بل أن القرارات التـي اتخـذتها القيـادة

الفلسطينية في هذا الصدد إنما كانت تعبيرا شجاعا ناضـجا عما اقتضته مجريات الصراع الفلسطيني الإسرائيلي ودفعـا لمجريات هذا الصراع نحو الأمـام وترجـع جـذور هـذه الضرورة إلى بداية قيام دول إسرائيل عام ١٩٤٨ حاملة في أحشائها بذور نقيضها الإستراتيجي متمثلاً فيما أطلق عليـه بعد ذلك"ظاهرة عرب ١٩٤٨" لقد حافظ."عرب ١٩٤٨" على هويتهم العربية رغم الاحتلال الإسرائيلي وما فرضه علـيهم من عزلة ومن إجراءات قمعية ولم يكن لهم أن يحققـوا مـا حققوه من نجاح مذهل في هذا الصـدد إذا مـا استسـلموا لعزلتهم وانغلقوا على أنفسهم. إنهم لم يكفـوا طـوال هـذه الأعوام الطويلة عن محاولة التحرك داخل التجمع الإسرائيلي رغم ما هو مفروض عليهم من قيود. لم يكفوا عن محاولـة التماس الثغرات التي تسمح لهم بالتعبير عن هويتهم. لم يكفوا عن التماس الأصدقاء أو حتى أشباه الأصدقاء بين صـفوف التجمع الإسرائيلي. لم يقاطعوا الإنتخابات الإسرائيلية حتـى بعد أن حالت السلطات دونهم ودون أن تكون لهـم قـائمتهم الانتخابية الخاصة فاعطوا أصواتهم لمن وجدوه الأقرب إليهم وإن لم يكن منهم. ولم يكن نجاحهم في كل ما حاولوه بالشيء

الذي يستهان به، ولم يكن الثمن الذي دفعوه بالشيء القليل. ولم يكن ذلك الثمن قاصرا على ما لاقوه ويلاقونه مع قمع إسرائيلي. بل أن الثمن الأفدح الذي يدفعونه إنما يرجع إلى عدم تفهم العرب خارج فلسطين لممارستهم تفهما واضحا خالطين في ذلك بين مفهومي"الحوار" و"التعاون". ولعل من يرى منا اليوم انتفاضاتهم في الناصرة وبير سبع وغيرهم احتجاجا على مذابح صابرا وشاتيلا في لبنان لا يصبح في حاجة على برهان على سلامة ممارستهم السابقة.

ولقد امتدت ظاهرة"عرب ١٩٤٨" لتشمل الفلسطينيين من أبناء الضفة الغربية وقطاع غزة. ومع توافر شرط التواجد المكاني الواحد لطرفي الصراع أصبحت الظاهرة أكثر إثارة لقلق السلطات الإسرائيلية. لقد استوعب الفلسطينيون في الضفة والقطاع"خبرة عرب ١٩٤٨". بسرعة فائقة ولم يقعوا في المنزلق الإسرائيلي الذي يدفعهم إلى الخلط بين"التعاون" و"الحوار". رافضين التعاون في دعم تنظيمات روابط القرى مثلاً. ولكن دون أن يكفوا لحظة – رغم اختلاف ظروفهم – عن التماس الأصدقاء والحوار معهم. وشهد العالم على سبيل المثال مظاهرات مشتركة تضم

إلى جانب الفلسطينيين يهودا إسرائيليين يحتج فيها الجميع على إغلاق جامعة بيرزيت في الضفة الغربية.

وجاء الغزو الإسرائيلي الأخير للبنان. وحوصرت بيروت وحوصرت فيها قيادة منظمة التحرير الفلسطينية. ومن قلب القتال المشتعل، ووسط سيول القنابل الإسرائيلية، يرتفع صوت أبو عمار ليحي بيانًا أصدره ثلاثة من مشاهير الحركة اليهودية هم جولدمان وفرانس وكلوتزنيك. بل تمتد يد رمز الثورة الفلسطينية لتشد على يد أورى أفنيري اليهودي الإسرائيلي في نهاية حوارهما في بيروت المحاصرة. بل ويجد أبو عمار وقتًا لحديث يدلي به للصحفي الإسرائيلي كابيلوك.

ذلك هو الحوار الذي نعنيه والذي فرضت ضرورته مجريات الثورة الفلسطينية واستوعبت قياداتها أبعاد هذه الضرورة واستجابت لها. ولسنا في حاجة بعد ذلك إلى أن نكرر أن هذا النوع من الحوار لم يكن بديلاً للقتال ولكنه كان مكملاً له بل نابعا من أحشائه.

عرب ما قبل كامب دافيد.. والصراع

كانت تلك هي أهم ملامح الدور الفلسطيني في الصراع. أما الدور العربي غير الفلسطيني فقد اتسـم بملامـح جـد مختلفة. قد تتباين بين قطر عربي وآخر. ولكنها تتفق بدرجة أو بأخرى في عدة خطوط عامة لعل أهم ما يعنينا منها فـي هذا الصدد هو تقييد حجم المعلومات المتاحة للجماهير عمـا يجري في إسرائيل. وقد كان لهذا التقييد مبرراتـه ونتائجـه على المستويين الجماهيري والسلطوي على حد سواء. أمـا مبررات هذا التقييد فقد كانت تتخذ فيما نرى الصورة التالية: أننا نواجه عدوا شرسا له جيش نظامي قوى مدجج بالسلاح. تسنده قوة دولية عظمى هي الولايات المتحـدة الأمريكيـة. وتدعمه المنظمات اليهودية في العالم بأسره. ويسـتند إلـى تاريخ طويل من التآمر والخديعة. ويتبنى فكرا معاديا أحكمت صياغته. ومن ثم فإن السبيل الوحيد للتصدي له يتمثل فـي الحرب العسكرية النظامية التي ينبغي الإعداد لها بما يتناسب مع القوة الخارقة للعدو ولمن يساندونه. ويقتضي ذلك الإعداد بطبيعة الحال ستارا كثيفًا من الانتقائية والسـرية. وإلـى أن

نستكمل إستعداداتنا للمعركة، فعلينا أن نحمي أبناء شعبنا من الدعايات المعادية. والطريقة المثلى لذلك هي أن نحول تماما دون وصول"فكر العدو" إليهم سواء كان عن طريق الإذاعات أو الجرائد أو الكتب أو الاتصال الشخصي. وامتد تعبير"فكر العدو" واتسع ليشمل غالبية ما يكتب عـن إسـرائيل بـأقلام غربية (ومن أدراننا أن تلك الكتابات ليست جزءا من المخطط الإسرائيلي العالمي!!) بل وليشمل هذا الخطر أيضا غالبية ما يكتب في الخارج عن اليهـود (مـا الفـرق بـين اليهـود والإسرائيليين!!). وهكذا اختلط كـل شـيء بكـل شـيء. وضاعت الحدود بين"الفكر" و"المعلومات" وبـين"اليهـود" و" الإسرائيليين" ولكنها لم تضع أبدا بين السلطة والجماهير. بل على العكس فقد تمايزت الأدوار بينهمـا تمامـا. فللسـلطة ولنخبتها المنتقاة حق الحرب (على مستوى اتخـاذ قـرارات الحرب النظامية). وحق المعرفة (علـى مسـتوى أجهـزة الاستخبارات وغيرها). وكلاهما وجهان لعملة واحـدة. أمـا الجماهير فمحرومة من كلاهما. فهي محرومة من حقها فـي ممارسة الحرب(سواء على مستوى اتخاذ القـرار أو علـى مستوى ممارسة الحرب الشعبية). ومحرومة كذلك من حقها

في معرفة عدوها. ولم يترك للجماهير في هذا الصدد سـوى حق"التأييد" تأييد ما تتخذه السلطة ونخبتها من قرارات بشـأن مواجهة"العدو" ومن ثم فقد استقر في وعي قطاعات عريضة من الجماهير أنه ما من سبيل لمواجهة إسرائيل إلا بالقتـال العسكري المنظم. والقتال كما نعلم جميعا فرض كفاية. يقـع على عاتق فريق من أبناء الأمـة دون غيـرهم باعتبـارهم الأقدر عليه والأكثر تأهيلاً له. وليس معقولاً أن يكلـف بـه أبناء الأمة جميعا. وكان طبيعيا أن يجري على المعرفة مـا جرى على القتال. بمعنى أن تتحول هي أيضا – وهذا هـو أخطر ما في الأمر – إلى فرض كفاية. أمر ضروري نعـم. ولكن له أصحابه من أهـل الاختصـاص الـذين يقومـون بالمعرفة عوضا عنا.

ولم يعد ثمة ما يثقل كاهل الجماهير في الأمر كله"اللهم إلا أنهم وقود الحرب!!". أما فيما عدا ذلك فرجـال السـلطة كفيلون بحمايتهم تماما. يحمونهم من وقوع أعينهم على سلعة إسرائيلية. ومن تسلل شخص إسرائيلي أيا كان إلى صفوفهم. ومن تسرب كتاب أو مقال من إسرائيل أو عن إسرائيل إلـى عقولهم. ومن وصول الإذاعة الإسرائيلية إلى آذانهم. وهكذا

ظلت الجماهير حماسها متأجج لمواجهة إسـرائيل وأجهـزة الإعلام تزيد ذلك الحماس إشتعالاً. ومعرفتها تكـاد تكـون صفرا بما يجري في إسرائيل وأجهزة السلطة تضـيف إلـى جهلها تضليلاً إلى أن وقعت قارعة ١٩٦٧. وأيقظت القارعة جماهيرا عريضة أصبحت بين يوم وليلـة لا تتوقـف عـن السؤال"لماذا"؟. لماذا حدث ما حدث؟ ولم يكن ممكنا لأحد أن يجيب عن السؤال الملح – أيا كانت وجهة نظره – إلا إذا ما أحاط إجابته بقدر من التعريـف بإسـرائيل والإسـرائيليين. وهكذا تفجرت حاجة الجماهير للمعرفة. ولم يكن بد مـن أن يفتح الباب بحذر شديد لتلبية هذه الحاجـة. ولسـنا بصـدد التعرض بنقد أو بتصنيف لتلك المحاولات. فلـذلك موضـع آخر. كل ما يعنينا في هذا الصدد هو أن نسجل تدفق قدر من المعلومات عن إسرائيل على العقل العربي. وأن نسجل أيضا أن هذا القدر المحدود قد ظل في الجانب الأكبر منـه يخلـط وبشكل أكثر إصرارا بين اليهوديـة والصـهيونية. ويـدمج الإسرائيليين بالصهاينة. وخلاصة القول أن شيئًا أساسيا لـم يتغير في ديناميات الدور العربـي غيـر الفلسـطيني فـي الصراع. وظللنا جميعا ندور في فلـك السياسـة الشـهيرة

المرسومة: اللاحرب واللاسلم. حتى بدأت مقـدمات عصـر كامب دافيد في إتيان ثمارها.

مقدمات عصر كامب دافيد

لم يبدأ عصر كامب دافيد في ساعة محددة من يوم ٢٥ أبريل عام ١٩٨٢ حين انسحب آخر جندي إسـرائيلي مـن أرض سيناء المصرية حاملاً معه علمه وذكرياته. ولم يبـدأ هذا العصر في سبتمبر ١٩٧٨، حين تم توقيع معاهدة كامب دافيد، ولا في ٥ سبتمبر ١٩٧٨ حين بدأت محادثات كامـب دافيد. بل إن البداية التاريخية لم تكن يوم ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ حين حطت طائرة رئيس جمهورية مصر العربية في مطـار بن جوريون الإسرائيلي. أن عصر كامب دافيد لم يبدأ بفكرة إنبثقت فجأة في ذهن رئيس مصـر الراحـل محمـد أنـور السادات. بل أن لهذا العصر مقـدمات تضـرب بجـذورها القديمة إلى بواكير قيام دولة إسرائيل في ١٥ مـايو ١٩٤٨. كما أن بشائرها القريبة تبدأ فيما نرى مع مطلع عـام ١٩٦٥ حين بدأت البذور الأولى لتخلخل سياسة اللاسلم واللاحرب.

أ- المقدمة الأولى: يناير الفلسطيني:

مع نهاية آخر ليالي ديسمبر عام ١٩٦٤ وبزوغ فجـر الأول من يناير ١٩٦٥ شهدت المنطقة العربية أول عمليـة

عسكرية يقوم بها الفلسطينيون عبر الحدود الإسرائيلية. وقد كانت عملية متواضعة بالمقاييس العسكرية سواء من حيث عدد المشاركين فيها أو حجم ما نجم عنها من خسائر على الجانب الإسرائيلي. ولكن أخطر دلالاتها التاريخية قد تمثل في كونها تجسيد عملي لقيام منظمة فتح. وقد كان ذلك فيما نرى بمثابة الخطوة الأولى على طريق كسر سياسة اللا حرب واللا سلم. كيف؟

(١) لقد كان الغطاء الأيديولوجي الفلسطيني بل والعربي لسياسة اللا حرب واللا سلم يتمثل أنذاك في فكرة أساسية هي"الوحدة العربية طريق تحرير فلسطين". ومن خلال رواج هذه الفكرة والترويج لها أصبح هم الأمة العربية الأساسي وشاغلها الأكبر هو الوحدة وكيف تتم؟ وما هو شكلها النهائي؟ اندماجية أم فيدرالية أم كونفدرالية؟ وما هو مضمونها؟ هل الاشتراكية شرط لها؟ أم هي الشرط للاشتراكية؟ ومن يرأس من داخل دولة الوحدة المرتقبة؟ وأنك العقل العربي نفسه في حل تلك المعضلات الفكرية العويصة. وأصبح العدو الرئيسي للثورة العربية هم أعداء الوحدة العربية الذين

ينبغي الإطاحة بهم أولاً للبدء في تحرير فلسطين. وبدا للبعض أن أخطر هؤلاء الأعداء إنما هم أولئك العرب من الاشتراكيين والماركسيين الأمميين وأنه لابد مـن استئصال شأفتهم لينفتح الطريق أمـام وحـدة عربيـة صحيحة وشاملة. وبدا للبعض الآخر أن أخطر هؤلاء الأعداء إنما هـو أولئـك العـرب مـن"الـرجعيين" و"اليمينيين" وعملاء الاستعمار، وأنه لابد من القضـاء عليهم أولاً ليمضي ركب الوحدة دون عائق. ولم يضيع أحد وقته فشرع كل طرف أقلامه بل وأسلحته للقضاء على الطرف العربي الآخـر. وتراكمـت الأولويـات لتسـبق"فلسـطين" بـدعوى أنهـا جميعـا شـروط لتحريرها"في النهاية". وراح الفلسطينيون في خضم تلك التيارات يفتشون بين المدن العربية عن عاصمة تصلح لتكون هانوي العرب. وجاءت واقعـة ينـاير ١٩٦٥ لتضع حدا لهذا الضياع مجسدة شعارا جديدا هو"تحرير فلسطين طريق الوحدة" محدثة بذلك شرخًا عميقًا فـي الغطاء الفكري لسياسة اللا سلم واللا حرب.

(٢) لقد اعتمدت سياسة اللا سلم واللا حرب علـى مقولـة مؤداها أن الحرب النظامية هي السبيل الوحيد لتحرير فلسطين. وأن أية محاولة لممارسة حرب غير نظاميـة في هذا الصدد لا يمكن أن يستفيد منهـا إلا الجانـب الإسرائيلي كمبـرر لإجهـاض المحـاولات العربيـة الدائبة"لتشكيل الجيوش العربية النظامية". كما أن تلـك المحاولات لا يمكن أن تؤدي إلى شيء على الإطـلاق نظرا لجبروت الوجود الإسرائيلي وإستحالة اختراقـه بأية عمليات محدودة ومغامرة. وجاءت عمليـة ينـاير ١٩٦٥ لتمثل الرد العملي على هذه المقولة: ثمة نـوع آخر من الحرب يمكن ممارسته في مواجهة إسـرائيل. حرب لا تشترط بالضرورة موافقـة والتـزام القـوى العظمى الموردة للسلاح الثقيل ولا تشترط بالضـرورة إعتماد المليارات لشراء الطائرات وإنشاء المطـارات. حرب لا تعتمد نتائجها في المقـام الأول علـى القـوة العسكرية. حرب يمكن أن تحاول الخروج ولو بدرجة محدودة عن نطاق اتفاق إرادات القـوى علـى تبنـي سياسة اللا حرب واللا سلم.

وكان طبيعيا والأمر كذلك أن تنهال الهجمات من كل صوب على تلك النبتة الصغيرة، فحماة سياسة اللاحرب واللاسلم لم يغفلوا عن دلالة ما يجري رغم صغر حجمه. ولم تكن تلك الهجمات بالشيء الهين. فأصحاب سياسة اللاحرب واللاسلم عتاة أقوياء ولهم ترسانة لا تنضب من الأسلحة ومن الأفكار. ولم تمض سوى عدة أيام من الصمت المذهب حتى إنهالت سيول الهجوم من كل صوب. فأصحاب عملية يناير ١٩٦٥ لا يمكن أن يكونوا في نظر البعض إلا إخوانًا مسلمين متعصبين. ولا يمكن أن يكونوا في نظر البعض إلا عملاء للاستعمار والصهيونية. وصنفهم البعض ضمن"عملاء" الناصرية، أو وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. أو الشيوعية الدولية. وأنهم في النهاية أعداء للحركة الوطنية الفلسطينية. وكان منطقيا والأمر كذلك أن تجمع الأطراف العربية المعنية جميعا على ضرورة قمع تلك النشاطات المشبوهة"لعدم إعطاء إسرائيل ذريعة لمهاجمة البلدان العربية" وسرعان ما وضعت تلك الضرورة موضع التنفيذ الفعلي وسقط الشهيد أحمد موسى أول شهداء فتح خلال عودته من عملية فدائية داخل حدود إسرائيل. وتوالي

بعده الشهداء الفلسطينيون يدفعون للقوى العظمى من دمائهم ثمن محاولة استقلال القرار الفلسـطيني، ومحاولـة كسـر حصاب اللا حرب اللا سلم بالسعي إلى ممارسـة الحـرب والحوار معا. وعلى الطريق من الشهيد أحمد موسى (الأردن ١٩٦٥) إلى الشهيد سعد صايل (لبنان ١٩٨٣). سقط الآلاف من الشهداء ومازالت القائمة مفتوحة ما لم يسلم الفلسطينيون بما هو مطلوب منهم ومن كافة دول المنطقة الالتزام الـدقيق بسياسة اللاحرب اللاسلم.

ب- المقدمة الثانية: أكتوب المصري:

شهدت ظهيرة السادس من أكتوبر عـام ١٩٧٣ بدايـة جولة جديدة من جولات الصراع العربي الإسرائيلي. جولـة تميزت كيفيا عن بقية الجولات السابقة، لـيس مـن حيـث نتيجتها العسكرية فحسب. بل – وهو الأهـم – مـن حيـث دلالتها الإستراتيجية وما تعنيه من كسر لسياسة اللا حـرب اللا سلم. وقد تمثلت تلك الدلالة فيما نرى في أمرين:

(١) لقد اعتمدت سياسة اللا حرب اللا سلم كمـا سـبق أن أشرنا في أكثر من موضع على ترسيخ فكرة"إسـرائيل التي لا تقهر" ولم يأل أصحاب تلك السياسة جهدا فـي

سبيل ترسيخ تلـك الفكـرة وإبـراز أن يـد الجـيش الإسرائيلي تطول كل سنتيمتر علـى إتسـاع الأرض العربية عامة والمصرية خاصة. فالعربدة الإسـرائيلية من السويس إلى أبي زعبل. ومن بحر البقر إلى نجـع حمادي. ومن دير ياسين إلى قبية إلى خان يونس إلـى غزة. وهي القاعدة المطلقة الصحيحة التي لا ينبغي أن تغيب أن تغيب أبدا عن العقل العربي. وما عدا ذلـك من نقاط مضيئة متناثرة ليسـت سـوى الاسـتثناءات العابرة التي لا تعني شيئًا إلا تأكيـد وجـود القاعـدة. وجاءت حرب أكتوبر لتهدم تلك القاعدة التي حرصـوا على بنائها في العقـل العربـي لقـد أجبـر الجـيش الإسرائيلي للمرة الأولى في تاريخه على التراجع تحت الضغط العسكري عن أرض سبق أن أحتلهـا بـالقوة المسلحة. ولم يكن ذلك التراجع بالأمر الـذي يمكـن إخفاؤه أون الحيلولة دون انطباعه في أعمـق أعمـاق العقل العربي. فلقد شهدت عيون مائة مليـون عربـي حصون خط بارليف وقد دكت. وشهدت تلك العيـون جنود مصر من أبناء الفلاحين الذين شوهت سـمعتهم

الحضارية قبل العسكرية يعبرون قناة السويس مجبرين جنود ذلك الجيش الذي لا يقهر على الفـرار أو رفـع الأعلام البيضاء.

(٢) لقد تمثلت سياسة اللا حرب اللا سـلم علـى الصـعيد العملي في الحيلولة دون الحرب التضخيم من أعبائهـا والتهويل من نتائجها ثم اتهام من يلتمس لـه مخرجـا بالمغامرة وعدم المسئولية. ويتمثل الوجه الآخر لسياسة اللا حرب اللا سلم على الصعيد العملـي أيضـا فـي الحيلولة دون السلام بالتضخيم من سلبياته والتهويل من نتائجه ثم إتهام من يلتمس له مخرجا بالخيانة والعمالـة والاستسلام. وإذا كان يوم السادس من أكتـوبر ١٩٧٣ قد شهد تخلخلاً للوجه الأول من وجهـي عملـة الـلا حرب اللا سلم. فقد شهد يوم السادس عشر من نفـس الشهر بداية تخلخل وجهها الثاني حين أعلن الـرئيس الراحل محمد أنور السادات في خطاب له أمام مجلـس الأمة المصري أنه مستعد لحضور مؤتمر سلام دولي بإشراف الأمم المتحدة لضـمان سـلام دول المنطقـة جميعا. خلاصة القول أن الدلالة الثانية لحرب أكتـوبر

قد تمثلت في تجسيدها للتكامـل بـين هـذه الحـرب والإمكانية الموضوعية لحوار متعـادل مـع الطـرف الآخر.

لقد كانت حرب أكتوبر بوجهيها تمثل أقصى حـد مـن الخطورة والتهديد لسياسة اللا حرب اللا سلم. ولـم يسـتطع صناع هذه السياسة التزام الصمت أو السكون. بل أنه لم يعد في طاقتهم الالتزام بلعبتهم المفضلة"تحريك الخيوط من بعيد" وأسفرت تلك القوى العاتيـة عـن وجههـا خـلال الثغـرة الأمريكية الإسرائيلية أو عمليـة العبـور المضـاد للجـيش الإسرائيلي. أما على المستوى الفكري فقد انهالـت سـيول الهجوم من كل صوب محاولة تشويه ما جرى فـي أكتـوبر فهو ليس إلا تمثيلية لا معنى لهـا. أو مـؤامرة إسـرائيلية أمريكية مصرية. بل لقد بلغ الأمر إلى حد وصف كـل مـا جرى باعتباره حل في الإطار الإمبريالي. ويكفينـا هنـا أن نقارن بين الهجوم على ما جرى في ينـاير ١٩٦٥. وبـين الهجوم على ما جرى في أكتوبر ١٩٧٣، لنكشف تشابها بل تطابقًا مريبا بين الهجومين: محاولات التحجيم والتهوين من شأن ما جرى هي بعينها. ومحاولات أحتوائه هـي بعينهـا

أيضا. بل وحتى الاتهامات الموجهة لأصحابه تكاد أن تكون هي بنصها بل وتكاد أن تكون مرتدية نفس الثوب"الثـوري" المهلهل.

كامب دافيد والإمكانيات الجماهيرية

لم يكن التوقيع على معاهدة كامب دافيد قرارا بإغلاق ملف قضية الصراع العربي الإسرائيلي. ولم يكن حكما نهائيا فيها. بل كان – فيما نرى – قرارا بإحالة القضية برمتها إلى الجماهير. وسوف نحاول هنا ألا نقف طويلاً أمام نوايا من وضعوا توقيعهم على المعاهدة وما كان يدور في أذهانهم آنذاك. ولن نحاول حتى أن نبحث في مبرراتهم للتوقيع عليها. ولا في دوافعهم الحقيقية لهذا التوقيع كلها أمور هامة دون شك وجديرة بكل اهتمام. ولكن الأهم منها والأجدر بالدراسة في رأينا هو تأثير ما جرى على الجماهير العربية ودورها في الصراع العربي الإسرائيلي. لقد كان الدور العربي في الصراع يتميز – كما سبق أن أشرنا – بغلبة الطابع السلطوي العسكري على الطابع الجماهيري الحواري. وجاءت كامب دافيد لتوفر إمكانية – بل لتخلق ضرورة – تصاعد الطابع الجماهيري الحواري تصاعدا جوهريا مقتربا بذلك من التكامل مع الطابع العسكري السلطوي. ولعلنا نستطيع في هذا الصدد أن نسوق الإيجابيات التالية:

أولاً:

لقد بدأ تهاوى المشجب الإسرائيلي التقليدي القديم الـذي استخدمته قوى القهر والظلام في عالمنـا العربـي طـويلاً، فاتقنت استخدامه أيما إتقان. كان لأي حاكم عربي كائنًا مـن كان أن يرفع عقيرته بالعداء لإسرائيل ليكتسب صفة الثورية وليصبح له أن يعسف بمن يشاء وقتما يريد وكيفمـا يريـد ملتحفًا بالعباءة الثورية الفلسطينية متهما كل من يجرؤ علـى نقده بخيانة القضية المقدسة قضية فلسطين. ولـم لا ألـيس كغيره معاديا لإسرائيل، داعاي إلى تحريرها صارخًا باسـم فلسطين وعروبتها. وظل الأمر هكذا حتى وضـع السـادات توقيعه على معاهدة كامب دافيد. موقعا بذلك علـى رسـالة ضمنية مؤداها إعلان بداية النهايـة الموضـوعية لعصـر المشجب الإسرائيلي ولقد وصلت الرسالة علـى أصـحابها وفهموا محتواها وكان ردهم عليها – وما زال – عنيفًا بـالغ العنف.

ثانيًا:

لقد أصبحت إسرائيل للمرة الأولى في تاريخ الصـراع العربي الإسرائيلي في متناول أيدي أكثر من نصف جماهير

الأمة العربية أي في متناول جماهير الشعب العربي المصري والفلسطيني وقد كان الأمر قبل ذلك قاصرا على الشعب العربي الفلسطيني وحده. فلقد أصبح الصراع العربي الإسرائيلي يفرض نفسه على الحياة اليومية المعاشة لجماهير الشعب المصري بقدر حجم التواجد الإسرائيلي في مصر. لقد أصبح في متناول المصريين سلعا إسرائيلية. وسفارة إسرائيلية. بل وبشرا إسرائيليين. وأصبح على رجل الشارع في مصر أن يحدد له موقفًا من هذا كله على المستوى الفردي. هل يقبل شخصيا أن يشتري سلعة إسرائيلية؟ هل يوافق على السكن في شقة مجاورة لشقة يسكنها إسرائيليون؟ هل يقبل السفر إلى إسرائيل لو كان ثمة مبرر لذلك؟. وبعبارة أخرى فقد اكتسب الصراع على الساحة المصرية إمكانية أن يكون صراعا جماهيريا. وأصبح واردا للمرة الأولى في مصر أن يرتفع شعار يدعو الجماهير إلى مقاطعة المنتجات الإسرائيلية إلى جانب أصوات تدعو الجماهير ولو بشكل غير مباشر إلى إدانة هذا الشعار. وإذا كان لذلك من معنى فإنه يعني أن الجماهير قد أصبحت للمرة الأولى هي صاحبة القضية على مستوى الفعل والممارسة.

ثالثًا:

أصبحت هناك إمكانية موضوعية للحوار المباشر بين الإسرائيليين والمصريين سواء في الشارع المصري أو في الشارع الإسرائيلي. وأصبح للمصري إذا ما التقى بإسرائيلي أن يستثمر هذه الإمكانية لو شاء. وبطبيعة الحال فإن النطاق الموضوعي لهذه الإمكانية محدود بحجم التواجد البشري المكاني المشترك لطرفي الصراع وهو حجم بالغ الضآلة إذا ما قورن بنظيره على الساحة الفلسطينية. ولكن تواجده أمر بالغ الدلالة أيضا وهو ما سيرد تفصيله فيما بعد.

رابعًا:

أصبحت هناك إمكانية موضوعية لتبلور الصراعات في الشارع الإسرائيلي بعد أن كانت الحرب تمثل عنصر التوحيد الرئيسي لهذا الشارع. صحيح أنه كان ثمة اتجاهات سلامية بل وحتى معادية للصهيونية داخل صفوف هذا التجمع منذ بدء تكوينه. ولكن تلك الاتجاهات لم تتخطى كثيرا حدود قطاع ضئيل داخل النخبة الإسرائيلية. وجاءت كامب دافيد لتخلق إمكانية جديدة لتحول تلك الاتجاهات إلى تيار جماهيري.

خامساً:

أتاحت كامب دافيد للجماهير العربية إمكانيـة التعـرف الموضوعي المباشر على ما يجري في الساحة الإسـرائيلية. ومن ثم أصبح ممكنًا تحويل صورة إسرائيل مـن المسـتوى الزائف الأسطوري الذي تحدثنا عنه في البداية إلى مسـتوى واقعي يضع كل شيء في حجمه الصحيح. ويصدق ذلك على الأفراد الإسرائيليين وعلى البضائع والتكنولوجيا الإسـرائيلية على حد سواء أصبح ممكنًا للمواطن العربي أن يرى بعينيه قيام المظاهرات في مواجهة السلطة الإسـرائيلية وأن يـرى بعينيه أيضا كيف تواجه تلك السلطة المتظـاهرين العـرب بالرصاص في نابلس العربية. وكيف تواجـه المتظـاهرين اليهود بالحوار ثم بالأيدي العارية في ميت ياميـت قبـل أن تستعيدها مصر. أصبح ممكنا لهذا المواطن أن يرى مباشرة أكثر من نموذج للصراع بين الدين والدولة وبين رجال الدين الإشكنازيم ورجال الدين السفارديم في إسرائيل وأصبح له أن يوقن بممارسته اليومية البسيطة أن السلعة الإسرائيلية ليست شيئًا خرافيا خاصة إذا ما قورنت بالسلع اليابانية أو الألمانية أو الأمريكية وجميعها متوافر في الأسواق العربية جميعـا.

والأهم من ذلك كله أنه قد أصبح ممكنًا لمواطننا أن يسـقط بنفسه تلك الغلالة الأسـطورية التـي حرصـت الـدعايات الصهيونية على إضفائها على الفرد الإسرائيلي. ليكشـف أن يهود إسرائيل لا يقضون ليلهم ونهارهم باكين علـى حـائط المبكي. ولا مستعيدين لذكريات الهولوكوست وإن كان منهم من قد يفعل ذلك. لقد أصبح ممكنـا باختصـار أن تتحـول صورة"الفرد الإسرائيلي الأسطوري" إلى أفراد مـن البشـر تختلف صورهم وتتباين بل وقد تتصارع أيضا.

سادساً:

أتاحت كامب دافيد للجماهير العربية وللمرة الأولى منذ بداية الصراع إمكانية اللقاء بعرب الداخل أو عرب ١٩٤٨. وتحمل هذه الإمكانيات معان ثلاثة بالغة الخطر والدلالة فعلى الجانب الإسرائيلي تتأكد من جديد حقيقة أن الانتماء العربـي غير قابل للذوبان مهما طال الاحـتلال العسـكري وعلـى الجانب العربي يتأكد من جديد إلى جانب هذه الحقيقة أن ثمة تجسيدا ماديا ملموسا لعروبة فلسطين المحتلـة. أمـا علـى الجانب الفلسطيني فإن هذا اللقاء يتيح للمرة الأولى إمكانيـة

التواصل البشري بين عرب الداخل وبين الأمة العربية على أرضها وخارج حدود فلسطين المحتلة.

سابعًا:

أضافت كامب دافيد إمكانية موضوعية جديدة للتمـايز بين"الإسرائيليين" و"اليهود" وخاصة يهود الولايات المتحـدة الأمريكية فيما يتعلق بالموقف من الصراع. لقد كان الحرص الصهيوني على إلغاء مثل هذا التمايز يجـد سـنده القـوى في"تعرض الأمن الإسرائيلي للخطر" مشيرا إلـى مـا كـان يسمعه العالم دائما من دوى لطبول الحرب العربية القادمـة ذلك الدوي الذي كان له من الضـجيج مـا يكفـل تغطيـة الاستعدادات الإسرائيلية التي لم تنقطع للحرب تلو الأخـرى ضد العرب ولم تقتصـر تلـك الآفـاق الجديـدة للتمـايز بين"الإسرائيليين""اليهود" على مجرد تباين المواقف بدرجة أو بأخرى بين الفريقين. بل أن الأثر الأهم إنما يتمثل في رأينـا في بداية تخلخل أسطورة اللوبي اليهـودي، الـذي يصـنع السياسة الأمريكية. وإنكشاف حقيقة أن ذلك اللوبي اليهـودي إنما تصنعه وتحركه السياسة الأمريكية لخلق مبرر لتطـابق سياستها مع السياسة الإسرائيلية دائما. فمن خلال تأكيد هـذه

الأسطورة تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية أن تمضي في تبنيها ورعايتها ودعمها لإسرائيل إلى أقصى مدى وتستطيع في نفس الوقت أن تيسر لمن شاء من العرب أن يبتلع هـذه السياسة مستعينة بمقولة"أن الولايات المتحدة الأمريكية إنمـا تقدم على ما تقدم عليه تحت تأثير وضـغط ذلـك اللـوبي اليهودي الرهيب. الذي يحول دون الولايات المتحدة والتعبير عن حبها غير المحدود للعرب وللعروبة وللدول العربية.

استراتيجة السلام الهجومي

تشهد الأمة العربية في الآونة الراهنة من الوقائع والأحداث ما يؤكد أن ثمة ضرورة ملحة لتبني استراتيجية جديدة تتفق مع معطيات هذه المرحلة الجديدة من مراحل الصراع العربي الإسرائيلي مرحلة عصر ما بعد كامب دافيد وتشير هذه الوقائع والأحداث إلى أن كل شيء قد بلغ ذروته.

(١) لقد أدى الانسحاب الإسرائيلي من سيناء إلى زيادة حدة التناقض داخل صفوف التجمع الإسرائيلي. فتزايدت القوى الداعية للسلام تزايدا ملحوظًا وإن لم تصل إلى حد السيادة بطبيعة الحال. ومن ناحية أخرى فقد تزايدت حدة القوى الداعية للعنف تزايدا مخيفًا. ووصل الأمر إلى ذروته بقوى العنف والسلام على حد سواء خلال الغزو الإسرائيلي الوحشي للبنان حيث بلغت قوى العنف ذروتها في مذابح معسكري صابرا وشاتيلا الفلسطينيين كما وصلت قمة الحركة السلامية الإسرائيلية ذروتها في المظاهرات اليهودية الإسرائيلية التي اجتاحت إسرائيل والتي لم يشهدها تاريخ إسرائيل

قبل ذلك قط حيث بلغ عدد المشاركين فيها ما يقـرب من ٣٥٠ ألف يهودي إسـرائيلي أي حـوالي عشـر مجموع السكان.

(٢) إن الدعوة إلى ممارسة الحوار كجزء من اسـتراتيجية السلام الهجومي والتي بدأتها مصر بزيـارة السـادات للقدس وصلت إلى ذروتها بلقائي أبو عمار – أفنيـري أبو عمار – كابيلوك في بيـروت المحاصـرة. ومـن ناحية أخرى فإن الدعوة المقابلة لرفض الحوار والتـي بدأتها إسرائيل بإقامة دولتها ١٩٤٨ قد بلغت ذروتهـا أيضا خلال ذلك الحصار بتمسك إسرائيل بموقفها مـن رفض أي حوار مع الفلسطينيين حتى ولو كان بهـدف إخراجهم من لبنان. وإصرارهم علـى أن يـتم ذلـك التفاوض الضروري من خلال طرف ثالث بل وإدانتها لمن أقدم من الإسرائيليين أو حتى من غير الإسرائيليين على اللقاء مع منظمة التحريـر الفلسـطينية بصـرف النظر عن الهدف من هذا اللقاء.

(٣) إن التمايز بين"اليهود" و"الإسرائيليين" قد بلـغ ذروتـه أيضا خلال الحصار الإسرائيلي لبيروت وتمثلت تلـك

الذروة، في ذلك النداء المفتوح الذي حمل توقيعات جوادمان وفرانس وكلوتزنبك والذي أدان بوضوح التصرفات العسكرية الإسرائيلية. والذي استجابت له منظمة التحرير الفلسطينية بالترحيب بل وبدعوة الموقعين الثلاثة إلى الإلتقاء بقادة المنظمة. ومن ناحية أخرى فقد بلغ الخلط بين"اليهود" و"الإسرائيليين" ذروته أيضا متجسدة في الهجوم المسلح على معبد يهودي في روما (١٩٨٢/١٠/٩) راح ضحيته مجموعة من اليهود الأوروبيين.

والسؤال الآن هو كيف يمكن أن تستثمر إيجابيات عصر ما بعد كامب دافيد في إدارة الصراع لصالحنا؟. وهل من سبيل للحيلولة دون تحول كلمات النقد الثورية إلى طبول حرب جوفاء؟ وهل من سبيل للحيلولة دون تحول شعارات مناصرة الشعب الفلسطيني إلى شعارات معادية للسامية لا تخدم إلا العدوانية الإسرائيلية؟ هل من سبيل يكفل لنا سلامة التمييز بين الأعداء والأصدقاء؟ لقد انكشف عجز وعقم استراتيجية اللا حرب اللا سلم. وتجسد قصور استراتيجية السلام الدفاعي عن الاستثمار الكامل لإيجابيات العصر

الجديد. وأصبحنا في حاجة ملحة لتبني استراتيجية جديدة هي استراتيجية السلام الهجومي.

وتقوم هذه الإستراتيجية الجديدة على عـدد مـن الأسـس والمنطلقات النظرية نستطيع أن نوجزها فيما يلي:

(١) الثقة بلا حدود في وعي وقدرة الجماهير العربية على تبين ما هو متفق مع مصالحها الأساسـية. دون حاجـة إلـى وصايا نخبوية متعالية تدمغ الجماهير بالسـذاجة والغفلـة والوعي الزائف. وتدعي لنفسها حق احتكار معرفة وتحديد ما هو في صالح تلك الجماهير.

(٢) الثقة بلا حدود في أن الحق التاريخي والحقيقة العلمية فـي جانبنا نحن العرب ومن ثم فإن من حق جماهيرنا العربية أن تثق في نفسها وأن تقدم على ما تختاره من ممارسـات دون خوف أو وجل.

(٣) إن المناخ الأمثل لإزدهار الممارسات العدوانية الإسرائيلية وسيادة المناخ العدواني داخل التجمع الإسرائيلي هـو مـا تكفله سياسة اللاحرب اللاسلم التي تهدد ولا تقاتل.

(٤) إن السلام لا يقل خطـورة علـى الممارسـة العدوانيـة الإسرائيلية عن الحرب. وكلاهمـا لا يحقـق المصـالح الاستراتيجية للقوى العظمى.

(٥) إن الإستقلالية النسبية لاتخاذ قرارات السلام تفوق نظيرتها بالنسبة لقرارات الحرب التي تخضع بدرجة كبيرة لإرادة القوى العظمى باعتبارها – على الأقل – المصدر الوحيد للأسلحة.

(٦) إن الحوار أيا كان نوعه لا يعني بالضـرورة اعترافـا أو تسليما بالوضع الراهن للطرف الآخر بـل يعنـي علـى العكس سعيا لتغيير هذا الوضع.

(٧) إن الموضوع الأساسي المطروح حاليا. ولفترة طويلة قادمة – لأي حوار عربي إسرائيلي – هو"الشعب الفلسطيني"

(٨) إن الحوار باعتباره السلاح الرئيسي في استراتيجية السلام الهجومي ينبغي ألا يقل تقديرنا له عن تقديرنا لأي سـلاح قتالي هجومي سواء من حيث انتقاء كوادره أو من حيـث إعدادهم وتدريبهم.

(٩) إن استراتيجية السلام الهجومي لا ينبغي أن تقتصر علـى جبهة المواجهة المصرية الإسرائيلية فحسب بل لابد لهـا

وأن تنتشر بالحوار لتشمل المواجهة العربية الإسـرائيلية على كافة جبهاتها.

ولعلنا نستطيع بعد ذلك أن نوجز بعض الخطوات التنفيذيـة التي نراها تكفل البداية الصحيحة لهذه الإستراتيجية:

أولاً: توفير أكبر قدر ممكن من المعرفة الموضوعية بمجريـات الأمور على الجانب الإسرائيلي مع التركيز على الإذاعة والتليفزيون باعتبارهما الوسيلتين الأكثر انتشـارا بـين الجماهير.

ثانيا: تدعيم الحوار بشكل مكثف مع عرب ١٩٤٨ والبحث فـي الشكل المؤسسي المناسب لضمان اسـتمرارية وسـيولة الاتصال بهم.

ثالثًا: تشجيع الحوار العلني الإعلامي مع كافة القوى الإسرائيلية الأقل تشددا.

رابعا: إعداد كوادر مدربة للحوار الهجومي تزود بشكل مكثـف ومستمر بأهم القضايا المطروحة على الساحة فضلاً عن الاهتمام برفع كفاءتها فيما يتعلق بفنيات الحوار.

القاهرة في أكتوبر ١٩٨٢.

الباب الأول
التجمع الصهيوني
بين النظرة الخرافية والنظرية الموضوعية

العقل العربي والتجمع الإسرائيلي

الفكر العلمي والتجمع الإسرائيلي

الفكر الصهيوني والتجمع الإسرائيلي

نحن... والحقيقة، والحـق[١]

---

(١) تم إعداد هذا المقال في أكتوبر ١٩٧٧

العقل العربي والتجمع الإسرائيلي

لقد صمت الفكر العربي طويلاً عن أعمال النظر في التجمع الإسرائيلي، وما يجري فيه. صحيح أن الساحة لم تخل من محاولة هنا، أو أخرى هناك. ولكن ظل الطابع الغالب هو الصمت والتجاهل وتحول العقل العربي خلال ما يقرب من ربع القرن إلى نوع من الإستكانة لهذه المجهلة. مطمئنًا إلى مسلمات فكرية زائفة. عازفًا حتى عن محاولة التيقن من مدى صدقها. وظل الأمر كذلك حتى قارعة يونيو ١٩٦٧ التي كان ينبغي أن تجرف فيما جرفته – وقد جرفت الكثير – ذلك الزيف الفكري الذي عاشه العقل العربي طويلاً. ولكن ما حدث لم يكن على هذه الصورة تماما. لقد أهتزت المسلمات الفكرية العتيقة. وكان إهتزازها عنيفًا حقًا. ولكن لم تسقط تماما. ولم تتوارى، ولم تجتث جذورها، لعله هول المفاجأة وبشاعتها ولعلها الطمأنينة التي طالت لصحة هذا الفكر الزائف. أو لعل الأمر راجع إلى ما لهذا الفكر من جذور عميقة ممتدة تضرب في أعماقنا إلى بعيد.

ولا يعني ذلك بحال أن صمت الفكر العربي ظل علـى حاله ولا أن التجاهل الفكري للكيان المزعوم ظل كما هـو. فلم يكن حجم الكارثة ليسمح باستمرار أي مـن الصـمت أو التجاهل بل لقد أصبح الصمت ضجيجا. وتحول التجاهل إلى اهتمام لا حد له. وتبدلت الصورة من النقيض إلى النقـيض. وأصبح القزم الجبان المذعور، عملاقًـا مرعبـا مفترسـا. وأصبح الفارس المقدام الشامخ، هـزيلاً مرتجفًـا متـداعيا. وانتقل الفكر العربي من تضخيم الذات والتهوين مـن شـأن العدو، إلى تجريح الذات والتضخيم من شأن العدو. ورغم ما قد تبدو عليه الشقة من اتساع بين الصورتين، فكلتاهما – فيما نرى – تنهل من نبع فكري واحد. وكلتاهما تقوم على نفـس الأسس الفكرية، وتتبع نفس المنهج في تحليل الواقع.

وآن للعقل العربي بعد أكتوبر ١٩٧٣ أن يعبر أزمتـه وأن يلتمس لنفسه المنهج الفكري الصحيح في النظـر إلـى الواقع. ذاتًا، وعدوا، وصديقًا، ولم يكن ذلك، ولـن يكـون، بالأمر اليسير بل أنها لمعركة عنيفة ضارية، لا تزال مشتدة الأوار، حامية الوطيس فالمنهج الفكري العتيق تثبت بمواقعه رغم كل ما أحدثه وما حدث له. بل إنه ليسعى إلـى كسـب

مواقع جديدة رغم ما حدث والمنهج الجديد يحاول أن يلتمس له طريقًا، وأن يجد له مكانًا رغم كل ما تعرض ويتعـرض له.

وما دمنا نحاول بدراستنا هذه أن نقترب من فهم بعض خصائص التجمع الإسرائيلي، فإن علينا أن نحـاول أولاً أن نحدد لأنفسنا موقعا من هذه القضية الأساسية التي تحكم نظرة الفرد إلى ما يحيط به من ظواهر، فعلى أسـاس مـن هـذه القوانين العامة الشاملة يتحدد تفسير المرء للعالم الموضوعي، وتنبؤه بمسار ظواهره، ومن ثم يتحدد اسلوب تعامله معها.

الفكر العلمي والتجمع الإسرائيلي

يقوم الفكر العلمي بعامة على عدد مـن المسـلمات أو الأفكار الرئيسية، سوف نعرض تباعا لما يخص موضـوعنا منها، محاولين ما يمكن أن تسهم به كل من تلك المسلمات أو الأفكار في فهمنا لخصائص التجمع الإسرائيلي.

أولاً: الفكر وليد الواقع الاجتماعي وليس العكس.

لقد اتخذت هذه المسلمة صورا عديدة في تراث الفكـر العلمي. ولعل أقرب هذه الصور إلى موضوعنا هـي تلـك المقابلة بين ما يعرف بالبناء التحتي، ومـا يعـرف بالبنـاء الفوقي وتعني تلك المقابلة ببساطة أن الأفكـار والمعتقـدات والآراء السياسية والقانونية والأخلاقية والجمالية والفلسـفية، وما إلى ذلك من أشكال الوعي الاجتماعي لا يمكن غـلا أن تكون تعبيرا عن واقع اجتماعي مادي يتمثـل فـي البنـاء التحتي. ورغم أن العلاقة بين البنائين علاقة معقدة متبادلـة، وليست بالعلاقة الإنعكاسية البسيطة، إلا أن البناء التحتي يظل هو الأساس دائما.

وإذا ما سلمنا بـأن"الشخصـية القوميـة" أو"التكـوين السيكولوجي للجماعة" أو"الشعور القومي" إنما هـي جميعـا أبنية فوقية لابد لها من بناء تحتي يفرزها وتتفاعل معه، فإن ذلك يعني مباشرة أنه لا يمكن أن يكون ثمة وحدة سيكلوجية بين أفراد جماعة بشرية معينة إلا بقـدر تشـابه الظـروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية المحيطة بتلك الجماعة.

وإنطلاقًا من هذا الفهم وحده ينكشـف زيـف الادعـاء بوجود ما يسمى"بالسيكلوجية اليهودية" أو"بالسلوك اليهـودي" أو"بالقومية اليهودية" وما إلى ذلك من تعبيرات يشيع ترددها في كتابات الصهاينة.

إننا لا نستطيع أن نسلم بوجود واقـع تـاريخي مـادي متصل منذ نشأة الديانة اليهودية حتى اليوم، يجمع بين اليهود السوفييت واليهود العرب، وبين يهود اليمن ويهـود ألمانيـا مثلاً.

وعلى ذلك فإن علينا أن نسلم من منطلق علمـي بـأن عادات وتقاليد وقيم اليهود من أبناء مصر مثلاً أقرب بالتأكيد إلى الطباع المصرية مهما اختلفت عنهـا إذا مـا قورنـت بعادات وتقاليد وقيم اليهود من أبناء تشيكوسلوفاكيا مثلاً مهما كانت نقاط التشابه بينهم. أن اليهودي الألماني أقـرب إلـى المسيحي الألماني منه إلى اليهودي من أبناء جنوب أفريقيـا. لقد عاش اليهود ظروفًا متباينة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا. وبقدر تباين هذه الظروف لم يكن بد من أن تتباين أفكارهـام وتكويناتهم الاجتماعية وخصائصهم النفسية.

ورب من يتساءل، فلنسلم بهذا كله، ولكن ألا يعيش يهود الوطن المحتل اليوم في ظل ظروف مادية مشتركة؟ ألا يعني ذلك أنه قد أصبح لهم تكوينهم الفكري والسيكلوجي الموحد؟

إن الفهم العلمي للعلاقة المتبادلة بـين البنـاء التحتـي والبناء الفوقي يبين أن التغيرات التي تطرأ على البناء الفوقي تتخذ معدلاً أبطأ كثيرا من نظيرتها التي تطرأ علـى البنـاء التحتي، وبالتالي فإنه بعد أن يتم تغير الظروف الموضوعية، تظل الأبنية الفوقية محتفظة بخصائصها لفترة تاريخية. ولـو حاولنا تطبيق ذلك في مجال سيكلوجية الجماعات بعامـة لا تضح لنا أن ثمة قناة تربط بين البناء التحتي – أي الظروف المادية المعاشة – والبناء الفوقي، أي شخصية الجماعة. وأن هذه القناة إنما تتمثل أساسا في عملية التنشئة الاجتماعية ثـم فيما يرتبط بها من عمليات الإتصال. وذلك يعنـي أن تغيـر الظروف المادية المحيطة بتجمع بشرى معـين لا يمكـن أن يؤدي بشكل إنعكاسي فوري إلى تغير التكـوين السـيكلوجي لأفراد هذا المجتمع. بل أن الأمر يتطلب أن يبلغ تغير تلـك الظروف المادية الحد الذي تتغير عنـده أسـاليب التنشـئة

الاجتماعية السائدة[٢]. ولذلك فالسؤال المطـروح ينبغـي أن يتخذ في الحقيقة الصورة التالية: هل توحدت بالفعل اسـاليب التنشئة الاجتماعية التي تمارس في التجمع الإسرائيلي؟

ثانياً: ظواهر الكون مترابطة:

يقوم المنهج العلمي – ضمن ما يقـوم عليـه – علـى استحالة فهم أي ظاهرة من ظواهر الطبيعة أو المجتمع إذا ما نظرنا غليها منعزلة خارج ما يحيط بها من ظواهر أخـرى. والتزامنا بهذه القاعدة العلمية إنما يعني في مجال بحثنا أمورا عديدة أهمها:

أ- إننا لا نستطيع أن نفهم الموقف مـن"اليهـود" فـي مجتمع معين وفي مرحلة تاريخيـة معينـة فهمـا صحيحا، دون الإحاطة ببقيـة العوامـل فـي هـذا المجتمع. بعبارة أخرى فإننا لا نستطيع أن نتحـدث عن موقف مجتمع معين من اليهـود بمعـزل عـن

(٢) قدري حفني، تجسـيد الـوهم: دراسـة سـيكولوجية للشخصـية الإسرائيلية، مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية، القاهرة، ١٩٧١، ص ٤٦ – ٦٣.

خصائص المرحلة الاقتصادية الاجتماعية التي يمـر بها، ولا خصائص المرحلة الاقتصادية الاجتماعيـة التي يمر بها، ولا حتى بمعزل عن طبيعة علاقاتـه ببقية المجتمعات. وبذلك فإن الحديث عـن"معـاداة السامية" كخاصية سيكلوجية مجردة مطلقـة قابلـة للقياس والمقارنة، شـأنها فـي ذلـك شـأن بقيـة الخصائص والسمات النفسية، أمر يبعد تمامـا عـن قواعد المنهج العلمي.

ب- إننا لا نستطيع أن نفهم أيضا موقف يهـود مجتمـع معين من مجتمعهم في مرحلة تاريخية معينة، فهمـا صحيحا، دون الإحاطة بطبيعة موقعهم المادي مـن البناء الاقتصادي الاجتماعي اتلقائم وطبيعة العلاقات التاريخية المتبادلة بينهم وبين بقية القوى الاجتماعية القائمة. وبذلك فإن الحديث عن"الموقف اليهودي من المجتمع" أو من"التاريخ" أو من"البشرية" أمر يبعـد تماما عن قواعد المنهج العلمي.

ت- إننا لا نستطيع أن نفهـم"السـيكلوجيات" أو الأبنيـة الفكرية المتعددة القائمة في التجمع الإسرائيلي إلا في

إطار من فهم العوامـل الاقتصـادية والاجتماعيـة والتاريخية والسياسية المتفاعلة فـي هـذا التجمـع، فضلاً عن الإحاطة بطبيعة العلاقات بين جماعاتـه والقوى العالمية والمحليـة المـؤثرة. ولعـل هـذه الإحاطة وحدها هي التي تتيح لنا تفسيرا للعديد مـن النتائج المتناقضة التي يتوصل إليهـا العديـد ممـن تصدوا بالدراسة لهذا التجمع.

ث- إننا لا نستطيع بحال أن نفصل بين مجمل الموقـف الإسرائيلي وما يحتمل أن يطرأ عليه من تغيـرات، وبين موقفنا العملي من هذا التجمع أو بينـه وبـين مجريات الصراع العربي الإسرائيلي عامة.

ثالثًا: التغير شامل، والتطور مستمر:

يبرز المنهج العلمي ضرورة أنه لا ينبغـي أن نتنـاول ظواهر الطبيعة والمجتمع من حيـث علاقاتهـا وتكيفاتهـا المتبادلة فحسب، بل أيضا من زاويـة حركتهـا وتغيرهـا وتطورها. أي من حيث ظهورها وإختفائها وذلك باعتبار أن الكون في حالة دائمة من الحركة والتغيير.

والتزامنا بهذه القاعدة فيما يتعلق بموضـوعنا، يعنـي أمرين أساسيين:

أ- ألا ننزلق إلى القول بوجود خصائص" يهودية" ثابتة، كانت وظلت كما هي منذ كان اليهود، وستظل هكذا ما دام ثمة يهود.

ب- ألا ننزلق كذلك إلى تناول التكوينات الاجتماعيـة أو الاقتصادية أو الفكرية القائمة حاليا داخـل التجمـع الإسرائيلي كما لو كانت ثابتة على مر الزمن، بـل ينبغي أن نضع في اعتبارنا دائما تلـك التكوينـات جميعا في حركة وفي تغير مستمرين.

رابعًا: **التحول الشامل**، **نتاج التغيرات طفيفة متتالية**:

يبرز المنهج العلمي حقيقة أن تراكم التغيـرات الكميـة التدريجية التي قد لا تبدو على السطح، يؤدي بالضرورة في لحظة معينة، إلى تغيرات جذرية كيفية، وإلى تحول من كيف قديم إلى كيف جديد.؟

ويتيح لنا تمثلنا لهذا القانون العلمـي – فيمـا يتصـل بموضوعنا – أن ننبه لأمور ثلاثة:

أ- أنه لا ينبغي لنا أن نهمل أي تغير يطرأ على التجمع الإسرائيلي مهما كان ضئيلاً ومحدودا فتراكم تلـك التغيرات الضئيلة والمحدودة – إذا ما كان متفقًا مع حركة التاريخ. كفيل بأن يحدث تغيـرا كيفيـا فـي لحظة معينة.

ب- أنه لا ينبغي لنا أن نتوقع تغيرا مفاجئًا وجذريا فـي طكبيعة الكيان الإسرائيلي فإذا ما حدث ذلـك فـإن المفاجأة إنما ترجع إلى قصورنا – أو تقصـيرنا – في متابعة ما سبق هذا التغير حتما مـن مؤشـرات وتغيرات طفيفة مهدت لوقوعه.

ت- أنه لا ينبغي لنا أيضا أن نقلل من دلالـة أي تغيـر يطرأ على الموقف العربي تجاه التجمع الإسرائيلي، سلبا أو إيجابا، مهما كان حجمه. فتكـرار وتـراكم التغيرات الطفيفة في اتجاه معين لابد وأن يؤدي في النهاية إلى تغير كيفي في طبيعة الموقف برمته.

خامساً: **التغير نتاج للصـراع**:

ليس ثمة ظاهرة طبيعية كانت أو اجتماعية تخلـو مـن تناقض. ومن تفاعل هذه التناقضات تتولد حركـة الظـواهر

وتطورها جميعا. ومن ثم فإن الفهم الصحيح لأيـة ظـاهرة اجتماعية أو طبيعية إنما يبدأ باكتشاف التناقضات التي تحكم مسارها. غير أن الوقوف عند حد حصـر وتسـجيل تلـك التناقضات لا يعني في حد ذاته شيئًا ذا بال. أن أية ظاهرة – خاصة لو كانت ظاهرة اجتماعية – تموج بمالا حصر له من تناقضات متشابكة. وتصبح الخطوة الأهم – منهجيا وعمليا – هي تحديد أي تلك التناقضات هي التناقض الرئيسـي الـذي يحكم بقية التناقضات جميعا، والذي يحكم بالتالي حركة هـذه الظاهرة ويحدد مسارها.

والذي لا شك فيـه أن التجمـع الإسـرائيلي كظـاهرة اجتماعية يموج بالعديـد مـن التناقضـات وأن مـن هـذه التناقضات ما قد نجد نظيرا له في تجمعات بشـرية أخـرى ومنها أيضا ما يختص به التجمع الإسرائيلي بحكم ظـروف تكوينه. وإذا كان إنكار التناقض وتجاهله يمثل تجاوزا تامـا عن قواعد المنهج العلمي، فإن النظر إلى المتناقضات جميعا كما لو كانت متساوية التأثير، يمثل تجاوزا لا يقل خطرا عن إنكارها تماما.

علينا إذن لفهم التجمـع الإسـرائيلي فهمـا علميـا أن نستكشف أي تناقضاته هو التناقض الرئيسي: أهو التنـاقض بين أحزابه السياسية المختلفة؟ أهو التنـاقض بـين شـبابه وشيوخه؟ أهو التناقض بين أغنيائه وفقرائه أم أنه التنـاقض بين الأصول الحضارية المتباينة التي يضمها؟

تلك هي القواعد أو المسلمات الخمس للمنهج العلمي في تحليل الظواهر. آثرنا أن نبدأ محاولتنـا بتحديـدها دون أن نخوض كثيرا في تأصيلها نظريا، مخافة أن يخرجنـا ذلـك كثيرا عن موضوعنا الرئيسي. ولم نشأ أيضـا أن نخـوض كثيرا في تطبيقات المنهج العلمي على الخصائص التفصيلية للتجمع الإسرائيلي، فذلك هو موضوعنا الرئيسـي، وليسـت تلك سوى بدايته. ولم نكن نستهدف بهذه البداية سوى أن نلقى الضوء مسبقًا على المنهج الذي سوف نتبعه فـي محاولتنـا هذه. خاصة وأن إختلال المنهج قد لعب – فيما نرى – ومـا زال دورا لا يستهان به سواء في تشوش الفكر العربـي، أو في إعاقة الفعل العربي فيما يتعلق بـالموقف مـن التجمـع الإسرائيلي. نقول هذا لأن الحديث عن المنهج يبـدو لـدى

البعض تزيدا لا مبرر له، بل وتقاعسا عن الخوض المباشر في تفاصيل الموضوع محل البحث.

ورب من يتسائل مستفسرا أو مشـككًا، أهـو المـنهج العلمي الذي نتحدث عنه، أم أنه منهج علمي قـد نقبـل بـه ونسير على دربه، وقد نختلف معه فنلتمس لنا منهجا علميـا سواه؟ وهنا ينبغي أن نتوقف لنؤكد أن ما نطرحه هو المنهج العلمي. وأن القول بتعدد المناهج العلمية على هذا المسـتوى العام إنما هو من قبيل استخدام التعبيـر فـي غيـر محلـه المناسب. قد تتعدد أساليب الوصـول إلـى الحقيقـة بتعـدد موضوعات البحث، وقد تتنوع الأدوات وتتباين بتباين العلوم وتنوع فروعها. ولكن ثمة إطار عام يجمع بين تلك الأساليب والأدوات، ويكون بمثابة المرجع الذي نعـود إليـه جميعـا لنختبر مدى صدقها وكفاءتها. ذلك الإطار العام هو ما نعنيه بالمنهج العلمي.

ورب من يتسائل أيضا، وهل ثمة من يختلف مع مثـل هذه القضايا العامة؟ والإجابة نعم. إننا لنخطيء خطأ بالغًا إذا ما حسبنا أن التيارات الفكرية جميعا تستهدف الوصول إلـى الحقيقة فحسب. إن منها بطبيعة الحال ما يسعى لبلوغ الحقيقة

فيخطيء الطريق. ومنها أيضا – وهذا هـو الأهـم – مـن يتنكب الطريق. لأن بلوغ الحقيقة ليس مـن مصـلحته فـي شيء، إذا لم يكن متعارضا معها أو مهـددا لهـا. ومثالنـا الواضح على ذلك هو الفكر الصهيوني.

الفكر الصهيوني والتجمع الإسرائيلي

يقوم الفكر الصهيوني في جوهره على مسلمة رئيسـية مؤداها أن اليهود كيان واحد متجانس ممتـد فـي الزمـان والمكان، وأن ثمة ما يسمى بالمشكلة اليهودية التي تتمثل في تشتت اليهود واضطهادهم، وأن الحل الوحيد لهذه المشكلة هو عودة اليهود إلى أرض الميعاد أي إلى فلسطين.

ويترتب على القبول بهذه المسلمة الصـهيونية التسـليم مباشرة بعدد من القضايا الفرعية، يعنينا منها ما يلي:-

أ- رغم أنه لا مفر من التسليم بأن البشرية قد شهدت عبـر تاريخها من التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بل والجغرافية أيضا ما لا ينكره أحد، إلا أن اليهـود – من وجهة نظر الصهيونية – قد حـافظوا تمامـا علـى تمايزهم عبر ذلك التاريخ الطويل. وبالتالي فـإن يهـود اليوم هم امتداد حضارى مباشر وغير منفصـل لليهـود القدامى. أي ليهود التوراة. أي أن اليهود – وفقًـا لهـذا المفهوم – يمثلون كيانًا حضاريا ممتد زمانيا لـم يتـأثر جوهره بما طرأ أو يطرأ على العالم المحـيط بـه مـن

تغيرات. وأن كل ما قد يبدو من اختلاف بين يهود اليوم، ويهود الأزمان الغابرة، إنما هو قشور لا تتجاوز السطح إلى الجوهر.

ب- رغم أنه لا مفر كذلك من التسليم بأن الظـروف التـي أحاطت باليهود منـذ الشـتات، وحتـى قيـام الكيـان الصهيوني، بل وبعد ذلك أيضا، وحتى اليـوم ظـروف متباينة أشد التبـاين حضـاريا واقتصـاديا واجتماعيـة وسياسيا، إلا أن ثمة ما يربط دائما بين اليهود جميعا في شتى أنحاء الأرض، مهما تباينت الظروف المحيطة بهم قد تتمثل تلك الرابطة لدى البعض في الديانة اليهوديـة، وقد يراها غيرهم متمثلة فيما يلقاه اليهـود مـن عنـت واضطهاد. وقد يراها آخرون متمثلة في غير هذا وذاك، إلا أن الصهاينة جميعا يتفقون على أن ثمة رابطة أقـوى وأعلى من تباين الظروف المادية تـربط بـين اليهـود جميعا. أي أن اليهود وفقًا للفكر الصهيوني يمثلون كيانًـا حضاريا ممتد مكانيا لا يتأثر جوهره بما يحيط بـأفراده من ظروف مادية. وأن كل ما قد يبدو من إختلاف بـين

الجماعات اليهودية المتباينة، إنما هو قشور لا تتجـاوز السطح إلى الجوهر.

ويخلص الفكر الصهيوني من هذا التصور إلى تأكيد أن لليهود خصائصهم المتميزة عبر الزمان وعبـر المكـان ولا يحول ذلك بطبيعة الحال دون وجود اختلافات بين المفكرين الصهيانة وبعضهم البعض حول مظاهر التميز هذه. وتتراوح تلك الأفكار بين الغموض والوضـوح، وتتعـدد مجالاتهـا فتنصب حينًا على التفوق العقلي لليهود، وحينًا على تمايزهم الجسمي، وحينا على خصائصهم الإنفعالية، وهكذا.

يقول ليونارد فاين في كتابـه المنشـور عـام ١٩٦٧ والمعنون" السياسة في إسرائيل[٣]" أن"مفهوم اليهودي في حد ذاته يثير إحساسا لا يمكن تلافيه بالقرابة المشتركة والتاريخ المشترك" ويقرر ليفين عضو الكنيسيت الإسرائيلي عن حزب أجودات إسرائيل في عام ١٩٧٠[٤].....

---

(٣) Fein, L.J. Politics in Israel, Boston ١٩٥٧.

(٤) شهادات يهودية، منظمة التحرير الفلسطينية: مركـز التخطـيط، ٧٦/١/٢٧.

"... أننا لسنا شعبا كباقي الشعوب، ولسنا دينًـا ككـل الأديان، إننا شعب خاص، شعب الله، شعب التـوراة". أمـا سيسيل روث في كتابه"تاريخ اليهود[٥]" فرغم عـدم دفاعـه صراحة عن فكرة نقاء العنصر اليهودي، فإنه يتبنـى فكـرة أن"النمط اليهودي" يتميز بقصر قامته، وإنحنائه. أما القـول بأن ما يميز اليهود عن سواهم هو تفوقهم العقلي، فلعل خير معبر عنه هو المؤرخ الإسرائيلي هوارد موللي ساخار فـي كتابه المنشور عام ١٩٦٣ والمعنون"مسار التاريخ اليهـودي الحديث[٦]". حيث يشير ساخار في مستهل فصل من كتابـه إختار له عنوانًا له دلالته وهو تأثير اليهود على الحضـارة الغربية، إلى قصة قصيرة نشرها هوجو تور البروتسـتانتي المذهب النمسوي الجنسية عام ١٩٢٦ بعنـوان مدينـة بـلا يهود. وتروى القصة حكاية حاكم قرر استبعاد اليهـود مـن الحياة في العاصمة نظرا لسيطرتهم على كافة مجالات الحياة

---

(٥) Roth, C.A short history of the Jewish People, East & West Liberary, ١٩٦٩.

(٦) Sacher, H.M. The course of modern Jewish history, Dalta, ١٩٦٩.

فيها، ونفذ ذلك بالفعل. فإذا بالمدينة تكاد تتحول إلى مـوات، البنوك تقفل أبوابها. والمسارح ودور الباليه تنهي نشـاطها. وكذلك الحال بالنسبة للمستشفيات والمكتبات ودور النشر بل والمحاكم أيضا ويبلغ الشلل ذروته إلى حد يجبر الحاكم على التراجع عن قراره وإعادة اليهود إلى الحياة العامة. ويـرى ساخار في هذه القصة" استبصارا عميقًا" بحالة اليهـود فـي وسط أوروبا آنذاك. ثم يمضي دون كلال في عرض الأرقـام والنسب المئوية الدالة في رأيه على أن مكانة اليهود العلميـة تفوق ما تكفله لهم نسبتهم العددية بأضعاف مضاعفة مرجعـا ذلك إلى أن"... أهم الصفات التي تميز العقلية اليهودية عـن غيرها هي الرغبة في الإبداع، وصياغة الأفكـار الجديـدة، والوقوف في وجه الأفكار القديمة". ويؤكد ساخار أن تفـوق اليهود في مهن معينة في وسط أوروبا لم يكن بالأمر الراجع إلى المصادفة مطلقًا، وليس أيضا إلـى مجـرد الظـروف السياسية، والاقتصادية فحسب بل أن الأمر يرجع أساسا إلى ما يتميز به اليهود من خصائص فريدة تنبعث من سبب يكمن في الديانة اليهودية نفسها. باعتبارها ديانة ترى أن هذا العالم هو نهاية المطاف، ولذلك – ووفقًا لما يرى سـاخار – فقـد

ارتبطت الكهانة بالعلم بحيث أصبحت الدراسة نوعا من العبادة بالمعنى الحرفي.

لقد آثرنا أن نعرض – على سبيل الاستشهاد فحسب – لعدد من النماذج التي توضح حرص الفكر الصهيوني على تأكيد أن لليهود خصائصا تميزهم عن غيرهم مهما تباعدت بينهم شقة المكان. إن مثل هذا التأكيد يعد ركنًا أساسيا من الأركان التي تقوم عليها الدعاوى الصهيونية فيما يتعلق بأحقية الكيان الإسرائيلي- باعتباره دولة اليهود – في الحديث باسم اليهود في العالم كله. أما الركن الثاني الذي تقوم عليه دعاوى الصهيونية – والذي سبق أن أشرنا غليه – فيتمثل في ادعاء تاريخ موغل في القدم للتجمع الإسرائيلي الراهن فليس ثمة صهيوني على الإطلاق لا يحرص على اصطناع مثل هذا التاريخ. ولذلك الحرص – فيما نرى – مبررات عديدة، لعل أهمها:

أ- أن اكتساب التجمع الإسرائيلي الصهيوني الراهن ذلك التاريخ الطويل الممتد، إنما يعني في نفس الوقت إكسابه شرعية تاريخية لاستيطان فلسطين، وبالفعل فإن إلحاح الصهاينة على اصطناع تاريخ"إسرائيل" قد مكنهم

– على مستوى الادعاء الفكري – من تبرير الاستعمار الاستيطاني لفلسطين. ومن تبرير دعوة يهـود العـالم للهجرة غليها. فقد أصبحت"الهجـرة اليهوديـة" إلـى فلسطين هـي"عـودة اليهـود إلـى أرض الميعـاد". وأصبح"الاحتلال الإسرائيلي لأرض فلسطين" تحريـرا لأرض إسـرائيل التاريخيـة الكبـرى مـن أيـدي المغتصبين.

ب- يلعب التركيز على فكرة الامتداد التاريخي هـذه دورا بارزا في محاولات توحيد التجمع الإسرائيلي التي يقوم بها أصحاب الساطة فيه من الإشكنازيم.

ت- بعبارة أخرى فإن امتداد التاريخ إنما يعني ضمنًا وحدة هذا التاريخ، وبالتالي وحدة أصحابه نفسيا واجتماعيـا وحضاريا. فإذا بدت بينهم فرقة ما فهـي لا تعـدو أن تكون أمر عارض لا يلبث أن يتلاشى ببذل شيء مـن الجهد. ومن ثم فإن تدعيم فكرة الامتداد التاريخي هـذه يمكن أن ييسر – من وجهة النظر الصهيونية – عملية الاندماج بين يهود التجمع الإسرائيلي.

ث- تعد فكرة الامتداد التاريخي للتجمع الإسـرائيلي، مـن الأفكار الرئيسية التي تقوم عليها دعـوة الصـهيونية ليهود العالم للهجرة إلى فلسطين المحتلة، ولذلك فـإن التركيز الصهيوني على هذه الفكـرة إنمـا يسـتهدف الإسهام في إبراز وحدة اليهود في كافة أنحاء العـالم، وبالتالي كسب تضامنهم مع التجمع الإسرائيلي.

لقد بدأ سيسيل روث كتابه الـذي أشـرنا إليـه أنفًـا، والمعنون"تاريخ اليهود" (٧) بفصل يحمل عنوانًا بالغ الدلالـة هو"إسرائيل من حوالي عام ١٦٠٠ قبل الميلاد إلى عام ٥٨٦ ميلادية" وينحو هوارد مورلي سـاخار (٨) نفـس المنحنـى تقريبا، في كتابه المشار غليه أيضا، والمعنون"مسار التاريخ اليهودي الحديث". أما ترود فايس روز مارين (٩) فإنها تزيد الأمر وضوحا في كتابها المعنون"إنتصار اليهود في صـراع

---

(٧) Roth, Cicil op. Cit.

(٨) Sacher, Horward Morely op. Cit.

(٩) Weiss – Rosmarin, T. Jewsh Survival, The Philosophical library ١٩٤٩ .

البقاء"، فتعرض لفكرة غريبة عن اليهودية، مؤداها أنها دين وقومية في نفس الوقت، وأن اللغة العبرية هي أول مقومات الأمة اليهودية، وأن ثـاني تلـك المقومـات هـو الـولاء الحضاري، ويقول بنتوفتش [١٠] في كتابه فلسطين"أن عراقة الصهيونية، إنما تعود إلى زمان هدم الهيكل، ووقوع الشعب اليهودي في أسر نبوخذ نصر". وليست تلـك أيضـا سـوى نماذج قليلة نعرضها على سبيل الاستشهاد فحسب.

ذلك هو الإطار العام لتصور الصهيونية لليهود وللتجمع الإسرائيلي. وهو بالفعل أنسب الأطر الفكرية – إذا لم يكـن الإطار الفكري المناسب الوحيد – للدفاع عن قيـام الكيـان الصهيوني واستمراره أيضـا. ولنرجـيء مؤقتًـا محاولـة التصدي لتفنيد ما يتضمنه هذا الإطار من دعاوى. ولنحـاول أولاً أن نختبر مدى اتفاق هذا الإطار العام مع قواعد المنهج العلمي التي أشرنا إليها آنفًا. وذلك يقتضـينا أن نبـدأ بـرد دعاوى هذا الإطار إلى أصولها الفكرية المنهجية العامة.

---

(١٠) Bentwich, N. Palestine, Victor Golia, Z., ١٩٣٤

أولاً: **الواقع الاجتماعي وليد الفكر وليس العكس**:

تقوم المقولة الصهيونية في هذا الصدد على نقيض مـا يقوم عليه المنهج العلمي. فبينما ينطلق المنهج العلمـي مـن التسليم ابتداء بأن الفكر إفراز للواقـع الاجتمـاعي المـادي المعاش ينطلق الفكر الصهيوني من مسـلمة مضـمونها أن الصهيونية كفكرة هي القوة الخالقة لذلك الواقع الاجتمـاعي الذي يجسده التجمع الإسرائيلي على أرض فلسطين.

ثانياً: **الفصل بين الظواهر المرتبطة، وإنكار التأثير المتبادل بينها**:

تقوم المقولة الصهيونية في هذا الصدد أيضا على نقيض ما يقوم عليه المنهج العلمي – كما اشرنا – من استحالة فهم أي ظاهرة فهما صحيحا في عزلة عما يحيط بها، فإن الفكر الصهيوني يقوم على النظر إلى"اليهود" كجماعـة لا يتـأثر جوهرها بما يحيط بها من ظواهرها اجتماعية مهما تباينـت ومهما كان تأثيرها.

ثالثًا: **إنكار التغير**:

تتعارض المقولة الصهيونية – فيما يتصل بالنظرة إلـى اليهود – تعارضا تاما مع ما يقول به المنهج العلمي مـن أن

الكون بكافة ظواهره المادية والاجتماعية فـي حالـة تغيـر مستمر. فالفكر الصهيوني – كما أوضحنا – يستثنى اليهـود من هذا القانون العلمي الشامل.

رابعاً: **الاستبعاد المبدئي لفكرة التناقض**:

تتعارض المقولة الصهيونية في هـذا المجـال أيضـا تعارضا تاما مع مسلمات المنهج العلمي. فالفكر الصهيوني لا يقبل مطلقًا بإمكانية أن يكون ثمة تناقض أساسي فعال بـين اليهود وبعض البعض، ومن ثم بين أي يهودي والصهيونية.

نحن ، والحقيقة، والحق

إن حرص الصهاينة على اصطناع مثل هـذا المـنهج الميتافيزيقي في نظـرتهم لليهـود وللصـهيونية وللتجمـع الإسرائيلي، حرص مفهوم تماما وله ما يبرره. فهو المـنهج الوحيد الذي يكفل لهم تجنب مواجهة الحقيقة. والذي ييسـر لهم أيضا اغتصاب الحق العربي. كل ذلك مفهـوم ومبـرر. ولكن ترى ما الذي يبرر لنا نحن العرب ومعنا شرعية الحق وعلمية الحقيقة على حد سواء، أن نقع في حبائل مثل هـذه المقولات المثالية ولا نقول الصهيونية – التي تتعارض مـع

قواعد المنهج العلمي، فضـلاً عـن تناقضـها مـع الحـق الفلسطيني العربي؟ هذا هو السؤال.

يكفي المواطن العربي أن يطل ولو إطلالة عابرة علـى ما أخرجته – ومازالت تخرجه – المطابع العربية من كتـب تتناول موضوع التجمع الإسرائيلي، بل يكفيـه أن يتصـفح مجموعة إعداد من الصحف العربية، بل حتى يكفيه أن يولي سمعه أو نظره لجانب من مواد الإعلام العربي مسـموعا أو مرئيا ليتضح له الآن ثمة اتجاها فكريا عربيا لا يختلف كثيرا في منطلقاته المنهجية عن نظيره الصهيوني في تناول قضايا التجمع الإسرائيلي. ولقد نختلف في تقدير مدى حجـم هـذا الاتجاه أو انتشاره أو تأثيره. ولكنا لا نظن أن أحدا يخالفنـا في أنه اتجاه فكري قائم بالفعل. وعلى أي حال فسوف نسوق بعد قليل أمثلة تدلل على ما نقول. ولنحدد أولاً ما نراه مـن أوجه تطابق بين هذا الاتجاه وبـين التصـور الصـهيوني المقابل، والتي نستطيع أن نجملها في المسلمات التالية:-

أ- اليهود هم اليهود منذ كانوا حتى الآن وإلـى الأبـد مهما تباعدت الشقة الزمانية بين أجيالهم.

ب- اليهود هم اليهود في كل مكان مهما تباعدت الشـقة المكانية بين جماعاتهم.

ت- لليهود خصائصهم الفريدة المميزة التي تجعل مـنهم جماعة تختلف عن بقية البشر.

ث- لا فرق هنالـك علـى الإطـلاق بـين"اليهـودي" و"الإسرائيلي" و"الصهيوني" بل إنها جميعا مسميات لجوهر واحد.

ج- اليهود في النهاية هم محركوا التاريخ البشري مـن خلال منظماتهم العالمية السرية.

وقبل أن نمضي في عرض نماذج تدال على وجود هذا الاتجاه الفكري العربي، نجد لزاما علينا أن نؤكد من جانبنا، أن وجود هذا الفكر، لا يعني بحـال أنـه نتـاج لمـؤامرة صهيونية على الإطلاق. وإلا فقد وقعنا بدورنا فـي أسـار المقولات الصهيونية. أن هذا التيار الفكري هو يقينا إفـراز عربي خالص، وتعبير موضوعي – على مستوى الفكـر – عن الأزمة الحضارية التي يعيشها عالمنا العربي المعاصر. هذه الأزمة التي فرضت وتفرض العديد من أوجه الجنـوح عن الفكر العلمي. وللحقيقة فقد حرص القائمون على التجمع

الإسرائيلي من الصهاينة على الالتزام بفكرهم هـذا المثـالي غير العلمي ولكنهم نجحوا – إلى حد كبير – في أن يلزمـوه حدودا لا يتجاوزها إلى بقية ممارستهم العملية وخاصة تلـك المتصلة بقضايا الصراع العربي الإسـرائيلي. أمـا علـى الجانب العربي فإننا لم نستطع الحيلولة دون امتداد المظـاهر الفكرية لأزمتنا الحضارية إلى مجال التصدي لمحاولة فهـم طبيعة التجمع الإسرائيلي فهما علميا صـحيحا. لقـد نجـح صهاينة التجمع الإسرائيلي – إلى حد بعيد – في التعامل مع الخلافات بين العرب واستثمارها لصالحهم، رغم ما يقول به الفكر المثالي الصهيوني من انقسام البشر جميعا إلـى يهـود وأغيار وإن كلاً من الفريقين يمثل كيانًا أقرب إلى الاتسـاق. ذلك في حين أننا لم ننجح على الوجه المرجو في التعامل مع التناقضات القائمة داخل التجمع الإسرائيلي، رغم ما يقول به الفكر العلمي من حتمية وجـود هـذه التناقضـات ومـدى جوهريتها.

ولسوف نقصر أمثلتنا فيما يتعلق بهذا التيـار الفكـري العربي على المرحلة التالية لهزيمة يونيو ١٩٦٧. حرصا منا على الإيجاز من ناحية، وتأكيدا لما أشرنا غليه في مسـتهل

حديثنا من أن الهزيمة – رغم هولها – لم تستطع أن تجتـث جذور ذلك الفكر الزائف.

يقول محمد فرج في كتابه الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عام ١٩٦٧م والمعنون"فلسـطين عربيـة" (١١).

"... ونحن لا نعني بذلك أن الصهيونية كفكرة وجـدت في القرن التاسع عشر فقط، فهي فكرة قديمة تمتد جـذورها إلى الوقت الذي شرد فيه اليهود مـن فلسـطين فيمـا قبـل الميلاد...".

ويقول عبده الراجحي في كتابه الصادر عـام ١٩٦٩ – والمعنون الشخصية الإسرائيلية (١٢).

"... لقد دأبنا جميعا في الفترة الماضـية (كـذا) علـى التمييز بين اليهودية والصهيونية... والواقع أننا بهذا وقعنـا في خطأ كبير. ذلك أن الدارس لموضوعي لحيـاة الشـعب

---

(١١) محمد فرج "فلسطين عربية" المجلس الأعلى للشئون الإسـلامية، القاهرة ١٩٦٧، ص ٣٦.

(١٢) عبده الراجحي " الشخصية الإسرائيلية" دار المعـارف القـاهرة ١٩٦٩، ص ٩.

الإسرائيلي (كذا) يعلم أن هناك حقيقة هامة لا ينكرها باحث، بل لا ينكرها الإسرائيليون أنفسهم، فضلاً عن أنهم يعتـزون بها، ويدعون لها، وهي أن الإسرائيلية واليهودية والصهيونية ألفاظ مترادفة لمعنى واحد".

ويقول على حسن الخربوطلي في كتابه الصادر أيضـا عام ١٩٦٩ والمعنون"العلاقات السياسية والحضـارية بـين العرب واليهود"[١٣]. وهو من منشـورات معهـد البحـوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربيـة ويتضـمن المحاضرات التي ألقاها المؤلف على طـلاب المعهـد بعـد عامين من هزيمة ١٩٦٧، يقول الخربوطلي"... إن العقليـة اليهودية تختلف في تفكيرها واتجاهاتها عن عقليـة البشـر جميعا، وإن هذا الاتجاه قد أحدث تأثيره في تاريخ العالم كله، وحاول أن يفرض طابعه على البشرية جمعاء لكي يضـعها تحت طاعة حكماء اليهود. فـإن السـحر بجميـع أسـراره وأنواعه جاء من العقلية اليهودية، والإيمان بالأشباح وتقمص

---

(١٣) علي حسن الخربوطلي "العلاقات السياسـية والحضـارية بـين العرب واليهود" معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٩، ص ٣٦.

الأرواح، ومخاطبة الأرواح جاء من هذه العقلية، والعرافـة والتدجيل والتكهن بالمستقبل والإيمـان بالمسـيح المنتظـر وقراءة الكف والنجوم والطوالع، كل ذلك جاء مـن العقليـة اليهودية".

ويحدد محمد عزه دروزه في كتابه المعنون"تاريخ بنـي إسرائيل من أسفارهم"[(١٤)] ، صفات اليهود التي يـرى أنهـا ظلت تلازمهم منذ القدم بأنها"... تعصب شديد، وأنانية قوية، وأفق ضيق كان وظل يبدو منهم ويسيطر على سيرتهم سواء في معاملتهم لغيرهم أو فيما كانوا يزعمونـه لأنفسـهم مـن اختصاصات وامتيازات" ويمضي ليؤكـد أن لليهـود"جبلـة خاصة" عرفت عنهم وعرفوا بها منذ قـديم. وأن أخلاقهـم متوارثة فيما بينهم جيلاً عن جيل وعلـى امتـداد القـرون المتطاولة منذ أسفار العهد القديم.

ونستطيع أن نمضي طويلاً في إيراد العديد من الأمثلـة التي تعبر عن هذا الاتجاه. غير أننا سوف نكتفي بأن نختـتم

---

(١٤) محمد عزة دروزه " تاريخ بني إسرائيل من أسـفارهم" المكتبـة العصرية، بيروت ١٩٦٩م، ص ٥٢.

أمثلتنا بالوقوف وقفة متأنية أمام واحد من أبرز نماذج هـذا الاتجاه وأصدقها تعبيرا عنه. وفي حقيقة الأمر فإن أهمية هذا النموذج بالتحديد لا ترجع إلى حداثته فحسـب بـل أيضـا لأسباب أخرى لا تقل عن الحداثة خطورة:

١- إنه يصدر عن قلم أكاديمي مارس ومـازال يمـارس الإسهام في توجيه وتوعية أجيال من الدارسين العرب، مؤثرا بالتالي في تشكيل وعيهم بقضية الصراع العربي الإسرائيلي.

٢- إنه يصدر ضمن منشورات"معهد البحوث والدراسـات العربية" التابع لجامعة الدول العربية وبالتالي فإن مجال تأثيره يشمل بالضرورة – فيما يشمل – أولئك الساعين نحو التخصص في قضية الصراع العربي الإسـرائيلي من الدارسين العرب ولا يقلل من ذلك بحال حـرص المعهد على الإشارة في آخر صـفحات الكتـاب إلـى أن"كل الآراء الواردة بهذا الكتـاب تعبـر عـن رأي المؤلف ولا تحمل بالضرورة وجهة نظر المعهد أو أي جهة أخرى يرتبط بها المؤلف".

٣- إنه يصدر عن قلم له وجهة نظر ثابتة ومتسـقة منـذ عشية هزيمة يونيو ١٩٦٧م حتى الآن.

٤- إنه يصدر بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣م وما حققته مـن إنجاز عربي.

ويدور الكتاب حول فكرتين رئيسيتين: أن ثمة مـؤامرة يهودية عالمية هي بمثابة المحرك للتـاريخ البشـري. وأن اليهود جنس مختلف عن بقية البشر، وأن لهم خصائص ثابتة تجمعهم مهما تباعدت بينهم شقة الزمان أو شقة المكان.

يقرر الكتاب [١٥] إن اليهود هم الذين"بثوا في المجتمـع الإسلامي نحل الرجعة والتناسخ والمثنوية... مما ظهر أثره في تمرد الموالي بخراسان، وإسقاط الدولة الأموية، ثم فـي ثورة الزنج والقرامطة بالعصر العباسي، و الزندقة والإلحاد، وانتعاش النحل الدخيلة على العقيدة الإسلامية".

ويدعونا الكتاب إلى الاهتمام بتقصي" دور بني إسرائيل في إسقاط الخلافة الإسلامية وتمزيق أقطارها تركة منهوبـة

(١٥) عائشة عبد الرحمن، الإسرائيليات في الغزو الفكري، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٥، ص ٢٦.

لأولياء اليهود من المستعمرين"[١٦] ، فلقد"تواطأت الصهيونية وأولياؤها الاستعماريون مع جماعة الدونمة التركيـة علـى عزل السلطان عبد الحميد الثاني"[١٧]. ثم" لم تلبـث معاهـدة سايكس – بيكو التي عقدت عام ١٩١٦ إن قضـت بتوزيـع تركة الدولة العثمانية على المستعمرين ورثة ثأر الصـليبية وأولياء اليهود"[١٨].

أما بالنسبة للحروب الصليبية، فإن الصليبيين كان مـن ورائهم جميعا عصابات اليهود، سدنة خـزائن المـال فـي أوروبا، والقابضون على الخيوط المحركة لقـادة الصـليبية والاستعمار[١٩].

وكذلك كان الأمر بالنسبة للاحتلال الفرنسـي للجزائـر الذي كان يحمل في ظاهره علم المطامع الاستعمارية لدولـة أوروبية كبرى، تريد أن تنافس بريطانيا العظمى في السباق على مناطق السيطرة والنفوذ... ولحساب يهود فرنسـا فـي

---

(١٦) المرجع السابق، ص ٢٩.

(١٧) المرجع السابق، ص ٣٠

(١٨)المرجع السابق، ص ٣١

(١٩) المرجع السابق، ص ٣٣

الواقع، كان اجتياح المستعمرين لأرض الجزائر وقبضـتهم على كل مواردها الاقتصادية. وقد تركـوا لورثـة نـابليون مظاهر السيادة وزهو السلطة... [٢٠]

كذلك فإن الاحتلال البريطاني لم يكن في حقيقته سـوى مؤامرة يهودية، إذ يقول الكتاب:"اليهود كـانوا كـذلك وراء العملية الرهيبة لاحتلال مصر قبل ربع قـرن مـن اتفاقيـة سايكس – بيكو: فتحت بيوتهم المالية بفرنسا فمولت الدعايـة لمشروع حفر قناة السويس... ثم تآزر يهود أوروبـا علـى اصطياد الخديوي إسماعيل بقروض أغروه بها للإنفاق على الاحتفال الباذخ بافتتاح قناة السويس.. حتـى إذا اسـتغرقته الديون... ولم يبق لمصر ما تبيعه للـدائنين كانـت رقابـة صندوق الدين على المالية المصرية احتلال اقتصاديا يهوديا محضا، أفضى إلى إلحاق مصر بأوروبا على قصف مـدافع البوارج الحربية الإنجليزية لثغر الإسكندرية سنة ١٨٨٢م، ثم

---

(٢٠) المرجع السابق، ص ٣٩

اغتصاب أرض الكنانة وضمها إلى محميات التاج البريطاني سنة ١٩١٤م... [٢١].

وليس ذلك – من وجهة نظر الكتاب – بالشيء الكثيـر بالنسبة"... لمحنة العالم بسيادة قوة الوثنية المادية لليهوديـة العالمية، التي جعلت من ساسة العصر وقادة الدول وموجهي مصائر الشعوب أحجارا في اليد الخبيثة على رقعة الشطرنج [٢٢].

وعلى أي حال فإن الأمر لا يقتصر على عالمنا العربي وحده. لقد استطاعت اليـد الخبيثـة أن تسـخر الاسـتعمار لحسابها، وفي وهمه أنه يثأر للصليبية – حتـى فـي الهنـد والصين وأندونيسيا – وأن تجند الدول الكبرى لخدمة الـوثن اليهودي، وفي وهمها أنها تتقاسم مناطق النفوذ والاسـتغلال وتمد سلطانها على أقطار الأرض[٢٣].

---

(٢١) المرجع السابق، ص ٣٤

(٢٢) المرجع السابق، ص ٥٦

(٢٣) المرجع السابق، ص ٥٦

لقد نجح"اليهود" إذن في خـداع الـدول الاسـتعمارية الكبرى وتضليلها، ودفعهـا إلـى إقامـة الإمبراطوريـات الاستعمارية المترامية الأطراف، لمجـرد خدمـة مصـالح اليهود، وتنفيذًا لمخطط المؤامرة اليهودية.

وليس غريبا والأمر كذلك أن تكون الدعوة إلى القومية العربية جزءا مرحليا من هذا المخطط اليهودي الأخطبوطي بدأ بإسقاط الدولة العثمانية، وطويت مآثر ماضـيات الدولـة التي شهدها التاريخ تحمل لواء الإسلام عزيزا منتصرا إلـى قلب أوروبا... ليشهد بعدها شعوب وطننا تركة منهوبة لورثة فريدريك بارباروس، وفيليب أوجست، وريتشارد قلب الأسد، ولويس التاسع الأسير القديس، ومن ورائهم جميعا عصابات اليهود سدنة خزائن المال في أوروبـا، والقابضـون علـى الخيوط المحركة لقادة الصليبية والاستعمار[٢٤].

ويبلغ الكتاب ذروته في عرض تتابع خطوات"المؤامرة اليهودية" على العرب حين يقول تحت عنوان"هكذا سرنا على الدرب الذي خط لنا"رضينا بالعروبة شعارا قوميا في مرحلة

---

(٢٤) المرجع السابق، ص ٣٢

التحضير لنهاية الخلافة الإسلامية. ثم لما إن صارت باعـث نخوة، نسخوا كل ما نشروا فينا من عطاء (حضارة العرب) وأغرونا بأن نسـتبدل بهـا وطنيـة العصـبيات الشـعوبية الموروثة، ثم لما أرهف إحساسنا بمهانة الاستعباد الـذي لا يجوز على ورثة حضارات بابل وآشور والفراعنة والفينيقيين والبربر، نسخوا من أنفسنا هذه أيضا وأرهقونا بعقدة النقص تجاه الشرقية العتيقة، والعربية البدوية، والإسلامية السـلفية وأخذنا بفتنة العصرية العربية المتحضرة وتوزع انتماؤنا إلى شتى المدارس والثقافات[٢٥].

ولا يفوت الكتاب أن يحمل المؤامرة اليهودية العالميـة مسئولية انتمائنا إلى الجنس السامي حيث يقول" وفي دراستنا لشخصية الأمة: جنسا ولغة، ألقى اليهود إلينا من إسرائيلياتهم بذرة السامية ثم تركوا لنا أن نتعهدها نحن بالري والإنبـات حتى أتت أكلها السام [٢٦].

---

(٢٥) المرجع السابق، ص ٦٣

(٢٦) المرجع السابق، ص ٦٥

ويمضي الكتاب مدينا لهذه الفكـرة مبينًـا"أخطارهـا" موضحا الفروق العرقية بيننا وبين اليهود، يقول الكتاب"ونلقى عالم اليوم، ونحن نحمل بالسامية التي تنمينا واليهـود إلـى أرومة واحدة، أوزار هؤلاء الذين عرفتهم الـدنيا والتـاريخ أعداء للبشر. ونواجه صراع البقاء وعلى أصولنا ظل يهودي قبيح تنكره طبيعتنا وأعراقنا ويرفضه تاريخنا، ويأباه التنافر من سجايانا المشهود لها بالنخوة والكرم والمروءة والشرف، وغرائزهم المنحطة التي تأصلت فيهم بالوراثة قرونًا وأحقابا. وتنفيه دماؤنا التي لو سيط بها دم يهودي تزايلان حتـى مـا يمس دم دما [(٢٧)]..

ويحدد الكتاب موقفًا واضحا حاسما مـن الـدمج بـين اليهودية والصهيونية والإسرائيلية، مدينًا بـنفس الحسـم أي محاولة للفصل بينها، يقول الكتاب"ونحن نتطوع فنقدم للعـالم وثائق اعترافنا بأبناء عمومتنا، أحدثها فيما قرأت، مقال للسيد محمود دياب نشر في اليوم السابع من شوال سنة ٣٩٢هـ ـ في العدد ٣٠٢ من مجلة العالم الإسلامي التي تصدر بمكـة

---

(٢٧) المرجع السابق، ص ٨٠

المكرمة، منزل الوحي، ومهد النبوة ومثابة حجهم. وعنـوان المقال لافت: صلة إسرائيل بأرض فلسطين صـلة وهميـة والفكرة فيه أن إسرائيل التي ينفي الكاتب صلتها بفلسـطين، هي جماعات الطارئين عليها ممن يدينون بالصـهيونية أمـا غيرهم من اليهود الأصليين فهم منا وأن حاولت الصـهيونية العالمية أن تفرق بيننا؟... اللهم عفوك ورحمتك. عالم اليـوم ليس بحيث يجوز عليه هذا المنطق في التفرقة بـين يهـود ويهود، والقول بأن الطارئين منهم لا صلة لهم بالقدامى[٢٨].

خلاصة ما يريد الكتاب قوله هو أنك أينما وليت وجهك شرقًا أو غربا فاليهود أمامك، وحيثما نقبت في تاريخنـا أو تاريخ غيرنا فأصابع اليهود واضحة فاعلة، وأيا كان الفكـر الذي تتبناه أو يتبناه غيرك فأنت واقع لا محالة فـي حبائـل اليهود سواء كنت قوميا عربيا أو ماركسيا أمميـا أو حتـى شعوبيا فرعونيا أو فينيقيا، وحتى لو التزمت بالفكر الإسلامي وحده فالحذار الحذار فلقد تسربت الإسرائيليات إلى كثير من

(٢٨) المرجع السابق، ص ٨١

كتب التراث والتفسير قديمها وحديثها على حد سـواء [٢٩].
ولابد لك من صحبة دليل متخصص يصحبك ليجنبك مواطن الزلل، على ألا يكون هذا الدليل المتخصص ممـن مسـتهم المؤامرة اليهودية. حقًا اللهم عفوك ورحمتك. ما زال للمنهج المثالي غير العلمي مكانًا مرموقًا في الفكر العربي المعاصر بعد كل ما حدث. ولذلك فإن علينا من البداية أن نطرح – من وجهـة النظـر العلميـة – تعريفًـا محـددا لمـا نعنيـه بمصطلح"التجمع الإسرائيلي".

يسعى الصهاينة بلا هوادة إلـى تمييـع الحـدود بـين الإسـرائيلي والصـهيوني واليهـودي حتـى أن المـؤتمر الصهيوني السابع والعشرين الذي أنعقد عام ١٩٦٨، يقـرر بوضوح أن محاولة التفريق بين الصهيونية وبـين الشـعب اليهودي محاولة إجرامية لتضليل الرأي العـام [٣٠]. ويقـول ليفي أشكول في كلمة له في هذا المؤتمر"إن الصهيونية هـي

---

(٢٩) المرجع السابق، ص ٨٣ – ١٧٢.

(٣٠) المؤتمر الصهيوني السابع والعشـرون ١٩٦٨، مؤسسـة الدراسات الفلسطينية.

أم الثورة اليهودية. فهي التي جاءت بي وبمن سيأتي بعد ذلك إلى أرض إسرائيل. نحن يهـود، إذن نحـن صـهيونيون. فأعداؤنا لا يربطون العداء للسامية بالصهيونية عبثًا. وفـي الوقت الذي يتعرضون لنا يقولون إنهم ليسو ضد اليهود ولا سمح الله بل ضد الصهيونية فقط، الصـهيونية تتماثـل فـي نظرهم مع اليهودية" [٣١].

ولقد ورد في مقدمة قرارات المؤتمر الصهيوني المشار إليه ما نصه"أهداف الصهيونية هي: وحدة الشعب اليهـودي في وطنه التاريخي أرض إسرائيل بالهجرة من جميع البلاد. تدعيم أرض إسرائيل القائمة على نبوة الأنبياء فـي العـدل والسلام. المحافظة على خاصية الشـعب بتطـوير التربيـة اليهودية والعبرية وبث القيم الروحية والتربويـة اليهوديـة. الدفاع عن حقوق اليهود في جميع الأماكن التي يقيمون بهـا [٣٢].

---

(٣١) المرجع السابق، ص ٥٠٥

(٣٢) المرجع السابق، ص ٩٨١

ذلك بالتحديد هو ما يسعى غليه الصهاينة. ونستطيع أن نوجز ما نراه مـن تمـايز بـين اليهوديـة والإسـرائيلية والصهيونية في الحقائق العلمية التالية:

الحقيقة الأولى: ليس كل صـهيوني إسـرائيليا... ولا العكس.

على الرغم من أن الصهيونية تقوم – فكرا وممارسة – على دعوة اليهود لاستيطان فلسطين كـوطن قـومي، إلا أن التجمع الإسرائيلي حتى اليوم لا يضم صهاينة العالم جميعـا. ويكفي أن نلقى نظرة سريعة على بيانات الجـدول رقـم"١" الذي يضم نتائج عملية الإحصاء التي تمت تنفيذًا لقرار اللجنة التنفيذية الصهيونية الذي اتخذ في يوليو ١٩٦٩، وقد انتهـت عملية الإحصاء هذه في يونيو ١٩٧١م. وتشير أرقام الجدول إلى أعداد اليهود الذين تم تسجيلهم فـي عضـوية المنظمـة الصهيونية العالمية في مختلف البلدان – خارج إسـرائيل – التي تسمح قوانينها بنشاط صهيوني منظم.

الجدول رقم (١) (٣٣)

عدد أعضاء المنظمة الصهيونية العالمية

عام ١٩٧١

اسم البلد	عدد الأعضاء	اسم البلد	عدد الأعضاء
النمسا	١٥٠٢	زامبيا	١٥٦
استراليا	١٢٤٥٤	اليونان	٤١٥
أوراجواي	٨٤٠٠	المكسيك	٣٣٥٠
إيطاليا	٣٥٠٠	أميركا الوسطى	٩٢٧
أكوادور	١٥٠	النرويج	٢٣٥
الأرجنتين	١٩٦٦٠	نيوزيلندا	٣٤٧
الولايات المتحدة	٦٤٥٦١٦	فنلندا	٣٢١
بوليفيا	٢٥٠	براجواي	١٣٠
البرازيل	١١٥٠٠	بيرو	١١٠٠
بريطانيا	٦٩٥٠٠	تشيلي	٢٠٠٠

---

(٣٣) هاني عبد الله، "المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين" شئون فلسطينية أبريل ١٩٧٢م، ص ٣١ – ٣٢.

ألمانيا	٢٥٣٠	فرنسا	٤١٠٦٠
الدانمارك	١٢٣٩	كولومبيا	١٣٥٠
جنوب أفريقيا	٢٣٠٠٠	كندا	٣٢٠٠٠
الهند	٧٠٢	روديسيا	١٧٨٦
هولندا	٢٣٦٨	السويد	٣٠٧٤
أيرلندا	٧٢٥	سويسرا	٥٠٠٠
فنزويلا	١٨٠٠		

تشير بيانات الجدول السابق إلـى أن ثمـة ٨٩٨,١٤٦ صهيونيا عاملاً منظما يوجدون خارج التجمـع الإسـرائيلي الـراهن. وتثيـر هـذه الحقيقـة جـدلاً لا ينقطـع بـين صهاينة"الداخل" وصهاينة"الخارج". أمـا الصـهاينة خـارج التجمع الإسرائيلي فيحاولون جهدهم إبراز أهمية ما يقومون به كصهاينة من مواقعهم خارج التجمع الإسرائيلي، ومـدى حيوية هذا الدور سواء بالنسبة للصهيونية أو بالنسبة لوجـود التجمع الإسرائيلي ذاته، ومدى ارتباط فعاليتهم بوجودهم في الخارج، أما الصهاينة داخل التجمع الإسرائيلي فإن لهم رؤية مختلفة، إنهم يرون أن جوهر الصهيونية إنما يتمثل في هجرة اليهود إلى التجمع الإسرائيلي ومن ثم فـإن أولئـك الـذين

يحجمون عن الهجرة، إنما يتنكرون لصهيونيتهم. ولقد شـهد المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون الذي انعقد في القـدس في يناير ١٩٧٢ واقعة توضح المدى الذي بلغه هذا الخلاف، فلقد تقدم يجيئيل ليكيط زعيم شباب حزب العمل الإسـرائيلي باقتراح مؤداه"إننا نريد أن نفرض على كل صهيوني واجـب الهجرة إلى إسرائيل. فليتوقفوا عن الحـديث عـن الهجـرة وليهاجروا فعلاً. وفي طليعتهم الزعماء ليكونوا قـدوة حيـة للشباب اليهودي. إننـا نقتـرح عقوبـات أيضـا: الـزعيم الصهيوني الذي لا يهاجر إلى إسرائيل خلال أربع سـنوات من انتخابه لا ينتخب مرة أخرى لأي منصـب صـهيوني". ولقد أثار هذا الاقتراح الذي باركتـه الأوسـاط الصـهيونية الإسرائيلية ردة فعل عنيفة لدى ممثلي المنظمات الصـهيونية التي تعمل في الخـارج، وخاصـة المنظمـات الصـهيونية الأمريكية الممثلة في المؤتمر حتى أن رئيسة منظمة هداسـا النسائية وهي إحدى المنظمات الصـهيونية الرئيسـية فـي الولايات المتحدة قد أعلنت أن منظمتها قد تضطر للانسحاب

إذا ما جرت محاولة لوضع مثل هذا الاقتراح موضع التنفيـذ الفعلي[٣٤].

التجمع الإسرائيلي إذن لا يضم كل صهاينة العام. وثمة صهاينة يهود يتعصبون لصهيونيتهم كاشد ما يكون التعصب ورغم ذلك فإنهم يمانعون في الهجرة إلى إسرائيل كاشد مـا تكون الممانعة. ترى علام تدل هذه الحقائق التي تتفق تمامـا مع ما ينبئنا به المنهج العلمي؟ إنها لتؤكد أن الصهيونية تيار فكري سياسي. وما دام الفكر أيا كان نوعـه، ومهمـا كـان تقديرنا لتأثيره، لا يعدو أن يكون نتاجا للظروف الاجتماعيـة المادية، فإنه بذلك لا يمكن له وحده أن يحدد سلوك الأفـراد، وبذلك فإن الفكر الصهيوني – رغم شراسة الدعاية له – لـم يكن ليقنع اتباعه مهما غلوا في تعصبهم له بالهجرة من بلاد الرخاء إلى التجمع الإسرائيلي.

وإذا كان صحيحا أن الجنسـية الإسـرائيلية لا تغطـي صهاينة العالم جميعا. فإنه لصحيح كـذلك أن ثمـة يهـودا

---

(٣٤) "المؤتمر الصهيوني بعد ٧٥ عاماً" نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ملحق العدد رقم ٤ ١٦٠/ ١٩٧٢/٢، ص ٩٩.

يحملون الجنسية الإسرائيلية ورغم ذلك فإنه يختلفـون مـع الفكر الصهيوني من منطلقات متباينة، وبـدرجات متفاوتـة. وقد يبدو ذلك غريبا من وجهة النظر المثالية غيـر العلميـة ولكن فلننظر إلى بعض الأمثلة الواقعية.

١- جماعة الناطوراه كارتا:

وهي جماعة صغيرة الحجم من اليهود الفلسطينيين الذين ظلوا في فلسطين منذ الزمن القديم، وهذه الجماعـة تـرفض الصهيونية من منطلق دينـي يهـودي ولا تعتـرف بدولـة إسرائيل، وتعتبرها ثمرة"الغطرسة الآثمة" لأنها قامت على يد نفر من الكافرين الذين خرقوا مشيئة الله بعملهم وتدخلوا فـي صنعه بدلاً من انتظار الماشيح الموعود. فالماشيح المنتظر – في رأي هذه الجماعة – هو وحده القادر على إقامة الدولـة حيث تكون"مملكة للكهنة والقديسين" ولكن اللادينيين أقـدموا على اغتصاب مهمته والتبكير بها. ولقد سارع أعضاء هـذه الجماعة غداة قيام الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨م إلى إبـلاغ الأمم المتحدة برأيهم في ضرورة تدويل القدس. وما زالـت هذه الجماعة تقطن بأكملها في حي"ميئا شعاريم" بالقدس.

٢- حزب ماكي:

وقد ظل هذا الحزب الإسرائيلي معاديا للصهيونية حتى عام ١٩٦٥م حين تغير موقفه منذ ذلك الحين وانشق عليه من اختلفوا معه في هذا التغيير وقد كان هذا الحزب فـي فتـرة عدائه للصهيونية يرفض الاعتراف بالعلاقة بـين إسـرائيل ويهود العالم، ويطالب بإنشاء دولة للفلسطينيين طبقًا لقـرار التقسيم.

٣- حزب راكاح:

وقد تشكل هذا عام ١٩٦٥م نتيجة لانشقاق حزب ماكي. ويعارض حزب راكاح الصهيونية صراحة. ويعتبرها حركة رجعية تسيطر عليهـا البرجوازيـة اليهوديـة، وتسـتغلها الأمبريالية العالمية للسيطرة على الشرق الأوسط. ولقد أدان راكاح العدوان الإسرائيلي عام ١٩٦٧م وطالب بالانسـحاب الفوري من جميع الأراضي المحتلة. وقد ورد في مقـررات المؤتمر السادس عشر لهذا الحزب والذي انعقد فـي مطلـع عام ١٩٦٩م أنهم"يدحضون على الدوام النظريـة اليهوديـة الرجعية – عن وجود ما يسمى بالأمة اليهوديـة العالميـة – التي تفتقد أية صلة بالواقع والتي تدعى وكأن يهود العـالم، الذين يعيشون في بلدان مختلفة وفي ظـل أنظمـة متباينـة،

يشكلون أمة واحدة بغض النظر عن عدم وجـود علاقـات اقتصادية وجغرافية وثقافية ولغة وتقاليد واحدة. أي في ظـل غياب كل الشروط اللازمة لقيام الأمة".

٤- الماتزبن:

تنظيم سياسي إسرائيلي معاد للصـهيونية، تكـون فـي أوائل الستينيات ويرى"المـاتزبن" أن التجمـع الإسـرائيلي الاستيطاني قد أقامه الاستعمار ومـا زال يدعمـه عسـكريا وماليا لضرب حركات التحرر الوطني.

ونستطيع أن نمضي في سرد قائمة من أسماء الجماعات والتيارات الفكرية المعادية للصهيونية أنم المختلفة معها على الأقل والقائمة بين يهود الكيان الصهيوني ورغم صغر حجم هذه الجماعات نسبيا فإن وجودها ذاته يعد دليلاً حاسما على وجود يهود إسرائيليين معادين للصهيونية بل أن عداء بعض هذه المنظمات للصهيونية قد وصل إلى حد أن"مجلس السلام من أجل إسرائيل وفلسطين" – وهو إحدى هذه التنظيمات – قد أقام حوارا مع بعض أطراف منظمة التحرير الفلسـطينية انطلاقًا من أن المجلس يؤيد قيام دولـة فلسـطينية مسـتقلة عاصمتها القدس. وقد أدى ذلك إلى تقديم آرييه آلياف – وهو

أحد من شاركوا في هذا الحوار من أعضاء المجلس – إلـى المحاكمة والإدانة.

بل أن بعض هذه التنظيمات قـد تخطـى فـي عدائـه للصهيونية مجرد القبول بـالحوار مـع منظمـة التحريـر الفلسطينية إلى حد المشاركة في النضال المسلح ضد الكيـان الإسرائيلي، ومثالنا في هذا الصدد هو ذلك التنظـيم الـذي عرف باسم الجبهة الحمراء، والذي قدم أحد أعضائه ويدعى آهوداديف إلى المحاكمة حيث أدين بتهمة التخريب وعلى أي حال فإن ياسر عرفان رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية والقائد العام لقوات الثورة الفلسطينية في خطابـه الذي ألقاه على مسمع من العالم في الجمعية العامـة للأمـم المتحدة، في دور انعقادها العادي التاسع والعشرين، لم يفتـه أن يصف آهوداديف بالمناضل اليهودي يقول ياسر عرفـات (لقد وقف المناضل اليهودي آهوداديف في المحكمة العسكرية الإسرائيلية قائلاً: أنا لست مخربا... أنا من المؤمنين بإقامـة الدولة الديمقراطية على هذه الأرض. وهو الآن في غياهـب سجون الزمرة العسكرية الصهيونية مع زملائه.

خلاصة القول إذن أن الصهيونية تيار فكـري يسـري عليه ما يسري على غيـره مـن التيـارات الفكريـة وأن الإسرائيلية جنسية يسري عليها ما يسري على سـواها مـن مفاهيم تتصل بالتشريع والقانون[٣٥].

---

(٣٥) لعل قارئاً يود الاستزادة فيما يتصل بمدى ونوعية المفارقة بين الصهيونية والإسرائيلية، أنظر:

- أسعد رزوق "إسرائيل والحركة الصهيونية في منظـار بـين جوريون وجولدمان". شئون فلسطينية ١٥٠، ١٩٧٢، ١٢٧.
- عبد الحفيظ محارب "ظاهرة الفهود السـود فـي إسـرائيل: أسبابها، وأصولها، شئون فلسطينية ٤٠، ١٩٧١، ١٤٢.
- "المتمردون علىالخدمة العسـكرية فـي إسـرائيل" شـئون فلسطينية، ١٦، ١٩٧٢، ١٣٧. ، "إيسار الإسرائيلي الجديـد/ سيح" شئون فلسطينية، ١٩، ١٩٧٣، ٥٦.
- ، قدري حفني "دراسة في الشخصية الإسرائيلية، الأشكنازيم" جامعة عين شمس – مركز بحوث الشرق الأوسـط، ١٩٧٥، ٨٦.
- ليلى سليم القاضي، (المنظمة الاشتراكية الإسرائيلية ماتسبن)، منظمة التحرير الفلسطينية – مركز الأبحاث، ١٩٧١.

الحقيقة الثانية: **ليس كل يهودي صهيونيا**... **ولا العكس**:

تدل النتائج النهائية للإحصاء الذي أجرته اللجنة التحضيرية للمؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون - والتي سبقت الإشارة إلى بعضها - على أن مجموع الذين تم تسجيلهم في عضوية المنظمة الصهيونية العالمية بلغ ٨٩٨,١٤٦ عضوا في حين يبلغ عدد اليهود في البلدان التي شملها الإحصاء المذكور ٨,٢٨٩,٤٥٠ يهوديا.

ولقد يظن البعض أن الحديث عن يهودي غير صهيوني أنما هو من قبيل المماحكة اللفظية ليس غلا. أو لعله من قبيل اصطياد استثناءات فردية متناثرة لا دلالة لها وقد يتصور البعض أن اليهود جميعا قد قابلوا الصهيونية بالترحاب منذ بدايتها وحتى اليوم بصرف النظر عن انتمائهم للمنظمة الصهيونية العالمية.

، مقابلة مع مسئول في المنظمة الاشتراكية الإسرائيلية، شئون فلسطينية، ٢، ١٩٧١، ٩١.

والحقيقة – تاريخيا – أن ثمة معاداة يهودية للصهيونية بدأت مع بداية الصهيونية ذاتها. ويكفي أن نشير فـي هـذا المقام إلى البيان الصادر عـن هيئـة الحاخامـات الألمـان احتجاجا على دعوة هرتزل لعقد المؤتمر الصـهيوني الأول: يقول هذا البيان" إن الدعوة إلى عقد مؤتمر صهيوني، وإذاعة جدول أعمال هذا المؤتمر أدت إلى بث تصـورات خاطئـة ومضللة عن مضمون التعاليم اليهوديـة، وحـول الأمـاني والتطلعات التي تجيش في نفوس معتنقيها، وهذا مما يـرغم الهيئة الموقعة أدناه على إصدار البيان التوضيحي التالي:

أولاً:

إن مساعي الذين يسمون أنفسهم بالصـهيونيين، وهـي المساعي الرامية إلى تأسيس دولة قومية يهودية في فلسطين، تتنافى مع العقائد المتعلقة بانتظـار مجـيء المسـيح فـي اليهودية، وكما توجد هذه العقائد والتعاليم في الكتاب المقدس، وفي المصادر المتأخرة للديانة اليهودية.

ثانياً:

إن اليهودية تلزم معتنقيها بالعمل في خدمة الوطن الذي ينتمون غليه بكل إخلاص وتفان، والـدفاع عـن مصـالحة القومية من صميم القلب وبجميع الطاقات والإمكانيات...

ويختتم البيان بالدعوة إلى الابتعـاد عـن المحـاولات والمساعي الصهيونية الوارد ذكرها أعلاه، وبنـوع خـاص الابتعاد كليا عن المؤتمر الصهيوني الذي يصرون على عقده رغم كل التحذيرات والتنبيهات التي أطلقـت ضـد الفكـرة والدعوة".

لقد كانت تلك هي البداية. ومنذ ذلك الحين وحتـى الآن ظل ثمة رفض يهودي للصهيونية، قد يتفاوت تأثره من حين لآخر، وقد تتباين منطلقاته النظرية. ولكنه ظل قائما دومـا، إلى الحد الذي لايستطيع معه غلاة الصهيونية إنكار وجدوده، وإن لم يكفوا عن إدانته بشراسة. إن صهيونيا مثل"إسـرائيل جولد شتاين" يقول في خطابه في المؤتمر الصهيوني السـابع والعشرين"من المحتمل أن يهاجر إلى إسرائيل يهـود غيـر

صهيونيين لأسـباب مختلفـة..."[٣٦]. وتقـول الصـهيونية الاسترالية"هانا كسلر" في خطابها في هذا المؤتمر"إن كلمـة صهيوني... أصبحت الآن كلمة مستنكرة لدى أوساط كثيـرة في إسرائيل وفي المنفى..." [٣٧].

وعلى أي حال فإننا نستطيع أن نميز في إطار المعـاداة اليهودية للصهيونية بين تيارات أربعة[٣٨]:

١- الرفض الأورثوذكسي:

ويرى أصحاب هذا التيار أن"عودة اليهود" من الشـتات إلى"أرض الميعاد" لا يمكن أن تتم إلا بمعجزة إلهية. وبالتالي فإن الحركة الصهيونية بمحاولتها اتخاذ خطوات عملية لإقامة وطن"قومي" يهودي، إنما تتدخل في أخـص خصوصـيات الإرادة الإلهية. أي إنها نوع من التجديف والهرطقة وتتجسد

---

(٣٦) المؤتمر الصهيوني السـابع والعشـرون ١٩٦٨م مرجـع سابق، ٤٦٣.

(٣٧) المرجع السابق، ص ٥٢٤

(٣٨) عبد الوهاب المسيري، موسوعة المصـطلحات اليهوديـة والصهيونية، مركز الدراسـات الفلسـطينية والصـهيونية الأهـرام، ١٩٧٥م.

بقايا هذا الاتجاه في جماعة الناطوراه كارتا التـي سـبق أن أشرنا إليها.

٢- الرفض العلماني الاندماجي:

ويرى أصحاب هذا التيار أن اليهود ليسوا قومية وأنـه ليس ثمة تاريخ يهودي وبالتالي فإن حل المسألة اليهوديـة أو مشكلات اليهود كأقليات قومية لن يتأتى غلا عن طريق دمج أو اندماج تلك الأقليات اليهودية في مجتمعاتهـا الأصـلية. ويتمثل هذا الاتجاه في"المجلس الأمريكي لليهوديـة". وهـو تنظيم يهودي معاد للصهيونية تأسـس عـام ١٩٤٣ بهـدف تشجيع اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية على الانـدماج وقد هاجم المجلس اتجاه إقامة الدولة صهيونية سـواء فـي فلسطين أو في غيرها، واعتبره اتجاهـا عنصـريا ضـارا بمصالح اليهود أنفسهم. وأعتبر أن فلسطين بلد من يعيشـون فيها وليست بلد كل يهود العالم. وقد بلغت عضوية المجلـس في مطلع الستينيات حوالي خمسة عشر ألفًـا مـن اليهـود الأمريكيين.

٣- الرفض الاشتراكي

ويرى أصحاب هذا التيار أن حل المسألة اليهوديـة لا يتحقق إلا بحل طبقي شامل. ويتمثل هذا التيار حاليـا فـي الموقف الذي تتخذه قطاعات واسعة من اليسار الجديـد فـي دول الغرب والولايات المتحدة. فضلاً عن موقف اليهود غير الصهاينة في الدول الاشتراكية.

٤- الرفض القومي الدياسبوري:

ويرى أصحاب هذا التيار أن اليهـود يشـكلون أقليـة قومية. ولكنها أقلية تكونت مـن الدياسـبورا (أي المهجـر) ولذلك فإن حل المسألة اليهودية يكون من خلال تقبـل هـذه الحقيقة الأساسية والتعايش معها.

لعل ذلك يكفي للتدليل على حقيقـة أن اليهـودي لـيس صهيونيا بالضرورة الحتمية ويبقى النصف الآخر من المسألة هل كل صهيوني يهودي. إن الصهيونية كموقف فكري تتمثل – كما أشرنا – في التسليم بأن ثمة مشكلة يهودية وأنه لا حل لهذه المشكلة إلا بإقامة وطن قـومي لليهـود علـى الأرض الفلسطينية. واتخاذ هذا الموقف – فيما نرى – ليس بقاصـر على اليهود وحدهم، بل إننا لنجد بين غير اليهود من يفـوق

في تبنيه للفكر الصهيوني وتعصبه له، الكثير من الصـهاينة من اليهود.

ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك فـإن باسـان الأديـب والكاتب المسيحي الديانـة، الهولنـدي المولـد، الأمريكـي الجنسية، لقد اجتذبته الصهيونية في أعقاب زيارته لفلسـطين عام ١٩٢٥م حيث منح في تلك السنة لقب المواطن الفخـري لمدينة تل أبيب. وأبدى نشاطًا عمليـا متزايـدا فـي تأييـد الصهيونية والدعوة لها من خلال الحرب العالميـة الثانيـة، فضلاً عن إصداره عام ١٩٤٣م كتابه المعنون [(٣٩)]: الحليف المنسي، الذي يتبنى فيه بصراحة وحماس الدعوة إلى تدعيم إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. ولقد استحق باسـان – وبحق – تقدير المـؤتمر الصـهيوني السـابع والعشـرين باعتباره"صهيونيا متحمسا، وصديقًا مخلصا لدولة إسـرائيل كافح من أجل الصهيونية بصفته أديبا وفـي النشـاط العـام

---

(٣٩) Van Passan, P. The forgotten alley Dial Press, ١٩٤٣

أيضا[٤٠] كذلك فقد أبدى المؤتمر نفس التقدير لعدد آخر مـن الصهاينة غير اليهود. ولعل سورنس كان يشير إلى شيء من هذا القبيل خلال حديثه عن جذب الصهيونية لليهود ولغيـر اليهود، مفسرا ذلك بأن الصهيونية قد تجذب اليهود لأنها تقدم لهم موطنًا قوميا، وقد تجذب غيرهم لأنها تكفل لهم تخلصـا من اليهود. ورغم أننا لا نسـلم تمامـا بمـا يـذهب إليـه سورنس[٤١] إلا إننا نتفق معه في إبرازه لوجود صهاينة مـن غير اليهود[٤٢].

---

(٤٠) المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون، ١٩٦٨، مرجع سابق ص ١٠٧٣.

(٤١) Sorensen R. Our Common humanity, J.J. Lynx, (ed.), The future of the Jews :A symposium, Drummonol, ١٩٥٤.

(٤٢) لعل قارئاً يود الاستزادة فيما يتصل بمدى ونوعية المفارقة بـين الصهيونية واليهودية:

- اسعد رزوق المجلس الأمريكي لليهودية: دراسة في البـديل اليهودي للصهيونية، منظمة التحريـر الفلسـطينية، مركـز الأبحاث، ١٩٧٠.

الحقيقة الثالثة: **ليس كل يهودي إسرائيلياً**... **ولا العكس**

اليهودية ديانة وعلى الرغم من أنها بحكـم النصـوص ديانة لا تبشيرية إلا إنها، بحكم الواقع الاجتماعي التاريخي قد تعرضت لما تتعرض له الديانات جميعا من موجات اعتنـاق

- إسماعيل راجي الفاروقي: الملل المعاصرة في الدين اليهودي، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٨.
- داود تلحمي، لقاء مع مكسيم رودنسـون، شـئون فلسـطينية ٨٥/١٩٧٢/٩٠.
- رودنسون مكسيم، "عالم الصـهيونية" الطليعـة (القاهريـة) أغسطس ١٩٦٧، ١٢.،
- ـــــــــ، "إسرائيل والعـرب ومسـتقبل النـزاع" الهلال، أكتوبر ٦٨، ٤.
- ـــــــــ، الصهيونية بـين الاسـتغلال والتبعيـة، الطليعة (القاهرية) يونيو ١٩٧٠، ١٥٨.
- عبد القادر ياسين، "عصبة مكافحة الصهيونية في العـراق"، شئون فلسطينية ١٥٨/١٩٧٢/١٥.
- ماجدة نعمة، منظمة ميثاق إبراهام: ظاهرة اليهودية المعاديـة للصهيونية، شئون فلسطينية، ٧، ١٩٧٢، ٢٢١.

وارتداد على حد سواء. فثمة جاليات يهودية كاملـة تركـت اليهودية وانقطعت علاقتها بها تمامـا، كالجاليـة اليهوديـة الصينية التي تلاشت تماما، أو بالأحرى تلاشـت يهوديتهـا باعتناق أفرادها للكونفوشيوسية[٤٣] كما أن ثمة مجموعـات بشرية كاملة قد اعتنقت اليهودية في وقـت متـأخر نسـبيا، كالخزر الذين كانوا يشكلون دولة مستقلة في جنوبي البحـر الأسود، واعتنق حكام هذه الدولة الديانة اليهودية في القـرن الثامن الميلادي، ثم لم تلبث أن أصبحت اليهودية هي الديانة الرسمية للخزر[٤٤]. كذلك فقد تحول حاكم اليمن في القـرن الخامس الميلادي لليهودية، وظلت مملكته نصف يهودية حتى

---

(٤٣) Rhee, SN. Jawish asslation: The case of Chinese Jews: Comporative studies and history, ١٥, ١٩٧٣, ١١٥.

(٤٤) محمد عمارة، إسرائيل: هل هي سامية؟ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر (القاهرة) ١٩٦٧، ص ٦٨.

عام ٥٢٥ أي حتى سقوطها في أيدي الأحباش والبيـزنطيين .[٤٥]

تلك هي بعض حقائق التاريخ. أما لو نظرنا إلى حاضر التجمع الإسرائيلي فلسوف يتضح لنا على الفور أمرين:

أولاً:

إن الكيان الصهيوني بحدوده التي اغتصبها عام ١٩٤٨م كان يضم ١٦٩ ألفًا من العرب الفلسطينيين من غير اليهود، الذين وصل عددهم إلى ما يجاوز نصف المليون تقريبا. أي إنهم يمثلون حوالي ١٨% من يهود التجمع الإسرائيلي. وذلك يعني ضمن ما يعنيه إن التجمع الإسرائيلي ليس بقاصر على اليهود وحدهم.

ثانياً:

لعله من الحقائق المعروفة إن التجمـع الإسـرائيلي لا يضم يهود العالم، وإن اليهود كانوا وما زالوا أقليات متفرقـة متناثرة. ولكن ترى ما هي نسبة اليهود الذين نجـح التجمـع

---

(٤٥) Roth C.A. Short history of Jewish people, op. cit, p. ١٤٩.

الإسرائيلي في جذبهم إليه؟ فلناق بنظرة سريعة إلى توزيـع اليهود في عالم اليوم (انظر جدول"٢").

ويتضح من البيانات الإحصائية المنشورة أن يهود العالم يبلغون حوالي ١٤,٣٧٠,٦٥٠ ولا يضم التجمع الإسـرائيلي إلا ٢,٧٦٣,٠٠٠ يهوديا، أي ١٩% من يهود العالم فحسب.

خلاصة ما انتهينا إليه أن المنطق العلمي يؤدي بنا إلـى ضرورة التفرقة بين اليهود والصـهاينة والإسـرائيليين وأن الحقائق الموضوعية تؤدي بنا أيضا إلى نفس النتيجة وفضلاً عن ذلك فإن الحق العربي إنما يتدعم ويقوي بـإبراز هـذه النتيجة الموضوعية العلمية.

وعلى أي حال فإن نظرة إلى بعض قـرارات مجلـس جامعة الدول العربية الخاصة بقضية فلسطين لتكشـف لنـا بوضوح أن – الفكر المثالي – غير العلمي لا مجال له فـي الممارسة العملية أيا كان الممارسون وأيـا كانـت طبيعـة ممارستهم. يشير القرار رقم ١٥٧١ الصادر فـي الجلسـة الخامسة من جلسات الدورة ٣١ التي انعقدت في ٢٦ مارس ١٩٥٩م إلى أنه"نظرا لأن الصهيونية تضلل بشـتى الطـرق الرأي العام في أمريكا لا سيما الشمالية منها، ومن ذلك بـث

دعايات مغرضة غير متورعة عن تفسير مزور لبعض نصوص سفر العهد القديم بقصد تبرير نظرية قيام إسرائيل، فإن الهيئة (هيئة خبراء الإعلام للدول العربية) توصي بما يأتي... الاستفادة من مواقف (أ) اليهود غير الصهيونيين (ب) النوادي والجمعيات المناهضة للصهيونية (ج) الشخصيات والمؤسسات الأمريكية المعروفة بصداقتها للعرب.

كذلك فقد تضمنت توصيات اللجنة الدائمة للإعلام العربي والتي قرر مجلس الجامعة الموافقة عليها بالقرار رقم (١٧٥١) الصادر في أول الجلسة السادسة من جلسات الدورة ٣٥، المنعقدة في أول أبريل بتوصية تنادي بضرورة التفريق في كل مناسبة على لسان الرسميين وغيرهم بين اليهود والصهيونيين، ويجب أن تتجه الدعوة ضد الفريق الثاني لا الأول.

الجدول رقم (٢)

توزيع اليهود في العالم[٤٦].

الدولة	عدد اليهود	الدولة	عدد اليهود
الولايـــات المتحدة	٦١١٥٠٠٠	تركيا	٣٠٠٠٠
إسرائيل	٢٧٦٣٠٠٠	شيلي	٣٠٠٠٠
الاتحـــاد السوفيتي	٢٦٤٨٠٠٠	هولندا	٢٢٠٠٠
فرنسا	٥٥٠٠٠٠	سويسرا	٢٠٠٠٠
الأرجنتين	٥٠٠٠٠٠	السويد	١٥٠٠٠
بريطانيا	٤١٠٠٠٠	فنزويلا	١٥٠٠٠
كندا	٣٠٥٠٠٠	الهند	١٤٠٠٠
البرازيل	١٤٠٠٠٠	تشيكوسلوفاكيا	١٤٠٠٠
جنوب أفريقيا	١١٧٩٠٠	كولومبيا	١٣٠٠٠
رومانيا	٩٠٠٠٠	الحبشة	١٢٠٠٠
إيران	٨٠٠٠٠	أسبانيا	٩٠٠٠
المجر	٧٠٠٠٠	تونس	٨٠٠٠

---

(٤٦) نقلاً عن الكتاب السنوي اليهودي، عام ١٩٧٣م.

استراليا	٥٠٠٠٠	بولندا	٨٠٠٠
أورجواي	٤٠٥٠٠	بلغاريا	٧٠٠٠
بلجيكا	٣٧٠٠٠	اليونان	٦٥٠٠
يوغسلافيا	٣٥٠٠٠	بيرو	٥٣٠٠
إيطاليا	٣٢٠٠٠	روديسيا	٥٢٠٠
ألمانيا			

الباب الثاني

تجسيد الوهم

دراسة سيكولوجية للشخصية الإسرائيلية (٤٧).

الفصل الأول: اختيار الطريق

الفصل الثاني: الطائر المهاجر

الفصل الثالث: البحث عن بوتقة

الفصل الرابع: تجسيد الوهم

تلخيص وتقييم

مراجع البحث

تعريف موجز بأهم الأعلام [٤٨].

---

(٤٧) الكتاب الحائز على جائزة الدولة التشجيعية في علم النفس لعـام ١٩٧٢.

(٤٨) نشرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في سـبتمبر عـام ١٩٧١م ضمن منشورات مركز الدراسات الفلسطينية والصـهيونية التـابع لمؤسسة الأهرام بالقاهرة.

الفصل الأول

اختيار الطريق

جوهر الوجود الإنساني

اختيار الأسلوب

التنشئة الاجتماعية... لماذا؟

محاذير وحدود

جوهر الوجود الإنساني

ليس من شك في أن الإنسان منذ وجد على هذه الأرض وسعى في مناكبها وقضية المستقبل تسـتحوذ علـى القـدر الأكبر من اهتمامه. وإذا ما أمعنا النظـر لا تضـح لنـا أن اهتمامه هذا بالمستقبل لم يكن ترفًا ولا تزيدا، فظروف حيـاة الإنسان البدائي لم تكن لتسمح بترف ولا بتزيد. لقـد كانـت قضية"المستقبل" لديه قضية حياة أو موت أعنـي حياتـه أو موته. المستقبل أمامه مليء بالأخطار التي تتهدده مـن كـل صوب وفي كل لحظة. كلها أخطار محتملة أي إنها قد تحدث وقد لا تحدث، فإذا ما حدثت فهو هالك لا محالـة، وإذا لـم تحدث فلسوف تمضي به الحياة. ولكن، أي حياة تلـك التـي يسودها القلق والترقب ويملؤها الفزع والرعب أيبقـى فـي مكانه؟ قد تنهمر عليه السيول فتجرفه، وقد تنفجر من تحتـه البراكين فتدمره، وقد لا يحدث شيء من ذلك على الإطلاق، أيخرج للصيد؟ قد يكون ذلك الحيوان القـادم نحـوه وحشًـا مفترسا لا قبل له بمواجهته وقد يكون صيدا سهلاً فيه إذاؤه. أيأكل هذا النبات؟ قد يكون ساما فيقضي عليه، وقـد يكـون

طيبا فيشبعه. قد يكون مرا حنظلاً لا يستساغ، وقـد يكـون مقبولاً شهيا فيه فائدة. ومئات مـن الأسـئلة أو لنقـل مـن المشاكل طرحت نفسها على الإنسان منذ وجد، آخذه بخناقة، دافعه به إلى دوامة من القلق تهدد وجوده، وتكاد أن تقضـي عليه.

ولم يكن من حل أمـام الإنسـان إلا أن يعـرف... أن يعلم... لم يكن أمام الإنسان البدائي لكي يكفل أمنًا لوجـوده ولكي يضع بالتالي نهاية لقلقه، لم يكن أمامه غلا أن يعـرف أن يعلم. أن يعرف ما إذا كان معرضـا لسـيل جـارف أو لبركان مدمر. أن يعلم أي الحيوانات تصلح لإذائـه، وأيهـا يصلح هو لإذائها. أن يعلم أي النباتات سام وأيها طيب، أيها مر وأيها مستساغ. وبناء على معرفته تلك بالمستقبل يستطيع أن يتخذ قراراته. فإذا أدت به معرفته إلى أن مكانه سـوف يتعرض لبركان أو لسيل أو لزلزال. اتخذ سبيله بعيدا عنـه. وإذا أدى به علمه إلى أن ذلك النبات سـام أي إنـه سـوف يفضي إلى موته إذا ما أكله، أو أن طعمه سوف يكون مرا، اجتنبه ولم يقربه. وإذا أدت به معرفته إلى أن ذلك الحيـوان القادم نحوه سوف يتمكن من افتراسه اتخذ حذره منه.

كانت المعرفة لدى الإنسان البدائي تعني الأمن والحيـاة وهي ما زالت كذلك حتى يومنا هذا بصورة أو بأخرى ولـو تصورنا جوهر تلك"المعرفة" البدائية أو ذلك"العلم" البـدائي، لما وجدناه يختلف، من حيث جوهر العمليات السـيكولوجية التي تحكمه، ولا من حيث الدوافع الأصيلة التي تدفعـه، ولا حتى من حيث الأهداف التي يسعى غليها عن المعرفة والعلم في أي عصر وفي أي مكان ولنتأمل كيـف حصـل ذلـك الإنسان البدائي علمه، أو كيف حصل معرفته ولماذا حصلها أو ما الذي فعله بها. لقـد حقـق الإنسـان البـدائي علمـه بملاحظته لأحداث مضت. أحداث وقعت له أو لغيره ورآهـا ففسرها وتوصل على فهم لها ومعرفة بها. وتمكن بناء على تلك المعرفة وذلك الفهم من التوصل إلى تنبؤ بمـا سـوف يحدث. وبالتالي أقدم على ما أقدم عليه وهو أكثر اطمئنانًـا وتجنب ما تجنبه وهو أكثر أمنًا كانت تلك هي كيفية المعرفة، وهدف المعرفة منذ وجد الإنسان. وما زالت تلك هي الكيفية حتى الآن وإن اختلفت الوسائل وتعددت، وما زال ذلك هـو الهدف وإن تباينت الصور واتسعت المجالات.

إذن فالعلوم جميعا مهما اختلفت، وتعـددت، وتباينـت صورها ومجالاتها، لا تعدو أن تكون في النهايـة اسـتقراءا لوقائع حدثت وتنبؤًا بوقائع سوف تحدث. قد يتعمد الإنسـان أن يحدث تلك الوقائع ليستخلص منها مـا يستخلصـه مـن تنبؤات، كما يحدث مثلاً في بعض تجارب الكيمياء والطبيعة وقد ينتظر حدوث تلك الوقائع ويقوم برصدها ليصـل إلـى تنبوءاته كما هو الحال في دراسات علم الفلك وبعض فروع الطب أيضا، وقد يرجع إلى وقائع حدثت فيما مضى وانتهت وسجلها آخرون ليعيد تفسيرها واصلاً بذلك إلى تنبؤاته كمـا يحدث في علم التاريخ مثلاً. وغير ذلك من السبل كثير يفوق الحصر. ولكن يبقى الخط العام واحدا. معرفـة بمـا حـدث وتفسير له، وتنبؤ بما سيحدث، واستعدادا له.

ولا تعني وحدة الخط العام الذي يتخذه الإنسان في سبيل وصوله إلى المعرفة واستفادته منها، إهـدارا للتمـايز بـين مختلف العلوم. فالعلوم تختلف من حيث مجالات تلك المعرفة المتخصصة التي تستهدفها. وإذا كان مجال العلوم الطبيعيـة هو دراسة ظواهر الطبيعة وهي بالتالي تنقسـم إلـى علـوم تختص بالكيمياء والفلك وما إلى ذلك، فـإن مجـال العلـوم

الإنسانية هو دراسة الظاهرة الإنسانية بهدف التنبؤ بمسارها. وهي بالتالي تنقسم إلى علوم تختص بالاقتصـاد والاجتمـاع والتاريخ والسياسة، وما إلى ذلك. فعلم الاجتماع – مـثلاً – يأخذ على عاتقه محاولة الوصول إلى معرفة القوانين العامة التي تحكم حركة المجتمعات نشأتها وذبولها، تكتلها وتفككها، تمايزها واندماجها، وذلك بهدف التنبؤ بمستقبل أو بمسار تلك الحركة. والأمر شبيه بذلك أيضا بالنسبة لعلـم الاقتصـاد – مثلاً – الذي يهدف إلى محاولة الوصول إلى معرفة القوانين التي تحكم العلاقات الاقتصـادية المتبادلـة بـين الأفـراد وبعضهم، وبين الجماعات وبعضها بهدف الوصول على تنبؤ بمستقبل أو بمسار تلك العلاقات. وعلى ذلك فإن مهمة علـم النفس هي محاولة الوصول إلى القوانين العامة التي تحكـم سلوك الأفراد بهدف التنبؤ بمستقبل أو بمسار ذلك السلوك.

والحقيقة إنه لم يكن أحوج منا في ظروف ما بعد يونيو عام ١٩٦٧م لمثل هذا الفهم لقضية المعرفة باعتبارها قضية وجود وأمن قبل أي شيء، وباعتبارها أيضـا معرفـة بمـا حدث، وتفسير له، وتنبؤ بما سيحدث، واستعدادا له. وإذا كنا لا نفتقد قدرا من التسليم بأهمية توفير ذلـك الفهـم المحـدد

للمعرفة فيما يتصل بمجـال العلـوم الطبيعيـة. أي تسـليم بضرورة ما يسمى بالثورة التكنولوجية أو التقدم التكنولوجي باعتباره قضية وجود وأمن، فإننا في حاجة إلـى تأكيـد أن تحقق مثل تلك المعرفة التكنولوجية سـوف يكـون قاصـرا بالتأكيد إذا لم يواكبه تحقق قدر معقول من المعرفة بالإنسان. بل لعلنا لا نجاوز الحقيقة كثيرا إذا ما اعتبرنـا إن المعرفـة التكنولوجية آنذاك سوف تفقد قيمتها الإنسـانية كليـة... إن قضية المعرفة بالإنسان ليست تزيدا ولا ترفًا، بل هي أساسا قضية وجود الإنسان وأمنه. وهزيمة يونيو عام ١٩٦٧م لـم تكن – فيما نرى راجعة فحسب إلى تخلفنا التكنولوجي وتقدم الأعداء تكنولوجيا وإن كان ذلك عاملاً جديرا بالنظر – بـل أيضا إلى تخلفنا في فهم الإنسان، أو بالتحديد"فهـم العقليـة الإسرائيلية".

ترى ما الذي يحول دون الإنسان والمعرفة؟ مـا الـذي يجعل إنسانًا يسعى إلى المعرفة وآخرا لا يقدم علـى ذلـك السعي؟ ما الذي يجعل إنسانًا يحصل معرفـة خاطئـة بينـة الخطأ ومع ذلك يطمئن إليها ويستكين، وآخر يحصل معرفة لا تخلو من صواب ومع ذلك لا يكف عن محاولة تطويرهـا

وإعادة اختبارها وإمعان النظر فيها؟ ليس ثمة ما يفسر ذلك
إلا إن المعرفة في النهاية عملية صراع. صراع مع الجهل
والتجهيل. صراع – شأنه شأن أي صراع آخر – تكتنفه
احتمالات الإخفاق والفشل، وتلوح له احتمالات النجاح
والتوفيق وإذا كان الجهل خطرا يهدد ذلك الصراع بالإخفاق،
فإن التجهيل – أعني فرض المجهلة – أشد خطورة وتهديدا.
فالجهل بالشيء لا يعني بالضرورة كفا لمحاولات معرفته،
ولا يفرض قيدا على تلك المحاولات، بل لعله يكون دافعا –
وهو يكون كذلك بالفعل – لبذل المزيد من محاولة المعرفة.
أما التجهيل فخطورته إنه محاولة للإيهام بالمعرفة أو لتوهم
المعرفة. محاولة قد يتعرض لها الإنسان من قبل الآخرين
ممن يحاولون لسبب أو لآخر الحيلولة بينه وبين السعي
للمعرفة وتحصيلها فلا يجدون أفضل من إيهامه بأنه يعرف،
فينتفي قلقه، ويطمئن لذلك ويستكين. عازفًا عن بذل محاولة
جديدة للمعرفة تكلفه جهدا وقلقًا. ويمضي متمسكًا بما يعرفه،
أو بما يتوهم أنه يعرفه رافضا التخلي عنه، مستخلصا منه ما
شاء من تنبؤات، واضعا على أساسه ما شاء من خطط. ثم
إذا بكل ذلك يتحطم على صخور الحقيقة.

مهمتنا إذن – أعني مهمة المشتغلين منا بعلوم الإنسـان – أن نبذل كل ما في طاقتنا لنحقق معرفة صـحيحة بواقـع الإنسان الإسرائيلي محاولين قدر ما وسعنا الجهد أن نخترق حواجز الجهل وأن نحذر مزالق التجهيل. وصـحة معرفتنـا بواقع الإنسان الإسرائيلي تتوقف على اتخاذ تلـك المعرفـة لمسارها الصحيح، أي أن تكون معرفة بما حدث وتفسير له، وتنبوء بما سيحدث، واستعداد له. وذلـك يعنـي – بعبـارة أخرى – أن الدراسة الموضوعية لواقع الإنسان الإسـرائيلي المعاصر لا يمكن أن تكتمل إلا في ضوء تاريخ ذلك الواقع. أعني أنه لابد من قدر من النظر إلى الماضـي يكفـل فهـم الحاضر بحيث يمكن آنذاك استشراف المستقبل، ويواجهنا هنا اختيار صعب، أو على الأصح تواجهنا ثلاثة مزالق للتجهيل ينبغي أن نأخذ حذرنا منها:

أولاً:

ينبغي أن نحذر من أن يشدنا الماضي بما تتميـز بـه وقائعه من اكتمال بحيث يلهينا عن الحاضر وبالتالي يشـوه تصورنا للمسـتقبل. أعنـي أن يجتـذبنا"تـاريخ" الإنسـان

الإسرائيلي فنؤمل أن نجد فيه بغيتنا قافزين منه مباشرة إلـى التنبؤ بالمستقبل دون أن نولي اهتماما كافيا للحاضر.

ثانيًا:

ينبغي أن نحذر أيضا من أن يجتذبنا الحاضر بما تتميز به وقائعه من حيوية ظاهرة بحيث يلهينا عن الماضي، ويحد من تصورنا للمستقبل. أعني أن يجتذبنا الواقـع الإسـرائيلي المعاصر بما يعتمل فيه من أحداث يومية فنؤمل أن نجد فيه بغيتنا دون أن نعير انتباها كافيا للماضي. مستخلصين منـه مباشرة ما نود استخلاصه من تنبؤ بالمستقبل مما يحد مـن مدى ذلك التنبؤ.

ثالثًا:

ينبغي أن نحذر كذلك من أن يجتذبنا المستقبل بما يتميز به من أهمية عملية بحيث يلهينا عـن الاهتمـام بالماضـي ويجعل تفهمنا للحاضر تفهما متسـرعا مبتسـرا. أعنـي أن يشغفنا الحرص على استشراف مستقبل الإنسان الإسـرائيلي والتنبؤ به بحيث نندفع إليه مسرعين دون أن نولي اهتمامـا كافيا لماضي ذلك الإنسان، ودون أن نمعن النظر في حاضره وبالتالي تكون تنبؤاتنا ضربا من التخمين الـذي لا يصـمد

طويلاً أمام الواقع الموضوعي ولا حتى أمام الاختبار العلمي.

لابد لنا إذن من قدر من المعرفة بالماضي، وقدر من المعرفة بالحاضر وقدر من استشراف المستقبل بحيث لا يطغى أي منها على الآخر.

وهناك خطورة أخرى ينبغي أن ننتبه لها ونحذرها. إن هدفنا النهائي هو أن نلقى الضوء قدر ما نستطيع على الطابع العام لتصرفات الأفراد الإسرائيليين في المستقبل. ولكن من الذي يملك التنبؤ العلمي بذلك المستقبل؟ إن الأفراد في أي مجتمع إنما يتصرفون استجابة لواقع اجتماعي معين، وكلما تغير ذلك الواقع الاجتماعي – وهو متغير دوما – تغيرت تصرفاتهم حياله ومن خلاله. على من إذن تقع مهمة تقديم التصور العلمي لمستقبل الواقع الاجتماعي الإسرائيلي؟ أي بعبارة أخرى على من تقع مهمة تقديم التصور العلمي لمستقبل إسرائيل كظاهرة؟ ينبغي أولاً أن نحذر من أن ننزلق إلى القول – ادعاءا – بأنها مهمتنا نحن المشتغلين بعلم النفس. فهي ليست بمهمتنا وحدنا، ولا ينبغي لنا أن ندعي غير ذلك ولا حتى أن نطمح إليه. إنها مهمة العلوم الإنسانية

جميعا. عليها جميعا أن تخوض التجربة وتتبع نفس الطريق. على المشـتغلين بعلـم الاقتصـاد أن يقـدموا تصـورهم الموضوعي لمستقبل الاقتصاد الإسرائيلي. وعلى المشـتغلين بعلم السياسة أن يقدموا لنا تصورهم الموضوعي للمسـتقبل السياسي للتجمع الإسرائيلي. ثم علينـا أن نقـدم تصـورنا الموضوعي لاحتمالات سلوك الإنسان الإسرائيلي مسـتقبلاً (٤٩).

إن واجب الموضوعية العلمية يقتضينا أن نحذر أنفسـنا من الانزلاق إلى ادعاء مهمة تتجـاوز حـدود تخصصـنا العلمي، وواجب الأمانة العلمية يقتضينا أن نحذر غيرنا مـن الركون إلى ما قد نستطيع تقديمه مـن تنبـؤات باعتبارهـا تنبؤات بمستقبل"إسرائيل" وهي لا تعدو – إنصافًا وحقًا – إن

---

(٤٩) انظر : قدري حفني "تأملات سـيكولوجية حـول حـرب أكتوبر"

حرب أكتوبر: دراسات في الجوانب الاجتماعية والسياسية

القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائيـة ومركـز الدراسات السياسية والاستراتيجية بمؤسسة الأهـرام، ١٩٧٤، ص ٩٧

تكون محاولة للتنبؤ باحتمالات سلوك الإنسان الإسرائيلي في المستقبل الذي لا يملك تخصص علمي بمفرده إمكانية طرح تصور موضوعي له.

تبقى بعد ذلك مشكلة هامة تعترض الباحث في العلـوم الإنسانية بعامة وفي علم النفس بوجه خـاص – وتعتـرض بالتالي تناولنا لما نحن بصدده. إن العلم مهما كـان مجـال تخصصه إنما يهدف إلى التوصل إلى القوانين العامة التـي تحكم ما يتناوله من ظواهر كصيغة لتنبـؤه بمسـتقبل تلـك الظواهر. وإذا كان ذلك لا يعد مشكلة بارزة في مجال العلوم الطبيعية فهو يمثل مشكلة ينبغي التنبه لها في مجال العلـوم الإنسانية.

فالبشر أفراد أولاً وأخيرا، وعموميـة القـانون تعنـي بصورة أو بأخرى نفى أو تنحية الفروق الفردية ومن الناحية الأخرى فإن الإغراق في تناول الفروق الفردية يعنـي فـي النهاية إهدار العمومية القانون وبالتالي تقييدا لإمكانية التنبؤ. إنه اختيار صعب آخر. اختيار بين التعمـيم والتخصـيص. ولابد – مرة أخرى – من قدر من هذا وقدر من ذاك. لابـد من تجنب الإغراق في الاهتمام بالتجمعات البشرية الصغيرة

التي يمتليء بها التجمع الإسرائيلي، حتى لا تغرقنا التفاصيل فتحد من عمومية ما قد نصل إليه من تنبؤات ولابد أيضا من أن نحذر الإغراق في التعميم حتى لا نصل إلى تصور لذلك التجمع الإسرائيلي المليء.

اختيار الأسـلوب

هدفنا إذن هو محاولة تحقيق أكبر قدر من الفهم العلمي الموضوعي"للشخصية الإسرائيلية" ودون دخول في التفاصيل الفنية المعقدة لمفهوم"الشخصية" فإن ما نعنيه ببساطة هـو أن نتوصل إلى العوامل السيكولوجية الأساسية التي تحدد سلوك رجل الشارع الإسرائيلي، واضعين في اعتبارنا – قدر مـا نستطيع – كافة ما سبق أن أشرنا غليه من مزالق ومخـاطر تكتنف مهمتنا، خاصة ذلك المنزلق المتعلق بمحاولة الوصول إلى قدر من التـوازن بـين العموميـة والخصوصـية، أي بالتحديد ألا ننسى أن ما أطلقنا عليه اصطلاح"رجل الشـارع الإسرائيلي" ليس في الحقيقة رجلاً واحدا، ولا حتى مجموعة واحدة بل مجموعات شتى.

لقد اجتذبت قضية"سيكولوجية الشعوب" اهتمـام علمـاء النفس منذ زمن بعيد [٥٠]. بل لعل ذلك الاهتمام قد بدأ حقيقة خارج نطاق علم النفس كما نعرفه، وبالتحديد فإنه قد بدأ في تخصص آخر غيـر تخصـص علـم الـنفس هـو علـم الأنثروبولوجيا. أو بتحديد أكثـر فـي ذلـك الفـرع مـن الأنثروبولوجيا الذي يهتم بدراسة الشعوب البدائيـة. ولكـن سرعان ما تخطى ذلك الاهتمام نطاق الأنثروبولوجيا إلى علم النفس، كما تخطى مجال ذلك الاهتمام الشعوب البدائية ليشمل الشعوب الحديثة. ورأينا العديد من الدراسات التي تهدف إلى فهم سيكولوجية الشعب الألماني أو الصـيني أو اليابـاني أو السوفيتي إلى آخره. ولم يبق الأمر قاصـرا علـى مجـرد الاهتمام النظري الأكاديمي ولم يكن ممكنا أن يستمر كذلك – بل سرعان ما تخطت تلـك الدراسـات أسـوار الجامعـات والأكاديميات العلمية لتخدم أغراضا عملية تطبيقيـة كانـت

---

(٥٠) انظر معالجة تفصيلية لتاريخ البحـث فـي سـيكولوجية الشعوب، قدري حفني دراسة سيكولوجية في الشخصـية الإسـرائيلية: الأشكنازيم رسالة دكتوراه، كلية الآداب – جامعة عين شمس، ١٩٧٤.

محدودة في البداية ثم لم تلبث أن اتسع نطاقها وتشعبت أوجه الاستفادة منها. ولعلنـا لا نعـدو الحقيقـة إذا مـا قلنـا أن دراسات"سيكولوجية الشعوب" قد أصـبحت بالفعـل سـلاحا حربيا هاما وحاسما ونعني بالحرب هنا الحرب المسـلحة لا ما يطلق عليه اصطلاحا الحرب النفسية، ولقد استخدم ضدنا هذا السلاح وعلى هذا المستوى بالتحديد في مواجهتنـا مـع إسرائيل عام١٩٦٧، وهو استخدام يستحق أن ننعم فيه النظر. لم يكن ذلك السلاح سرا عسكريا استطاعت مخابرات العـدو أن تظفر به منا. ولم يكن صاروخًا ولا طائرة ولا قنبلة. لـم يكن سوى"سمة سلوكية" يكمن جذرها السيكولوجي في أعمق أعماق تصرفاتنا اليومية البسـيطة، أعنـي سـمة التشـاؤم والتفاؤل. لقد اعتدنا أن نكره من يأتي غلينا بخبر سيء، وأن نتحاشاه ونتجنبه، ونشيح عنه بوجوهنا، ومن الناحية الأخرى فقد اعتدنا أن نكره أن نحمل نحن خبرا سـيئًا، وأن يتـردد المرء منا كثيرا في أن يكون"نذير شؤم".. سلوك يبدو بسيطًا نقدم عليه بلا غضاضة ودون أن نقف أمامه كثيرا. بل أننـا كثيرا ما نقدم – بوعي أو بدون وعي – على تشجيع وتدعيم مثل تلك الاتجاهات على نطاق الأسرة بـل وعلـى نطـاق

المجتمع أيضا."وسمة سلوكية" أخرى تبدو أيضـا وكـأن لا خطر لها بل لعل البعض قد يعتبرها مدعاة للتفاخر، أعنـي الخوف المفرط من الوقوع في الخطأ. الخوف من المحاولة. سلوك ترسب في أعماقنا نتيجـة لخبـرات يوميـة طويلـة استمرت لمئات بل لآلاف السنين، حتى أصبحنا نكاد نربـي أبناءنا على تحاشي المحاولة والتجربة خوفًـا مـن الخطـأ المحتمل"إذا ما صادفك موقف جديد.. أسأل قبل أن تتصرف" هذا هو ما نقوله لأطفالنا، وما قاله كبارنا لنا. وهو أمر يبدو لا غبار عليه وسلوك يبدو وكأنه أقرب إلى السلامة. ولعلنـا أيضا نقدم – بوعي أو بدون وعي – على تدعيم مثل ذلـك السلوك سواء على نطاق الأسرة أو على نطـاق المجتمـع. سمتان سلوكيتان بسيطتان، ولا يمكن اعتبارهما بحال سـرا من الأسرار العسكرية، بل لا يمكن للوهلة الأولى تصور أنه يمكن أن تكون ثمة علاقة بينهما وبين أسلحة القتال. ولكـن فلننظر إلى قول موردخاي هود قائد الطيران الإسرائيلي وهو يتحدث مفسرا إقدامه على"المغـامرة" بإرسـال الطـائرات الإسرائيلية كلها تقريبا لمهاجمة الطائرات المصـرية تاركًـا إسرائيل دون غطاء جوي، يقول:"لقد كان رأي خبرائنـا أن

الصورة لن تكتمل أمام من يملكون حق التصرف من القـادة العسكريين في مصر قبل نصف ساعة، وإنه سيمضي نصف ساعة آخر قبل أن يقرر هـؤلاء القـادة العسـكريون مـاذا سيفعلون، وهذه الساعة كانت كل آمالنا وعلى أساسـها تـم ترتيب كل توقيتات خططنا" (٧٣ ص ٢٤٦) لقد أقدم علـى المغامرة إذن وأمامه هاتان السمتان السلوكيتان التباطؤ فـي إبلاغ الأنباء السيئة، والتردد في التصرف حيـال المواقـف الجديدة. ذلك هو تفسيرنا لحديث موردخـاي هـود ونحـن نختلف في هذا التفسير مع القول بإن ذلـك التبـاطؤ وذلـك التردد لا يعدو أن يكون نوعا من"نقص الانضباط" فنحن نرى أن نقص الانضباط هذا ما هو إلا مظهر لسـمات سـلوكية أعمق جذورا وأبعد تأثيرا ويكفي أن نتصور أن نبأ طيبا قـد حل محل نبأ الهزيمة. ألن يتخذ"نقص الانضباط" آنذاك طابع الإسراع في التبليغ، بل الإسراع في التصرف أيضا؟ ذلك هو الأكثر احتمالاً فالموقف آنذاك لم يكن ليعد بالموقف الجديد بل إنه الموقف الذي كان متوقعا.

إلى هذا الحد بلغت خطورة الدراسـات السـيكولوجية للشعوب، وليس غريبا والأمر كذلك أن تحظى بقدر كبير من

اهتمام علماء النفس وغيرهم. ولو ألقينا نظرة فاحصة علـى القدر المتاح لنا من تلك الدراسات – وهو قدر كبير – بهدف استخلاص الخطوط المنهجية العامة التي اتبعها من تنـاولوا هذا الموضوع من الباحثين، لوجدنا أولاً أن في استطاعتنا أن نقسم تلك الدراسات إلى قسمين أساسيين متميزين:

أولاً:

دراسات قام بها باحثون ينتمون إلـى نفـس المجتمـع القائمين بدراسته، أو على الأقل يقيمون فيه خلال دراسـتهم له. وهم بذلك يستطيعون استخدام ما يرونه ملائما لدراستهم من أدوات ووسائل تعتمد جميعها – غالبا – على الاتصـال المباشر بأبناء ذلك المجتمع. فلهم أن يستخدموا ما شاءوا من اختبارات لقياس الاتجاهات ولقياس القيم السائدة ومـا علـى ذلك. ونستطيع أن نطلق على تلك المجموعة من الدراسـات اسم"الدراسة عن قرب".

ثانياً:

لدينا مجموعة أخرى من الدراسات قام بها بـاحثون لا ينتمون مطلقًا إلى المجتمع الذي يدرسونه. ليس هذا فحسـب بل غالبا ما يكون هناك ما يحول تمامـا حتـى دون مجـرد

اقترابهم من ذلك المجتمع اقترابا ماديا مباشـرا. وغالبـا – أيضا – ما تكون الحاجة إلى مثل ذلك النوع من الدراسـات أكثر إلحاحا وأشد خطرا.

وليس على الباحث إلا أن يقدم على دراسة ذلك المجتمع دون أن يحاول الاقتراب منه، ولذا فلنا أن نطلق على تلـك المجموعة من الدراسـات التـي تسـتهدف أيضـا دراسـة سيكولوجية الشعوب باسم"الدراسة عن بعد".

وتدخل دراستنا بطبيعة الحال فـي نطـاق المجموعـة الثانية، أعني أنها لابد وأن تكون دراسة عن بعد. ويبدو أنـه من الأنسب والأمر كذلك أن نركز نظرتنا الفاحصـة علـى القدر المتاح لنا من ذلـك النـوع مـن الدراسـات بهـدف استخلاص الخطوط المنهجية العامة التي اتبعها من تنـاولوا هذا الموضوع، وما استخدموه من أدوات، وما صادفوه مـن عقبات.

لقد فرضت طبيعة هذا النوع من الدراسـات أسـاليب محددة لتناول المادة بل إنها قد تركت أثرها أيضا على مناهج الباحثين واتجاهاتهم في تفسير ما يصلون غليه من نتائج.

ومن أبرز الأساليب التي اتبعتها تلك الدراسات نستطيع أن نذكر سبعة أساليب هي:-

أولاً: **أسلوب دراسة التاريخ**:

قد يقف الباحث، وقد أعيته وسائل الاقتراب من المجتمع الذي يود دراسته، وانقطعت سبل اتصاله به، فلا يجد أمامه أنسب من تتبع تاريخ ذلك المجتمع، مبتعدا في تتبعه إلى أقصى ما يستطيع ومقتربا إلى النقطة التي حيل فيها بينه وبين الاقتراب منه محاولاً – قدر المستطاع – أن يستنتج ما يجري داخل ذلك المجتمع، وما سوف يجري فيه مستقبلاً من خلال تصوره لامتدادات ما حدث في تاريخه قبل ذلك مرتبا على استنتاجاته وتنبؤاته تصورا لسيكولوجية شعب ذلك المجتمع. ويواجه مثل ذلك الأسلوب باعتراضات عديدة أهمها اعتراضين:

أ- إن التاريخ لا يسير في خطوط مستقيمة وبالتالي لا يمكن لأحد اعتمادا على التاريخ وحده ومهما بلغت دقة دراسة ذلك التاريخ أن يستنتج احتمالات المستقبل بقدر كاف من الدقة.

ب- إن ذلك الأسلوب يصبح مضللاً تمامـا فـي حالـة محاولة تطبيقه لفهم المجتمعات حديثة التكوين أو ما يمكـن أن نطلـق عليـه اصـطلاح"المجتمعـات المصنوعة" كالمجتمع الإسرائيلي مـثلاً. فمحاولـة استخدام مثل ذلك الأسلوب حينئذ يعني تسليم الباحث ابتداء ودون مناقشة بأن لذلك"المجتمـع المصـنوع" تاريخه كمجتمع. وهي قضية لا يجب التسـليم بهـا ببساطة وإلا انزلق الباحث إلى محاولـة اصـطناع تاريخ لذلك المجتمع المصنوع. أو بعبـارة أخـرى محاولة افتراض وجود امتداد تاريخي قـديم لـذلك المجتمع وذلك هو ما نجده بالفعل فـي عـدد مـن الدراسات عن المجتمع الإسرائيلي، ولسوف نتعرض لذلك فيما بعد.

ثانيًا: **أسلوب دراسة العنصر البارز**:

قد يلجأ الباحث في سبيل محاولته النفاذ"عن بعـد" إلـى جوهر المجتمع الذي يستهدف دراسته إلى انتقاء عنصر بارز من عناصر التكوين الحضاري للمجتمع المعين وغالبـا مـا يكون ذلك العنصر نوعا من الأيديولوجية التي يعلـن ذلـك

المجتمع عن تبنيه لها وإن لم يكن ذلك هو الحال دائما حيث يلجأ بعض الباحثين إلى انتقاء ذلك العنصر من خلال طبيعة المجتمع الأيكولوجية أو المناخية أو ما على ذلك. ويركز الباحث جهده واهتمامه على كل ما يستطيع تجميعه من بيانات تتصل بذلك العنصر وآثاره المتعددة على الشخصية بشكل عام وليس بطبيعة الحال على مكونات الشخصية في ذلك المجتمع بالتحديد الذي لا يستطيع منه اقترابا. ويمضي الباحث محاولاً أن يقيم تصوره للبناء السيكولوجي لذلك الشعب على فهمه المتعمق – بدرجة أو بأخرى – لطبيعة ذلك العنصر الذي يسلم ابتداء بأنه العنصر الحاسم في تكوين ذلك الشعب. ومن أبرز العناصر التي تناولتها دراسات من ذلك النوع عنصر الأيديولوجية الاشتراكية مثلاً كمدخل لفهم سيكولوجية الشعوب التي تعتنق تلك الأيديولوجية. وعنصر الأيديولوجية النازية كأساس لفهم سيكولوجية الشعب الألماني. وكذلك عنصر الديانة التي يعتنقها شعب معين كسبيل لفهم سيكولوجية ذلك الشعب، كمحاولة اتخاذ دراسة الديانة البوذية بفرعيها – الماهايانية والهينايانية – أساسا لفهم سيكولوجية عدد من الشعوب كالشعب الياباني والصيني وما

على ذلك. ويؤخذ على مثل ذلك الاتجاه عـدد مـن المآخـذ أهمها:

أ- إن انتقاء الباحث لعنصر بالـذات – مهمـا بلغـت أهميته – ومحاولة تفسـير التكـوين السـيكولوجي المعقد لشعب من الشعوب من خلال ذلك العنصـر فحسب، إنما يؤدي إلى عزل ذلك العنصـر – فـي ذهن الباحث – عن بقية عناصر التكوين الحضاري في المجتمع المعين. ولما كانت عناصر ذلك التكوين تعمل جميعا في تفاعل ديناميكي وفي وقت واحـد، فإن عملية العزل هـذه تهـدد ولاشـك الأسـاس الموضوعي لما قد يصل غليه الباحث من نتائج.

ب- إن ذلك الموقف الانتقائي من الباحث يؤدي به غالبا إلى تجميد حركة التاريخ عند نقطة معينة هي تلـك التي تشكل عندها ذلك العنصر المنتقى وبلغ أوجـه. وإذا بكل ما تلا تلك النقطة يصبح – لدى الباحث – مجرد تكرار لها أو وقوف عنـدها، ولـيس ذلـك بطبيعة الحال من الحقيقة أو الموضوعية في شيء.

ج- إن الباحث باختياره للعنصر الذي سوف يتخذه سبيلاً لتحقيق بغيته، إنما يفرض علينا أن نسلم معه بـأن ذلك العنصر هو العنصـر الحاسـم فـي التكـوين الحضاري – وبالتالي التكوين السـيكولوجي لـذلك الشعب، وهو أمر يجب أن يخضع أولاً لكثير مـن التمحيص وإمعان النظر.

ولعل إطالتنا الحديث عن ذلك الأسلوب بالـذات إنمـا ترجع على ما يتخذه من أهمية خاصة فيما نحن مقدمون عليه من محاولة للنفاذ إلى التكوين السيكولوجي الإسرائيلي. فلقـد لجأ عدد من الباحثين العرب – فضلاً عن غيـرهم بطبيعـة الحال – على انتقاء الديانة اليهودية كعنصر يفسـرون مـن خلاله التكوين السيكولوجي الإسرائيلي المعاصر. ويكفي أن نقتبس من باحث مصري معاصر عبارة تكاد تكون تعبيـرا حرفيا عما نقصده، غذ يقول في مقدمـة بحـث لـه عـن الشخصية الإسرائيلية:"ونحن نركز هنا على مصدر نعتقـده أهم المصادر لدراسة الشعب الإسرائيلي من حيـث أن هـذا المصدر هو منبع كل حركة واصل كل سلوك إسرائيلي لدى كل نظر سليم. وهذا المصدر هو الدين اليهـودي باعتبـاره

عقيدة لها معالمها الخاصة وشريعة لها آثارها الواضحة فـي الحياة الإسرائيلية على مر العصور" (٦٧ ص٨) ثم لا يلبث أن يقول في موضع آخر متحدثًا عن الدين اليهودي"هذا الدين هو الذي نؤكد أنه المنبع الأول لفهم الشخصية الإسـرائيلية" (٦٧ ص ٤١) ويذكر باحث آخر بوضوح كامل"سـبيلنا إذن إلى فهم اليهود سيكون بالرجوع على التراث الـذي خلفـوه وأول مصادر هذا التـراث هـو التـوراة" (٦٩ ص ٢١). وليست تلك سوى أمثلة سقناها علـى سـبيل الاستشـهاد لا الحصر. والحقيقة – فيما نرى – أن ذلك الاتجاه في التناول بالتحديد قد أصبح بمثابة النغمة الرئيسية السائدة لـدينا فـي نظرتنا إلى التكوين السيكولوجي الإسرائيلي. ولا شك لـدينا في أن الدين يلعب دورا هاما لا يمكـن إنكـاره فـي ذلـك التكوين، ولكن النظر غليه باعتباره منبعا لكل حركة"واصلا لكل سلوك إسرائيل"" وسبيلاً إلى فهم اليهود" هو ما نعتبره – فيما ترى تحميلاً للأمور بأكثر مما تحتمل، واقتصارا علـى عامل واحد ليس هو بحال، العامل الأساسي في فهم التكوين السيكولوجي الإسرائيلي.

ثالثًا: **أسلوب دراسة الإنتاج الأدبي**:

وهو أسلوب شائع في تلك الدراسات التي تهدف إلـى فهم سيكلوجية الشعوب ويقوم ذلك الأسلوب على التسليم بإن الإنتاج الأدبي لشعب من الشعوب لابد وأن يعكـس بحكـم طبيعة عملية الخلق الأدبي نفسـها قـدرا مـن المكونـات

السيكلوجيه الرئيسية لذلك الشعب. وذلك الافتـراض فـي مجمله صحيح تماما. ولدينا بالفعل دراسات عديـدة اتخـذت ذلك السبيل وتوصلت إلى قدر معقول من النتائج ولعل أقرب الأمثلة إلى موضوعنا تلك الدراسة التي نشـرها هاركـابي مـدير المخـابرات الإسـرائيلي السـابق عـام ١٩٦٧ بعنوان"العوامل الأساسية في هزيمة العرب خـلال حـرب الأيام الستة" والتي ذهب فيهـا علـى"أن ضـعف الـروابط الاجتماعية بين العرب وانعدام تماسـكهم الاجتمـاعي هـو السبب الذي أدى على هزيمتهم على أرض المعركـة" (٧٤) مستعينًا في التدليل على ذلك بتحليل مضمون الأدب العربـي القصصي الحديث. وقد استخلص الصورة السائدة للبطل في هذا الأدب، وتبين له أنه يتسم بـالانعزال عـن أقرانـه وأن شعور الاغتراب يهيمن على عالمه النفسي. (٧٤).

والاعتراض الأساسي الموجه على مثل هذه الدراسـات هو إنه ليس أمامها إلا أن تقصر اهتمامها على المنشور مـن ذلك الأدب مهملة ما هو موجود بالفعل من إنتاج أدبي غيـر منشور لا يستطيع الباحث الذي يدرس المجتمع عن بعـد أن يصل غليه. ولا يمكننا بحال أن نسلم بأن لـلأدب المنشـور نفس خصائص الأدب غير المنشور وإلا ببساطة لمـا كـان هناك أصلاً مثل ذلك التقسيم. ولما كـان"الأدب المنشـور – بالرغم من أهميته الكبرى في التحليل الاجتمـاعي – لـيس عينة ممثلة للإنتاج الأدبي في حقبة تاريخية ما" (٧٤) فإن لنا أن نتوقع ألا تكون نتائج تحليله ذات أهميـة كبيـرة يمكـن الركون غليها في محاولة الوصـول علـى فهـم للتكـوين السيكولوجي لشعب من الشعوب.

رابعًا: أسلوب تحليل مضمون الاتصال:

ويعني إتباع ذلك الأسلوب أن يعمد الباحث إلى تحليـل مضمون ما يسمى بمادة الاتصال. ولسنا بصدد الخوض في تفاصيل طرق ذلك التحليل وهي عديدة متنوعة. ويكفينـا أن نوضح ما يعنيه أصحاب ذلك الاتجـاه مـن تعبيـر"مـادة الاتصال". يتكون المجتمع الإنسـاني مـن أفـراد يشـكلون بدورهم جماعات تختلف من حيث الحجم وطبيعـة النشـاط ومدى التأثير وأساليب الانتماء إلى آخره. وتقوم بين أفـراد المجتمع الإنساني وبعضهم، وكذلك بين مـا يضـمه ذلـك المجتمع من جماعات فرعيـة وبعضـها طرقًـا للاتصـال المتبادل، أو لنقل الأفكار والتأثيرات واستقبالها. وتعد اللغـة من أهم طرق الاتصال هذه وأبعدها تـأثيرا وإن لـم تكـن الطريق الوحيد وهناك من طرق الاتصال ما هو قاصر على الربط بين الأفراد وبعضهم، ومنها مـا يمتـد ليـربط بـين الجماعات وبعضها، ومنها كذلك ما يقوم بوظيفة نقل الأفكار والتأثيرات على نطاق المجتمع ككل كالإذاعـة والتليفزيـون والصحف والسينما وما إلى ذلك. تلك هي"طرق الاتصال" أما مادة الاتصال فالمقصود بها تلك المادة التي تجري في طرق

الاتصال هذه. وتناول تلك المادة هـو مـا يسـمى بتحليـل مضمون الاتصال.

وبذلك فإن مهمة الباحث الذي يتخذ من هذا الأسـلوب وسيله له ستكون نوعا من التسمع – إذا صح التعبير – على ما يجري في المجتمع المعين. وليس ذلـك مجـرد تشـبيه فالعملية تقتضي في كثير من الأحيان تسمعا فعليا إذا ما كان التحليل منصبا عل المادة المذاعة وكثيرا ما يكـون الأمـر كذلك، والفكرة الأساسي الكامنة وراء ذلك المـنهج هـي أن مادة الاتصال تحمل من الخصـائص الجوهريـة للتكـوين السيكولوجي المشترك للمجتمع المعين ما يمكن التوصل إليه بدقة إذا ما خضع ذلك التحليل لأسلوب علمـي موضـوعي دقيق. ولقد تمت بالفعل دراسات عديدة اسـتخدم فيهـا هـذا الأسلوب بصور شتى تعددت فيه أساليب التحليل، كما تعددت أيضا صور المادة المحللة أعني"مادة الاتصال" مـن بـرامج إذاعية إلى صحف إلى أغاني إلى مسـرحيات إلـى أفـلام سينيمائية وما إلى ذلك.

والاعتراض الجوهري الموجه إلى مثل ذلك الأسـلوب هو أننا إذا ما تناولنا بالتحليل شريحة معينة من مادة الاتصال

في فترة زمنية محددة، ومهما بلغ تحليلنا من الدقة والنفـاذ، فإنه لن يعدوا أن يكون تحليلاً لجانب واحـد مـن جوانـب الاتصال هو جانب الإرسال، بمعنى أن غاية مـا يمكـن أن يوصلنا غليه هذا الأسلوب هو معرفة نوع الأفكار والتأثيرات التي تود جماعة من جماعات المجتمع أو تنظيم من تنظيماته أن تطبع بها ذلك المجتمع. ويبقى أن نعرف استجابة الأفراد الذين تستهدف مادة الاتصال التأثير فيهم. ولعل ذلـك هـو الجانب الأهم والأكثر خطرا وهو في نفس الوقـت الجانـب الذي لا يستطيع ذلك الأسلوب الوصول غليه.

خامساً: أسلوب دراسة المقتربين:

لا يوجد ثمة مجتمع منفصل عما يجري خارجه منغلـق على نفسه تمام الانغلاق. فمهما بلغت درجة حرص المجتمع – لسبب أو لآخر - على إحاطة ما يجري داخله بسياج مـن السرية فإن ذلك السياج يتعرض أحيانًا لشيء مـن الخلخلـة نتيجة لعديد من الظروف. وفي هذه الحالة قـد نجـد لـدينا جماعة يمكن أن نسميها جماعة المقتربين بمعنى أنهم أولئـك الذين أتيح لهم نتيجة لظرف أو لآخر الاقتـراب مـن ذلـك المجتمع والنفاذ إليه لفترة تطول أو تقصـر. ولـيس علـى

الباحث حينئذ إلا أن يسارع إلى هؤلاء المقتربين محاولاً أن يستخلص من مشاهداتهم وأحاديثهم ولقـاءاتهم داخـل ذلـك المجتمع ما يتيح له تكوين صورة عن التكوين السـيكولوجي لذلك الشعب. ولعل أقرب الأمثلة إلى مجال بحثنا هو ما بذله العلماء الأمريكيون من محاولة للتعرف على بعض السـمات الرئيسية التي تميز شـعوبا أخـرى كالشـعب الكـوري أو الفيتنامي أو السوفيتي مثلاً من خلال إجراء مقابلات متعمقة مع الجنود الأمريكيين الذين قضوا فترة كأسرى حرب داخل حدود تلك الدول، أو مع أفراد أمريكيين أيضا كانوا يقيمـون في تلك المجتمعات ثم غادروها أو أبعدوا منهـا لسـبب أو لآخر. وتتركز أهم الاعتراضات الموجهة إلى ذلك الأسلوب في نقاط ثلاث:

أ- إن ذلك الأسلوب يعتمد في النهاية علـى قـدرة أولئـك الأفراد المقتربين على التعبير عن أفكارهم، فضلاً عـن قدرتهم على التقاط ما له دلالة من مظاهر السلوك التـي أتيح لهم رؤيتها والتجاوز عن سواها، ذلك بالإضافة إلى قدرتهم على التذكر. وكل تلك القدرات وغيرها موضـع شك لدى البشر عموما، فكيف بها إذا وضعنا في الاعتبار

طبيعة خبراتهم في تلك المجتمعـات وهـي – غالبـا – خبرات مؤلمة أشد الألم؟ ألن يكون ذلك أدعـى للتـأثير على تلك القدرات؟.

ب- إن طبيعة إقامة هؤلاء في تلك المجتمعات تفرض عـادة أن تكون الاتصالات التي يتاح لهم إقامتها مع أبناء تلـك المجتمعات، اتصالات محدودة ومصنوعة. بمعنى أنه في حالة الأسرى مثلاً لا يتاح لهم إلا الاتصال بفئة محـددة من المجتمع فضلاً عن أنه حتى تلك الاتصالات المحدودة لا تكون اتصالات طبيعية تلقائية بل اتصالات مصنوعة مخططة سلفًا من الجانب الآخر.

ت- إن مدة إقامة هؤلاء المقتربين في تلك المجتمعات لا تبلغ من الطول – عادة – ما يتيح لنـا قـدرا معقـولاً مـن الاطمئنان إلى ما يستخلصونه خلالها.

سادساً: أسلوب دراسة المنعزلين:

وهو الأسلوب المقابل بشكل ما لأسلوب دراسة المقتربين. ففي ذلك الأسلوب الأخير – أعني أسلوب دراسة المقتربين – كان الباحث يستقي معلوماته من أفراد ينتمون إلى نفس مجتمعة هو أو على الأقل لا ينتمون للمجتمع الذي يرغب في دراسته. أما إذا ما اتبع الباحث أسلوب دراسة المنعزلين فإنه سوف يتجه في استقاء معلوماته إلى أفراد من المجتمع الذي يستهدف دراسته، أو على الأصح كانوا ينتمون إليه وانقطعت صلتهم به لسبب أو لآخر ومضت على ذلك الانقطاع فترة تزيد أو تقل. كأن يقدم العلماء الأمريكيون مثلاً – كما حدث بالفعل – على دراسة المكونات الرئيسية لسيكولوجية الشعب الصيني من خلال دراستهم لأبناء الحي الصيني في نيويورك مثلاً. أو أن يقدم العلماء الأمريكيون – كما حدث بالفعل أيضا – على محاولة تبين معالم"الشخصية الكورية" من خلال دراستهم لسلوك الأسرى الكوريين.

ويؤخذ على ذلك الأسلوب بعامة إنه يفترض مقدما أن من يقوم بدراستهم يمثلون أفراد المجتمع الأصلي بدرجة تسمح للباحث أن يعمم النتائج التي يخلص إليها من دراسته

لهم على أفراد ذلك المجتمع. وليس ذلك – فيما نرى – مـن الصحة في شيء. فمجموعة الأفراد الـذين كـانوا ينتمـون لمجتمع معين ثم نزحوا منه لسبب أو لآخـر وأقـاموا فـي مجتمع آخر – واستقر بهم المقام في مجـتمعهم الجديـد لا يمكن بحال أن يمثلوا أبناء مجتمعهم الأصلي لسـبب بسـيط يكمن في مجرد نزوحهم منه فذلك النزوح من حيث دلالتـه السيكولوجية إنما يعني أن سمات تلك الجماعة لا تتفق مـع السمات الشائعة المشتركة بين أبناء المجتمع الأصلي بـل أن ذلك الاختلاف قد يكون في كثير من الأحيان أحد الأسـباب التي أدت بهم إلى الأقدام على النزوح.

أما إذا نصبت دراسة الباحث على الأسرى، فالاعتراض يظل قائما، صحيح أن الشقة الزمنية لم تبعد كثيرا بهؤلاء عن مجتمعهم، وصحيح كذلك أنهم"لم ينزحـوا مـن مجـتمعهم مختارين". ولكنهم في النهاية لا يمثلون – ولا يمكن لهـم أن يمثلوا – سوى قطاع واحد محدد من أبناء ذلك المجتمع لـه خصائصه المحددة من حيث السن والنوع ومسـتوى اللياقـة البدنية وما إلى ذلك – أي أنهـم بعـراة أخـرى، وإذا مـا

استخدمنا الاصطلاح الفني ليسو سوى عينة متحيزة وليسوا بالعينة الممثلة للمجتمع بأي حال.

سابعًا: **أسلوب دراسة التراث**:

وفي هذه الحالة يستعيض الباحث عن اقترابه من المجتمع الذي يسود دراسته، بأن يعكف على فحص وتحليل النتائج التي توصل إليها غيره من الباحثين الذين سمحت لهم ظروفهم بدراسة ذلك المجتمع عن قرب. وهي محاولة مشروطة بشروط عدة أهمها شرطان:

١- أن يكون هناك دراسات كافية عن ذلك المجتمع وأن يكون في استطاعة الباحث الحصول عليها.

٢- أن يلتزم الباحث الحذر إلى أقصى حد خشية أن تضلله ما قد تحمله تلك الدراسات من تحيز أو قصور.

ذلك هو تصورنا وتصنيفنا لأهم الأساليب التي اتبعها الباحثون الذين تصدوا لمثل ما نحن بصدده. وهو تصنيف اجتهادي سواء من حيث التقسيم أو من حيث غالبية المسميات وحاولنا قدر ما وسعتنا المحاولة أن يكون شاملاً وموضوعيا وعلى أي حال فلم يكن ممكنًا – فيما نرى – أن

نبدأ بحثنا دون أن نقدم على تلك المحاولة لنستبين طريقنـا، وحتى يكون جهدنا من الناحية المنهجية متصلاً بالجهود التي سبقته ولا نقول امتدادا لها.

وينبغي أن نشير أولاً إلى أن ذلك التصنيف الاجتهـادي لا يعني بحال أن العالم أو مجموعة العلمـاء الـذين كـانوا يتصدون لبحث من هذا النوع كانوا يقصرون محاولتهم على اتباع أسلوب واحد دون آخر من تلك الأساليب التي أشـرنا إليها، بل إن ما كان يحدث عادة هو اتباع أكثر من أسـلوب في بحث نفس المشكلة على أمل أن ينجح تجميع عـدد مـن الأساليب معا في تلافي أو في تقليل مثالب كل أسلوب علـى حدة. وكان ما يحدد عدد الأساليب المتبعة في النهاية هـو – غالبا – طبيعة المادة المتاحة للباحث فضـلاً عـن اتجاهـه الفكري المسبق بطبيعة الحال.

ولنا بعد ذلك ملاحظة عامة تشمل غالبية تلك الأساليب وهي أنها إذا ما أحسن استخدامها وأمكن تلافي مثالبها قـدر الإمكان سوف تتيح لنا وصفًا للتكوين السيكولوجي الـراهن لأبناء المجتمع الذي يستهدف الباحث دراسـته أو بالتحديـد الدقيق لجيل الراشدين منهم في أغلب الأحيان – وبناء علـى

ذلك الوصف وبقدر ما يتمتع به من صدق وموضـوعية يمكـن للباحث التنبؤ بسلوك أبناء ذلك الجيل مستقبلاً في ظل ظـروف معينة. ولتلك النتيجة فائدتها التطبيقية بلا شك ولكنها فائدة تنتهي بانتهاء ذلك الجيل أو بتعبير أدق بذبوله وتنحيه عن الضوء. وإذا ما جاز لنا أن نستعير تعبيرا سياسيا فإن مثل ذلك التنبؤ لا يمكن أن يكون سوى تنبؤ تكتيكي محدودي المدى زمنيا.

ترى أليس ثمة طريق يمكننا من الوصول إلى قدر أكبر من التنبؤ؟ أو إذا ما استعرنا لغة السياسة مرة أخرى أليس ثمة طريق يمكننا من تنبؤات أقرب إلى الاستراتيجية أليس ثمة طريق يمكننا من خلاله أن نضع أيدينا ولو بقدر ما على تصـور للمسـتقبل الاستراتيجي للتكوين السيكولوجي لشعب من الشعوب؟ فلنستبعد مؤقتًا التفرقة بين الدراسة عن بعـد والدراسـة عـن قـرب. ولنفترض أنه قد أتيح لنا أن ندرس عن قـرب مجتمعـا مـا، محاولين التوصل إلى فهم عميق لأسس التكـوين السـيكولوجي لأبنائه بهدف التنبؤ بالمسار الاستراتيجي لذلك التكوين مسـتقبلاً. ولنفترض أيضا أنه قد أتيح لنا أن نختار ما شئنا من الوسائل التي نراها كفيلة ببلوغنا تلك الغاية. أن علينا آنذاك أن نحقق هـدفين محددين:

أولاً: توفير ذلك الفهم الموضوعي العميـق لأسـس التكـوين السيكولوجي للجيل الراهن.

ثانيا: توفير قدر ما من التنبؤ الموضوعي بمـا سـيكون عليـه التكوين السيكولوجي للأجيال القادمة. ولابد من الإشـارة أولاً إلى أن الفهم الموضوعي للسمات الرئيسية للتكـوين السيكولوجي للجيل الراهن – وهو شرط تنبؤنا بمسار ذلك التكوين مستقبلاً – لا يمكن أن يتأتى على الوجه الأكمـل إلا بفهم موضوعي أيضا لتاريخ ذلك الجيل.

ومن ناحية أخرى لا بد من الإشارة أيضا إلـى حقيقـة أن الأجيال القادمة لأي شعب من الشعوب ليسـت، ولا يمكـن أن تكون – تكرارا للجيل المعاصـر لـذلك الشـعب، وإلا فقـدت الحضارة الإنسانية إمكانية تقدمها، كما أن تلك الأجيال القادمة لا يمكن أيضا أن تنقطع السبل تماما بينها وبين الجيل المعاصر وإلا فقدت الحضارة الإنسانية صفة استمرارها لابد لنا إذن من البحث عن الحلقة الرئيسية التي تحكم تلك العلاقة الديناميكية المسـتمرة أبدا بين الماضي والحاضر والمستقبل فيمـا يتعلـق بـالتكوين السيكولوجي للأجيال القادمة وتتمثل هذه الحلقة – فيما نـرى – في عملية التنشئة الاجتماعية.

التنشئة الاجتماعية.... لماذا؟

إذا كانت مهمتنا الأساسية هي ببساطة، وكما سبق أن اشرنا محاولة الاقتراب من رجل الشارع الإسرائيلي لتحقيق أكبر قدر ممكن من الفهم للعناصر الرئيسية لشخصيته بهدف التنبؤ بمسار وتطور تلك العناصر مستقبلاً إلى أبعد مدى ممكن، فإن ذلك يعني بصورة أخرى إننا مطالبون بالإجابة على العديد من التساؤلات بشأن رجل الشارع هذا: كيف يفكر؟ وماذا يحب؟ وماذا يكره؟ كيف يستجيب للعدوان؟ ما هي أبرز القيم السائدة لديه؟ كيف يتصرف في المواقف العصيبة؟... إلى آخر مثل تلك التساؤلات أي أننا بصدد التعرف على الخصائص المشتركة لسلوكه كيف تكونت؟ وكيف أصبحت على ما هي عليه؟ وما هي احتمالات تطورها في المستقبل؟ ولا بد لنا هنا من محاولة للفهم النظري لكيفية تكوين الفرد لقيمه ومعاييره وعاداته وأنماطه السلوكية.

يميل الكثير من علماء النفس إلى إطلاق مصطلح"طابع الشخصية" للدلالة على ما يتوافر لدى الفرد من قيم وعادات

وتقاليد وأنماط سلوكية وفكرية. ونظرة متأنية إلى أية جماعة إنسانية – بالمعنى العلمي لمصطلح الجماعـة – لابـد وأن تكشف عن خاصتين بارزتين:

أولاً: أن بين أفراد تلك الجماعة قدر لا يمكن التغاضي عنـه من الاختلاف في كافة نواحي التكوين السيكولوجي بحيث إننا لا يمكن أن نجد – في أيـة جماعـة إنسـانية – شخصـين متماثلين تمام التماثل من حيث التكوين السـيكولوجي لكـل منهما.

ثانيا: إن بين أفراد تلك الجماعة قدر لا يمكن التغاضي عنـه من التشابه في كافة نواحي التكـوين السـيكولوجي أيضـا. بمعنى أننا لابد واجدون قدرا مشتركًا بين كافة أفـراد تلـك الجماعة فيما يتصل بقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم وأن كان ذلك القدر يتفاوت من جماعة إلى أخرى كما يتفاوت أيضـا مـن فرد إلى آخر من بين أعضاء نفس الجماعة.

هاتان الخاصيتان تتوافران في كل الجماعات الإنسـانية دون استثناء. وإذا كنا بصدد الحديث عن جماعة إنسانية كما هو الحال في بحثنا فإن الخاصية الثانية – أعنـي خاصـية التشابه – لابد وأن تشغل الجانب الأكبر من اهتمامنا كيـف

يحدث ذلك التشابه؟ ولماذا يختلف مقداره من جماعة إلى أخرى؟ ولماذا يختلف الأفراد أيضا من حيث درجة اقترابهم أو ابتعادهم عن النمط السائد في الجماعة التي تضمهم؟ ولماذا تختلف عناصر ذلك التشابه أيضا من جماعة إلى أخرى؟ لماذا نجد جماعة أقرب إلى العدوانية وأخرى أقرب إلى الخنوع؟ لماذا نجد جماعة أشد تمسكًا بالتقاليد من غيرها؟ لماذا تحبذ جماعة معينة سلوكًا معينًا وتدفع أفرادها إلى اتباعه؟ ولماذا تنفر جماعة أخرى من نفس ذلك السلوك وتحرم على أفرادها ممارسته؟.

إن فهم دينامية ذلك التشابه يمثل فيما نرى أساس اختيارنا لعملية التنشئة الاجتماعية بالذات بوصفها مفتاحا لفهم التكوين السيكولوجي لشعب من الشعوب. ويكاد كافة علماء النفس أن يجمعوا على أن العادات والتقاليد والقيم واتجاهات الرأي العام وما إلى ذلك أقرب إلى أن تكون جميعا أمورا يكتسبها المرء من بيئته الاجتماعية بمعنى أن المجتمع يقوم أشبه شيء بعملية"تعليم" لأفراده يعلمهم خلالها ما يود غرسه فيهم من عادات وتقاليد وقيم واتجاهات وما إلى ذلك. أن القول بأن"المجتمع" يقوم بذلك التعليم والوقوف

عند ذلك الحد أمر في حاجة إلى مزيد من التفسـير. تـرى كيف يتم ذلك التعليم.

إن نظرة فاحصة إلى المجتمع في علاقته بأفراده تكشف لنا حتما عن حقيقة أن الفرد يخضع منذ لحظة مولده لتـأثير عدد كبير من المنظمات الاجتماعية المتباينة الوظائف، والتي تقوم جميعا بالإسهام في تشكيل ما يسمى بطابع شخصـيته. ولسنا بصدد تعداد تلك المنظمات على سبيل الحصـر، بـل يكفي على سبيل المثال أن نشير إلى أن الوليد، ما أن يـرى الحياة – بل حتى قبل أن يتمكن من رؤيتها بالمعنى العلمي – يخضع لأشد المنظمات الاجتماعية تأثيرا وخطرا على نمـط شخصيته أعني الأسرة بما تضمه من أدوار مختلفـة لـلأب والأم والأخوة وغيرهم. ولا يقف دور الأسـرة عنـد حـد المحافظة على حياة الطفل وتلبيـة احتياجاتـه بـل يتعـداه بالضرورة إلى محاولة صياغة طابع شخصـيته وفقًـا لمـا ترتضيه الأسرة، فتحرم عليه من السلوك والأفكار ما تـراه سيئًا وتحبذ له من السلوك والأفكار ما تراه جديرا بالتحبيذ ثم ما أن يشب الطفل عن الطوق حتى تتلقفه مجموعة الأقـران التي تمارس أيضا تأثيرها عليه في نفس المجـال مسـتهدفة

تحبيذ أنواع معينة من السلوك منفرة من أنواع أخرى وفـي نفس الوقت تبدأ المؤسسات التعليمية في ممارسـة تأثيرهـا أيضا لنفس الهدف وبأساليب أكثر تنوعا واختلافـا والأمـر كذلك بالنسبة للمؤسسات الأيديولوجية، والمؤسسات الدينيـة، والمؤسسات الإعلامية، والمؤسسات التشريعية... ونسـتطيع أن نحصى الكثير والكثير من أسماء تلك المنظمـات التـي تمارس تأثيرها في تشكيل قيم وعادات وتقاليـد واتجاهـات الفرد. وكما تتعدد تلك المؤسسات تتعدد كذلك أسـاليبها فـي الوصول إلى غاياتها. أو بعبارة أخرى فإنها تختلف من حيث ما تستخدمه من نظم للثواب والعقاب فللأسرة مثلاً أسـاليبها المتعددة والمتميزة لدفع الطفل إلـى إتبـاع سـلوك معـين والإقلاع عن سلوك آخر. وكـذلك الحـال بالنسـبة لبقيـة التنظيمات الاجتماعية التي تمارس تأثيرا في هـذا الصـدد، ولسنا في حاجة إلى تفصيل تلك الأساليب التي تتراوح مـن حيث العقاب مثلاً من الإعدام الفعلي، إلى مجـرد عـدم رد التحية وتتراوح من حيث الثواب من التأليه كما يحدث بالفعل في بعض القبائل البدائية – إلى مجرد كلمة أو إيماءة تحمـل معنى التشجيع. وداخل ذلك المدى البالغ الاتسـاع تتفـاوت

درجات الثواب ودرجات العقاب ويختلف تأثيرهـا. والأمـر الذي يعنينا هنا هو تأكيد أن كل من تلك المنظمات تقوم فـي النهاية بخلق نموذج مثالي تصوري لما تتطلبه فـي الفـرد المنتمي إليها. وبقدر نجاحها في دفع الأفراد المنتمين إليهـا إلى تبني ذلك النموذج واعتباره بمثابة مثلهم الأعلى – وهـو نجاح يتوقف على عوامل عديدة ومتشابكة – تكـون درجـة تأثيرها في هؤلاء الأفـراد مـن حيـث عـاداتهم وقـيمهم واتجاهاتهم وأنماطهم السلوكية.

ويواجهنا هنا عدد من التسـاؤلات. هـل تتفـق تلـك المنظمات جميعا فيما تحاول غرسه في الفرد؟ هـل أنـواع السلوك التي تحبذها الأسرة هي نفسها التي تحبذها مجموعة الأقران؟ وهل العادات التي تنميها أسرة معينـة هـي نفـس العادات التي تسعى أسرة أخرى في نفـس المجتمـع إلـى تنميتها؟ هل القيم التي تدعو إليها المؤسسات الأيديولوجية في مجتمع معين هي نفس القيم التي تدعو إليها المؤسسات الدينية في ذلك المجتمع؟ وهل الأفكار التي تـدعو إليهـا منظمـة أيديولوجية في مجتمع معين هي نفس الأفكار التي تدعو إليها منظمة أخرى؟ هل الأفكار التي تـدعو إليهـا المؤسسـات

الإعلامية في مجتمع معين في نفس الأفكار التي تعمل علـى نشرها المؤسسات التعليمية في نفس المجتمع، وهل الأفكـار التي تدعو إليها مؤسسة إعلامية في مجتمع معين هي نفـس تلك التي تدعو إليها مؤسسة إعلاميـة أخـرى فـي نفـس المجتمع؟ هل الأفكار التي تدعو إليها المؤسسات الدينية فـي مجتمع معين هي نفس الأفكار؟

وحقيقة الأمر أنه لا يوجد في الواقع ثمة تماثل أو تطابق كامل بين تلك المنظمات جميعا في هذا الصدد. بـل إننـا لا نستطيع تصور وجود مثل ذلك التطابق حتى بين منظمتـين منهما بل ولا حتى بين وحدتين تنتميان إلى نفس المنظمـة. ولكننا نستطيع في نفس الوقت أن نضع أيدينا على قدر مـن التشابه قد يتوافر بدرجة أو بأخرى بين كل منظمة وأخـرى أو بين كل مجموعة من المنظمات ومجموعة أخرى. كما أننا نستطيع أيضا أن نجد قدرا من الاختلاف يزيد أو يقل بين كل منظمة أو أخرى أو بين كـل مجموعـة مـن المنظمـات ومجموعة أخرى. ولو تصورنا جدلاً أن هناك تطابقًا كـاملاً بين تلك المنظمات الاجتماعية جميعا من حيث ما تسـتهدفه من تأثير على الأفراد، لكان لنا أن نتصور نتيجة لذلك قـدرا

هائلاً من التماثل بين هؤلاء الأفراد من حيث"طابع الشخصية" أو بعبارة أخرى يكون لنا آنذاك أن نتصور قدرا هائلاً مـن تمسك هؤلاء الأفراد بنموذج واحد للسلوك والتفكير والعادات والتقاليد والقيم وما إلى ذلك. وأن كنا حتى في هـذه الحالـة المفترضة لا نستطيع القطع بأنه لن يكون ثمة خارج علـى ذلك النموذج المختار. فقد تلعب الخصائص الفردية المميـزة دورها في هذه الحالة ولكن ذلك الخروج لن يعدو أن يكـون في تلك الحالة خروجا فرديا. ولا نعني بالفردية هنا أن مـن سوف يقدم عليه لن يكون سوى فرد واحد أو قلة من الأفراد. إن ما نعنيه في الواقع أمر لا علاقة له بعدد الخـارجين.. أن ما نعنيه بالدقة هو أن الخروج على المعايير في تلك الحالـة النموذجية المفترضة سوف يكون فرديا من حيـث دوافعـه ومسبباته وهو أمر يختلف تماما عن الخروج الجماعي الذي سوف نناقشه فيما بعد.

إن ما يحدث بالفعل إذن هو عدم توافر ذلـك التماثـل النموذجي في التأثير. فقد يلقى الفرد تشجيعا من أسرته على رد العدوان بالمثل فورا، وقد تشترك معها في ذلك مجموعة من الأسرة. وقد تحاول أسر أخرى أو مجموعة أخرى مـن

الأسر أن تنشيء أبناءها على التسامح في رد العدوان الواقع عليهم. وقد تحاول أسرة ثالثة أو مجموعة ثالثة من الأسر أن تدفع أبنائها إلى الالتزام بنمط معين من السلوك في مواجهـة العدوان هو اللجوء إلى السلطة مثلاً. والأمر غني عن البيان فيما يتعلق بالمؤسسات الدينية والأيديولوجيـة والإعلاميـة.. وما إلى ذلك. والخروج على المعايير في هذه الحالة لا يكون خروجا فرديا بل خروج جماعي ومرة أخرى نحن لا نقصد هنا عدد الذين يخرجون بل نقصد أن الخروج هنـا يكـون خروج جماعات بالمعنى العلمي لمصطلح الجماعة أو بعبارة أخرى فإن ما أسميناه بالخروج إنما هو فـي حقيقـة الأمـر عملية توافر قدر من المعايير أو القيم أو العادات أو الأنماط السلوكية أو التفكيرية لمجموعة من الأفراد يشكلون جماعـة فرعية أو بالمعنى الاصطلاحي جماعة مرجعية – تختلف في هذا الصدد بدرجة أو بأخرى عن بقية أفراد الجماعة الأصلية (٥٤) ولا يقتضي الأمر بالضرورة أن تكون كافة قيم وتقاليد ومعايير وعادات وتصرفات تلك الجماعة الفرعية متعارضة تمام التعارض مع نظيرتها في المجتمع الأصلي بـل أن مـا يحدث عادة هو توافر قدر ما من التشابك بين هذه وتلك. قـد

يكون لإحدى الجماعات الفرعية في مجتمع ما قيمتها الدينية الخاصة مثلاً والمختلفة عن القيم السائدة في المجتمع الأصلي ثم هي فيما عدا ذلك القطاع من السلوك المعبر عن تلك القيم الدينية لا تختلف عن الجماعة الأصلية في شيء والأمر شبيه بذلك بالنسبة لبقية المعايير والأنماط السلوكية والتفكيرية وما إلى ذلك. ومن ناحية أخرى فإن الجماعات الفرعية التي يضمها مجتمع معين تتشابك عضويتها في كثير من الأحيان فنجد مثلاً أن من ينتمون إلى جماعة دينية خاصة قد تتعدد الجماعات الأيديولوجية التي ينتمون إليها والتي تضم في نفس الوقت أفرادا ينتمون لجماعات دينية أخرى. ولا ينفي كل ذلك إمكانية أن تظهر جماعة فرعية لا تقف عند حدود الاختلاف بل تتعداها إلى حد التناقض مع غالبية أفراد المجتمع. فإننا نكون عندئذ بصدد ظاهرة انشطار المجتمع التي تأخذ في كثير من الأحيان طابع الانفصال السياسي أو الصراع المسلح أو ما إلى ذلك.

وينبغي ألا ننسى بحال أن الفرد ينتمي إلى أكثر من منظمة أو جماعة اجتماعة في نفس الوقت، وإن اختلاف تلك المنظمات أو تصارعها أو تناقضها إنما ينعكس في صورة ما

يعرف بصراع"الولاء" داخل الفرد، فقد تنمي أسرة معينة مثلاً في أحد أبنائها قيمة أخلاقية معينة ولتكن التعاون مـثلاً. وإذا بتلك القيمة تواجه نوعا من الرفض في المدرسة التي يلتحق بها ذلك الفرد في حين تلقى تدعيما من مجموعـة الأقـران ومن المؤسسة الدينية التي ينتمي إليها، وفي نفـس الوقـت ينقسم موقف المؤسسـات الإعلاميـة منهـا بـين التحبيـذ والمهاجمة وتمـارس تلـك المؤسسـات جميعـا تأثيراتهـا المتناقضة على الفرد في نفـس الوقـت. تـرى لأي القـيم يخضع؟ وأي المعايير يرتضي؟ وأي العادات يتبع؟ أن الأمر يحسمه في النهاية مدى نجاح كـل مـن تلـك المنظمـات الاجتماعية المتصارعة في ترك بصماتها عليـه. والمتوقـع عادة أن ينحاز الفرد في مثل ذلك الموقف الصـراعي إلـى جانب المنظمة الاجتماعية صاحبة التأثير الأكبر عليـه. وإذا ما تساوت التأثيرات أو عجز الفرد لسبب أو لآخر عن حسم موقفه نشأ لدينا ما يعرف بالأفراد ذوي الولاء المزدوج وهي ظاهرة أقرب إلى أن تكون ظـاهرة مؤقتـة ولا نعتقـد أن الحديث التفصيلي فيها يدخل في موضوعنا كثيرا.

إن ما يعنينا هو أنه بقدر ما تتعـدد تلـك الجماعـات الفرعية، وبقدر ما يقل التزام أفراد المجتمع بمعاييره وقيمـه وعاداته، أو بعبارة أخرى، بقدر ما ينفـر أفـراد المجتمـع الأصلي من تمثل النموذج التصـوري الـذي يقدمـه لهـم مجتمعهم ممثلاً في ذلك القدر المشترك مـن الاتفـاق بـين النماذج التي تقدمها منظماته الاجتماعية المختلفة، وبقدر مـا يتخذ ذلك النفور شكل تكوين الجماعـات الفرعيـة، يكـون تقديرنا لتفكك أو لتحلل ذلك المجتمع. وعلى العكس فبقدر ما تقل تلك الجماعات الفرعية عددا وحجمـا وتـأثيرا، يكـون تقديرنا لتماسك ذلك المجتمع ووحدته. وينبني على أي مـن التقديرين تنبؤنا بمستقبل ذلك المجتمع بالإضافة طبعـا إلـى بقية العوامل الأخرى التي تحدد بقاءه أو اندثاره.

إن تماسك المجتمع أو تفككه، بل أن وجوده نفسه إنمـا يرجع إلى عوامل شتى أهمها وحدة التاريخ، ووحدة الأرض، ووحدة الاقتصاد، ووحدة اللغة، ثـم التكـوين السـيكولوجي المشترك وقد يكون ذلك التكوين السيكولوجي المشترك نتيجة العوامل الأخرى. ولكن ما يعنينا فيما نحن بصـدده هـو أن المجتمع لابد وأن يسعى دوما إلـى تـدعيم ذلـك التكـوين

السيكولوجي المشترك بين أفراده والمحافظـة عليـه. أي أن يسعى إلى خلق نوع من المعايير السلوكية المشتركة تجمـع بين أفراده جميعا. أو بين القدر الأكبر منهم ضمانًا لتماسـكه وبقائه. ولقد أفضنا الحديث عن تعدد المنظمات او المؤسسات الاجتماعية في المجتمع وتباين أدوارها واختلاف تأثيراتهـا ولكن ترى ما هي العملية السيكولوجية التي يتم من خلالهـا تمثل الأفراد لتلك التأثيرات المتعـددة المصـادر، المتباينـة الخصائص المختلفة الأهداف، معا هي العملية السـيكولوجية التي تمكن الفرد من صياغة ذلك النموذج التصـوري الـذي يرسمه المجتمع؟ ما هي العملية السيكولوجية التي يتمثل فيها الصراع بين كافة تلك المؤسسات الاجتماعية والتي تم فيهـا صهر ذلك الصراع والخروج منه بنتيجة محددة؟ مـا هـي العلمية السيكولوجية التي يتم من خلالها الوصول إلى نتيجـة تضع في اعتبارها ما تسعى منظمات المجتمع إلى غرسـه، وما تدفع إليه الخبرات الفردية الخاصة بالفرد وما تطالب به رغبات الفرد الشخصية الأصلية كل ذلك في نفس الوقت؟

تلك العملية السيكولوجية – فيما نرى – هي ما يطلـق عليه أهل التخصص اصطلاح"عملية التنشئة الاجتماعية" إنها

عملية غرس قيم جديدة وسلوك جديد بما يناسـب الموقـف الاجتماع وعضوية الجماعة... إنها"عملية... اكتساب الأدوار – أو بمعنى أكثـر تخصيصـا – اكتسـاب تلـك العـادات والمعتقدات والاتجاهات والدوافع التي تمكن المرء من القيام بكفاءة بالأدوار التي يتوقعهـا منـه المجتمـع" (٧ ص ٥) فالتنشئة الاجتماعية إذن هي تلك العملية التي تخلق للمجتمـع صورته الموحدة وبذلك فإنها تتخذ موقفًا محددا من الفـروق بين الأفراد لعل خير تعبير عنه هو القول بأنه" رغم صـحة أنه لا يوجد فردان متمـاثلان" وأن لكـل شـخص وراثتـه المفردة، وخبراته المتميزة، ونمو شخصيته الفريـدة، فـإن التنشئة الاجتماعية لا تركز على مثل تلك العمليات والأنماط الفردية بل تركز على التشابهات وعلى تلك المجـالات مـن النمو المتعدد بتعلم الحضارة والمجتمع والتوافق معهـا (١٢ ص ٥).

وتسهم عملية التنشئة الاجتماعية بهذا المعنى في مجالين هامين فيما يتصل بالتكوين السيكولوجي للمجتمع:

أولاً: مجال التفاعل الأفقي – إذا صح التعبير – بين أفـراد هذا المجتمع أي أنها العملية التي يتم من خلالهـا توحيـد أو تفتيت الجيل المعاصر في أي مجتمع.

ثانيا: مجال التفاعل الرأسي – إذا صح التعبير – بالنسبة لهذا المجتمع. أي أنها العملية التي يتم من خلالها محاولة الجيـل الحالي غرس ما يود غرسه من قيم وأفكار في الجيل التـالي له. وكما أنه من غير المتصور أن تحرز تلك العملية نجاحا مطلقًا في المجال الأفقي بل أن ذلك النجاح المطلق قد يؤدي إلى وأد التفاعل الاجتماع المطلوب والمرغوب بين منظمات المجتمع المختلفة، فالأمر شبيه بذلك أيضا بالنسـبة للمجـال الرأسي ليس متصورا ولا مطلوبا – من الناحية العمليـة أن ينجح الجيل الحالي في أي مجتمع في إعادة تشـكيل الجيـل القادم على صورته نجاحا مطلقًا لابد من أن يختلف كل جيل عن الجيل الذي سبقه بدرجة تزيد أو تقل من حيث التكـوين السيكولوجي بالمعنى الذي أشرنا غليه. وتبقى عملية التنشئة الاجتماعية على أي حال بمثابة البوتقة التي يتم فيهـا خلـق وحدة المجتمع أو تفككه، واتصال أجياله أو انفصالها.

وينبغي لنا هنا أن نفرق تفرقة واضحة بين مـا يسـمى بالطابع القومي وبين عملية التنشئة الاجتماعية ونسـتطيع – دون أن نجاوز الحقيقة كثيرا – القول بأن العلاقة بينهما أشبه بالعلاقة بـين الأداة والنتـاج النهـائي بمعنـى أن التنشـئة الاجتماعية هي العملية التي يتم من خلالها تشـكيل وضـع الطابع القومي. فالطابع القومي" هو ذلك الجزء من الطـابع الذي يكون مشتركًا بين مجموعات اجتماعة بارزة. والذي – وفقًا لتعريف علماء الاجتماع المعاصرين – يكـون نتاجـا لخبرة تلك الجماعات (٢١ ص ٥/) وهو بذلك يمثل النتـاج النهائي لتلك التفاعلات الاجتماعية المعقدة والتي تـتم مـن خلال عملية التنشئة الاجتماعية وبعبارة أخرى فإنه إذا كـان اصطلاح الطابع القومي بحكم أنه تعبير عـن نتـاج نهـائي يكون أقرب إلى كونه مفهوما استاتيكيا، فإن اصطلاح التنشئة الاجتماعية بحكم تعبيره عن عملية مستمرة يكون أقرب إلى كونه مفهوما ديناميكيا وبذلك فإن الأسلوب الأمثـل – فيمـا نرى – لدراسة التكوين السيكولوجي لأبناء مجتمع مـا هـو تحليل عملية التنشئة الاجتماعية التي تجـري داخـل ذلـك المجتمع.

وتكتسب تلك الوسيلة، أعني تحليـل عمليـة التنشـئة الاجتماعية بهدف الوصول إلى أهـم خصـائص التكـوين السيكولوجي لأبناء مجتمع ما، تكتسب أهمية خاصة إذا كنـا بصـدد تنـاول مـا يمكـن التعبيـر عنـه اصـطلاحا بالمجتمع"المصنوع" أي المجتمع الذي يتم خلقه بعملية أشـبه ما تكون باستنبات نبات معين في دفيئة خاصة، وفـي تلـك الحالة يسهل على العالم المتخصص أن يرقب عملية النمـو خطوة بخطوة وبقدر كبير من الدقة. والأمر لا يختلف عـن ذلك كثيرا فيما نحن بصدده، فعملية التنشئة الاجتماعيـة إذا كانت تتم بيسر وبشكل تلقائي يجعل من الصعب ملاحظتهـا وتقييم نتائجها في المجتمعات المستقرة، فإنها في المجتمعات المصنوعة تكون واضحة المعالم، بينـة الخطـوط، عاليـة الضجيج وذلك لأنها تمثل البوتقة التي يتم فيها بالفعل"صـنع" ذلك المجتمع. وهي تكتسب أهميتهـا الخاصـة فـي تلـك المجتمعات بالذات من عدة أسباب أهمها:

أولاً: إن تلك المجتمعات تضم شتاتًا من الأفراد المنتمين إلى مجتمعات شتى تختلف بقدر يزيد أو يقل من حيـث قيمتهـا وعاداتها واتجاهاتهـا أو باختصـار مـن حيـث تكوينهـا

السيكولوجي وليس من سبيل لصنع (مجتمع) من ذلك الشتات إلا من خلال تخطيط وتوجيـه ومتابعـة لعمليـة التنشـئة الاجتماعية بالنسبة لأفراد ذلك المجتمع بهدف خلق التكـوين السيكولوجي المشترك بينهم.

ثانيا: إذا كان وجود جماعات فرعية خارجة على المعـايير السائدة في مجتمع معين أمر يهدد ذلك المجتمع بشيء مـن التفكك، فإن عدم وجود مثل تلك المعايير أصلاً أمـر يهـدد بالفشل تجربة صنع المجتمع من أساسها.

وليس هناك فيما نعلم من أقدم على محاولة مـن هـذا النوع في مجال علم النفس. أعني محاولـة تنـاول عمليـة التنشئة الاجتماعية بوصفها مفتاحا لفهم التكوين السيكولوجي لشعب من الشعوب وليس بوصفها مجرد مظهر من مظـاهر التكوين. وعلى أي حال فإن لذلك الأحجام مبرراته النظريـة والعلمية التي لا مجال لتفصيلها ومناقشتها في هـذا المقـام، وإن كان لابد أن نشير إلى مبررين بالذات يتصـدران تلـك المبررات العملية والنظرية:

أما المبرر الأول:

فهو مبرر عملي مؤداه إننا إذا ما كنـا بصـدد إعـداد برنامج دعائي موجه للأعداء، أو حتى إذا ما كنا بصدد شن حرب مسلحة عليهم، فإن ما يعنينا في المقام الأول هو توفير أكبر قدر ممكن من الفهم الموضوعي للتكوين السـيكولوجي للجيل المعاصر لهذا العدو، وهو الجيل الذي سيواجهنا بالفعل في ساحة القتال. وهو اعتبار يبدو مقبولاً تماما وإن كان لنـا عليه ملاحظتان:

أولاً: إنه لكي يتحقـق فهـم موضـوعي كامـل للتكـوين السيكولوجي للجيل المعاصر في أي مجتمع لابد من العـودة بشكل أو بآخر إلى ماضيه أعني إلى ماضي ذلك التكـوين. وبعبارة أخرى فإن ذلك الفهم يسـتلزم بالضـرورة – لكـي يكتمل – القيام بتتبع لعملية التنشئة الاجتماعية التي أمكن من خلالها صياغة ذلك الجيل بتلك الصورة.

ثانيا: إنه يندر في عالمنا المعاصر أن نرى مواجهـة بـين دولتين أو شعبين أو حتى جماعتين سياسيتين تستمر لجيـل واحد ثم تنتهي وتندثر أثارها بعد ذلك وكأن لم يحدث شيء. بل أن ما نراه عادة هو استمرار مثل ذلك الصراع لأكثر من

جيل بل لعدة أجيال. ولعل صراعنا مـع إسـرائيل نمـوذج واضح لذلك وليس في حاجة إلى مزيد من البيان.

أما المبرر الثاني:

وهو المبرر الذي يتصدر المبررات النظرية للأحجـام عن تناوله عملية التنشئة الاجتماعية بوصفها المدخل إلى فهم التكوين السيكولوجي لجماعة من الجماعة فيقوم على فكـرة تنظر إلى عملية التنشئة الاجتماعية بوصفها مجرد عملية يقوم بها الجيل الحاضر محاولة منه لتشكيل التكوين السـيكولوجي للجيل القادم وليس هناك مبرر لافتراض نجاح تلك المحاولة بحيث يمكنا التنبوء بسلوك الأجيال القادمة وفقًـا لمحـاولات الأجيال الراهنة صياغة ذلك السلوك. ولذلك المبرر وجاهتـه المنطقية ولا شك. فهو يرى أن عملية التنشـئة الاجتماعيـة حتى إذا ما تمت بنجاح في الطفولة فإن نتاجها النهائي عنـد الرشد لن يكون صورة مطابقة لأهدافها بحال لأنه مـا بـين الطفولة والرشد تحدث أحداث كثيرة لابد وأن تترك طابعهـا على شخصية الفرد وهي أحداث لا تدخل بحال فـي عمليـة التنشئة الاجتماعية بمعناها الاصطلاحي كوفاة أحـد أفـراد الأسرة أو حدوث كارثة طبيعية أو قيام حرب مفاجئة أو مـا

إلى ذلك وعلى ذلك فإن ما يعنينا – وفقًا لتلك الفكرة – هـو أساسا شخصية الراشد الذي سار في مدارج النمو حتى اكتمل نضجه والذي تصبح مهمة تنبؤنا بسلوكه أكثر يسرا واقـرب إلى احتمال الصواب ولنا على ذلك المبرر – رغم وجاهتـه المنطقية – اعتراض جوهري يمكننا صياغته علـى الوجـه التالي:

أولاً: إن التنبؤ في مجال السلوك الإنساني مهما بلغت دقتـه تنبؤ احتمالي إذا صح التعبير وليس بحال تنبؤًا حتميا كتلـك التنبؤات التي تقدمها لنا العلوم الطبيعية. وإذا كـان الأمـر كذلك فإن تلك الاحتمالية تنسحب بالضرورة على أي محاولة للتنبؤ بالسلوك الإنساني يستوي في ذلك الراشد والطفل.

ثانيا: ومن ناحية أخرى فإننا إذا ما سلمنا بأن عملية تشـكيل أساس الشخصية لدى الفرد الإنساني إنما تتم في طفولته، فإن في استطاعتنا آنذاك أن نقدم على الانطلاق من عملية التنشئة الاجتماعية للأطفال إلى التنبؤ بسلوكهم عند الرشد في حدود الاحتمالية المسلم بها دون حرج. وإذا ما لم نسلم بذلك ورأينا أن عملية التشكيل هذه عملية مستمرة تستوي أهميتهـا فـي

الطفولة معها في الرشد فإننا حينئذ لن نجد ثمة فـروق بـين الطفل والراشد فيما يتصل بقضية التنبوء هذه.

وفي الختام ينبغي أن نشير إلـى أن دراسـتنا للتنشـئة الاجتماعية في إسرائيل شأنها شأن دراستنا في أي مجتمـع آخر لا تقف عند حد رصد المؤسسات التي تقـوم بهـا ولا تسجيل المادة التي تقدمها تلك المؤسسات تفصيلاً، أن دراسة عملية التنشئة الاجتماعية لابد وأن ترمي في النهاية للوصول إلى الأفكار الرئيسية التي تدور حولها المادة التي تقدمها تلك المؤسسات مستخدمة في ذلك ما استخدمت مـن أسـاليب – فتلك الأفكار الرئيسية هي التي تسهم في تشـكيل عناصـر التكوين السيكولوجي في النهاية وليست مجرد المؤسسات ولا الوسائل. ولنتناول نموذجا من بيئتنا يوضح ما نرمي غليـه. لو قصدنا دراسة السمات المميزة لعملية التنشئة الاجتماعيـة كما تجرى في قرية الصعيد مثلاً، فإن تلك الدراسة لا ينبغي لها بحال أن تقف عند حد تقرير إن أهم المؤسسات التي تقوم بعملية التنشئة الاجتماعية في تلك القرية هي الأسرة والمسجد مثلاً. ولا ينبغي لها أيضا أن تقف عند حد تقرير أن المـادة التي يقدمها المسجد مثلاً عبارة عن أفكار دينية تدور حـول

كذا وكيت من الموضوعات. كما أنه لا ينبغي لها كـذلك أن تقف عند حد حصر إعداد المترددين على المسجد

ولا حتى قياس الاتجاهات الدينية الموجودة فعلاً فـي تلك القرية. كل ذلك أو بالتحديد إلى أشـد الأفكـار تـأثيرا وتميزا عن الأفكار السائدة في المجتمع عموما أو التي يسعى لتسييدها. ولقد تختلف الأساليب الموضوعية التي يمكـن أن يستخدمها الباحث وصولاً إلى تلك الغاية. ولكـن لابـد وأن يستهدف بلوغها. أعني أنه لابد وأن يستهدف التوصل إلى أن أفكارا مثل الثأر والتمسك بالأرض وتمييز الرجال وما إلـى ذلك كأفكار، تمثل المحور المميز لعملية التنشئة الاجتماعيـة هناك وأنه على هدى تلك الأفكار تتم تنمية العادات والتقاليـد والأفكار والقيم والأنماط السلوكية التي يتميز بها أبناء تلـك القرية عن بقية المجتمع.

محاذير وحدود

ينبغي علينا ختاما لما نحن بصدده من تقديم للموضـوع أن نشير إلى عدد من الصعوبات التي يتعـرض لهـا مـن يتصدى لمثل ما نحن مقدمون عليه. وأهم تلـك الصـعوبات فيما نرى:

أولاً: إن الدراسة العربية في هذا المجال نادرة. بل إنهـا – في حدود ما أسفر عنه تنقيبنا عنها – تكاد تكـون معدومـة بالفعل فيما يتعلق بعملية التنشئة الاجتماعية فـي إسـرائيل. وذلك يعني أن الدراسة في هذا المجال ستكون بحكم طبيعـة الأمور دراسة رائدة تتحمل أخطار الريادة ومخاطرها وهـي ليست بالأخطار القليلة ولا بالمخاطر الهينة.

ثانيا: رغم أن هناك عددا لا بأس به من البحوث التي أتيح لنا الإطلاع عليها قد قام به باحثون من خارج إسرائيل، غلا أن غالبية الدراسات قد قام بها يهود. وليست القضية هي احتمال تحيز في وجهة النظر التي تحملها تلك الدراسات بـل إنهـا لأعمق من ذلك بكثير. فأولئك البـاحثين اليهـود تـربطهم بالتجربة الإسرائيلية علاقة بالغة التعقيد والصعوبة. ليسـت بعلاقة الانتماء الواضح ولا الرفض الصريح. ولعـل خيـر

مثال يدل على تأثير تلك العلاقة المعقدة على نظرة الباحث إلى موضوع بحثه ما حدث حين عقد في عام ١٩٥٧م لقاء بين عدد من العلماء الأمريكيين والإسرائيليين بهدف زيادة التعاون بين الفريقين. وتم اختيار موضوع تأثير النشأة في الكيبوتزات الإسرائيلية على الشخصية موضوعا للدراسة. وقيل في تبرير ذلك الاختيار أن ذلك الموضوع يجمع بين الأهمية، والافتقار إلى الدراسة العلمية المنتظمة، والتعرض أيضا للتحيز في دراسته (٣٧) وكان ضمن المشتركين في هذا اللقاء باحثة أمريكية يهودية هي"إيفا روزنفيلد" التي قامت في نطاق البرنامج الذي أسفر عنه هذا اللقاء بتقديم دراسة عنوانها"عالم الاجتماع الأمريكي في إسرائيل: دراسة ميدانية في صراع الأدوار" قالت فيها إنه"لعله ليس مصادفة أن كافة علماء الاجتماع الذين ذهبوا لإجراء دراسة ميدانية في الكيبوتزات وما شابهها كانوا جميعا من اليهود. وربما كان ذلك مدعاة لمزيد من التناقض الوجداني في نفوس الباحثين وما يترتب عليه من شعور بالإثم لكونهم مجرد زوار" (٤٧) ثم لم تلبث أن قالت محددة طبيعية المأزق الذي يصبح فيه الباحث العلمي آنذاك أنه"ليس أمام الباحث إلا أن يتخلى عن

دوره العلمي ويصبح عضوا في الجماعـة – كمـا يصـنع الأنثربولوجيون أحيانًا – أو أن يصبح متحيزا للجماعة التـي يفحصها (٤٧).

ثالثًا: يضاف إلى ذلك صعوبة متعلقة بالمجتمع الإسـرائيلي نفسه وهي إن ذلك المجتمع بعامة، وبشـكل خـاص أبنـاء الكيبوتزات فيه أميل إلى رفـض التعـاون مـع البـاحثين الاجتماعين بل لقد لوحظ أنه لا يقدم على إقامة علاقة وثيقـة بالباحث غلا أبناء الكيبـوتزات الشـواذ المرفوضـين مـن الجماعة، حتى أن مدرسة في أحد الكيبوتزات قد ذكرت أنها حاولت عشرون مرة إقامة سلسلة من مقابلات تاريخ الحالـة مع أبناء ذلك الكيبوتز، وكان المفحوص يقطع الاتصال بهـا فجأة بعد جلسة أو اثنين بحجة أنه ليس لديه ما يقوله (٤٧).

رابعا: وهي صعوبة أقرب إلى أن تكون نوعا من القصـور وتتمثل في عدم إلمام الباحث باللغة العبريـة وهـي اللغـة الأصلية لعدد كبير من البحوث المتعلقة بالموضوع والتي تم حقًا ترجمة نسبة معقولة منها ولكن يبـدو – وذلـك مجـرد إحساس تكون لدى الباحث خلال دراسته – أن جانبا كبيـرا من البحوث المتعلقة بالتجربة الإسرائيلية لم يترجم إلى لغات

أجنبية عن تلك اللغة، ذلك فضلاً عن أن اللغة العبرية هـي اللغة الأصلية للمجتمع محل الدراسة ويكفي ذلك وحده لتكون ضرورة أو على الأدق لتكون ميزة يمتاز بها الباحـث فـي تصديه لدراسة هذا المجتمع. ورغم أنه يبدو أن تلك الصعوبة تكاد تكون أمرا يشترك فيه الباحث مع أبناء تخصصه جميعا غلا أن ذلك لا ينفي عنها صفة القصور ولا ينفي عنه صفة التقصير.

خامسا: ولعلها أخطر الصعوبات جميعا التي تواجه من يتقدم منا للتصدي لمثل تلك المهمة. فالأمر في نهايته يتمثل في أن باحثًا مصريا يتصدى في حدود تخصصه لدراسـة التجربـة الإسرائيلية. وبينه وبين تلك التجربة ما بين المصريين جميعا وبين إسرائيل من موقف غني عن البيان. وذلك يقتضيه جهدا لأحد له لمغالبة نفسه والتغلب على تحيزاتها المسبقة حيـال موضوع دراسته ويقتضيه في الوقت نفسه جهدا لا يقل عـن ذلك للاحتفاظ بالموقف الوطني المحـدد والمحسـوم سـلفًا. صراع لابد وأن يخوضه الباحث بـين مقتضـيات"التجـرد العلمي" ومقتضيات"الالتزام الوطني". بحيث لا يجتذبه الجانب الأول – أعني جانب التجرد العلمي إلـى الاقتصـار علـى

التسجيل دون التفسير، ولا يدفعه الجانـب الثـاني – أعنـي جانب الالتزام الوطني إلى التعسف فـي تفسـير الوقـائع، والحيلولة دون النظرة الشاملة إليها.

تلك هي أهم الصعوبات التي تعتـرض بالفعـل سـبيل الباحث المصري في دراسته للمجتمع الإسرائيلي. وهـي لا تنفي بطبيعة الحال تعرضه للعديد من الصعوبات الأخـرى التي تعترض طريق الباحثين في مجـال العلـوم الإنسـانية بعامة، والتي سبق أن أشرنا إلى بعضها فيما سبق.

حددنا إذن هدفنا من الدراسة، وهو التوصل إلـى فهـم موضوعي للخصائص الرئيسية للتكوين السيكولوجي للمجتمع الإسرائيلي. وحددنا كذلك وسيلتنا لذلك الفهم وهـي تحليـل عملية التنشئة الاجتماعية في إسرائيل. بقى أن نحدد تحديـدا قاطعا مجال تلك الدراسة، أو بعبارة أخرى بقى أن نحدد من هم الذين ينبغي أن تشملهم دراستنا ويقتضينا ذلك التحديد أن نورد بإيجاز عددا من المسلمات المبدئية التي سيقوم عليهـا بحثنا، تاركين أمر تمحيصها والحكم على سلامتها أو خطئها للبحث نفسه، وأهم تلك المسلمات أو التحديدات هي:

أولاً: إننا لسنا بصدد دراسة التكوين السيكولوجي لليهود تاريخيا، أي منذ نشأة الديانة اليهودية حتى يومنا هذا.

ثانيا: إننا لسنا بصدد دراسة التكوين السيكولوجي لليهود بعامة، أي لكل من يدينون بالديانة اليهودية اليوم في كافة أنحاء العالم.

ثالثًا: إننا لسنا بصدد دراسة التكوين السيكولوجي لكافة اليهود الذين تضمهم إسرائيل على تعدد أصولهم الحضارية.

إن ما نحن بصدده بالتحديد هو دراسة أهم خصائص التكوين السيكولوجي السائد في إسرائيل اليوم. ولا يعني توصلنا إلى تلك الخصائص وحديثنا عنها إنها تشمل كافة اليهود المقيمين في إسرائيل والذين ينتمون إلى تجمعات شتى يستحق كل تجمع منها – بالتأكيد – دراسة مستقلة لتكوينه السيكولوجي. فنحن نعنى بالتكوين السيكولوجي السائد ذلك التكوين الذي تتميز به الطبقة السائدة في إسرائيل، والذي تسعى تلك الطبقة بحكم سيادتها إلى نشره وتدعيمه وغرسه في نفوس الجميع، والذي يمكن بهذا المعنى فحسب اعتباره الطابع السيكولوجي السائد هناك.

ويجدر بنا أن نشير في النهاية إلى أن تركيزنا على جوانب التشابه في المجتمع الإسرائيلي بشكل أكثر من تركيزنا على جوانب الاختلاف فيه ما هو إلا أمر تقتضيه طبيعة موضوع البحث، وطبيعة المدخل الذي اخترناه إليه وليس بحال أمرا تفرضه أو توحي به طبيعة المجتمع الإسرائيلي.

الفصل الثاني

الطائر المهاجر

نقطة البداية

عنصر التمايز

عنصر الاضطهاد

الحياة في الجيتو

الجيتو وجيل الحالوتس

نقطة البدايـة

سبق أن أشرنا في مقدمة هذا البحـث إلـى أن صـحة معرفتنا بواقع الإنسان الإسرائيلي إنما تتوقف على اتخاذ تلك المعرفة لمسارها الصحيح، أي أن تكون معرفة بمـا حـدث وتفسيرا له، وتنبوءا بما سيحدث، واسـتعدادا لـه وبعبـارة أخرى فإن تلك المعرفة تتطلب – كما سبق أن أوضـحنا – قدرا من النظر إلى الماضي يكفل فهم الحاضر بحيث يمكـن آنذاك استشراف المستقبل. ولكن ترى من أين نبدأ؟ أي نقاط الماضي نستطيع أن نعتبرها أنسب النقاط للبداية؟ وما هـي الشروط التي ينبغي أن تحكم اختيارنا لها دون غيرهـا؟ إن أهم تلك الشروط فيما نرى ثلاثة:

أولاً: ألا تكون مسرفة في بعدها عـن الواقـع الإسـرائيلي المعاصر ولا نعني هنا بالبعد بعد الشقة الزمنية بـل نعنـي أساسا بعد الصلة أو بعد السبب. وإن كان ذلك النـوع مـن البعد يرتبط ارتباطًا وثيقًا واضحا بالبعد الزمني كأن نرجـع بتاريخ اليهود المعاصرين مثلاً إلى عصر السبي البابلي، أو ما قبل ذلك.

ثانيا: ألا تكون أيضا مسرفة في قربها من الواقع الإسرائيلي المعاصر بحيث يكون من الأليق دمجها فـي ذلـك الواقـع المعاصر واعتبارها جزءا منه. كأن يقتصر تفسيرنا للأحداث المعاصرة في إسرائيل على اتجاهات ساستها المعاصـرون مثلاً أو تاريخهم المباشر.

ثالثًا: أن تكون جزءا من تيار التاريخ الإنسـاني المعـروف والمكتوب والذي يحظى بقدر معقول من اتفـاق المـؤرخين بمعنى أنه طالما أننا لسنا من أهل الاختصاص في التـاريخ فلا مبرر لاختيار نقطة في مسار التاريخ لا تحظى بإجمـاع غالبية المؤرخين خاصة أننا سوف نرتب على تلـك النقطـة المختار الشيء الكثير في دراستنا ومن أمثلـة تلـك النقـاط موضع الخلاف الاعتماد على ما يسمى ببروتوكولات حكماء صهيون في تفسيرنا أو تناولنا للظاهرة الإسرائيلية.

قد يبدو للوهلة الأولى أن حديثنا هـذا تزيـد لا طائـل وراءه. فلنبدأ من أي نقطة مادامت تنتمي للماضي بصـورة من الصور بصرف النظر عن إسرافها فـي البعـد أو فـي الاقتراب ماضين في طريقنا صوب الحاضر. ولكن حـديثنا في الحقيقة مستوحي بالفعل من دراسات سـبقت فـي هـذا

الموضوع أعني موضوع تاريخ إسرائيل وتردت في عديد من المزالق سواء كان التردي بوعي من الدارسين أو بغير وعي منهم، وسواء صرحوا باختيارهم لهذه الواقعة التاريخية أو تلك نقطة لبداية بحثهم أم تركوا ذلك لفطنة القاريء كأمر غني عن البيان، وسواء أكان ذلك التعرض لدراسة تاريخ إسرائيل هو في حد ذاته موضوعا للدراسة، أو كان مدخلاً لدراسة موضوع آخر.

لقد آثر الكثير من الباحثين ممن تعرضوا لدراسة تاريخ إسرائيل – وبغض النظر عن هدفهم من تلك الدراسة – أن يبدأ بحثهم من نقاط تاريخية موغلة في القدم وصلت ببعضهم إلى عام ٦٠٠ (قبل الميلاد) (٢٤). وبغض النظر عما يستهدفونه من اختيار مثل تلك البداية الموغلة في القدم فما يعنينا هو أن مثل تلك البدايات تحمل ضمنًا تسليما بأن الظاهرة التي يتعرض لها الباحث – أي إسرائيل – تربطها أواصر الصلة بتاريخ موغل في القدم إلى هذا الحد وذلك يعني بالتالي التسليم بأن الأفراد الذين تضمهم تلك الظاهرة الآن – أي الإسرائيليين – إنما يرجع تاريخهم إلى تلك النقاط الموغلة في القدم أيضا، أو بعبارة أكثر تحديد أن الإسرائيليين

المعاصرين ليسوا إلا امتدادا لذلك الجنس اليهودي القديم الذي حدثتنا عنه الكتب السماوية ولذلك فلا بأس في أن نرجع موقفًا يتخذه إسرائيليو اليوم إلى واقعة وردت في أسفار العهد القديم. ولا ضير في أن نرجع تصرفًا يتخذه رجل الشارع الإسرائيلي عام ١٩٧٠م إلى رواية نقلتها إلينا التوراة عن سلوك الشعب اليهودي في موقف معين حدث آنذاك.

ولابد لنا هنا من تفرقة بين التاريخ كواقع شخصي للأفراد، والتاريخ كواقع مادي للأمم، والتاريخ كواقع سيكولوجي، فالتاريخ كواقع مادي لشعب من الشعوب هو تلك الأحداث المتتالية التي وقعت لذلك الشعب تاركة آثارها على أفراده. ومن خلال وحدة تلك التأثيرات يتحول ذلك الواقع المادي إلى واقع سيكولوجي بأن تقوم الأجيال المتعاقبة لذلك الشعب بنقل تلك التأثيرات في وحدتها من جيل إلى آخر ومن هنا ينشأ ما يسمى بالإحساس بالتاريخ أو ما يمكن أن نطلق عليه التاريخ كواقع سيكولوجي. فنحن نقول مثلاً" نحن هزمنا الهكسوس" في حين أن أحدا منا لم يشهد ذلك الانتصار ولم يشارك فيه أي أن ذلك الانتصار لم يدخل ضمن أحداث التاريخ الشخصي لأي منا. أن ما حدث بالدقة هو أن واقعة

الانتصار على الهكسوس كانت واقعا شخصيا للأفراد الـذين عاصروها، ونتيجة لارتباطها بما سبقها وما تلاها من أحداث وقعت لشعبنا تحولت إلى جزء من التـاريخ كواقـع مـادي تاريخي لأمتنا، ثم من خلال عملية التنشئة الاجتماعية التـي اكتسبنا من خلالها عاداتنا وتقاليدنا وأنماط سلوكنا، اكتسـبنا أيضا أننا مصريون أي إننا أصحاب ذلـك التـاريخ. أي إن التاريخ قد تحول من خلال عملية التنشئة الاجتماعيـة مـن واقع مادي إلى واقع سيكولوجي ولمزيد من التفسير لما نعني بتلك التفرقة لنتصور فردا ينتمي لحضارة معينة لها تـاريخ معين، أقدم في شبابه على الهجرة إلى وطن جديد له حضارة أخرى وتاريخ آخر. وأمضى صاحبنا ردحا طويلاً من الزمن في ذلك الوطن الجديد وأخذ – اضطرارا أو اختيارا – يشعر بحاجة إلى الانتماء إلى ذلك الوطن، وشيئًا فشيئًا تحول ذلـك الإحساس بحاجته إلى الانتماء إلى انتماء فعلى بحيث أصـبح ذلك المواطن الجديد متوحدا بذلك الوطن الجديد. يحزن لمـا يصيبه من كوارث. ويفرح لما يحرزه من تقدم. يفزع مـن الهجوم عليه ويهب للذود عنه. ويستاء مـن الـتهجم عليـه ويتصدى للدفاع عنه. مثل ذلك الشخص ترى مـاذا يكـون

إحساسه بتاريخ وطنه الجديد؟ لا بأس مطلقًا فيما نرى من أن نعتبر تاريخ ذلك الوطن الجديد أصبح بالنسـبة لـه واقعـا سيكولوجيا. وإن لم يكن في استطاعتنا بحال أن نعتبر أن ذلك التاريخ قد أصبح يمثل بالنسبة له واقعـا ماديـا. وربما مـن يتساءل، وما الفرق؟ التاريخ أحداث مضـت وانقضـت ولا سبيل لأن تمارس تأثيرها على الأفراد إلا كواقع سيكولوجي أليس كذلك؟ والإجابة على ذلك السؤال تدخل بنا في صـميم موضوعنا، أعني قضية التنشئة الاجتماعية فالتاريخ يمـارس تأثيره على الأفراد كأفراد من خلال نوع من التعلم تتكفل به عملية التنشئة الاجتماعية التي تجرى في المجتمع. المجتمـع يعلم أفراده أنهم ينتمون إلى ذلك التاريخ بعينه ولـيس إلـى تاريخ سواه وفيما يتعلق بصاحبنا ووطنه الجديد فإنه قد أعيد تعليمه من جديد. أي إنه قد تعرض شيئًا فشيئًا لعملية تنشـئة اجتماعية جديدة اكتسب من خلالها قيما جديدة. وعادات جديدة وأساليب جديدة للتفكير والسلوك. ومن خلال تلك العملية نما شعوره بالانتماء لـذلك الـوطن الجديـد، ونمـا إحساسـه السيكولوجي بتاريخ ذلك الوطن الجديد أيضا. ولا ينبغي لنـا أن نتصور ذلك باعتباره عملية بسيطة تتخذ طريقها في يسر،

ولا أنه عملية أحادية الاتجاه بمعنى أن الفرد يتخذ من عملية تنشئته اجتماعا موقف التلقي السلبي فالأمر أبعد ما يكون عن ذلك. أن عادات وقيم وأفكار الفرد القديمة أعني تلـك التـي اكتسبها في وطنه القديم تظل تقاوم ذلك التغير الجديد ونادرا ما يتم الأمر على الصورة التي آثرنا – تبسيطًا – أن نصوره بها ، ولكن ما يعنينا هو أنه حتى إذا ما سلمنا جدلاً بإمكـان أن يتم الأمر على هذه الصورة بالفعل، فإن قضـية إمكانـه تظل متوقفة ومشروطة بنجاح عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة الجديدة التي تعرض لها هذا الفرد وذلـك يعنـي أن تحـول التاريخ من واقع مادي إلى واقع سيكولوجي لا يمكن أن يـتم إلا من خلال عملية"تعليم" أو تنشئة اجتماعة. وبذلك فإننـا لا نستطيع ببساطة أن نسلم بإن هناك واقعا تاريخيا ماديا واحدا متصلاً منذ نشأ اليهودية حتى اليـوم يجمـع بـين اليهـود السوفييت واليهود الأمريكيين واليهود اليمنيين واليهود الألمان مثلاً. ولا يوجد حتى بين أشد الكتاب الصهاينة تعسفًا وتعصبا من يدعي مثل ذلك صراحة. كل ما هنالك أنهم حين يتحدثون عن تاريخ موغل في القدم للإسرائيليين المعاصرين، فـإنهم يتحدثون عن ذلك بوصفه واقعا تاريخيا سيكولوجيا. وذلـك

أمر يتنافى فيما نرى مع طبيعة الواقع التاريخي السيكولوجي إذ إننا لو سلمنا بأن التاريخ كواقع مادي لم يكن واحدا بالنسبة لليهود جميعا، فإن علينا أن نسـلم بالتـالي بـأن تنشـئتهم الاجتماعية لم تكن واحدة مهما بلغ حظها مـن التشـابه. أن عادات وتقاليد وقيم اليهود من أبناء اليمن أقرب قطعا إلى قيم اليمنيين – مهما كان اختلافهم عنهم – من قربها إلى تقاليـد وعادات وقيم اليهود من أبناء تشيكوسلوفاكيا – مهمـا كـان اقترابهم منهم. اليهودي الألماني أقرب – فيما نرى – إلـى المسيحي الألماني منه إلى اليهودي من أبناء جنوب أفريقيـا. ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى ما جاء في كتاب تـاريخ العصور الوسطى الصادر في كمبريدج من أن يهود قرطبـة وهم أكثر الجاليات اليهودية نفوذًا في أسبانيا، قد أخذوا عـن العرب زيهم ولغتهم وعـاداتهم (٦٠، ص ١٧)، ومـا ورد كذلك في دراسة وانيتروب من إشارات إلى احتفاظ الأسـرة الكردية اليهودية بعاداتها المميزة عن بقية الأسر اليهودية في إسرائيل. ورغم ما انتهى غليه من القول بأن تلـك الفـروق آخذة طريقها إلى الذوبان في إسرائيل، فإن ذلك الذوبان حتى لو سلمنا بحدوثه لا يعني أن تلك الفروق لم تكـن موجـودة

أصلاً (٥٥). ذلك هو الفهم الوحيد الذي يقدم تفسيرا علميا لما يسلم الجميع بأن إسرائيل تعاني منه أشد المعانـاة ألا وهـو محاولة التقريب أو الدمج بين الجماعات العرقية المختلفـة. ولعل ذلك موضوع جدير ببحث مستقل. لو سلمنا بكل ذلـك لأصبح من التعسف الذي جدير ببحث مستقل. لو سلمنا بكل ذلك لأصبح من التعسف الذي يبعد بنا قطعا عن الصواب أن نصطنع لإسرائيل اليوم تاريخًا موغلاً في القدم إلى هذا الحد وإن كان لمثل ذلك الاصطناع – فيما نرى – هـدفًا وغايـة لدى غالبية القائمين به سوف نتعرض لها فيما بعد.

القضية التي كان لابد لنا مـن حسـمها أولاً لنسـتطيع المضي في دراستنا هي بالتحديد: هل أولئك الـذين نـواجهم اليوم في صراعنا المصيري مع إسرائيل هم امتداد مادي أو سيكولوجي لأولئك اليهود الذين حدثتنا عنهم الكتب السماوية؟ ويتوقف المسار الذي سوف يتخذه بحثنا على إجابتنـا علـى ذلك السؤال. فلو كانـت الإجابـة بالإيجـاب أي أن أولئـك الإسرائيليين المعاصرين امتـداد مـادي أو سـيكولوجي أو الأثنين معا لأولئك اليهود القدامي، كـان علينـا أن ننحـو بدراستنا منحى محددا يستمد مادته من الكتب القديمـة التـي

تعرضت لنشأة الديانة اليهودية أو التي صاحبت تلك النشـأة كالتوراة والتلمود وما إلى ذلك. أما إذا كانت الإجابة بـالنفي أي إن أولئك الذين نواجههم اليوم في إسرائيل ليسوا بحـال مجرد امتداد لذلك"الجـنس" اليهـودي القـديم لا ماديـا ولا سيكولوجيا فإن علينا حينئذ أن نتصدى للبحث من جديد عـن نقطة بداية لدراستنا. وواضح أننا قد أجبنا على ذلك السـؤال بالنفي. ولكن ذلك لا يعني أن هناك إجماعا على تلك الإجابة من قبل من تصدوا لذلك الموضوع بل أن الكثير من هـؤلاء أميل إلى الإجابـةى بالإيجـاب أي إلـى اعتبـار التـاريخ الإسرائيلي متصلاً منذ ظهور اليهودية حتى اليوم. ولا بـأس من إلقاء نظرة سريعة على آراء هؤلاء وآراء المعارضـين لهم لعلنا من خلال تلك النظرة نستبين طريقنا وصولاً إلـى نقطة مناسبة لبدايتنا.

تعتبر فكرة امتداد التاريخ الإسرائيلي إلى ذلك التـاريخ الموغل في القدم بمثابة حجر الزاوية لدى جميـع المفكـرين الصهاينة بلا استثناء فسيسيل روث يبدأ كتابه"تاريخ اليهـود" (٢٤) بفصل يحمل عنوانًا واضح الدلالة هو"إسـرائيل مـن حوالي عام ١٦٠٠ ق.م إلى ٥٨٦ ق.م" وينحو هوارد مورلي

ساخار نفس المنحى تقريبا في كتابه"مسار التـاريخ اليهـود الحديث" (٢٥) أما ترود فايس روز مارين فإنها تزيد الأمـر وضوحا في كتابها"انتصار اليهود في صراع البقـاء" (٢٩) فتعرض لفكرة غريبة عن القومية مؤداها أن اليهودية ديـن وقومية في الوقت نفسه وأن اللغة العبرية هي أولى مقومات الأمة اليهودية وأن ثاني تلك المقومات هو الولاء الحضاري. ويقول بنتوفتش في كتابه"فلسطين" أن عراقة الصهيونية إنمـا ترجع إلى زمان هدم الهيكل ووقوع الشعب اليهودي في أسر بنوخذ نصـر (ص ص ٦) ويقـول بـن جوريـون فـي مذكراته"منذ آلاف السنين" ورغبة اليهود فـي العـودة إلـى إسرائيل لا تموت (٥٧ ص ١١٢) ولسوف يتضح فيما بعـد أن ذلك الحرص من جانب الكتاب الصهاينة على اصـطناع مثل ذلك التاريخ القديم لإسرائيل حرص مفهوم تماما وله ما يبرره ولكن الظاهرة الجديرة بالتأمل حقًا أن تلك الفكرة تلقى صدى واسعا لدى الكثير من مفكرينا حتى أنها قد أصـبحت تكاد تشكل سمة مشتركة في نظرتنا إلى الظاهرة الإسرائيلية تشمل حتى من يتناول تاريخ اليهود كمدخل لتناولـه قضـية أخرى كما فعل صبري جرجس في كتابه"التـراث اليهـودي

الصهيوني والفكر الفرويدي" (٦٥) والذي بلغ تمسـكه فيـه بتلك الفكرة حد أقدامه على مناقشة أفكار التحليل النفسي التي شهدها مطلع القرن العشرين باعتبارها تعبيـرا عـن فكـر صهيوني بالغ القدم يمتد إلى آلاف السنين. وكذلك فقد كـان التسليم بفكرة امتداد التاريخ اليهودي إلى الزمن الغابر القديم هو السائد أيضا في أفكار عدد كبير ممن تنـاولوا القضـية الفلسطينية. فيقول مثلاً محمد فرج في كتابه – الذي يسـميه رغم ذلك – فلسطين عربيـة" ونحـن لا نعنـي بـذلك أن الصهيونية كفكرة وجدت في القرن التاسع عشر فقط، فهـي فكرة قديمة تمتد جذورها إلى الوقت الذي شرد فيه اليهود من فلسطين فيما قبل الميلاد، وكان اليهود منذ هذا الوقـت قـد آمنوا بفكرة العودة إلى صهيون ورددوا هـذه الفكـرة فـي صلواتهم وأناشيدهم" (٧١، ص ٣٦) أما عبده الراجحي فإنه في كتابه"الشخصية الإسرائيلية" يقول في وضـوح لا يقبـل اللبس"لقد دأبنا جميعا في الفترة الماضية على التمييـز بـين اليهودية والصهيونية.. والواقع إننا بهذا وقعنا في خطأ كبير، ذلك أن الدارس الموضوعي لحياة الشعب الإسرائيلي يعلم أن هناك حقيقة هامة لا ينكرها باحث بل لا ينكرها الإسرائيليون

أنفسهم فضلاً عن أنهم يعتزون بها ويدعون لهـا وهـي أن الإسرائيلية واليهودية والصهيونية ألفاظ مترادفة لمعنى واحد" (٦٧، ص ٩) وهكذا يصبح تمسك الإسـرائيليين بـدعاواهم واعتزازهم بها ودعوتهم لها مدعاة ومبررا لأن ننظر نحـن إلى تلك الدعاوى باعتبارها حقيقة هامة لا يصح أن ينكرهـا الدارس الموضوعي. هذا مع ملاحظة إن ذلك الكتـاب قـد صدر عام ١٩٦٩م أي بعد أن مضى علـى نكسـة يونيـو عامان. أو ما يقرب من ذلك. ليست هذه سوى نماذج تعبـر عن تلك الفكرة التي دعا إليها مفكـروا الصـهيونية لـدافع واضح سوف نتناوله تفصيلاً فيما بعد، وتبناها عدد كبير من كتابنا العرب لأسباب لا نشك لحظة في أنهـا تختلـف عـن دوافع الإسرائيليين وأن كانت تحتاج – فيمـا نـرى – إلـى بعض التفسير. يبدو أن هؤلاء الباحثين قد أرادوا أن يضيفوا إلى سيئات وجرائم الإسرائيليين تراثًا طويلاً بالغ الضـخامة من السيئات والجرائم التي تبدأ بالموقف من المسيح بل لعلها تبدأ بالخروج على موسى. ولم يتنبه هؤلاء الباحثون إلى مـا أسدوه بالفعل إلى إسرائيل من خدمة جليلة بتأكيدهم أن لهـا ذلك التراث الطويل مهما كانت وجهـة نظـرهم هـم فـي

مخازيه. ويتخذ محمود بن الشريف في كتيب لـه بعنـوان" اليهود في القرآن" موقفًا متناقضا فيستشهد في مقدمته بفكـرة من كتيب لجمال حمدان بعنوان اليهود أنثروبولوجيـا يقـول فيها أن يهود التوراة قد اختفوا كشـبح (٧٢، ص ٩) وهـو يستشهد بها مؤيدا لما تشير إليه بطبيعة الحال، ثـم لا يلبـث وبنفس التأييد أن يستشهد بفقرة لعزة دروزه في كتابه"سـيرة الرسول" يتحدث فيها عن أن المرء إذ ينظر إلى اليهود يكـاد يرى فيهم إجمالاً صورة طبق الأصل – يصفها الكاتب بأنها جبلة خاصة – لما عرف عنهم منذ قديم وأن أخلاقهـم تلـك متوارثة فيهم جيلاً عن جيل وعلى امتداد القرون المتطاولـة منذ أسفار العهد القديم (٧٢، ص ٥٢، ص ٥٣).

وعلى أي حال فإن ذلك لا ينفي أن وجهة النظر المقابلة أعني فكرة أن أولئك الذين نواجههم اليوم كإسرائيليين ليسوا بحال امتدادا للجنس اليهودي القديم – وجهة النظـر هـذه لا تعدم أنصارا. فرغما عن عدم اتفاقنا تماما مع جـان بـول سارتر فيما تضمنه كتابه"اليهود والمعادي للسامية" (٢٦) إلا أن ذلك الاختلاف لا ينفي حقيقة أنه يـرى هنـاك أجناسـا يهودية متعددة وأنه ليس ثمة وجود لتراث يهودي واحد أمـا

يوري إيفانوف فإنه يحدد موقفه بوضوح في كتابه الصهيونية حذار، فيقول:"لقد اسـتهلت الصـهيونية نشـاطها المـنظم بالتزييف. فهي لم ترضى بتاريخ ميلادها لهذا راحت الدوائر الصهيونية والمشايعة لها تنشر على أوسـع نطـاق خرافـة مؤداها أن الصهيونية التي تدعو لإقامة دولة يهوديـة هـي ظاهرة قديمة قدم العالم ذلك أن اليهود علـى امتـداد آلاف السنين، كانوا دوما يحلمون بيوم العودة إلى فلسطين والمثير حقًا أن هذه المزاعم لا تزال قائمة حتى أيامنا هذه (٦٠ ص ٦) ويتبنى إسماعيل صبري عبد الله نفس الفكرة تقريبا فـي كتابه"في مواجهة إسرائيل" (ص٥٨).

تلك هي أبرز الآراء التي تتبنى كلاً من هذين الاتجاهين في النظر إلى تاريخ أولئك الإسرائيليين المعاصرين، اتجـاه يرجع بذلك التاريخ إلى أبعد مما يمكن أن يحتملـه المنطـق والاتجاه الآخر يرفض الاتجاه الأول ولكنه لا يقدم لحثنا هذا حلاً واضحا أعني أنه لا يشير إلى ما يمكن أن نعتبره نقطـة بداية لهذا البحث. ويبدو أن علينا أن نوالي البحث عن نقطة البداية تلك، ولقد أسفرنا بحثنا عن نقطة البدايـة هـذه عـن التصور التالي: إن الإسرائيليين المعاصـرين وهـم الـذين

يواجهونا حاليا يضمون في حدود وجودهم كمعاصرين عدة أجيال، مازال على قمتها من حيث السن على الأقل مجموعة من أولئك المهاجرين القدامى الذين قامت على أكتافهم دولة إسرائيل. فلتكن نقطة بدايتنا إذن الخصائص السيكولوجية لأولئك الرواد. كيف تكونت؟ وفي ظل أية ظروف؟ وكيف نمت وتطورت إلى أن أصبحت على ما هي عليه الآن؟ وما هي صورة تفاعلها الحالي وممارستها المستقبلة؟.

الخصائص السيكولوجية لأولئك الرواد. كيف تكونت؟ وفي ظل أية ظروف؟ وكيف نمت وتطورت إلى أن أصبحت على ما هي عليه الآن؟ وما هي صورة تفاعلها الحالي وممارستها المستقبلة؟.

لقد خلصت بنا دراستنا إلى أن نضع أيدينا على خاصتين سيكولوجيتين ميزتا ذلك الجيل من الرواد أو بالتحديد ميزتا المناخ الذي تمت فيه تنشئة ذلك الجيل اجتماعا ولا بأس – فيما نرى – من الناحية المنهجية من أن نبدأ بعرض موجز لهاتين الخاصتين ثم نأخذ بعد ذلك في إعادة استقراءنا للتراث محاولين التعرف على حدود فعالية هاتين الخاصتين ومدى تأثيرهما.

الخاصية الأولى التي نعنيها هي ما يمكن أن نطلق عليه الشعور بالتمايز أو بعبارة أخرى الشعور بـالاختلاف عـن الآخرين. ولقد اتخذت تلك الخاصية لدى الصهاينة في البداية شكل اعتناق فكرة النقاء العنصري ثم تعددت أشـكالها بعـد ذلك على النحو الذي سوف نفصله فيما بعد كما استمدت تلك الخاصية تدعيما لها من اعتناق الكثيرين لأفكار مؤداها تمايز الجنس اليهودي أيضا، وأن اتخذ ذلك التمايز اتجاهـا سـلبيا بمعنى القول بأن اليهود أسوأ البشر وأنهم عنصر فاسد ومـا إلى ذلك من أفكار تعني في النهاية أنهم مختلفون عن بقيـة البشر أي متمايزون عنهم.

الخاصية الثانية التي نعنيها هي مـا يمكـن أن نطلـق عليه"الشعور بالاضطهاد" ونحن مرة أخرى لا يعنينا في هذا المقام الاضطهاد الفعلي وقوعه أو عدم وقوعه. ولكـن مـا يعنينا حقيقة هو الإحساس بهذا الاضطهاد حتى ولو كان ذلك الاضطهاد في حد ذاته أمرا متوهما.

هاتان هما الخاصيتان اللتان كان لهما – فيما نـرى – الدور الأكبر في صياغة التكوين السيكولوجي لأولئك الـذين قدموا من الغرب وبالتحديد من وسط أوروبا وشـرقها إلـى

فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين والذين قامت على أكتافهم دول إسـرائيل، والـذين تصـدوا لصنع"مجتمع إسرائيلي". وتحديدنا لهاتين الخاصـيتين إنمـا يعني أن التنشئة الاجتماعية التي تعرضت لها تلك المجموعة من اليهود التي عاشت في تلك الفترة وفي ذلك المكان كانت تنطلق من هاتين الخاصيتين وتدور حول تدعيمها بحيث إننا نجد فيهما التفسير لغالبية عادات وتقاليـد وتصـرفات تلـك المجموعة أو بعبارة أخرى إننا نجد فيهمـا الإجابـة عـن السؤال: لماذا اتخذت شخصيات تلك المجموعة ذلك الطـابع بالذات كطابع سائد أو مشترك بين أفرادها؟ وبحيث إننـا إذا نحينا هاتين الخاصيتين أو أي منهما تعذر علينا مثـل ذلـك التفسير.

وعلى أي حال فإن الفيصل في صحة ما وصلنا غليـه هو أن نحاول تفسير سـلوك هـؤلاء فـي ضـوء هـاتين الخاصيتين وإلى أن نضع أيدينا على ما سوف تسفر عنه تلك المحاولة ليس أمامنا إلا أن نقبل وجودهما كافتراض علمـي خاضع للفحص والتفنيد.

عنصر التمايز

يحمل لنا التاريخ نموذجين لا نكاد نجد من يتناول قضية تمايز مجموعة معينة من الناس عن بقية البشر غلا ويشـير غليهما أيا ما كان موقفه من قضية التمـايز ذاتهـا، أو مـن قضية هذا النموذج أو ذاك. النمـوذج الأول هـو التمـايز الألماني، أو إذا تحرينا الدقة فهي قضية التمايز النازي التـي استمدت جذرها من فكرة نقـاء الجـنس الآري. والنمـوذج الثاني هو التمايز اليهودي ومرة أخرى فلو شئنا الدقة فهـي قضية التمايز الصهيوني التي استمدت جذرها من فكرة نقاء الجنس اليهودي. ولقد فضلنا أن نستخدم تعبير التمايز مهملين عن عمد تعبيرين آخرين يبدو للوهلة الأولى أنهمـا يعبـران عن نفس المشكلة أعني تعبيري"الامتياز" و"النقاء العنصري" مؤثرين استخدام تعبير"التمايز" وذلك لأنه – فيمـا نـرى – أنسب لما نعنيه. فالامتياز يعني التفوق أو لنقـل أنـه نـوع إيجابي من أنواع التمايز، الذي يشير لدينا إلى معنى أرحـب حيث يعني الإحساس بالاختلاف عن بقيـة البشـر جميعـا صحيح أنه قد وقر في الأذهان ربما لشيوع النموذج الألماني

أن إحساس شعب ما بالتمايز لا يمكن أن يكون إلا إحساسـا منه بالامتياز، وذلك من حيث دلالته السيكولوجية على الأقل ليس صحيحا. ولسوف يتضح لنا ذلك فيما بعد. ويكفـي أن نشير في عجالة ودون خوض في التفاصـيل إلـى أن ثمـة علاقة وثيقة تربط من الناحية السيكولوجية بـين الإحسـاس بالدونية والإحساس بالتفوق بحيث يصعب علـى المـرء أن يحدد للوهلة الأولى طبيعة تلك العلاقة وما إذا كانت علاقـة سبب بنتيجة، أو علاقة جوهر بمظهر، أو إنها مجرد علاقـة تآن أو تتال زمني. ولكن، ورغم تلك الصعوبة، فإن أحدا من أهل الاختصاص في علم النفس لا تخفى عليه تلك العلاقـة الوثيقة والتي سوف نتطرق في بحثنا إلى تناولها مرة أخرى بشيء من التفصيل.

صحيح أننا نتحدث عن جماعات، وصحيح كذلك أننا قد استشهدنا للتدليل على وجهة نظرنا بمجال يبدو وكأنه يختص أكثر ما يختص بالأفراد، أعني مجال علم النفس. وذلك أمـر ينبغي أن ينجلي تماما منذ البدايـة، فـنحن لا نعنـي بـذلك الاستشهاد ولا بغيره مما سوف يرد كثيرا في بحثنـا أن مـا يصح على الفرد يصح بالتالي على الجماعة أو على المجتمع

ولكن ما نعنيه بالدقة هو أن ما نحن بصدده من تناول قضية التمايز الصهيوني إنما ينصب أساسا على شعور لدى الصهاينة بأنهم يختلفون عن سواهم. ونعني بالصهاينة هنا أولئك الأفراد الذين اكتسبوا الفكر الصهيوني وتعلموه من خلال أحداث واقعهم وموقفهم من تلك الأحداث ورغم تعدد وتشابك الأسباب التي أدت إلى نشأة الفكر الصهيوني في زمن معين وفي مكان معين ولدى أفراد معينين ورغم أن دراسة تلك الأسباب تدخل في اختصاص علوم أخرى عديدة ومتشابكة وعلى رأسها علم الاقتصاد مثلاً. رغم صحة كل ذلك فإن تأثير كل تلك الأسباب لابد وأن يتخذ سبيله إلى داخل الأفراد لكي يحدث التأثير الذي نحن بصدده من إحساس بالتمايز. وبالتالي فإن ما يفرضه الواقع من تعقد في الظواهر الإنسانية – بل والطبيعية كذلك – يجعل من الضروري دراستها من جوانب متعددة. فوقوع أزمة اقتصادية في بلد معين مثلاً، يمكن أن يكون موضوعا لعالم متخصص في علم الاقتصاد وتكون الآثار المترتبة عليها، بالنسبة للمجتمع موضوعا لما يمكن أن يتناوله المتخصص في علم الاجتماع كما أن آثارها على تصرفات الأفراد يمكن

أن تكون موضوعا يتناوله المتخصص في علم النفس (٧٥). ولذلك فقد فضلنا بالتالي ألا نستخدم تعبير (النقاء العنصري) حيث أنه لا يدل إلا على اتجاه واحد للتمايز هو الاتجاه نحو الشعور بالامتياز فضلاً عن أنه حتى في تلك الحدود لا يعبر تعبيرا شاملاً عن كافة نواحي ذلك الشعور. فليس الاعتقـاد بالنقاء العنصري سوى صورة واحدة يتخذها الميل الإيجابي أي التمايز. ولقد اتخذ ذلك الميل بالنسبة للصـهاينة صـورا عديدة بالفعل سوف نشرع على الفور في تناولها.

المقصود أصلاً بفكرة النقاء العنصري القول بأن أفـراد جماعة معينة يختلفون عن غيرهم مـن أفـراد الجماعـات الأخرى ككل من حيث نقاؤهم وراثيا. بمعنى إنهم كجماعة لم يتعرضوا لما تعرض له غيرهم من تداخل بـين السـلالات المختلفة. ويترتب على ذلك أننا ما دمنا قد سلمنا بنقاء تلـك الجماعة من حيث وراثة الخصائص البدنية فالأدعى – وذلك هو الهدف عادة أن نسلم بنقائها كذلك مـن حيـث القـدرات العقلية والخصائص النفسية وما إلى ذلك ولابد لنا هنـا مـن تسجيل ملاحظة هامة سوف نعود إليها فيما بعد وهي أن من يتبنى فكرة النقاء العنصري لبني جنسه لا يصعب عليه مطلقًا

التسليم بنقاء الأجناس الأخـرى أو نقـاء بعضـها. ولـيس المقصود بالنقاء هنا طبعا حكم قيمة بمعنى أنه لا يقصد بـه رقي ذلك الجنس أو انحطاطه. بل أن ما يقصد بـه أحيانـًا بالفعل هو أن ذلك الجنس أو تلك الشعوب قد حافظت علـى نقاء"دونيتها". ولعل خير نموذج لذلك أن فكرة نقاء العنصـر الآري كانت تقبل بل تنادي بفكرة"نقاء" العنصـر اليهـودي كفكرة لصيقة بها لا تتعارض معها بل تكملها. ومن ناحيـة أخرى فالأدلة كثيرة أيضا على أن القول بنقاء عنصر سلالي معين بهذا المعنى لا يلزم القائل به بالتسليم بنقـاء عنصـره هو، فموقف المتعصبين الأمريكيين البيض من الزنوج مـثلاً إنما يعني في جوهره التسليم"بنقاء" العنصر الزنجـي دون أن يقتضي ذلك بحال تسليما بنقاء العنصر الأمريكـي الأبـيض بالذات.

وعلى أي حال فإن فكرة النقـاء العنصـري للجـنس اليهودي لم تعد بالفكرة السائدة الآن. لقد كانت صورة اتخذتها فكرة التمايز لفترة من الوقت ثم لما لم تصمد أمام تقدم فروع معينة من التخصص العلمي كالأنثروبولوجيا وعلـم الـنفس ولما لم تصمد أيضـا لكثيـر مـن الاعتبـارات السياسـية

والاقتصادية المعقدة خفت صوتها وتراجعـت عـن مركـز الصدارة حتى أن جاكوب تالمون ذو الأصل البولندي وأحـد أساتذة التاريخ البارزين في الجامعة العربية يقول في حـديث أدلى به لاموسى الموت المحرر في آرتس أكبـر الصـحف اليومية في تل أبيب في مطلع عام ١٩٧٠"أنني لاستنكر فكرة سيادة اليهود عنصريا على غيرهم فهي فكرة تتعارض مـع الصورة التي ترسبت لدى عن اليهودية، كـذلك لأن نمـاذج الأمم الأخرى تجعلني أخشى مـا يتهـدد النسـيج الخلقـي والتوازن النفسي والقيم الروحية من أخطار تكمن في فكـرة السلالة السائدة" (٥١) وإن كان ذلك لا يعنـي انـدثار تلـك الفكرة نهائيا فهي بكل تأكيد مازالت ضمن تراث أفكار العامة من اليهود أو من غير اليهود. ولعل ذلك ضمن الأسباب التي جعلت التصدي لتنفيذها مازال مستمرا بصورة أو بأخرى في مجال علم النفس بخاصة. ويحضرنا في هذا الصدد ما يقوله عالم النفس الشهير الألماني النشـأة البريطـاني الجنسـية، اليهودي الديانة هانز إيزنك في كتابه الحقيقة والوهم في علم النفس مفسرا إقدام علماء النفس المتخصصون في علم النفس الاجتماع بالتحديد على دراسة قضية مدى موضوعية تمـايز

اليهود فيقول"إن أغلب الناس سواء من اليهود أو من المعادين للسامية يزعمون أن اليهود يكونون نوعا مـن المجموعـات البيولوجية وأنهم يختلفون عن أغلبية الأوروبيين والأمريكيين في تكوينهم الجسماني، أي أن لهم أنوفًا مـن نـوع معـين، وشعرا من نوع معين، وطريقة معينة في الكلام وهكذا، فهل هذا صحيح؟" (٥٩، ص ٥١). ويمضي أيزنك مقـدما مـن خبراته الشخصية في ظل حكم النازي، ومن نتائج التجـارب العلمية التي أجريت في علم النفس الاجتماع ما ينفي نفيا تاما بطريقة التجريب العلمي المضبوط إمكانية تمييز اليهود عـن غيرهم سواء من خلال صورهم أو أحاديثهم أو حتى التعامل معهم وسواء كان الشخص القائم بالتمييز متعصبا ضـدهم أو متعاطفًا معهم أو محايدا حيالهم.

خفت إذن صوت فكرة النقاء العنصري للجنس اليهودي ولكن ظهرت محلها أفكار تعادلها سيكولوجيا بمعنى أنها تعبر عن نفس القضية أعني قضية تمايز اليهود. وينبغي أن نشير هنا إلى أن تلك الأفكار لم تتخذ مسارا زمنيا متسـقًا بحيـث يمكننا القول بأن تلك الفكرة قد ظهرت أولاً ثم تلتهـا تلـك وهكذا، بل أن الأقرب إلى ما حدث بالفعل هو أن تلك الأفكار

كانت مصاحبة لفكرة النقاء العنصري للجنس اليهـودي بـل إنها كانت في الواقع بمثابة الامتدادات لهـا فـي مجـالات مختلفة. وكل ما حدث هو انتقال التركيز من تلك الفكرة إلى فكرة أخرى وثانية وثالثة وهكذا دون أن يعني ذلك انـدثارا نهائيا لأي منها. وتتراوح تلـك الأفكـار بـين الغمـوض والوضوح وتتعدد مجالاتها فتنصب حينًا على التمايز العقلي وحينًا آخر على التمايز الجسمي وحينًا تتركز على التمـايز الانفعالي وهكذا. ومن أمثلة الأفكار الغامضة تلك الفكرة التي أشار إليها عرضا ليونارد فاين في كتابه المعنون السياسة في إسرائيل والقائلة بأن مفهوم اليهودي في حد ذاته يثير إحساسا لا يمكن تلافيه بالقرابة المشتركة والتاريخ المشـترك (١٢) أما سيسيل روث في كتابه تاريخ اليهود (٢٤) فـرغم عـدم دفاعه صراحة عن فكرة نقاء العنصر اليهودي فإنـه يتبنـى فكرة مؤداها في النهاية أن"النمط اليهـودي" يتميـز بقصـر قامته، وانحنائه. هذا رغم حرص سيسل على إرجـاع ذلـك التمايز إلى أسباب لا تمت بصلة إلى فكـرة نقـاء العنصـر اليهودي إذ يرجعه إلى طبيعة الحياة التي عاشوها في إحيـاء الجيتو والتي استمرت لقرنين من الزمان، متفقًا في ذلك مـع

ما يذهب إليه جمال حمدان فـي كتيبـه المعنـون اليهـود أنثروبولوجيا من أن الصفات البدنية الخاصة بسحنة الوجـه المميزة لليهود ليست سوى تعبير اجتماع مكتسب من حيـاة الجيتو والتشرد والضياع (٦١ ص ٦٥).

أما الفكرة الرئيسية التي تصدرت – فيما نرى – كافـة الأفكار الأخرى في الحلول محل فكرة نقاء العنصر اليهودي والقيام بنفس دورها فهي فكرة تفوق اليهود عقليا ولعل خيـر من عبر عن تلك الفكرة هو المـؤرخ الإسـرائيلي الشـهير هوارد موللي ساخار في كتابه مسار التاريخ اليهودي الحديث الذي خصص الفصل التاسع عشر منه والمعنون تأثير اليهود على الحضـارة الغربيـة (٢٥، ص ٣٩٤ إلـى ص ٤٤٨) لعرض تلك الفكرة وتقديم الأدلة والبراهين عليهـا. ويشـير ساخار في مستهل الفصل إلى قصة قصيرة نشرها هوجوتور البروتستانتي المذهب النمساوي الجنسية عام ١٩٢٦ بعنـوان مدينة بلا يهود تروي حكاية حاكم قرر استبعاد اليهـود مـن الحياة في العاصمة نظرا لسيطرتهم على كافة مجالات الحياة فيها، ونفذ ذلك بالفعل. فإذا بالمدينة تكاد تتحول إلى مـوات. البنوك تقفل أبوابها. والمسارح ودور الباليه تنهي نشـاطها.

وكذلك الحال بالنسبة للمستشفيات والمكتبـات ودور النشـر والمحاكم أيضا. ويبلغ الشلل ذروته إلى حد يجبر الحاكم على التراجع عن قراره وإعادة اليهود إلى الحياة العامـة ويـرى ساخار في تلك القصة استبصارا عميقًا بحالة وسط أوروبـا في ذلك الوقت ويمضي ساخار دون كلل في عرض الأرقام والنسب المئوية الدالة في رأيه على أن مكانة اليهود العلميـة تفوق ما تكفله لهم نسبتهم العددية بأضعاف مضاعفة مرجعـا ذلك إلى أن أهم الصفات التي تميز العقليـة اليهوديـة عـن غيرها هي الرغبة في الإبداع وصـياغة الأفكـار الجديـدة والوقوف في وجه الأفكار القديمة.

يتضح من كل ذلك أن أفكارا عديدة قد صاحبت فكـرة النقاء للعنصر اليهودي بل وأصبحت أكثر منها بروزا وسيادة وما يعنينا هو أن تلك الأفكار جميعا تدور حول محور واحد هو التسليم بأن اليهود متميزون عن سواهم، متفوقون علـيهم من الناحية العقلية أساسا. وإن ذلك التميز العقلي لليهود يتخذ صورته الواضحة في تميزهم المهني بمعنى أن تفوق اليهود في مهن معينة في وسط أوروبا لم يكن بالأمر الراجع إلـى المصادفة مطلقًا. بل إنه يرجـع إلـى الظـروف السياسـية

والاقتصادية من ناحية وإلى ما يتميز به اليهود من خصائص من ناحية أخرى فمن حيث الظروف السياسية والاقتصـادية السائدة عند نهاية الحرب العالمية الأولى يـرى سـاخار أن الفئات العليا من النبلاء واليونكرز في النمسا كانت ما تـزال ممسكة بمقاليد الأمور، ولكنها كانت منشغلة تمامـا بمشـكلة بقائها سياسيا واقتصاديا بشكل لم تعد معه قادرة على الاهتمام بأمور الفن والعلم مما أدى إلى تركهـا ذلـك كلـه للطبقـة الوسطى، ومن بين تلك الطبقة البرجوازية كان اليهود – في رأيه – هم الأقدر على القيام بذلك الدور لأسباب ثلاثة تتعلق بهم:

أولاً: رغبتهم في التحرر مما يعانون منه من تحيز اقتصادي ضدهم وذلك بلجوئهم إلى المهن الحرة. وأنسب تلك المهـن من وجهة نظرهم، ومن حيث ظروفهم أيضا هي تلك التي لا تحتاج إلى رأسمال. وفي مقدمتها الطب والقانون.

ثانيا: هناك سبب كامن في الديانة اليهودية نفسها، فهي ديانة ترى أن هذا العالم هو نهاية المطاف ولذلك فعلى مر التاريخ اليهودي ارتبطت الكهانة بالعلم بحيث أصبح من المسلم به أن الدراسة إنما هي نوع من العبادة الحرفي.

ثالثًا: لقد اكتشف الكثير من اليهود الموهوبين إن مجرد الثراء لا يكفل لهم المساواة الاجتماعية بغيرهم في حين أن التفـوق في الفن والأدب يكفل لهم مثل تلك المساواة.

تلك هي فكرة ساخار التي عرضناها بشيء من التفصيل باعتبارها نموذجا للفكر الذي يقول بامتياز اليهـود وتفـوقهم على غيرهم. ويجدر بنا أن نلاحظ أن نمو ذلك الفكـر قـد صاحبه نمو فكر آخر يقول بحقارة اليهود ودناءتهم وخسـة طباعهم. وإذا امتدت نظرتنا قليلاً استطعنا أن نتبين أن القول بامتياز اليهود وتفوقهم قد وجد قمة التعبير عنه فـي الفكـر الصهيوني، كما وجد القول بدناءة اليهود وخستهم قمة التعبير عنه في الفكر النازي. ورغم ما يبـدو بـين الفكـرين مـن اختلاف يوحي بأنهما على طرفي نقيض إلا أن نظرة متأنية إلى جوهرهما كفيلة بأن تؤكد أنهما طرفًا محـور واحـد أو بعبارة أخرى أنهما وجهان لعملة واحدة لا غنى لأحدهما عن الأخرى. ويكفي أن نشير إلى قول ملفورد سبيرو في كتابـه أطفال الكيبوتز"أننا نرى – متفقين في ذلـك مـع حزقيـال كوفمان في مقاله المنشور عام ١٩٤٩ بعنوان"الصهيونية وما تضمنه من أنماط جامدة لمعـاداة السـامية – إن التعصـب

المعادي للسامية لصيق بنفس منطـق النظريـة الصـهيونية الكلاسيكية" (٢٧ ص ٣٩٢). وليس ذلـك بـالأمر الغريـب فالفكرين – النازي والصـهيوني – يلتقيـان فيمـا يتعلـق بنظرتهما إلى اليهود في نقطتين أساسيتين: الأولى: أن لليهود تاريخًا طويلاً ممتدا، الثانية: أن اليهود فـي العـالم أجمـع تضمهم سلالة نقية واحدة وبالتالي فإن لهم صـفات واحـدة وبالتالي فإن لهم صفات واحدة ويتميزون بخصائص واحدة.

ولسنا بمعرض التفنيد التفصيلي لهاتين المسلمتين اللتين يرتكن إليهما الفكر الصهيوني والفكر النازي فلقـد تكفلـت الأنثروبولوجيا بدحض النقطة الأولى وانتهى بالتالي جانـب كبير من النقطة الثانية. وبقـى أن نتسـاءل مـن الناحيـة السيكولوجية: فلنسلم جدلاً بذلك التفوق العقلي لليهود، وليكن حقيقة أو وهما. ترى أيمكن أن يكون ذلـك التفـوق شـاملاً لليهود جميعا في أنحاء العالم؟ إن الأمثلة التي ساقها سـاخار والتي يسوقها غيره من مؤرخي اليهود للتدليل على التفـوق اليهودي كانت كلها أمثلة أوروبية والتحديد من أواسط وشرق أوروبا – ماذا عن بقية العالم إذن؟ يشير جوداه مـا تـراس مدرس علم النفس والاجتماع في الجامعة العبرية في معرض

حديثه عن البنيان الاجتماع للجماعات اليهودية فـي الفصـل الأول من كتابه التغير الاجتماع في إسرائيل (١٩ ص١ إلى ص ١٩)، يشـير إلـى أن المعرفـة بالبنيـان الاجتمـاع للمجموعات اليهودية في البلدان الإسلامية أقل بكثيـر عمـا نعرفه عن ذلك البنيان بالنسبة ليهود"البلدان الأوروبيـة" ثـم يمضي مستعرضا للبحوث التـي اسـتهدفت دراسـة تلـك المجموعات مستخلصا في النهاية أن المجموعات اليهوديـة في تلك البلدان كانت تتميز بانخفاض مسـتواها الاقتصـادي والتعليمي والصحي. أين التفوق إذن؟ لقـد اتضـحت بـذلك القضية. أن التفوق اليهودي كان قاصرا على يهود أوروبـا إذن ولنا بالتالي أن نستنتج أن الإحساس بالتفوق كان إحساسا يهوديا أوروبيا وليس يهوديا فحسب. أي أن يهـود أوروبـا وبالتحديد وسط أوروبا وشرقها كانوا هم الذين شعروا بشكل حاد بتفوقهم على سواهم. وليكن ذلك حقيقة أو وهما، ولتكن أسبابه ما تكون. الذي يعنينا هو – من ناحية – حقيقة وجوده كشعور، فذلك يكفي من حيث تأثيره السيكولوجي ومن ناحية أخرى حقيقة كونه مركزا في وسط وشرقي أوروبـا فلـذلك دلالته فيما يتصل ببحثنا.

لقد اتضح إذن أن الشعور بالتفوق لم يكن بالشعور العام الذي يشمل اليهود جميعا في شتى أنحاء العـالم، بـل كـان متركزا في يهود وسط وشرقي أوروبا. ونحن نعلم أن غالبية جيل الحالوتس الذي أخذنا تنشئته الاجتماعية كنقطـة لبدايـة بحثنا قد هاجر إلى فلسطين من وسـط وشـرقي أوروبـا، وبالتالي فإن لنا أن نسلم بأن عنصر الشعور بـالتفوق كـان ضمن العناصر الأساسية التي تضمنتها تنشئتهم الاجتماعيـة وبالتالي أصبح ضمن مكونات تركيبهم السيكولوجي

عنصر الاضطهاد

إن ما لقيته فكرة"أن اليهود مضـطهدون" مـن تـدعيم وإبراز وإلحاح من جانب الفكر الصهيوني منذ نشـأة ذلـك الفكر وحتى الآن يفوق ما لقيته أي فكرة أخرى فـالمفكرون الصهاينة على اختلاف آرائهم وعلى تباين مجالات اهتمامهم مضطهدون وقد يختلف هؤلاء المفكرين فـي القـول بـأن اليهود"جنس" أو"قومية" أو"جماعة دينية" وقد يختلفـون فـي مجالات اهتماماتهم الأساسية من السياسة إلى التـاريخ إلـى الأدب. وقد تتنوع أساليبهم في كل ذلك من النقاش الهـادىء إلى المناورة السياسية إلى القتال المسلح ولكنهم في كل ذلـك ومع كل ذلك يتفقون على فكرة واحدة يعبرون عنها جميعـا تلميحا أو تصريحا مؤداها أن اليهود جميعا قد تعرضوا لتيار من الاضطهاد والعذاب بدأ منذ تاريخ موغل في القدم ومـا زالت آثاره مستمرة حتى الآن. ولعلنا لا نجانب الصواب إذا ما قلنا أن ما لقيته تلك الفكرة من إلحاح مستمر يفـوق كـل تصور من جانب المفكرين الصهاينة لم يكـن هـو المبـرر الوحيد من الناحية السيكولوجية لانتشارها وامتداد جـذورها

إلى هذا الحد. فلقد لقيت تلك الفكرة تدعيما آخر من فكرة أخرى نشأت خارج الفكر الصهيوني بل يبدو للوهلة الأولى وكأنها نقيض لذلك الفكر، أعني فكرة أن اليهود هم سبب كل شرور العالم وخلف كل كارثة حلت أو ستحل بالبشرية. وإذا ما كان لنا أن نتردد حيال تحديد نوع العلاقة التي تربط بين هاتين الفكرتين، وما إذا كانت علاقة سبب بنتيجة أو علاقة فعل برد فعل أو علاقة تآن، أو تتال، أو تناظر فإن الشيء الجلي والذي لا ينبغي أن يكون حياله أدنى تردد هو أن هاتان الفكرتان تعبران عن نفس الحقيقة السيكولوجية وتخدمان نفس الهدف السيكولوجي، ما نعنيه بالدقة هو أن مناداة الفكر الصهيوني بأن اليهود لقوا ومازالوا يلقون عنتًا واضطهادا منذ وجدوا حتى اليوم تلك المناداة تجد في القول"بأن اليهود هم سبب كل شرور العالم" دليلاً على ذلك العنت والاضطهاد. وهو دليل يكتسب قوته من صدوره من الجانب الذي يعد نقيضا للفكر الصهيوني ولعل حرص الصهاينة على أن يظل ذلك الدليل محتفظًا بقوته – أعني بأنه صادر عن جانب مناقض للفكر الصهيوني – هو ما يفسر حرصهم الذي لا يعادله حرص آخر – في المجال الفكري –

على إبراز أنهم نقيض النازيـة وضـحاياها. ولعـل ذلـك الحرص هو الذي يفسر – في المجال الفكري أيضا- إصرار إسرائيل المعاصرة دائما وفي كل وقت على تذكير العالم بما فعلته بهم النازية (٤١) ولا ينفي ذلك بطبيعة الحال ما يقدمه ذلك الحرص أيضا من فوائد مادية للوجود الإسرائيلي. بـل أنه ليس سوى تصوير للجانب الفكري لتلـك الفوائـد. لقـد حرص الفكر الصهيوني إذن حرصا شـديدا علـى إضـفاء صورة التناقض على طبيعة العلاقة بين مصـدري هـاتين الفكرتين، أعني النازية كمصدر لفكرة"أن اليهود سـبب كـل شرور العـالم" والصـهيونية كمصـدر لفكـرة"أن اليهـود مضطهدون" والحقيقة أنها علاقة ظاهرها التناقض وباطنهـا التطابق.

ولا يعنينا في هذا المقام وفي حدود بحثنا أن نبحث مـا إذا كان ثمة اضطهاد حقيقي قد وقع على"اليهود" بهذا المعنى. وإذا كان ذلك حقًا فما مداه ومن المتسبب فيه، هم أم غيرهم؟ أم أن الأمر كله لا يخرج عن حدود الوهم الخالص؟ فلن يقلل من قيمة ما نذهب إليه أن يثبت التاريخ فعلاً أن ثمة اضطهادا قد لحق باليهود في مكان معين وزمان معين. فلـيس ذلـك

بالأمر الغريب، بل أنه لا يكاد يخلو تاريخ شعب من الشعوب من اضطهاد وقع عليه بشكل ما، وفي وقـت مـا، دون أن يكون لذلك دلالة تستدعي العجب. وعلى أي حال فليس ذلك بحال هو جوهر الفكر الصـهيوني. أن جـوهره فـي هـذا الخصوص هو إن مثل ذلك الاضطهاد قد توافرت له أبعـاد ثلاثة: بعد الامتداد التاريخي بمعنى امتداد ذلـك الاضـطهاد واستمراره منذ وجد اليهود حتى الآن من العصور القديمـة إلى العصور الوسطى إلى العصر الحـديث. أي أن"اليهـود دائما مضطهدون" والبعد الثاني هو بعد الامتـداد الجغرافـي بمعنى أن ذلك الاضطهاد قد شمل اليهود جميعا مهما تباعدت بينهم شقة المكان ومهما تباينت الأوطان التي اتخذوها مستقرا لهم. يستوي في ذلك يهود الشرق مـع يهـود الغـرب. أي أن"اليهود مضطهدون أينما وجدوا". أما البعد الثالث فهو بعد الفارق الكيفي بمعنى أن الاضطهاد الذي وقع على اليهود لا يعادله اضطهاد وقع على سواهم في أي زمان ولا مكان. أي أن" لم يلق أحدا ما لقيه اليهود من عنت". ويكفـي أن نشـير إلى تعقيب يوري إيفانوف في كتاب الصهيونية حذار، علـى تلك القضية بقوله" في اعتقادنا أن التأكيد بأن شـعبا مـا أو

قومية معينة قد قاست من العذاب أكثر من أي شعب آخر في العالم على امتداد التاريخ الإنساني كله لا يعني فقط تشـويه الواقع التاريخي جريا وراء إثارة نعرات التعصـب القـومي الذميم، بل هو أيضا انزلاق بـالغ الخطـورة إلـى مواقـع العنصرية" (٦٠، ص ٢٤).

إن ما يعنينا ببساطة هو أن تلك الفكرة بوجهيها كانـت تمثل الواقع السيكولوجي لمجموعة معينة من اليهود في زمان ومكان معينين، وما نعنيه بأن تلك الفكرة كانت تمثل واقعـا سيكولوجيا لدى هؤلاء أنها قد دخلـت فـي نسـيج تكـوين شخصيتهم عن طريق ما تلقوه خلال تنشـئتهم الاجتماعيـة بالمعنى الذي سبق أن حددناه لها. أي أن تلك الفكرة كانـت ضمن المحاور التي تدور حولها عاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم وأنماط سلوكهم، ولسوف يتضح لنا ذلك فيما بعد. ونسـتطيع أن نتبين في فكرة الاضطهاد هذه كما يقدمها الفكر الصهيوني صورا أربعا متتالية تاريخيا:

أولاً: يتجه أصحاب الفكر الصـهيوني انطلاقـًـا مـن أن اضطهاد اليهود أمر يرجع إلى تاريخ موغل في القـدم إلـى البحث عن صور لذلك الاضطهاد في العصـر القـديم. ولا

تعييهم مهمة البحث والعثور على العديد من الصـور التـي تمثل ذلك الاضطهاد. ولعل أقدم تلك الصور جميعا وأوهاها حجة هي التي تحظى بالقدر الأكبر مـن تركيـز واهتمـام مفكري الصهاينة. وأعني الرجوع بالاضطهاد لليهـود إلـى عصر الشتات البابلي أي بالتحديد الرجوع باضطهادهم إلـى عصر"طردهم" من فلسطين وليست دلالة اختيار تلك الصورة بالذات محلاً لمزيد من الاهتمام والتركيز بالأمر الذي يغيـب على فطنة أحد.

ثانيا: لم يكن بد لكي يستقيم الفكر الصهيوني وتتسق دعـاواه من أن يجد صورا لاستمرار اضطهاد اليهود في العصـور الوسطى. ولم يجد بغيته إلا في إحياء الجيتو وما لاقاه اليهود فيها من عنت ضاريا صفحا عن حقيقة أن إقامة مثـل تلـك الإحياء لم تكن بالظاهرة التي تعرض لها اليهود فـي كافـة أنحاء العالم بنفس الصورة فضلاً عن أن القول بأن إقامتها قد تمت قسرا أمر لم يجمع عليه المفكرون الصـهاينة أنفسـهم (٢٤) بل أننا لا نعدم لدى أولئك المفكرين من يمضـي فـي سرد المزايا التي عادت على اليهود من جراء إقـامتهم فـي تلك الإحياء (٢٤ ، ٢٩). رغم كل ذلك فقد مضـى الفكـر

الصهيوني مبرزا ما لاقاه اليهود من عنت تلك الإحياء ومـا صادفوه من عذاب.

ثالثًا: وجد الفكر الصهيوني ضالته بهـذا الخصـوص فـي العصر الحديث متمثلة فيما أقدم عليه هتلر مـن إجـراءات وحشية حيال اليهود في ظل الحكم النازي. فلم يمل مفكـرو الصهيونية من الحديث مرارا وتكرارا عن تفاصيل ما لاقـاه اليهود من عذاب في معسكرات الاعتقال النازية. مئات الكتب وآلاف المقالات وملايين الصور والقصص عـن تفاصـيل بشاعة مالاقاه اليهود في تلـك المعسـكرات. وكـأن تلـك المعسكرات النازية – مع تسليمنا ببشاعة ما جرى فيها بالفعل – لم تكن قاصرة على رقعة محددة هي تلك التـي بسـطت النازية سيطرتها عليها وعلى عصر محدد هو عصر النازية. لقد صور الفكر الصهيوني تلك المعسكرات وكأنهـا شـملت العالم كله وكان من فيها هم يهود ذلك العالم جميعا، ضـاربا صفحا عن حقيقة تاريخية ثابتة أجمع عليهـا مؤرخـو تلـك الحقبة جميعا على اختلاف مشاربهم واتجاهـاتهم وهـي أن العسف النازي الهتلري رغم أنه كان مركزا علـى اليهـود أساسا إلا أنه لم يكن قاصرا عليهم وحدهم بل تعرضت لـه

أيضا كافة القوى الديمقراطية التي استطاعت يد النازيـة أن تنالها. ولم يكن ذلك العسف أيضا شاملاً لكل اليهود الألمـان رغم ضخامة عدد ضحاياهم فيه، بل أنه لم يعد سرا اليوم ما كان من اتصالات فعليه بين"الوكالة اليهودية" وبين القـائمين على المجهود الحربي النازي، بل أن جون كيمشي قد أشـار إليه في كتابه الشهير الطرق السرية The secret roads فضلاً عما أسفرت عنه محاكمات إيخمان من وقائع تسير في نفس الاتجاه أو تشير إليه أعني تأكيـد وجـود مثـل تلـك الاتصالات وكان من بين الذين يتصدرون الحركة الصهيونية العالمية آنذاك حاييم وايزمان وناحوم جولدمان وليفي أشكول وبن جوريون بل وجولدا مائير أيضا.

رابعا: لم يكف الفكر الصهيوني عن محاولته مـد فكـرة أن اليهود مضطهدون حتى إلى ما بعد انتهاء فترة عسف النازية باليهود، بل إلى ما بعد انتزاع اليهود قسرا لفلسطين العربيـة وإقامتهم لدولة إسرائيل. بل حتى إلى ما بعد ما أسفرت عنه حرب يونيو سنة ١٩٦٧ بعـد كـل ذلـك مـا زال الفكـر الصهيوني حتى يومنا هذا لا يفتأ يكرر دون ملل أن"اليهـود مضطهدون" ومن يضطهدهم هذه المرة هم العرب. صـحيح

أن مهمة الفكر الصهيوني قد ازدادت صعوبة وبعدا عن المنطق. ولكن من ينظر إلى الصحف والمجلات الإسرائيلية. ويتأمل ما تحمله مشاعر الخوف ومظاهر الفزع لدى الإسرائيليين من العرب لا يملك إلا أن يتعجب ولكن عجبه سرعان ما يتلاشى إذا ما وضع أمام عينيه طبيعة الصورة التي يريد لها الفكر الصهيوني أن تستقر في عقل العالم الخارجي بعامة، وعقل من فيه من اليهود بوجه خاص. وأهم من ذلك كله سعيه إلى أن تستقر تلك الصورة في أذهان اليهود الإسرائيليين أنفسهم. قد يكون لنشر مثل تلك الصورة في الخارج ضرورات سياسية واقتصادية شتى بالنسبة للوجود الإسرائيلي ولكننا إذا ما نظرنا للأمر من الناحية السيكولوجية لما وجدنا أن تدعيم تلك الصورة يمت بسبب قريب أو بعيد لتهديد

عربي حقيقي مباشر لكيان إسرائيل. بل إنه من الناحية السيكولوجية – ودون تعارض أو تعرض لبقية المبررات – ليس سوى حرص من الفكر الصـهيوني المعاصـر علـى الاحتفاظ بعنصر رئيسي من عناصر التكوين السـيكولوجي الإسرائيلي المعاصر حيث لا مكان في ذلك التكوين ليهودي منتصر بل إن كل ما يسمح به هو صورة ليهودي يرد اعتداء أو يستعد لحماية لنفسه من اعتداء. وإذا لم يكن في الواقع ثمة اعتداء ولا تهديد باعتداء فلا بأس من الإيهـام بكـل ذلـك ولتذوى سريعا صـورة"انتصـار اليهـود" ولتحـل محلهـا صورة"مخافة اعتداء العرب" – وإذا شئنا تبسـيطًا للقضـية فإن"اليهودي المنتصر" إنما يعني بالفعل فـي إطـار الفكـر الصهيوني أن اليهودي لم يعد يهوديا أو بعبـارة أخـرى أن التكوين السيكولوجي القديم"لليهودي" قد انهار، وحينئذ يصبح على الفكر الصهيوني الإقدام على عملية بالغـة الصـعوبة والتعقيد وهي تشكيل تكوين سـيكولوجي جديـد لليهـودي الإسرائيلي. وعلى أي حال فإن تلك العملية – أعني عمليـة خلق شخصية يهودية جديدة – قد بدأت بوادرها بالفعل ولعل ذلك بصورة أو بأخرى – وهو موضوع بحثنا.

تلك هي الصور الأربع التي يقدمها الفكر الصهيوني مدللاً على اضطهاد اليهود دائما وفي كل مكان وبصورة لم يشهدها أحد. ورغم ما في تلك الأدلة من تناقضات ورغم ما يمكن أن يؤخذ على تلك الحجج من مثالب، فإن كل ذلك لا ينفي قط أن تلك الفكرة تشكل بالفعل – فيما نرى – محورا أساسيا للتكوين السيكولوجي لليهود الإسرائيليين ولو أعدنا النظر بإمعان في تلك الصور الأربع التي يقدمها الفكر الصهيوني للاضطهاد – اليهودي – لوجدنا أن أكثر تلك الصور اتصالاً بموضوعنا وأكثرها بالتالي حاجة لمزيد من اهتمامنا هي صورة الجيتو بوصفها الصورة التي يقدمها الفكر الصهيوني لاضطهاد اليهود في العصور الوسطى. وترجع الأهمية الخاصة – فيما نرى – لتلك الصورة بالذات إلى أسباب خمسة هي:

١- أن تجمع اليهود في إحياء منفصلة وبصرف النظر عن أسباب ذلك التجمع وعن حقيقة ما لقيه اليهود في تلك الإحياء. كان مقدمة موضوعية وتعبيرا حقيقيا عن عدم ذوبان اليهود في مجتمعاتهم الأصلية في تلك المناطق.

ولا تتأثر تلك القضية بما إذا كان ذلك نتيجـة لـرفض اليهود الذوبان أو رفض المجتمع له.

٢- إن تلك الصورة بالذات من صور الاضـطهاد التـي يقدمها الفكر الصهيوني كانت مقدمة للصورة التالية لها والتي قدمها ذلك الفكر أعني الاضطهاد النازي لليهود وارتباط تلك الصورة الأخيرة بالجيـل الحـالي فـي إسرائيل أمر غني عن البيان.

٣- إن إحياء الجيتو – في بدايتها على الأقل – لـم تكـن بالسمة المميزة للحياة اليهودية في العالم أجمع ولكنهـا كانت بالتحديـد، وبالصـورة التـي يقـدمها الفكـر الصهيوني، بمثابة السمة المميزة بالفعل لحياة اليهـود في وسط وشرق أوروبا. وذلك يعني ببساطة أن طابع الحياة في الجيتو قد لعب دورا حاسما بالنسـبة للجيـل الذي اخترناه كنقطة بداية لبحثنا والـذي نـزح إلـى إسرائيل من تلك المنطقة بالذات أو بالتحديـد أن ذلـك الطابع قد ترك أثره على عملية التنشئة الاجتماعية التي نما من خلالها أبناء ذلك الجيل أعني جيل الحالوتس.

٤- إن الكثير من الكتاب والباحثين – من الصهاينة وغيرهم – يفسرون الكثير من مظاهر الحياة المعاصرة في إسرائيل وبخاصة الكيبوتزات باعتبارها نوعا من رد الفعل أو النفي لمظاهر الحياة الاجتماعية في إحياء الجيتو وسوف نتعرض لذلك بالتفصيل فيما بعد.

٥- إن تجربة الكيبوتزات في إسرائيل وهي تجربة بالغة الدلالة فيما يتصل بعملية التنشئة الاجتماعية هناك قد كانت من صنع أولئك القادمين من وسط وشرق أوروبا بالتحديد حيث الوطن الحقيقي لظاهرة إحياء الجيتو.

الحياة في الجيتـو

إن المؤرخ البريطاني الجنسـية، الصـهيوني الميـول وأستاذ الدراسات اليهودية في جامعة أكسفورد سيسـل روث يبالغ في تقصية لنشأة الجيتو (٢٤، من ص ٢٧٣ إلـى ص ٢٩٥) فيرجعه إلى مؤتمر لاتيران الثالث الذي انعقـد عـام ١١٧٩م، وهو واحد من خمسة مؤتمرات شـهيرة عقـدتها الكنيسة الغربية في الفترة من ١١٢٣م إلـى ١٥١٧م – فقـد أوصى هذا المؤتمر بفصل المسيحيين عن اليهـود. ولكـن سيسيل روث لا يلبث أن يقرر أن ذلك القـرار قـد اسـتمر طويلاً دون تطبيق. إلى أن أصدرت جمهورية فينيسيا عـام ١٥١٦م أمرا بعزل يهود المدينة في حي خاص عرف باديء الأمر باسم **[Ghetto Nuovo]** أي المسبك الجديد، ثم أصبح اسمه بعد ذلك بقليـل (Ghetto Vecchio) أي المسبك القديم ومنذ ذلك الحين انتشر اصطلاح الجيتـو فـي إيطاليا كلها حيث أقيمت قسرا إحياء لليهود. ذلك في إيجاز ما يورده. سيسيل روث عن ظروف نشأة الجيتو وواضح أنـه يرى أن تلك الإحياء قد أقيمت قسرا منذ نشأتها بل إنها حتى

كفكرة أولى قد نبعت من مؤتمر عقدته الكنيسة الغربية في القرن الثاني الميلادي ونادي بعزل اليهود أما هوارد مورلي ساخار الذي تلقى دراساته في بريطانيا أيضا والذي يعمل مديرا لمعهد جاكوب هيات في إسرائيل فإنه يتناول ظروف نشأة إحياء الجيتو (٢٥، ص ٢٥ إلى ص ٣٥) قائلاً أنه لمما يثير السخرية أن أول إحياء الجيتو الذي أقيم في أسبانيا وسيلسيا في العصور المبكرة قد أقيم بناء على طلب اليهود أنفسهم كتعبير عن استقلالهم الذاتي وفي القرن السادس عشر فرضت إحياء الجيتو بالقوة من أعلى كنوع من التقييد المكاني وليس كمجرد تعبير مقبول عن الاستقلال الذاتي لليهود كأمر متفق عليه. لقد خلق البابا بول الرابع أول جيتو رسمي في روما عام ١٥٥٥م وتبعه بقية الكاثوليك ثم البروتوستانت الألمان ولقد تحدد مكان الجيتو بالقرب من مصنع للبنادق (Giotto) ومن هنا استمد الجيتو اسمه.

نشأ الجيتو إذن بمعناه المتعارف عليه في الفكر الصهيوني في منتصف القرن السادس عشر رغم ما يذهب إليه جمال حمدان من القول بأنه"طوال عصور التاريخ وفي

كل البلاد والأقاليم، ارتبط اليهود كقاعدة بلا استثناء بالعزلـة السكنية في حي خاص من المدينة: الجيتو (٦١/ ص ٤٩).

ويقدم سيسيل روث (٢٤) وصفًا تفصيليا لصورة إحياء الجيتو آنذاك. كان حي الجيتو حيا منعزلاً له بوابات مـزودة بمزاليج من الداخل تغلق مع حلول الليل، ويحظر بعد ذلـك تماما تواجد أي يهودي خارجهـا أو أي مسـيحي داخلهـا. وكانت منازل الجيتو تبدو أعلى من نظيرتها في المدينة وذلك لأنه لم يكن مسموحا باتساع مساحة الجيتو عن القدر المحدد له وبالتالي فنظرا لما كان معروفًا عن اليهود من خصوبة لم يكن هناك من حل إلا بالارتفاع بالمباني رأسـيا لاسـتيعاب زيادة السكان، وكثيرا ما أدى ذلك إلى انهيار المنازل وتحول احتفالات الزواج والخطوبة إلى نواح شامل. كما أدى ذلـك أيضا إلى انتشار الحرائق المدمرة. ويمضي سيسيل روث في وصفه قائلاً إنه يبدو أن حوائط الجيتو لم تكن كافية في حـد ذاتها لعزل اليهود ولذلك فقد تم تدعيمها بعلامـات مميـزة لليهود تم فرضها في مؤتمر لا تيران الرابع عـام ١٢١٥م، ولكنها – شأنها شأن إنشاء الجيتو نفسه – لم تستقر إلا خلال القرن السادس عشر. لقد كان على اليهود في إيطاليـا مـثلاً

ارتداء قبعة صفراء أو حمراء. وكان عليهم في ألمانيا وضع شارة صفراء تثبت فوق الرداء عند موضع القلب. وكانت العقوبات توقع فورا إذا ما شوهد أحد اليهود غير واضع لتلك الشارة خارج الجيتو بل أن الأمر قد امتد في بعض الأحيان إلى داخل الجيتو نفسه.

أما فيما يتعلق بالعلاقات الرسمية داخل الجيتو أي بتنظيم علاقات اليهود ببعضهم داخله فإن سيسل روث (٢٤) يقول أن الجيتو كان حكومة داخل الحكومة. لقد كانت له حكومته التي تمثل القاطنين فيه قضائيا وسياسيا وكانت تقف على رأس تلك الحكومة لجنة إشرافية صغيرة يتم انتخابها عن طريق قطاع أكبر يضم المساهمين الرئيسين في الضرائب الذين يشكلون أشبه شيء بلجنة ثانوية مهمتها اتخاذ القرارات ذات الأهمية الخاصة. وبذلك فإن الفقراء وفقًا لما يرى سيسل لم يكونوا ممثلين بأي شكل في تلك الحكومة – بل أن القاطنين في الجيتو في بعض البلدان كانوا بعد استبعاد الفقراء منهم ينقسمون إلى أقسام ثلاثة وفقًا لثروة كل فرد بحيث يصبح لكل قسم في النهاية ثقلاً موازيا لثقل القسم الآخر في إدارة النظام.

ويزيد ساخار الأمر وضوحا فيشير (٢٥) إلى أنه كـان من المفروض أن تقوم حكومة الجيتو على الانتخـاب العـام ولكن اليهود ليسو إلا أبناء عصرهم حيـث كـان المجتمـع المسيحي ينقسم إلى طبقات ثلاث تبعا للثروة، وبالتالي فـإن المجتمع اليهودي آنذاك كان مقسما إلى طبقات بحيث لم يكن يؤثر على مجرى الحياة فيه سـوى إرادة ورغبـة اليهـود الميسورين فحسب.

حقًا لقد كان اليهود أبناء عصرهم هكذا يقـول سـاخار ويتفق معه سيسيل روث وكأن ليس ثمة تناقض بـين هـذا القول والتمسك بأن هناك تاريخًا لليهود يتخذ مساره منفصلاً عن العصر وعن المكان. وعلى أي حال فإن مسألة انقسـام اليهود إلى أغنياء وفقراء وتمايز هؤلاء عن هؤلاء أمـر لا ينبغي أن تفوتنا دلالته، ولسوف نتناول أثـاره بشـيء مـن التفصيل عندما نتعرض لما غرسه الرواد الأوائل مـن قـيم وتقاليد تجلت في تجربة الكيبوتز بالتحديد. إن ذلـك التمـايز بين أغنياء اليهود وفقرائهم لم يكن محصورا داخـل إحيـاء الجيتوبل أنه كان يتعداه إلى خارج حدود تلك الإحياء. يقـول يوري إيفانوف بعـد إشـارته للمرسـوم الـذي أصـدرته

الإمبراطورة كاترين الثانية إمبراطورة روسيا عام ١٧٩٦م، والذي أدى إلى تحديد إقامة اليهود، أنه بعد فتـرة تاريخيـة قصيرة استطاعت العائلات اليهودية الواسعة الثراء والنفـوذ تخطى أسوار الإقامة، وبناء القصور الفاخرة فـي موسـكو، وبطرسبورج، بينما بقيت داخل الأسوار عشرات ثم مئـات الألوف من الكادحين اليهود الذين يعانون من الفقر والتعسف (٦٠/ص ٢٤) وتتفق تلك الإشارة مع ما أشار إليـه جمـال حمدان في معرض حديثه من أن إحياء اليهود كانت تؤلـف في الغالب الأعم قطاعا من الإحيـاء الفقيـرة فـي المـدن مستشهدا على ذلك بحي اليهود في لندن ثم معقبا على ذلـك بقوله"ومع ذلك فقد كان أغنياء اليهود يتعدون هذا الحاضـر ليعيشوا في الإحياء الراقية غير اليهودية" (٦١/ص ٥٠).

أما عن طبيعة العلاقات الاقتصادية داخل الجيتـو فـإن سيسل روث (٢٤) يؤكد أن حكومة الجيتو كانـت مسـئولة تماما عن تنظيم الحياة الداخلية فيه بل أنه يشير تدليلاً علـى ذلك إلى أن الجيتو في براغ كانت له محكمة وسجنًا. لقد كان موكولاً لحكومة الجيتو النهوض بالأعباء المالية الملقاة علـى عاتق الجيتو. وفي مقدمتها جباية الضـرائب التـي كانـت

الحكومة تفرضها عاما بعد عام على اليهود ككل. هذا إلى جانب المصاريف الداخلية المتمثلة في تكاليف الإنفاق على المعبد وإعانة الفقراء، والمحافظة على المقابر ودفع أجور مختلف الموظفين. ولقد كانت الضرائب تجبي بشكل منتظم على رأس المال أو على الدخل أو عليهما معا. وكانت العقوبة في حالة عدم الطاعة أو المروق هي الفصل من الانتماء للجماعة وهي عقوبة كانت في ظل تلك الظروف السائدة في الجيتو – تثير من الخوف قدرا أكبر مما تثيره أي عقوبة أخرى. وكانت حكومة الجيتو مسئولة في نفس الوقت عن تنفيذ رغبات الحكومة الأكبر وقمع الاتجاهات المعارضة.

كانت تلك هي صورة تخطيطية عامة لطبيعة الحياة الداخلية في إحياء الجيتو. بقى أن نتحدث عن علاقة مواطني الجيتو بالشعوب المحيطة بهم من غير اليهود. لقد اتخذت إجراءات عديدة حيال اليهود، واتخذ اليهود مواقفًا شتى حيال تلك الإجراءات وقد اخترنا لتناولنا تلك الإجراءات التي اتخذت حيال اليهود لتمييزهم عيانيا – أعني تلك الإجراءات المتعلقة بتحديد الجيتو مكانًا لإقامتهم، وفرض ارتداء شارات

معينة على ملابسهم. وقد اخترنا تلـك الإجـراءات بالـذات لأسباب ثلاثة هي:

١- إن إجراءات لتمييز العياني لليهود كانت بمثابة البدايـة المنطقية والفعلية أيضا لسلسلة الإجراءات التالية عليها والتي تناولت مثلاً حظر اشتغال اليهود بحرف معينة، أو فرض ضرائب معينة عليهم بوصفهم يهودا، أو مـا إلى ذلك.

٢- إن تلك الإجراءات بما تتضمنه من تحديـدات متعلقـة بأماكن إقامة اليهود ونوع ملابسهم كانت بمثابـة أول تعبير مادي عن اختلاف اليهود عن غيرهم وهي قضية لهم أهميتها البالغة فيما نحن بصدده من بحث.

٣- إن تلك الإجراءات كانت من الشمول بحيث نستطيع أن نقول مطمئنين إنها دخلت غالبيـة البيـوت اليهوديـة آنذاك، بعكس بقية الإجراءات التي قد لا تؤثر بعنف إلا فيمن تمس مصالحه أو نشاطاته. وذلك يعنـي بعبـارة أخرى أن تلك الإجراءات قد تكون هي المـادة الخـام التي توافرت لدى جميع اليهود المقيمـين فـي وسـط

وشرقي أوروبا آنذاك والتي تصـلح لتشـكيل جـوهر عملية التنشئة الاجتماعية هناك.

وقد سبق أن تعرضنا بشـيء مـن التفصـيل لطبيعـة الإجراءات. وما يعنينا الآن هو مناقشة موقف اليهود منهـا: أن سيسل روث (٢٤) لا يملك إلا أن يعترف بما يتصف بـه ذلك الموقف من تناقض. لقد حارب اليهود بشراسـة ضـد إقامة الجيتو عندما بدأت إقامته قسرا ثم إذا بهم فـي بعـض الأماكن في إيطاليا يستمرون في إقامة احتفال سـنوي فـي ذكرى تأسيس الجيتو. أي أنهم كانوا يحتفلون بذكرى إقامـة حوائط الجيتو لا بذكرى هدم تلك الحوائط. والأمـر كـذلك بالدقة فيما يتصل بالشارات المميزة التـي فـرض علـيهم ارتداؤها قسرا. فقد وجهت في البداية بمقاومة عنيفة ورفض بالغ إلا أنها هي نفسها قد تحولت في النهاية إلـى موضـع فخار، بل لقد استمر الكثير من اليهود المحافظين في ارتدائها بعد أن كفت عن كونها مفروضة قسرا.

بذلك نكون قد تعرضنا بإيجاز شديد وبصـورة عامـة لطبيعة الظروف التي كانت تحيط بالحياة ثم لطبيعة العلاقـة بين يهود الجيتو والإجراءات التـي اتخـذت لتمييـزهم أو

عزلهم. بقى أن نشير إلى انعكاس ذلك كله على موضـوعنا وأعني انعكاس كل تلك الظروف على الـدور الـذي لعبتـه مؤسسات التنشئة الاجتماعية في إحياء الجيتـو فـي وسـط وشرقي أوروبا بالتحديد.

وأهم المؤسسات التي قامت بعملية التنشئة الاجتماعيـة آنذاك كانت مؤسستان: الأولى هي الأسـرة والثانيـة هـي المعبد. وفي الحقيقة فقد كان عمل المؤسستين متداخلاً بدرجة تجعل من التعسف الفصل بينهما ولذلك فسوف نتناولهما معا.

يقول سيسل روث (٢٤) أن حياة الأسرة اليهودية كانت تتميز آنذاك بدفء بالغ. وأن معاملة النساء كانت أكثر رقـة من نظيرتها في المجتمع المحيط من غيـر اليهـود بـل أن ضرب الزوجة كان يعتبر سلوكًا خارجا عن الديانة اليهودية. بل أنه يمضي في تصويره لحب الآباء والأمهات لأطفـالهم فيذكر أن مسألة عقد الخطبة بين الأطفال كانت أمرا شـائعا آنذاك خوفًا من وفاة الوالدين قبل أن يستطيعا اتخاذ التـدابير اللازمة لكفالة سعادة صغارهم. وفيما نرى فإنه ليس أبعد عن مجافاة المنطق في هذا الصدد من ذلك التصور لحياة الأسرة في إحياء الجيتو آنذاك. حياة مليئة بالضغوط مـن الخـارج

أعني من غير اليهود. ثم هي مليئة بضغوط حكومة الجيتـو المسئولة – وفقًا لحديث سيسل نفسه – عن تنفيـذ رغبـات الحكومة الأكبر وقمع الاتجاهات المعارضة. ثم هـي مليئـة برعب الفصل من الانتماء للجماعة وهي عقوبة – على حـد قول سيسل نفسه أيضا – كانت تثير قدرا من الخوف أكبـر مما تثيره أي عقوبة أخرى. ثم هي فضلاً عن ذلـك حيـاة لجماعة منقسمة فعلاً: أغنياء تمكنوا بفضـل ثـرائهم مـن اختراق حوائط الجيتو وتحقيق قدر ما من مسايرة حياة بقيـة المجتمع. وفقراء ظلوا وراء تلك الحوائط ينعمون بتلك الحياة التي يرى سيسل روث أنها كانت تتميز بالدفء البالغ. وعلى أي حال فإننا لن نركن إلى اسـتنتاجاتنا المنطقيـة. يشـير برونوبتلهايم المحلل النفسي اليهودي الألماني النشأة الأمريكي الجنسية في كتابه أطفال الحلم وفي معـرض حديثـه عـن الأسباب التي أدت إلى نشأة الكيبوتزات إلى أن ثمة حركـة للشباب نشأت أساسا في ألمانيا واتخذت لهـم أسـم الطيـر المهاجر [١] كانت تسعى إلى الفرار من عالم الآبـاء"وهـي

Wandervogel [١]

الفكرة التي كانت تحظى بأكبر قدر من اقتناع شباب الجيتـو آنذاك. لقد كانت هذه الحركة تمردا على تلك الأسر شـديدة التسلط التي نشأ فيها... الشباب" (٤ ، ص ٢١) ثـم يشـير برونو بتلهايم في موضع آخر من كتابـه إلـى أن تحطـيم الأسرة والتمرد عليها في الكيبوتز يعد مظهرا مـن مظـاهر الاحتجاج على الحياة في الجيتو وفي مـدن وسـط أوروبـا بالتحديد (٤، ص ٢٣) كما يشير ملفـورد سـبيرو إلـى أن مؤسسو الكيبوتز يعتقـدون أن – التسـلط الأبـوي – هـو الخاصية المميزة للأسرة الغربية التقليدية وإن نظام الكيبوتز إنما يأخذ على عاتقه تـدمير تلـك السـلطة (٢٧، ص ١١) وتعبيرا عن أحاسيسها الشخصية تقول إحدى اليهوديات" لقـد كان اتجاهي نحو والدي يتميز باحترام بـالغ، ولكـن ذلـك الاحترام لم يكن ينقص من عنصر الخوف الشديد منه" (١٨، ص ٣) وإذا كان الأب في مثل تلك الظروف أعني ظـروف الحياة في الجيتو يتصف بالتسلط، فلننظر إلى موقف الأم في مثل تلك الأسرة. لقد تحدث سيسل عن المعاملة الرقيقة التي كانت تلقاها وعن أن ضرب الزوجة كان يعتبر سلوكًا خارجا عن الديانة اليهودية. تلك الديانة التي تحدث برونوبتلهايم عن

نظرتها إلى المرأة قائلاً ببساطة ومن قبيل التسجيل فحسب"إذا ما كانت اليهودية إمرأة فإنها ستشعر بمزيد من الحقد نحـو ذلك الدين الذي يطالب الرجال بالصلاة شكرا لله كل يوم لأنه لم يخلقهم نساء" (٤ ، ص ٢٤) ويمضي برونـو ليقـرر إن حركة الكيبوتز قد اتخذت ضمن أهدافها الأساسـية تحريـر النساء وهو متفق في ذلك مع الكثيرين من الكتاب اليهود بل والصهاينة أيضا (٤ و ٢٧، ٥٠).

لقد بدأنا حديثنا عن الأسرة فإذا بنا نتحدث في النهايـة عن الدين اليهودي، وليس ثمة غرابـة فـي ذلـك فالمعبـد والأسرة كانا يلعبان دورا واحدا تقريبا مـن حيـث أهـداف التنشئة الاجتماعية في إحياء الجيتو آنذاك ولعل خير تعبيـر عن ذلك هو أن المعبد كان إلى جانب كونه مركـزا لحيـاة الجيتو بالفعل، فإن وظيفته لم تكن دينية كهنوتية فحسب، بل كانت تتضمن دائما وظيفته كمدرسة، أي وظيفته التربويـة. حيث كانت تقام في كل جيتو وكملحق بالمعبد مدرسة مجانية تغطي تكاليفها من الهبات الاختيارية بحيث لا يتكلف الآبـاء شيئًا. كما إن التلاميذ الفقراء كانوا يتلقـون عـادة وجبـات

مجانية كما كانت توزع عليهم سنويا الأحذية والملابس فـي الشتاء (٢٤).

كانت تلك هي خصائص حياة اليهود في الجيتـو فـي وسط أوروبا آنذاك جدران عالية تفصل بينهم وبين المجتمع من حولهم. كثافة في العدد تميزهم. ارتفـاع فـي منـازلهم يميزها. شارات خاصة تفرق بينهم وبـين غيـرهم. حيـاة نموذجية لتنمية وتضخيم عنصر الإحساس بالتمايز. ثـم إذا نظرنا من الناحية الأخرى لتلك الحياة لوجدناها حياة مليئـة بالصراع. صراع مع ذلك المجتمع الذي فرض عليهم العزلة وفرض عليهم الضرائب وفرض عليهم مهنًـا معينـة دون غيرها وفرض عليهم زيا معينًا أو شارة معينة لابد لهم مـن ارتدائها. حياة نموذجية أيضا لتنميـة وتضـخيم الإحسـاس بالاضطهاد. وهما العنصران اللذان بدأنا بحثنا بهما بافتراض أنهما يمثلان العنصـرين الرئيسـيين لتكـوين الشخصـية الإسرائيلية. ولقد اتضح لنا من خلال استعراضنا للحياة فـي الجيتو وخاصة من خلال استعراضنا للحيـاة فـي الجيتـو وخاصة من خلال استعراضنا لاستجابة اليهود للمواقف التي اتخذت حيالهم والتي لا يخفى ما تعنيـه لهـم مـن أبعـاد

واضطهاد. اتضح لنا من خلال ذلك خاصية ميزت ذلك الموقف. ولعلنا سنصادف لها تأثيرا فيما بعد. أعني أنهم عندما وجهوا بعدوان قاوموه، فلما لم يستطيعوا له صدا تغلبوا عليه بطريقة أخرى وهي اعتبار المرفوض مقبولاً، والمفروض مختارا. بدلاً من أن يفرض الآخرون علينا السكنى في ذلك الحي الحقير، فلنقدم على تلك السكنى كما لو كنا قد اخترناها ولنعتبرها شرفًا لا يعادله شرف ولنحتفل بنوالنا ذلك الشرف كل عام. وبدلاً من أن يفرض علينا الآخرون ارتداء تلك الشارات المميزة تحقيرا وإذلالاً، فلنحرص نحن على ارتدائها باختيارنا شرفًا وفخارا. خاصية تبدو للوهلة الأولى كما لو كانت أمرا يستعصى على الفهم. ولكنا لو أمعنا فيها النظر لوجدنا أنها ما يسميه أهل الاختصاص في علم النفس بعملية التوحد بالمعتدي كحل يحفظ للذات اتزانها في مواجهة عدوان كاد أن يدمرها.

الجيتو وجيل الحالوتس

انتهت بذلك جولتنا داخل إحياء الجيتو في وسط وشرقي أوروبا. ولم تكن تلك الحياة لتمضي دون أن تخلف آثارهـا على حياة من عاشوها من اليهود. ومن الباحثين من مضـى بعيدا في تصوير تلك الآثار حتى أن سيسل روث يشير إلـى طأن قرنين من الحياة في الجيتو الإجباري كان لها آثارها بلا شك، فمن ناحية البنية تدهور النمط اليهـودي لقـد نقصـت بوصات من قامته واكتسب انحناءة دائمة. لقد أصبح هيابا بل عصبيا في كثير من الأحيان... لقد أصبحت المهن المهينـة التي فرضت عليه في البداية بالقانون بمثابة طبيعة ثانية له لا يستطيع منها خلاصا.. لقد أصبح إحساسـه بالتماسـك مـع إخوانه اليهود متضخما بشكل خيالي، ومصحوبا في حـالات كثيرة بشعور الأسى حيال غير اليهود الذي يتحملون مسئولية ما حدث له" (٢٤ ، ص ٢٧٣ إلى ص ٢٩٥٥) ويقول سيسل روث أيضا في موضع آخر" لقـد خلـق التماسـك الـديني والاجتماع لليهود، والذي قواه الكره الذي لاقاه اليهود من قبل غير اليهود، خلق لديهم اتجاها نحو التجمع في شارع أو في

حي معين من كل مدينة" (٢٤ ، ص ٢٠٣) ويشـير جمـال حمدان إلى نفس الاتجاه نحو التجمع في المدن كما يتضح في صورته المعاصرة فيذكر مثلاً أن باريس وحدها تضم ٥٠% من يهود فرنسا وأن يهود اسطنبول يبلغونا ٥٠% مـن ٦٠ ألفًا هم مجموع يهود تركيا وهكذا (٦١ ، ص ٤٦). وعلـى أي حال فإننا نجد تأكيدا لوجود تلك الصورة المعاصرة فـي إسرائيل نفسها حيث يقدم لنا راندولف بـراهم فـي كتابـه المعنون إسرائيل: نظام تربوي حـديث مـن الإحصـاءات الإسرائيلية ما يدعم ذلك فيذكر أنه وفقًا لأرقام تعداد إسرائيل عام ١٩٦٢ فإن نسبة ٧٨,٦% من سكان إسرائيل يعيشـون في المدن، ويعيش ثلث هؤلاء في ثلاث مدن كبيرة هي تـل أبيب وحيفا وأورشليم (٦، ص ٢) وتتفق تلك التقديرات مـع ما يورده ما تراس جوداه في كتابه التغيـر الاجتمـاع فـي إسرائيل (١٩ جدول ص ٤٤). أما برونوبتلهايم فيذكر فـي كتابه أطفال الحلم وفـي معـرض حديثـه عـن مؤسسـي الكيبوتزات وهم أساسا من يهود شرقي أوروبا متناولاً الحياة في الجيتو قائلاً: أن ما يذكر لها (رغم قسوتها) من حسـنات هو ما خلفته من روابط قربى وثيقة، ومشاعر عميقة واضحة

كثيرا ما تفصح عن نفسها بشكل تمثيلي، فضلاً عن الصـلاة الانفعالية العميقة بين الأطفال وذويهم (٤ ص ٢٧٦).

في ظلال تلك الحياة التي ألقينا الضـوء – قـدر مـا استطعنا – على جوانبها المختلفة، نشأ في ذلك المكان أي في وسط وشرقي أوروبا وذلك الزمان أعني القرن التاسع عشر تقريبا جيل من اليهود – هو جيل الحالوتس – كان له أكبـر الأثر في"صنع" إسرائيل، ومازالت بصمات أفكار واتجاهات ذلك الجيل واضحة على مظاهر الحياة في إسرائيل اليوم بل مازال أفراد من هذا الجيل يتصـدرون الحيـاة الإسـرائيلية العامة حتى يومنا هذا. وربما تبدو للوهلة الأولى إن الشـقة بعيدة بين إحياء الجيتو – كما وصفناها – وبين ذلك الجيـل. وذلك انطباع خاطيء فيما نرى فإحياء الجيتـو وأن كانـت أقامتها جبريا قد بدأت في منتصف القرن السادس عشـر إلا أنها استمرت جبرية حتى نهاية القرن الثامن عشر هذا إذا ما اعتبرنا أن أسوار الجيتو قد انهارت بقيام الثورة الفرنسـية. ولكن ذلك لا يعني انتهاء السمات والخصائص التي ميـزت تلك الحياة. لقد أقيمت إحياء الجيتو بقرار مـن أعلـى هـذا صحيح ولكنها أصبحت واقعا ماديا ملموسا يعيشه اليهود بل

يتمسكون به كما سبق أن أشرنا من قبل. ولذلك فإن تحطـيم الأسوار الحجرية للجيتو حتى لو سلمنا بانجازه على الوجـه الأكمل لم يكن يعني بحال تحطيم الأسوار الاجتماعية لـذلك الجيتو بل لعله – من الناحية النفسية – كان يعني مزيدا مـن تدعيم تلك الحوائط بعد أن أحس سكان الجيتو بأنه لم يعد ثمة ما يكفل تمايزهم إلا تمسكهم هم بأنهم متمايزون عن غيرهم. ولذلك فليس غريبا أن تكون حركة الحالوتس وليده شـرعية تماما لحياة الجيتو وذلك أيضا لا يعنـي بحـال إهـدارا ولا إنكارا لبقية العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التـي حددت تكوين ومسار حركة الحالوتس بل أنـه لا يعـدو أن يكون تدعيما لها أو إبرازا لجانبها السيكولوجي.

إن أبرز ما يجمع بين أبناء جيل الحالوتس من الناحيـة الفعلية هو هجرتهم إلى فلسطين... ترى لماذا أقـدم هـؤلاء على النزوح من أوطانهم الأصلية؟ فلنتناول أولاً مـا يقدمـه الفكر الغربي بعامة والصهيوني بخاصة تفسير لذلك النزوح.

يحدد إيزنشتادت أكبر علماء الاجتمـاع الإسـرائيليين المعاصرين أن المجتمع اليهودي فـي فلسـطين (المسـمى باليبيشوف) وكذلك دولة إسرائيل، كل ذلك قد نما من خـلال

نشاطات الجماعات الصهيونية التي انبعثت فـي تسـعينات القرن التاسع عشر في وسط وشرقي أوروبا (٢٣) كما يقول ايزنشتادت في كتابه المجتمع الإسرائيلي واصفًا تمـرد تلـك الجماعات على حياتهم هناك" لقد كان ذلك التمرد جزءا مـن الفوران الصهيوني العام ضد الحياة اليهودية في الدياسـبورا [٢] الحديث وأيضا إلى حد ما تمردا ضد الحركة الصـهيونية الرسمية التي كان عليها التنـازل عـن العقائـد الأساسـية لأيديولوجيتها حتى تتمكن من مد جذورها في الحياة الطائفية لليهود. وقد كان التمرد الصهيوني العام موجها ضد الفرض القائل بإمكان استمرار الحياة والتقاليد اليهوديتين فـي إطـار مجتمع حديث غريـب. أن هنـاك عقيـدة جوهريـة فـي الأيديولوجية الصهيونية مؤداها أنه في داخل مثل ذلك الإطار فإن اليهود سوف يتهددهم أما الفناء الروحـي والحضـاري وذلك بتدمير القوى الاقتصـادية والسياسـية والاجتماعيـة الحديثة لحياتهم الطائفية ولعاداتهم، وإمـا الفنـاء اقتصـاديا وسياسيا وبدنيا نظرا لأن المجتمع الحديث لا يتمثل تماما بل

---

٢ diaspora تعني بالعبرية التيه.

ويعجز عن هضم هذا العنصر الغريب (١٠ ، ص ٢ – ص ٣) لقد نشأت حركة الحالوتس إذن في مناخ طابعـه التمـرد والتهديد بالفناء والإحساس بالعزلة. تمرد على الحيـاة فـي الجيتو، وتمرد على حكومة الجيتو. إحسـاس بـأن الفنـاء يتهددهم روحيا وحضاريا واقتصاديا وسياسيا. اعتقاد راسـخ بأن المجتمع الحديث لا يمكن أن يتمثلهم ويهضمهم. ولا يلبث إيزنشتادت أن يتحدث عما استهدفه أولئك الحالوتس القـدامى من هجرتهم فيقول" لم يكـن المهـاجرون اليهـود الأوائـل يستهدفون أهدافًا اقتصادية أو أمنًا شخصيا بل أن الأهـداف كانت تخضع لآمال حضارية واجتماعة تدور حول إقامة نمط جديد من المجتمع اليهودي المقدس الحديث الـذي يتصـف أساسا بأنه ذاتي الحكم ومستقل اقتصاديا... لم يكـن هـدف المجتمع الجديد التحسـينات الاقتصـادية، ورفـع مسـتوى المعيشة، بل تسوية البناء الاقتصادي للجماعة والقلب الكامل للبناء الاقتصادي اليهودي في التيه (١٠ ، ص ٤) ويبدو أن إيزنشتادت قد حرص على أن يرسم للحالوتس صورة نقيـة تماما من وجهة نظره. ويبدو أنه انطلاقـًا من تصـوره أن وجود أهداف اقتصادية دفعت أو حتى أسـهمت فـي دفـع

الحالوتس إلى الهجرة قد يشوه تلك الصورة قد حرص علـى نفي مثل تلك الأهداف تماما. ولكنه لم يستطع أن يستمر فـي ذلك النفي طويلاً. فبعد أن حدد أن أهدافهم كانت"تدور حـول إقامة نمط جديد من المجتمع اليهودي المقدس الحديث" لم يجد ما يصف به ذلـك المجتمـع المـأمول إلا فـي اسـتخدام عبارات"الاستقلال الاقتصادي" و"تسوية البنـاء الاقتصـادي والاجتماع" و"القلب الكامل للبناء الاقتصادي اليهـودي فـي الداسبورا" ولا نعتقد أن أيا من تلك الأهداف يبعد عن كونـه هدفًا اقتصاديا. ولا يعنينا في مجال بحثنا قضـية الأهـداف الاقتصادية في حد ذاتها ولكنها تعنينا من زاوية أنهـا تكفـل الأرضية المناسبة لتفسير ما يقول به ايزنشتادت نفسـه مـن تميز حياة أولئك الأفراد بأنها مليئة بمشاعر التمرد والرعـب والعزلة، وعلى أي حال فإن مناحم بيجين الذي يعد فيما نرى من أبرز المعبرين عن روح حركة الحـالوتس – وأن كـان انتمائه الفعلي إلى تلك الحركة يمكن أن يكون محل مناقشة – يقول في مقدمة كتابه الثورة: قصة الأرجون"أنه لأمر بديهي أنه ينبغي على من يقاتل أن يكره شيئًا ما أو شخصا ما. ولقد قاتلنا. وكان علينا أن نكره أولاً وابتداء ذلك الاستسلام الكامل

والمرعب والمستمر الذي ميز قومنا اليهود دون مبرر. أولئك الذين جالوا لآلاف السنين في عالم مليء بالقسوة، والذين كان استسلامهم ذريعة لمن يحيطون بهم لكي يسخرون منهم" (١)

ويهتم أهارون كلاينبرجر في كتابه المجتمع والمدرسة والتقدم في إسرائيل بإبراز الجانـب الأيـديولوجي كـدافع لهجـرة الحالوتس في إطار لا يختلف كثيرا عن الإطار الذي قدمـه إيزنشتادت والذي أشرنا إليه توا. يقول كلاينبرجـر"أن مـن كانوا يعملون سابقًا كطلبة ومحامين وأطباء ورجال أعمـال وتجار وكتبة، إذا ما أقدم كل هؤلاء بحماس وفي ظل تلـك الظروف على القيام بعمل بدني شاق لم يعتادوا عليه من قبل كتجفيف المستنقعات وتعبيد الطرق، وبناء المنازل، وفلاحـة الأرض، فإن ذلك لدليل حي على قوة الأفكـار" (١٦ ص ٩)

أما جوديت شوفال فإنها تحاول تقديم المسـألة نفسـها فـي صورة بحث تجريبي إحصائي بعنـوان"دور الأيديولوجيـة كإطار مرجعي مسبق للمهاجرين" يستهدف التوصـل إلـى حدود العلاقة بين اعتناق المهاجر للفكر الصهيوني، ومـدى معرفته بأحوال إسرائيل، ومدى ما هو متوافر لديه من خطط واضحة لما سيفعله فيها. وقد أسفر البحث عن نتيجة مؤداها

أنه كلما ازداد النشاط الصهيوني للمهاجر قبل الهجرة أو حتى بعدها زادت معلوماته عن إسـرائيل، وزادت قدرتـه علـى استخدام تلك المعلومات استخداما جيدا لوضع خطـة لبقائـه هناك (٤٩).

كانت تلك هي أبرز الأفكار التي حاولـت أن تصـور المناخ الفكري لجيل الحالوتس، وعلينا أولاً أن نشـير إلـى حقيقة لا ينبغي أن تغيب عنا وهي أن جيل الحالوتس لم يكن يمثل في البداية على الأقل إلا نسبة محدودة من اليهود بعامة وحتى من يهود شرق أوروبا بالتحديد. ترى لماذا أقدم هؤلاء دون غيرهم على الهجرة؟ من هم أولئك الذين هاجروا؟ هـل ثمة خصائص تميزهم عن غيرهم من يهود نفـس الزمـان ونفس المكان؟ لقد أفاض الكتاب من اليهود بخاصة في ذكـر ما يبدو وكأنه أدق التفاصيل المتعلقة بطبيعة كل موجة مـن موجات الهجرة ومنها طبعا تلك التي ضمت جيل الحالوتس. ولنا بصدد التعرض لذلك السيل من التفصـيلات والجـداول والإحصاءات التي تفيض به الكتب ٠١٠) إن ما يعنينا هـو خصائص التكوين السيكولوجي لأولئك الحالوتس، ولكن كيف لنا بالوصول إلى ذلك؟ سبق أن أشرنا في معـرض حـديثنا

للموقف الذي اتخذه اليهود من إجراءات تمييزهم وذكرنا أنه كان موقفًا يتسم بالتناقض بمعنى أنهـم قـد حـاربوا تلـك الإجراءات في البداية كأشرس ما تكون الحرب ثم انقلبوا بعد ذلك يتمسكون بها كأشد ما يكون التمسك، كـان ذلـك هـو الموقف العام ولقد حان الوقت لنتساءل هل كان ذلـك هـو موقف الجميع؟ لاشك فيما نرى أنه لم يكن موقف الجميع بل كان موقف الأغلبية الساحقة ولكن ماذا عن موقف الأقليـة؟ ليس أمامنا إلا أن نتصوره على نقيض ذلك. قد يفرض على تلك الأقلية ارتداء الشارات المميزة لليهود ولكـن إحساسـهم بالمهانة لاينقلب إلى إحساس بالفخار ولذلك فمـا أن تصـبح الظروف مواتية للتحلل من ذلك الالتزام حتى يلقون بشاراتهم تلك غير نادمين. قد تجبر تلك الأقلية على الخضـوع لمـا تفرضه حكومة الجيتو من نظم ولكنها تظل دائمـا تستشـعر مرارة في ذلك الخضوع، وما أن تلوح لها الفرصـة حتـى تنطلق متحللة من ارتباطها بتلك الحكومة. وقد تجبـر تلـك الأقلية على الإقامة قسرا في إحياء الجيتو ولكنها لا تجعل من ذلك محلاً مختارا لها، وما أن تواتيها فرصة الانطلاق منـه حتى تنطلق دون تردد. بل أنه لمن المفهوم تماما من الناحية

السيكولوجية أن تقدم تلك الأقلية ما أن تجد سبيلاً إلى ذلـك على التمرد والثورة على كل ما يمت بصلة لتلك الحيـاة... نظامها الأسرى... نظامها الديني... نظامهـا التعليمـي... نظامها التشريعي. أي بعبارة أخرى لو شئنا استخدام التعبير الاصطلاحي فإن تلك الأقلية لابد وأن تتخذ صورة الجماعـة الخارجة عن التقاليد والعادات والقـيم والأفكـار والأنمـاط السلوكية الشائعة لدى الجماعة الأصلية التي تمثل الأغلبيـة. وما أن تواتى الفرصة ذلك الخروج الجماعي حتـى يتخـذ لنفسه صورة الجماعة الجديدة التـي لا تربطهـا بالجماعـة القديمة الأصلية سوى العداء والتناقض ولكن رب من يتساءل ما مغزى ذلك الحديث المسترسل عن أغلبية تخضع وأقليـة تثور وتتمرد وتبحث عن سبيل للانطـلاق بعيـدا؟ إن تلـك الأقلية ليست – فيما نرى – سوى الحـالوتس وهـم بـذلك المعنى الذي فصلناه لابد وأن يكونوا جيلاً من الرافضين لكل ما يمت بصلة لحياة الجيتو وفي مقدمة كل ذلك ارتضاء بني قومهم للإجراءات المتخذة حيالهم وتوافقهم معهـا بالصـورة التي أسلفنا الإشارة إليها. ولكن هل يتيح لنا ذلك القول بـأن العناصر الأساسية لتكوينهم السيكولوجي تتناقض تماما مـع

عناصر التكوين السيكولوجي للغالبية التي أشرنا إليها؟ لسـنا نرى مبررا لافتراض حتمية ذلك التناقض، لقد كان الإحساس بالتمايز والإحساس بالاضطهاد هما عنصري التكوين النفسي الرئيسيين آنذاك ولقد وجد عنصر الإحساس بالتمـايز لـدى الأغلبية تعبيرا صادقًا عنه في تمسكهم بالإقامة فـي الجيتـو وتمسكهم بارتداء الشارات حتى بعد أن أصبح فـي وسـعهم الإقلاع عن كل ذلك. أما عنصـر الإحسـاس بالاضـطهاد فيتجلى في أصرح صورة فيما عرف عنهم مـن استسـلام وخنوع حيال الإجراءات الموجهة ضدهم. كان يهود الأغلبية إذن يشعرون بالتمايز ويشعرون بالاضطهاد وكان هذا همـا العنصران الرئيسيان في تكوين شخصياتهم ماذا عن الأقليـة إذن؟ هل كانت على النقيض من ذلك حقًا؟ هل اختفى هـذان العنصران وحلت محلهما عناصر جديدة؟ الأمر على العكس تماما. كل ما حدث هو أن هذين العنصـرين قـد أعيـدت صياغتهما في صورة جديدة أكثر لياقة بـالظروف الجديـدة وباتجاهات الحالوتس المتمردة. بدلاً من التمايز مـن حيـث الإقامة في الجيتو ومن حيث ارتداء شارات مميـزة لليهـود فليكن التمايز هو تبني فكرة الامتياز العقلي لليهـود فلـيكن

التمايز هو الدعوة لتفوق الجنس اليهودي ونبوغـه وليتخـذ عنصر الشعور بالاضطهاد صورة جديدة بالفرار. بدلاً مـن الاستسلام. فليكن فرارا من الجيتو وفرارا أيضا من الاندماج في غير اليهود. فليكن تمسكًا بإقامة نظام جديد في مكان ما. نظام متناقض مع نظام الجيتو، ومتناقض مع النظام السـائد في وسط أوروبا آنذاك أيضا.

ولقد اتخذت علاقة الحالوتس بيهود الداسبورا صـورة بالغة التعقيد والغرابة، لقد كانت حركة الحالوتس تمثل بمعنى أو بآخر خروجا على يهود الداسبورا ولكنها خروج منهم في نفس الوقت. ولقد تناول العديد من الكتاب من الصهاينة ومن غيرهم طبيعة تلك العلاقة المعقدة التي تراوحت بين العـداء المتبادل والتعاطف المتبادل أيضا. فيقول إزينشتادت في هذا الصدد أن هناك فكرة ضاربة الجذور في التراث الصهيوني مؤداها"أن الجماعة اليهودية في فلسطين إنمـا هـي صـفوة مختارة من الشعب اليهودي في المنفى" (١٠ ، ص ٧) بـل أنه يحاول إرجاعها إلى مفهوم يهودي أكثر قدما كان يقـوم على اختيار قلة من الرجال من كل جماعة يمضون وقتهم في الدراسة والصلاة، وتقوم الجماعة بإعالتهم تماما أو جزئيا ثم

يعقب قائلاً" ومن هنا يمكن القول من وجهة النظر الاقتصادية أن هذه الفكرة الدينية إنما تعني أن يهود فلسطين يعتمـدون تماما على اليهود في الدياسبورا وبذلك فإن مـن يعطـي لا يحس مطلقًا أن أحسن ممن تلقى العطاء ومن تلقى العطاء لا يحس بدوره مطلقًا أنه أقل ممن يأخذ منه، بـل أن كلاهمـا يشعر أنه يؤدي واجبا دينيا" (١٠ ، ص ٨ إلى ص ٩) ولكن تلك العلاقة لم تكن في الواقع بالصورة التي أشرنا إليها فلقد تفاوت مثلاً موقف أغنياء اليهود من الحـالوتس ولـم يكـن بالموقف الموحد على الإطلاق (٨، ٢٨). ولعى أي حال فإن طبيعة العلاقة بين يهود الحالوتس ويهود الدياسبورا جـديرة ببحث منفصل وما يعنينا في هذا المقـام هـو أن نؤكـد أن التكوين السيكولوجي لجيل الحالوتس الـذي اخترنـاه بدايـة لمنطلقنا كان يتركز أيضا حول نفس العنصرين اللذين سبقت الإشارة إليهما: عنصر التمايز، وعنصـر الاضـطهاد وإن اختلفت الصورة التي اتخذها هذان العنصران عن صورتهما الشائعة لدى أبناء الجيتو بعامة.

الفصل الثالث

البحث عن بوتقة

فلسطين... لماذا؟

اللغة.

المؤسسات التعليمية.

المؤسسات العسكرية.

المؤسسات الدينية.

المؤسسات الأيديولوجية.

فلسطين.... لماذا؟

انتهت بذلك جولتنا في إحياء الجيتو، جسنا خلالها بالقدر الذي نظنه لازما لدراستنا. ورجعنا بتاريخها أيضـا بالقـدر الذي حسبناه لازما لفهمنا. وأوصلتنا سياحتنا تلك إلى أن ثمة جيل من أبناء ذلك العصر من يهود وسط أوروبا كان أكثـر إحساسا بتمايزه، وأكثر إحساسا باضطهاده أيضا آثر التمـرد على كل ما يحيط به وفي مقدمته حياة الجيتو وعلى كل مـن يحيطون به وفي مقدمتهم بنى جلدته من اليهود. وآثر الفرار من كل ذلك. ولكن إلى أين؟ نحن لا نسعى هنا بطبيعة الحال إلى إجابة جغرافية تحدد مكان تلك الوجهة بل نعنـي إجابـة سيكولوجية، بمعنى إلى أي ظروف كان يود ذلك الجيـل أن يمضي؟ ويقتضينا المنطلق أن نقرر إجابة على ذلك التساؤل، أن ذلك الجيل من الحالوتس كان يود أن يمضي بعيدا إلى أي مكان يكفل له ممارسة تمرده على ما هو متمرد عليه بل أن واحدة من بنات ذلك الجيل عبرت عن ذلك المفهوم بمنتهـى الوضوح قائلة: أن أساس نظامنا بـالغ البسـاطة، أن نفعـل عكس ما خبرناه أو تعلمناه نحن كأطفال". (٢٧، ص ١١).

وإلى هنا والأمـر لا يعـدو أن يكـون مـن الناحيـة السيكولوجية ظهور جيل من الشبان المتمردين علـى حيـاة آبائهم، بكل ما تتضمنه كلمة حياة من معنى وإذا حق لنا في مجال التعرض لأحداث تاريخية – وقعـت واكتملـت – أن نستخدم ألفاظًا مثل كان يمكن أو لو لم يحدث كذا، لأمكننا أن نلقى مزيدا من الضوء على ما نريد أن نقوله. وعلى أي حال فلندعى لنا هذا الحق مؤقتًا رغم إدراكنا لما في ذلك الادعاء من تناول للماضي المنتهي بأسلوب المستقبل المقبل. نود أن نقول أنه"كان يمكن" لذاك التمرد أن يظل في حدوده الأولـى أعني في حدود حركة الطير المهاجر التي سـبق أن أشـرنا إليها. أو بعبارة أخرى أن حركة التمرد هذه كان يمكـن أن تنتهي بمجموعات من الشباب تجوب أوروبا معلنة رفضـها لحياة آبائها متمردة على تقاليدهم وأساليبهم في الحياة وتقاليد وأساليب العالم المحيط بهم أيضا ثم لا شيء بعد ذلك ولعلـه" كان يمكن" للتاريخ ألا يسجل آنذاك سوى ملاحظة خافتة – لا يلمحها سوى المدقق – عن ارتفاع معدل الأمراض النفسـية بين يهود وسط أوروبا في تلك الفترة. أو لعل تلك الحركـة" كان يمكن" أن تندمج آنذاك في تلك الثـورة العارمـة التـي

شهدتها أوروبا مع بداية الثورة الفرنسية التي لم تكف أحداثها عن التفجر حتى مطلع الثورة الاشتراكية، كل ذلك"كان ممكنًا" وليس ثمة وجود لمثل ذلك التعبير في تناول أحداث التـاريخ فالإمكانيات والاحتمالات محلها المستقبل ولكن ذلك لم يحـل دون البعض – كما لم يحل دوننا أيضا – واسـتخدام ذلـك الأسلوب في التناول محاولة للوصول إلى تفسـير يتخطـى حدود التسجيل الحرفي للوقائع – وقولنا بأنـه"كـان يمكـن" لحركة الشباب اليهود المتمرد في أوروبا أن تنتهي مثل تلـك النهاية إنما يعني أن التكوين السيكولوجي لأولئك الشباب هو نوع من التكوين السيكولوجي الذي نصادفه عادة – بدرجـة تزيد أو تقل – لدى أجيال الشباب فـي فتـرات التحـول أو الأزمة. والذي لا يعدو في حالة قلته – أو لنقل فـي حالتـه الطبيعية – أن يكون نوعا من السلوك المختلف بصـورة أو بأخرى عن سلوك الآباء وهو أمر لا يكاد يخلو منه مجتمـع بل لعله يكاد يشكل السمة التي تميز مـا يعـرف بصـراع الأجيال كشرط من شروط التقدم. ويحدث أحيانًا أن يتخطـى ذلك التكوين الصراعي حدوده الطبيعية. ولسنا نعني بالطبيعة هنا حكم قيمة أو أمرا من هذا القبيل. كل ما نعنيه أنه يحدث

أحيانًا أن يشتد ذلك التمرد فيتخذ صورة الثورة الاجتماعيـة بكل ما تعنيه من أبعاد، أو يتخذ صـورة التمـرد السـلوكي الجماعي فيما يعرف بحركات الشـباب بعامـة – أو يتخـذ صورة الأمراض النفسية بل والعقلية أيضا. ونجد أنفسنا بذلك حيال تساؤلين: أولهما: تساؤل نظري مؤداه: ما الذي يحـدد أن يتخذ ذلك التمرد هذه الصورة بالذات أو تلك؟ - والتساؤل الثاني: مترتب على التساؤل الأول وهو تساؤل عملي مؤداه: لماذا اتخذ التمرد اليهودي تلك الصورة البعيدة تمامـا عـن المتوقع؟

ويمكننا أن نرجع بإجابتنا فيما يتصـل بالتسـاؤل الأول إلى قضية سبق أن أشرنا إليها إشارة عابرة وهي أن التكوين السيكولوجي لا يحدد مسار التاريخ بحال. قد يسهم في ذلـك المسار. قد يدفعه إلى الأمام. وقد يحاول الوقوف في وجـه تقدمه ولكنه – فيما نرى – ليس بالمحدد لـذلك المسـار. لا يكفي أن تتوافر لدى شخص المقومات السيكولوجية للزعامة مثلاً فيصبح زعيما. لابد لمن تتوافر في شخصيته مقومـات الزعامة أن تتوافر في الظروف المحيطة به أيضا مقتضيات الحاجة إلى تلك الزعامة، من جوانب اقتصـادية وتاريخيـة

وجغرافية وإلا فقد ينتهي الحال بمن" كان يمكـ ـن" أن يكـ ـون زعيما إلى مصحة الأمراض العقلية أو إلى تزعم عصابة من المجرمين أو ما إلى ذلك. وكذلك الحال بالنسـ ـبة لأي مـ ـن التكوينات السيكولوجية التي يمكن أن تخطر لنا ببال. التكوين السيكولوجي مجرد إمكانية يتوقف تحولها إلى واقع ويتوقـ ـف أيضا شكل ذلك الواقع على الظروف الاقتصادية والاجتماعية المحيطة بذلك التكوين.

وإذا ما حاولنا التصدي للإجابة على التسـ ـاؤل الثـ ـاني بمعنى أن نحاول البحث عن الأسباب التي أدت بأولئك اليهود المتمردين على حياتهم الأوروبية بعامة، وحياتهم اليهوديـ ـة بشكل خاص، إلى أن يصبحوا جيلاً من الحـ ـالوتس يسـ ـعى لإقامة دولة أوروبية بوجه عام ويهودية على وجه الخصوص وعلى أرض تم اغتصابها من العرب، إذا ما تصدينا لمثـ ـل ذلك التساؤل فالأمر يخرج بنا حتما من نطاق علم النفس إلى نطاق أوسع وأرحب هو نطاق علم التاريخ أو علم السياسة أو ما إلى ذلك. ولسنا نهدف ولا حتى نستطيع أن نوفي مثل ذلك التناول حقه. ولكنا لا نستطيع أيضا أن نضرب صفحا عـ ـن قضية تاريخية نعتقد أنها وثيقة الصـ ـلة بموضـ ـوعنا أعنـ ـي

التكوين السيكولوجي للإسرائيليين ألا وهي قضـية اختيـار فلسطين بالذات مستقرا لدولة إسرائيل. ولقد طال ترديد مثـل هذا القول، حتى أصبح من فرط ذلك الترديد يكاد أن يكـون أمرا مسلما به متفقًا عليه لا يخضع لمناقشة. وليس أبعد مـن ذلك القول عن حقيقة ما تنبيء به وقائع التاريخ. لقـد شـهد التاريخ العديد من الهجرات اليهودية في مختلف العصـور، ولم يحدث أن اجترأ أي من المؤرخين مهما كان إغراقه في الصهيونية على القول بأن فلسطين كانت قبلة تلك الهجرات. ولا نظن أن هناك من تفسير يوفق بين التسليم بأن فلسـطين كانت تمثل أملاً لليهود في شتى العصور وبـين حقيقـة أن وقائع التاريخ الفعلية لا تحمل ما يدل على حقيقة وجود ذلك الأمل في صورة تعبير فعلي منذ ذلك التاريخ الغـابر. فلقـد شهد القرن السادس عشر والسابع عشر هجرة لليهـود مـن أسبانيا والبرتغال إلى أمريكا كما شهدت أواسط القرن التاسع عشر وما حفلت به أوروبا آنذاك من ثـورات وانتفاضـات خروجا يهوديا نشطًا حمل إلـى الولايـات المتحـدة نحـو ربع"مليون يهودي" وحتى إذا ما مضينا إلى العصر الحـديث أعني نهايات اليهودية قد اتخذت لها بؤرة محددة هي فلسطين

بل أن الولايات المتحدة الأمريكية فقد ظلت بمثابة تلك البؤرة التي استقبلت في الفترة بين ١٨٨٥ إلى ١٩١٤م أعدادا هائلة من يهود روسيا القيصرية والنمسا والمجرد ورومانيا بلغ ما يقرب من المليون ونصف المليون. وحتى إذا نظرنا نظـرة متأنية إلى هجرة اليهود نتيجة للاضطهاد النازي والتي كـان مصدرها الأساسي هو وسط أوروبا لوجدنا أنه ، إذا كانـت هذه الحركة قد جمعت كثيرا من يهود أوروبا فـي فلسـطين أثناء الحرب العالمية الثانية، فإن الجزء الأكبر منها اتجه إلى العالم الجديد خاصة الولايات المتحدة. (٦١، ص ٢٨).

ويورد يوري أيفانوف العديد من الشواهد التاريخية التي تسير في نفس الاتجاه متناولاً فرار اليهود من العسف النازي بقوله في وضوح" فقد اندفعت موجات المهـاجرين اليهـود وضحايا الاضطهاد في أوروبا الشرقية إلى أمريكا وليس إلى الشرق الأوسط. ففي منتصف العشرينات من القرن العشرين وصل عدد اليهود في أمريكا إلى أربعـة ملايـين ونصـف مليون نسمة في مقابل ٩٨٦ ألف نسمة عام ١٨٩٧م أما فـي آسيا فقد ارتفع عدد اليهود في نفس الفترة من ٤٠٠ ألف إلى ٦٠٠ ألف نسمة (٦٠و ٦٩).

وليس ذلك هو الدليل العملي الوحيد فقد كان ثمة صراع داخل الحركة الصهيونية حول أصـلح الأمـاكن لاسـتيطان اليهود، وكانت تلك الصـراعات تعكـس مصـالح الـدول الإمبريالية المختلفة. فالزعيم الصـهيوني الـدكتور نوسـيج (مثلاً) كان يحرص على مصالح الإمبريالية الألمانية التـي كانت تسعى بكل الوسائل لتقوية نفوذها فـي الإمبراطوريـة العثمانية. وقد أسس بتشجيع مـن ويلهـالم الثـاني شـركة استعمارية مستقلة لتوطين اليهود في الإمبراطورية العثمانية خارج فلسطين (٦٠ ، ص ٦٦) بل أنه حتى بعـد انتصـار المجموعة الموالية للإمبريالية البريطانية بزعامة وايزمـان والتي كانت ترى في فلسطين بالذات حلمهـا القـديم"وفـي المؤتمر الصهيوني السابع حيث كان الرأي قد اسـتقر علـى فلسطين قام الزعيم الصهيوني البريطاني زانجويل بإحـداث انشقاق في صفوف المؤتمر. وكون منظمة صهيونية مستقلة تهدف إلى استعمار أوغندا أو أي مكـان آخـر" (٦٠، ص ٦٧). ورغم انتهاء ذلك الانقسام في صفوف الصهاينة فـإن مجرد حدوثه واكتسابه للأنصار إنما يدل في جوهره على أن فلسطين لم تكن بحال الأمل الذي استقر في أذهـان اليهـود

جميعا منذ التاريخ الغابر، فضلاً عن أنها لم تكن بالمستقر الذي أجمع عليه الصهاينة للوهلة الأولى ودون خلاف.

ولعل ذلك يكفي دون خوض في مزيد من التفاصيل لحسم قضية أن فلسطين كانت هي المستقر المختار بالذات لإقامة إسرائيل منذ الزمن القديم، وأن فكرة إقامة مثل تلك الدولة لم تكن فكرة"عودة" بعد"خروج" ولا"تجمع" بعد"شتات" بالمعنى اليهودي القديم الذي لم يصبح شائعا إلا بعد أن تم ذلك الاختيار بالفعل. أما لماذا تم ذلك الاختيار فهو أمر يخرج كلية عن حدود تخصصنا، وكل ما يعنينا بشأنه أنه قد تم من خلال الحركة الصهيونية ونتيجة لقيامها وليس العكس، أي أن تلك الحركة لم تقم تلبية وتجسيدا لذلك الاختيار التاريخي القديم، ولسنا نرمي بذلك إلى إنكار ما قد تحمله أرض فلسطين اليوم – وبعد قيام إسرائيل أو خلال عملية إقامتها – من دلالة سيكولوجية لدى العديد من اليهود في إسرائيل وفي خارجها أيضا ولكن ما نعنيه بحديثنا هو أن تلك الدلالة السيكولوجية – بصورتها الراهنة – قد خلقتها الحركة الصهيونية وسعت إلى تدعيمها، وإرسائها في نفوس اليهود بعامة، ويهود أوروبا بشكل خاص كوسيلة لخدمة

الأهداف السياسية والاقتصادية لتلك الحركة – ويتمثل ذلـك السعي – فيما يتصل بمجال بحثنا في ذلك الإصرار المستمر للحركة الصهيونية وللدولة الإسرائيلية بكافة مؤسساتها علـى نشر ذلك المفهوم بحيث يصبح جزءا أساسيا مـن التكـوين السيكولوجي المشـترك الـذي يهـدفون إلـى اصـطناعه للإسرائيليين وذلك أمر لا يمكن له أن يتم إلا من خلال عملية التنشئة الاجتماعية.

وإذا كانت الأسرة هي التنظـيم الاجتمـاع ذو الـدور الغلاب في السير بعملية التنشئة الاجتماعية إلى غايتها فـي كافة المجتمعات الإنسانية فإن تلك الغلبة إنمـا ترجـع فـي جوهرها إلى حقيقة بيولوجية أساسية هي أن الطفل البشـرى بحكم تركيبه الفسيولوجي هو أكثر الكائنات التصاقًا بالكبـار من أبناء جنسه وحاجة إلى رعايتهم. ولا يعني ذلك بطبيعـة الحال وكما أشرنا من قبل إنكارا الحقيقة تعـدد المؤسسـات الاجتماعية التي تشترك في القيام بعملية التنشئة الاجتماعيـة في المجتمع، كما أن ذلك التعدد لا ينبغي أن يعني تقليلاً من الدور الأساسي الذي تقوم به الأسرة في ذلـك الصـدد. وإذا كانت عملية التنشئة الاجتماعية لا تكاد تلحظ إلا للعين المدققة

بالنسبة لغالبية المجتمعات فلعل ذلك يرجع إلى أن الجانب الرئيسي منها إنما يتم داخل جدران المنازل أي تقوم به الأسرة. ولا ينبغي أن يعني تأكيدنا على دور الأسرة إهمالنا لدور الخبرات الشخصية الموضوعية التي يلقاها الفرد في مسيرته من الطفولة إلى النضج، بل ولا حتى تقليلاً من أهمية ذلك الدور، ولكن ما نعنيه بالتحديد هو أن عملية التنشئة الاجتماعية التي تقوم بها الأسرة تمثل – كجزء من الخبرات الشخصية التي يمر بها الفرد – أساسا من الأسس الهامة التي تسهم في تحديد موقف الفرد من خبراته التالية بل تفسيره لتلك الخبرات.

وإذا ما انتقلنا إلى المجتمع الإسرائيلي فإن الموقف سوف يختلف كثيرا، الأسرة الإسرائيلية تقوم بدورها فعلاً وليس في مقدور المنظمة الصهيونية ولا الدولة الإسرائيلية أن تحول بينها وبين ذلك الدور الذي تفرضه طبيعة الإنسانية البيولوجية. ولكن ما هي"الأسرة الإسرائيلية"؟ إن إطلاقنا لمصطلح"الأسرة" كتنظيم اجتماع في مجتمع ما إنما يعني توافر حد أدنى من التشابه بين وحدات ذلك التنظيم المختلفة، أعني بين مختلف الأسر في ذلك المجتمع وذلك أمر لا يمكن

تصوره في المجتمع الإسرائيلي بالصورة التي قد نجده عليها في مجتمعات أخرى – فالأسر النازحة إلى إسرائيل تحمـل معها حضارات شتى، ولكل حضارة تراثها بمـا فيـه مـن عادات وتقاليد وقيم وأنماط سلوكية وفكرية. الدور الذي تلعبه الأسرة الإسرائيلية إذن في عملية التنشئة الاجتماعية لا يمكن أن يحقق ما يرجوه مؤسسو إسـرائيل مـن خلـق لتكـوين سيكولوجي إسرائيلي موحد، ولقد سبق أن أشرنا إلى دراسـة واينتروب وما تحمله من دلالة في هذا الصدد (٥٥).

لم يكن من حل إذن أمام القائمين على أمـر"صـناعة" المجتمع الإسرائيلي إلا الاعتماد على المؤسسات الاجتماعية الأخرى في تحقيق ما لن تنجح"الأسرة" الإسرائيلية في تحقيقه بحكم تباين حضارات وثقافات وحداتها وما يترتب على ذلك من تباين في التكوينات السيكولوجية لتلك الوحدات أي لتلـك الأسرة. ولقد اعتمدت التنشئة الاجتماعية في إسرائيل بالفعل على عدد من المؤسسات تعمل جميعا في وقت واحد مستهدفة إلى جانب أهدافها المتخصصة – الإسهام في خلق التكـوين السيكولوجي الإسـرائيلي الواحـد. ويمكننـا تقسـيم تلـك المؤسسات إلى أربعة تجمعات رئيسية هي:

أ- المؤسسات التعليمية.

ب- المؤسسات العسكرية.

ت- المؤسسات الدينية.

ث- المؤسسات الأيديولوجية.

والسمة التي تربط تلك المؤسسات جميعا من حيث سعيها إلى القيام بدورها في خلق التكوين السيكولوجي الإسرائيلي الواحد هو أنها رغم اختلاف تكويناتها ومستوياتها وتأثيراتها تتفق جميعا في أنها تستخدم الأسلوب الإعلامي في بلوغ هدفها. ولا يقتصر ما نعنيه بالأسلوب الإعلامي على استخدام وسائل الإعلام بمعناها المتفق عليه من إذاعة وتليفزيون وسينما ومطبوعات، بل إننا نعني الإعلام بأوسع معانيه وأرحب صوره بحيث يدخل في نطاقه أحاديث الضباط إلى جنودهم، والمدرسين إلى تلاميذهم، وقادة الأحزاب إلى أعضائها، وكهنة المعابد إلى روادها. وقد يرى البعض شيئًا من الغرابة في قولنا أن الأسلوب الإعلامي هو السمة التي تميز تلك المؤسسات. أليس ذلك الأسلوب بهذا المعنى بالتحديد هو سمة أي تنظيم يستهدف التنشئة الاجتماعية في أي مجتمع؟ وإذا كان الأمر كذلك ألا يعني أن

ليس ثمة تمييز تضفيه هذه السمة علـى تلـك المجموعـات بالذات من مؤسسات التنشـئة الاجتماعيـة فـي إسـرائيل؟ والحقيقة إننا نعني بقولنا أن هذه السمة تميز تلك المجموعات أنها تميزها عن الأسلوب الذي تتبعه الأسـرة فـي تنشـئتها الاجتماعية لأفرادها، وهو أسلوب يبعد عن الطابع الإعلامي – بالمعنى الذي أشرنا إليه – وإن لم يكن يخلو منه، ويقترب من طابع آخر يمكن لنا أن نطلق عليه مؤقتًا طـابع"ضـرب القدوة" الذي يكاد يكون الطابع الغالب للتنشئة الاجتماعية في الأسرة.

ويقتضي الأسلوب الإعلامي ابتداء وبحكم طبيعته توافر لغة مشتركة بين مصادر الإشعاع والمتلقين، وبين المتلقـين وبعضهم البعض أيضا. وغلا كف ذلك الأسلوب عن عملـه قبل أن يشرع في ذلك العمل. ولذلك نجد لزاما علينا أن نبدأ بتناول قضية اللغة في المجتمع الإسرائيلي بوصفها الوسـيلة الأساسية التي تتبعها مؤسسات التنشـئة الاجتماعيـة التـي ذكرناها في تحقيق أهدافها.

وقبل كل ذلك ينبغي أن نتعرض لقضية قد تثير تساؤلاً يمكننا صياغته على الوجه التالي: ألا يكفي توافر عنصـري

الشعور بالامتياز والشعور بالاضطهاد – وهما العنصـران الرئيسيان في التكوين السيكولوجي لجيل الحالوتس وفقًا لمـا ذهبنا إليه، للقول بأن التكوين السيكولوجي الواحـد متـوافر فعلاً في إسرائيل؟ ولابد لنا هنا من إيضاح نقطتين:

أولاً:

إن إسرائيل اليوم لا تضم جيل الحالوتس فحسب بمعنى أن أولئك اليهود الذين نزحوا من أواسط أوروبا إلى فلسطين وأسهموا بالفعل في إقامة دولة إسرائيل وتركـوا بصـماتهم واضحة على الحياة الإسرائيلية حتى اليوم هؤلاء الحـالوتس لا يقيمون ألان وحدهم في إسرائيل بل أنهم لا يشكلون مـن الناحية العددية سوى أقلية ضئيلة. أن إسرائيل تضـم اليـوم أفرادا يهودا ينتمون إلى أكثر من مائة قومية من شتى بقـاع الأرض. بل أن العلاقات السائدة بين أفراد تلـك القوميـات أقرب إلى العداء المتبادل. ولعل ذلك هو ما يفسـر حـرص الكثير من الباحثين الإسرائيليين على دراسة ذلك النوع مـن العدوان، كما فعلت جوديتْ شوفال في بحثها المعنـون"دور الطبقة في تكوين العداء المتبادل بين الجماعات" (٤٨).

وبذلك فإن وحدة وتكامل التكوين السيكولوجي للحالوتس لا تعني بالضرورة ولا يمكن لها أن تعني وحدة وتكامل ذلك التكوين بالنسبة للإسرائيليين المعاصرين الذين يضمون بـين صفوفهم من نزحوا إلى إسرائيل في ظل ظـروف تختلـف قطعا تمام الاختلاف عن ظروف نزوح الحالوتس.

ثانيا:

إن وجود عناصر مشتركة تلعـب دورا أساسـيا فـي التكوين السيكولوجي للإسرائيليين المعاصرين لا يعني التسليم مباشرة بوحدة وتكامل ذلك التكوين السـيكولوجي فـالتكوين السيكولوجي مفهوم أرحب من ذلك بكثير ولـيس أدل علـى ذلك من جيل الحالوتس نفسه، فقد كان – فيما نرى – جـيلاً متمردا على أسلافه الذين تقبلوا حياة الجيتو، ومع ذلك فقـد اتضح لنا أن العنصرين الأساسيين في تكوينه السـيكولوجي هما بعينهما نفس العنصرين الأساسيين للتكوين السيكولوجي لأولئك الأسلاف وأن اختلفت صـور التعبيـر عـن هـذين العنصرين وتباينت. بل لعل المثل الأكثر دلالـة ووضـوحا على ما نحن بصدده هو اتفاق التكوين السيكولوجي للنازيين الألمان واليهود الصهاينة في بعض من جوانبه الأساسية دون

أن يعني ذلك بحال قيام وحدة سيكولوجية تجمعهما بـالمعنى المعروف.

ليس الاتفاق في العناصر الأساسية للتكوين السيكولوجي إذن سوى أرضية مناسبة لتشكيل ذلك التكوين بمعناه الرحب الذي يشمل الاتساق في العادات والتقاليد والأفكار وما إلـى ذلك. وهو ما يمكن أن تقـوم بـه تلـك المجموعـات مـن المؤسسات الاجتماعية الإسرائيلية التي أشرنا إليها. وإذا مـا كان العنصران المشار إليهما هما بحـق جـوهر التكـوين السيكولوجي الإسرائيلي المعاصر فـإن لنـا أن نتنبـأ بـأن محاولات تلك المؤسسات جميعا سـوف تسـتهدف تـدعيم وتضخيم هذين العنصرين بصرف النظر عن نجاح أو فشـل تلك المحاولات.

اللغــة

تعد اللغة المشتركة أساسا لا غنى عنه، وشرطًا لابد من توافره للأمة الواحدة فليس في استطاعتنا أن نتصـور أمـة تضم أفرادا لا يتكلمون لغة واحدة، أو على الأقل لا تكـون هناك لغة واحدة مشتركة بينهم إلى جانب ما قد يكون موجودا من لغات أو لهجات أو رطانات أخـرى تميـز مجموعـات مختلفة تضمهم تلك الأمة. وإذا كانت اللغة المشتركة تعتبـر ضمن الأسس الجوهرية لقيام الأمة، فإن ذلك لا يعني بطبيعة الحال أن توافر تلك اللغة المشتركة فحسب يـؤدي وبشـكل تلقائي إلى قيام الأمة. فالأمة وجود معقد لابد لتـوافره مـن شروط عدة ولا تمثل اللغة ورغم أهميتها إلا واحدا من تلـك الشروط.

ولقد تنبهت الحركة الصهيونية التي تبنت – كما سـبق أن أشرنا – حركة التمرد اليهودي على الحياة اليهودية فـي أوروبا، تنبهت إلى أهمية اللغة حتى أن الكاتبـة الصـهيونية ترود فايس روز مارين تردد في كتابها انتصار اليهود فـي صراع البقاء (٢٩) فكرة أن اللغة العبرية هي أول مقومـات

الأمة اليهودية. والحقيقة كما يقول راندولف براهم في كتابه إسرائيل: نظام تربوي حديث (٦ ، ص ٨) تحت عنوان"إحياء العبرية" أن اللغة العبرية لم تعد لغة مستخدمة في التخاطب منذ تحطيم مملكة اليهود حوالي ١٣٠ قبل الميلاد ثم يضيف أن عملية إعادة الحياة إلى اللغة العبرية لم تبدأ إلا منذ حوالي نهاية القرن التاسع عشر. ويتفق براهم في ذلك ما يذهب إلى غسان كنفاني في كتابه في الأدب الصهيوني في معرض حديثه عن آحاد هاعام الذي يعد من أبرز رواد الفكر الصهيوني في ذلك المجال والذي يقول عنه غسان كنفاني إنه يكثر الحديث في مقالاته التي قوضت بقايا دعوة الاندماج لدى يهود أوروبا الشرقية عن آخر يهودي وأول عبري (٦٨، ص ١٦ – ص ١٧) تلك الجملة التي صارت فيما يرى غسان كنفاني شعارا صهيونيا في الميدان الثقافي خصوصا.

وقد يبدو للوهلة الأولى أن القضية لا تعدو أن تكون لغة هجرها"أهلها" فترة من الزمن طالبت وامتدت ثم عادوا من جديد إلى لغتهم تلك يستخدمونها في تخاطبهم ومعاملاتهم. ولكن الأمر ليس على هذا القدر من البساطة فبين اندثار اللغة

العبرية ومحاولة إحيائها مضى ما يقرب من عشرين قرنا من الزمان حافلات بأحداث جسام لقد تشتت اليهود، واندمج منهم من اندمج في شعوب جديدة واختلط منهم من اختلط بأبناء الأمم والقوميات والأديان المختلفة، ولم يعد ثمة جنس يهودي له لغته المتميزة الواحدة المشتركة. أما تلك الأقليات اليهودية التي تناثرت في أوروبا والتي استقرت في إحياء الجيتو فإنها اصطنعت لها لهجاتها المميزة، كالييديش واللادينو وغيرها التي كانت في حقيقتها خليطًا من آثار العبرية القديمة واللغات السائدة في أوروبا آنذاك. وهجرة ذلك الشتات إلى فلسطين لم يكن يعني تخليهم عن لهجاتهم التي عاشوا بها في أوطانهم الأصلية ومن هنا كان ذلك الاهتمام الفائق بقضية إحياء ونشر اللغة العبرية في إسرائيل كخيط عملي مشترك يجمع بين أبناء إسرائيل جميعا.

ولعل ذلك هو ما يعنيه جورج فريدمان عندما يقول"أن معرفة العبرية شرط لا غنى عنه لعملية الاندماج كما أنها إذا ما تحققت لتعد دليلاً على نجاح تلك العملية ولذلك وضعت مناهج لتدريس العبرية تستغرق من أربعة إلى ستة أشهر ويتم تدريسها في الألبانيم (مدارس خاصة لتدريس العبرية)

التي ينبغي أن توجد في كل المدن والكيبوتزيم والموشـافيم. كما أن المدرسـين المتطـوعين كـانوا يقومـون بزيـارة المهاجرون الجدد في منازلهم إلـى جانـب نشـر الجرائـد والمجلات التي تطبع بالعبرية البسيطة. فضلاً عن البـرامج الإذاعية الموجهة إلى المبتدئين في تعلم اللغة العبريـة (١٤، ص ٣١).

ليس الأمر إذن أمر لغة هجرها أهلها ثم عادوا إليها بل إنها لغة اندثرت وانقطعت الأسباب بينها وبين مـن كـانوا ينطقون بها – وعلى مر العصور حلـت محلهـا لغـات أو بالأحرى لهجات اندماجية إذا صح التعبيـر. ولـم تزدهـر محاولات أحيائها إلا مع بروز الوجـه السياسـي للحركـة الصهيونية ولعلنا نختلف في ذلك مع ما ذهب إليـه غسـان كنفاني في قوله" لن يكون من المبالغـة أن نسـجل هنـا أن الصهيونية الأدبية سبقت الصهيونية السياسية، وما لبثـت أن استولدتها، وقامت الصهيونية السياسية بعد ذلك بتجنيد الأدب في مخططاتها ليلعب الدور المرسوم لـه فـي تلـك الآلـة الضخمة التي نظمت لتخدم هدفًا واحدا". (٦٨، ص ٩).

وعلى أي حال فقد أحرزت الحركة الصهيونية قـدرا لا بأس به من النجاح في مجال اللغة – ولعل ذلـك النجـاح لا يرجع إلى الجهد المباشر الذي وجهته تلك الحركة إلى إحياء اللغة العربية بقدر ما يعد نتيجة لنجاح تلك الحركة في إقامة دولة إسرائيل أو بالتحديد في تجميع عدد كبير من اليهود من شتى البلاد في مكان واحد مما يسر كثيرا من مهمة إحيـاء اللغة العبرية بينهم. ولم تكن مهمة نشر اللغة العبرية موكلـة إلى المؤسسات التعليمية فحسب بل كانت جزءا مـن مهمـة كافة المؤسسات ومن بينها المؤسسات العسكرية أيضا حيـث تتضمن كافة برامج التدريب الثقافية للجنود وكمادة أساسـية تعليم اللغة العبرية حتى الإتقـان (٧٣، ص ١٦٠ إلـى ص ١٦١).

وينبغي أن يكون واضحا ما لقضية توحيد اللغـة مـن أهمية خاصة في عملية التنشئة الاجتماعيـة فـي إسـرائيل بالذات. فاللغة تلعب دورا هاما ولا شك في عمليـة التنشـئة الاجتماعية في أي مجتمع. ولكن الدور يبدأ بأن يتعلم الطفل أولاً لغة المحيطين به أي أسرته. فالأسرة إذن هي معلم اللغة الأول. ولو ترك الأمر كذلك في إسرائيل – كشأنه في بقيـة

المجتمعات لسمح ذلك بنمو العديد من اللهجـات الاندماجيـة التي أشرنا إليها والتي حملها معهم اليهـود النـازحين إلـى إسرائيل من شتى بقاع الأرض، والتي كانـت كمـا اشـرنا مزيجا من العبرية القديمة مختلطًا بلهجات الشعوب الأصـلية التي نزح منها اليهود. وإذا كان انتشار اللهجات المحليـة لا يمثل خطورة على الوحدة القومية لشعب من الشـعوب مـا دامت قد توافرت له مقومات القومية، فإن الأمر يختلف تماما بالنسبة لإسرائيل، وبالتالي فإن الذي تمارسه الأسرة بالفعـل في عملية التنشئة الاجتماعية في إسرائيل دور لا يمكـن أن يؤدي إلى توحيد الكيان السيكولوجي الإسرائيلي لأسباب سبق أن أشرنا إليها. وبالتالي فقد كان لابد مـن الاعتمـاد علـى غيرها من المؤسسات في القيام بذلك الدور ولما كان أسلوب تلك المؤسسات جميعا فـي نشـاطها فـي مجـال التنشـئة الاجتماعية هو الأسلوب الإعلامي فمن هنا اتخـذت عمليـة إحياء اللغة أهميتها الخاصة المتميزة فـي عمليـة التنشـئة الاجتماعية في إسرائيل بالذات.

ولكن ماذا بعد ذلك النجاح؟ هل أدى النجاح في إحيـاء اللغة العبرية في إسرائيل إلى الإسهام حقًا في خلق التكـوين

السيكولوجي الموحد للإسرائيليين؟ أن اللغة – كما سبق أن أشرنا – ليست سوى وسيلة قد تؤدي أو لا تؤدي إلى خلق التكوين السيكولوجي الواحد. ولعلنا لا نبالغ في هذا الصدد إذا ما قلنا أن ما كانت ترمي إليه الحركة الصهيونية من عملية إعادة إحياء اللغة العبرية القديمة لم يكن قاصرا على خلق وسيلة تكفل التفاهم بين نطاق أكبر من اليهود، بل كان يرمي ولعل ذلك هو الأساس إلى تدعيم إحساس اليهود الإسرائيليين بوجود تاريخ مشترك يجمعهم ولو شئنا أن نبحث عن محك موضوعي لمدى نجاح اللغة العبرية المستحدثة في خلق ذلك الإحساس فليس أمامنا غلا أن نطرح السؤال على الوجه التالي: هل نجحت اللغة العبرية في خلق نوع من الاستمرار بين الأدب اليهودي القديم والأدب الصهيوني الحديث؟ أعني هل يشعر الإسرائيليون بأن لهم تاريخًا أدبيا ممتدا منذ الزمن القديم إلى الآن من خلال لغتهم العبرية؟ يكفي أن نشير بإيجاز إلى ما يقوله ملفورد سبيرو في كتابه أطفال الكيبوتز في معرض حديثه عن جيل السابرا في الكيبوتزات إذ يقول:"ينظر السابرا إلى كافة أشكال الأدب اليهودي تقريبا باعتبارها مثيرة للتقزز بدرجة تجعلهم لا

يقدمون على محاولة قراءته بل إن ذلـك يمتـد إلـى الأدب الصهيوني الحديث أيضا".

خلاصة القول إذن أن ثمة نجاح قد تم إحرازه في مجال إحياء اللغة العبرية ولكن ذلك النجاح في نشر اللغة لم يكـن هو الهدف في ذاته، بل أن أهم ما كانت تسـتهدفه الحركـة الصهيونية من عملية الإحياء هذه كما يتضح مما سبق يتمثل في هدين متوازيين:

الأول:

وهو محاولة تدعيم فكرة الامتداد التاريخي لليهود مـن خلال تمثلهم للأدب اليهود القديم المكتوب بالعبرية.

الثاني:

هو خلـق الأرضـية المناسـبة لمؤسسـات التنشـئة الاجتماعية التي أشرنا إليها لكي تمارس عملها ومحاولاتهـا في توحيد الكيان السيكولوجي الإسرائيلي ولقد ناقشنا بإيجاز ما لاقاه الهدف الأول من إخفاق. أما الهدف الثـاني فسـوف نتناوله من خلال تناولنا لدور المؤسسات التعليمية والعسكرية والدينية والأيديولوجية على التـوالي فـي عمليـة التنشـئة الاجتماعية.

المؤسسات التعليمية

إذا كان قيام الأسرة بدورها المأمول في عملية التنشـئة الاجتماعية في إسرائيل يعترضه ما اشرنا إليه مـن عقبـات ترجع أساسا إلى اختلاف أصول الأسر النازحة إلى إسرائيل، فإنه لمن المنطقي إذن أن تحاول الحركة الصهيونية تعويض ذلك القصور بتركيز قدر من اهتمامها على الدور الذي تلعبه المؤسسات التعليمية في التنشئة الاجتماعية باعتبار أن تلـك المؤسسات أقرب منالاً من حيث إمكانية توجيهها والإشراف عليها من الأسرة كما أنها يمكن أن تضم بين جنباتها خليطـًا من أطفال وشباب تلك الأسرة المتنافرة الأصول بحيث يمكن أن تصبح كبوتقة ينصهر فيها الجميع لينشـأ ذلـك التكـوين السيكولوجي الواحد المأمول. ولعل خير تعبير عـن أهميـة دور تلك المؤسسات في إسرائيل هو تلك العبارة أو بالأحرى ذلك الشعار الذي أورده العالم الفرنسي جوزيف كلاتزمـان مستشار معهد التنمية الصناعية والاجتماعية في فرنسا فـي كتابه الدروس المستفادة مـن التجربـة الإسـرائيلية حيـث يقول:"قد تعد الدبابات السنتوريون عامـل أمـن للمسـتقبل

القريب، ولكن بالنسبة للمستقبل الأبعد فإن المدرسة والجامعة تمثل عواملاً للأمن أكثر أهمية بكثير من ذلـك" (٨٦٥، ص ٢٥٩). ويقول العالم الفرنسي الجنسية اليهودي الديانة جورج فريدمان، مدير ومؤسس مركز دراسـة وسـائل الاتصـال الجماهيري التابع لجامعة السوربون والذي سبق له أن شغل منصب رئيس الرابطة الدولية للعلـوم الاجتماعيـة يقـول فريدمان في كتابه المعنون أهي نهاية الشعب اليهودي؟"مـن الواضح أن الحل الوحيد لمشكلات الجانب الآخر من إسرائيل (يعني الإسرائيليين الشرقيين) هو التعليم بأوسع مـا يعنيـه الاصطلاح، وبحيث يمتد إلى التأثير في الأسرة. ولسوء الحظ فإن المنجزات الإسرائيلية في مجال التعليم القومي رغم مـا تحظى به مشكلاتها حاليا من اهتمام بالغ واعتمـادات ماليـة تعد أقل بكثير من المنجزات الإسـرائيلية فـي الزراعـة أو الصناعة أو الأمن القومي (١٤، ص ١٦٨). ثم لا يلبـث أن يدعو إلى حملة في الصحف الإسرائيلية تحت شعار: ألـيس التعليم أمنا قوميا أيضا. (١٤، ص ١٧١).

وعلى أي حال فلا ينبغي لنا أن ننظر إلى المؤسسـات التعليمية في إسرائيل نظرة تفصـلها عـن واقـع المجتمـع

الإسرائيلي. فإذا كان ذلك المجتمع يعاني كمـا أسـلفنا مـن مشكلة تعدد الأصول القومية التـي تنتمـي إليهـا الأسـر الإسرائيلية وأنه إنما يلجأ إلى المؤسسات التعليمية للإسـهام بدور ما في تلافي ذلك النقص فإن ذلك يسمح لنا بأن نتنبـأ مقدما بأن تلك المؤسسات التعليمية لابد وأن يسري عليها ما يسري على إسرائيل ككل من تعدد للأصول القومية. وهـذا بالفعل هو ما يشير إليه جورج فريدمان في كتابه المـذكور أنفًا عندما يتحدث مدعما حديثه بإحصاءات عام ١٩٦١ عـن تفاوت المسـتوى التعليمـي بـين الإسـرائيليين الغـربيين والإسرائيليين الشرقيين فيذكر مثلاً أن نسبة أطفـال اليهـود الشرقيين الذين يلتحقون بأول سنوات المدرسة الابتدائية تبلغ ٥٥% تنخفض إلى ٤٠% في السنة الأخيرة مـن سـنوات الدراسة الابتدائية ثم إلى ٢٧% من بين الذين حصلوا علـى شهادة إتمام التعليم الابتدائي. والأمر كذلك بالنسـبة للتعلـيم الثانوي حيث يمثل الشرقيون ٢٥% من بين الـذين يبـدأون دراستهم الثانوية وتنخفض تلك النسبة إلى ١٣% من أولئـك الذين يكملون تلك الدراسة، ثم تصل إلـى ٥% مـن الـذين يبدأون المرحلة العليا من التعليم. والأمر كذلك بالنسبة للتعليم

العالي حيث لا يبلغ عدد الطلبة الشرقيين في الجامعة العبرية وجامعة بارايلان ومعهد وايزمان والمعهد التكنيكي في حيفـا أكثر من ٥٠٠ طالبا من عشرة آلاف طالب تضـمهم تلـك المؤسسات بل إن فريدمان لا يلبث أن يذكر أن الكثيرين من هؤلاء أيضا يقطعون دراستهم لأسباب اقتصادية وسيكولوجية حتى أن الشرقيين الحاصلين على درجة الدكتوراه لا يتجاوز عددهم ٣٥ فردا من بين ٩٨٢٤ حاصلاً على الدكتوراه فـي إسرائيل حتى عام ١٩٦١م أي أن نسبتهم لا تتجاوز ٢%.

ولابد لنا في البداية من نظرة عابرة إلى تاريخ النظـام التعليمي في إسرائيل لما تتميز به تلك النشأة من خصـائص أثرت ومازالت تؤثر على كفاءة الدور الذي يمكن أن تلعبـه المؤسسات التعليمية في مجال التنشئة الاجتماعية في إسرائيل وسوف نعتمد في تناولنا لتلك النقطة التاريخية علـى كتـاب دوروثي ويللتر أستاذه علم الأنثروبولوجيا في جامعة كانساس بالولايات المتحدة الأمريكية والمعنون بناء الأمة والجماعـة في إسرائيل (٣٠، ص ١٣٨ وما بعدها). لقد استمر التعلـيم في إسرائيل بعيدا عن التوحد حتى عام ١٩٥٣ بمعنـى أنـه كان خاضعا للتنظيمات الأساسية التي كانت تشـرف علـى

تهجير اليهود. وكانت تلك التنظيمات تنقسم إلى أربـع شـيع محددة. لكل منها نظامها المدرسي ومدرسـيها ومناهجهـا. وكان الانتماء إلى أي من تلك التنظيمـات أمـر اختيـاري أساسا. ومع نمو عملية الهجرة ازداد تنافس تلك الشيع فـي اجتذاب أطفال المهاجرين كل للنظام التعليمي التابع له. وقـد وصل ذلك التنافس إلى حد تقديم الهـدايا والمـنح للأطفـال ولآبائهم وتنبهت الحركة الصهيونية لخطـورة مثـل ذلـك الانقسام، وبدأت أولى خطواتها للحد منه بإصدار الحكومـة عام ١٩٥٠ قانونًا مؤداه ألا يطبق نظام الشيع المشـار إليـه على معسكرات المهاجرين وفي عام ١٩٥١ صدر برنـامج للتعليم الحكومي ووفقًا لذلك البرنامج أصبح الإشراف علـى التعليم مركزا في وجهة واحدة هي وزارة التعلـيم والثقافـة التي كانت قائمة بالفعل منذ عام ١٩٤٩. ورغم ذلك فقد ظلت هناك فئتان من المدارس والمدرسين والمفتشـين والمنـاهج تعرف باسم: التعليم الحكومي، والتعلـيم الـديني الحكـومي واستمر الحال كذلك إلى أن تم إقرار القـانون عـام ١٩٥٣ ومنذ ذلك التاريخ أصبح تسجيل التلاميذ يـتم وفقًـا لمحـال إقامتهم وليس وفقًا للشيعة التي ينتمون إليها. كمـا أنـه قـد

أصبح على الآباء الاختيار بين نوعي المدارس التي يـودون تسجيل التلاميذ يتم وفقًا لمحال إقامتهم وليس وفقًا للشيعة التي ينتمون إليها. كما أنه قد أصبح على الآبـاء الاختيـار بـين نوعي المدارس التي يودون تسجيل أبنائهم فيها، ولا يعنـي ذلك بحال انتهاء التأثيع السياسي على التعلـيم. فقـد ظلـت الحركات المسئول عن تنظيم الهجرة تسعى من أجـل دفـع مهاجريها إلى اختيار نوع معين من التعليم دون سواه حسب اتجاهات كل حركة.

تلك هي لمحة سريعة عن تاريخ المؤسسات التعليمية في إسرائيل ويتضح منهـا أن تلـك المؤسسـات قـد نشـأت وترعرعت في أحضان التنظيمات الصهيونية التي أشـرفت على تهجير اليهود والتي تعددت بحكم انتمائها الفكرية وأيضا بحكم مصادر الهجرة أعني البلدان التي كان يتم نزوح اليهود منها إلى إسرائيل./ ولسوف تسهم تلك الحقيقـة فـي إلقـاء الضوء على جانب كبير من المصاعب والعقبات التي حالت دون تحقيق المؤسسات التعليمية الإسرائيلية للهدف المرجـو منها. فلسنا بحاجة إلى القول بأن طبيعة عملية تهجير اليهود إلى إسرائيل لم تكن بالعملية العفوية، بمعنى أنها لـم تعتمـد

أساسا على قرار يتخذه فرد يهودي بمغادرة الوطن الذي نشأ فيه فيحمل حقيبته ويشد رحاله إلى إسرائيل. لقد كانت عملية الهجرة إلى إسرائيل عملية مخططة بمعنى أنه قد وجدت التنظيمات التي تتولى ترتيب عمليات الهجرة الجماعية إلى إسرائيل وتمولها وتشرف عليها. ونستطيع دون خوض في تفصيلات تلك العملية أن نتبين طبيعة ذلك الرباط الوثيق الذي يربط المهاجر اليهودي بالمؤسسة التي نظمت هجرته. تلك المؤسسة التي أسلمها نفسه بمجرد عزمه على الهجرة تاركًا لهم تنظيم كافة أموره التفصيلية حيث تتولى تلك المؤسسة المساهمة في إنهاء ارتباطاته بموطنه الأصلي، وإعداد وسيلة نقله إلى إسرائيل. ثم الإشراف على الحاقة بمعسكر للمهجرين وهكذا إلى أن يستقر به المقام هناك. مثل تلك العلاقة بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والوجدانية ليست بالأمر الذي يمكن فهمه بسهولة وبالتالي فلم يكن يسيرا أمر استبعاد تأثيرها على المؤسسات التعليمية.

وعلى أي حال فليس يعنينا في هذا المقام الدور التثقيفي أو الفني لوحدات المؤسسات التعليمية بمعنى أنه لا يعنينا بشكل مباشر تدرج الهرم التعليمي في إسرائيل ولا

الاعتمادات المالية لنظام التعليم هناك ولا كذلك مناهج التعليم الفنية المتخصصة. أن ما يعنينا هو دور تلـك المؤسسـات التعليمية في عملية التنشئة الاجتماعية التي تجـري هنـاك. وخير محك لتبين مدى ما بلغه ذلك الدور هو أن نطل قدر ما نستطيع على ما أنجزته تلك المؤسسات بالفعـل فـي خلـق التكوين السيكولوجي الموحد لأبنائها أعني لطلاب العلم فـي إسرائيل، ولنتجاوز هنا مؤقتًا عن التفاوت الواضـح الـذي أشرنا إليه بين الإسرائيليين الشرقيين والإسرائيليين الغربيين في المستوى التعليمي، ولنتساءل عن طبيعة ذلـك التكـوين السيكولوجي الذي أسهمت تلك المؤسسات التعليمية في خلقه لدى الإسرائيليين الغربيين الذين يمثلون النسبة الكبرى بـين طلاب العلم في إسرائيل، لعل ذلك يوضـح لنـا الأهـداف المرجو تحقيقها من عملية التنشئة الاجتماعية فـي إسـرائيل ككل وبصرف النظر عن شمولها أو عدم شمولها للمجتمـع الإسرائيلي بكامله. وسوف نستمد بياناتنا في هذا الصدد مـن واقع دراسة قام بها العالم الأمريكي ج. تامـارين ونشـرتها الصحافة الإسرائيلية عام ١٩٦٦ وعرضها نقلاً عـن تلـك

الجرائد العالم السوفيتي يوري إيفانوف في كتابه الصـهيونية حذار (٦٠، ص ٤٢ إلى ص ٤٤).

تتلخص تلك الدراسة في أن العالم الأمريكي قـد قـام بتوزيع ١٠٦٦ بطاقة استطلاع رأي ذات مضـمون موحـد على ٥٠٣ فتاة، ٥٦٣ فتى من تلاميذ مختلف فصـول عـدة مدارس إسرائيلية وتتضمن البطاقة عرضا لإحدى قصـص التوراة التي تم اختيارها لأهميتها فـي البرنـامج الدراسـي الإسرائيلي حيث أنها تدرس للتلاميذ من الصف الرابع حتـى الثامن والتي تدور حول دخول عيسوي نافين بجيشه مدينـة أريجون وقضاءه على ما فيها من كائن يتـنفس ثـم تطلـب البطاقة من التلميذ أن يجيب على سؤالين، يدور الأول حول مدى خطأ أو صواب تصرف عيسوي نافين، ويدور الثـاني حول مدى جواز أن يفعل الإسرائيليون بسكان قرية عربيـة نفس ما فعله عيسوي نافين ويكفي أن نشير إلـى عبـارتين بالغتى الدلالة في إجابات التلاميـذ علـى السـؤالين وردت العبارة الأولى في إجابة تلميذ من مدينـة شـارون ويقـول فيها"ليس من المرغوب فيه أن توجد عناصـر أجنبيـة فـي إسرائيل، فقد يكون لوجود سكان يدينون بأديان أخرى أثـر

ضار على الإسرائيليين"، أما العبارة الثانية فقـد وردت فـي إجابة تلميذ في الصف الثامن نصها" في رأيي أنه يتحتم على جيشنا أن يفعل بأهالي القرية العربية ما فعله عيسوي نـافين بأهالي أريحون فالعرب هم أعداؤنا وحتى في الأسر لابد أنهم سيحاولون انتهاز الفرصة للفتك بحراسـهم" ولـيس هـذين النموذجين بالنماذج الشاذة التي لا تمثل الاتجاه العام لإجابات التلاميذ الإسرائيليين فلقد ذكر تامـارين أن نسـبة الأجوبـة المتشابهة قد تراوحت بين ٦٦% و ٩٥% مع تغيير المدرسة أو المدينة أو المستعمرة ويعلق إيفانوف على ذلك قائلاً"تلـك هي بعض الثمار الملموسة لسياسة التعليم الصهيوني. وهـذه الثمار لم تنضج مـن تلقـاء نفسـها، وإنمـا هـي شـجرة الأيديولوجية الصهيونية التي ضربت جذورها إلـى أعمـاق كبيرة" (٦٠، ص ٤٤).

واضح من تلك الدراسـة أن ثمـة بعـدين رئيسـيين واضحين وضوحا بينا في إجابات التلاميذ الإسرائيليين البعد الأول: هو الإحساس بتعرض اليهود للخطر بحيث يمكـن أن يعد مجرد وجود مجموعة من العرب الأسرى خطرا علـى آسريهم من اليهود، أما البعد الثاني: فهـو ذلـك الإحسـاس

الغلاب بتمايز اليهود عن غيرهم حتى أن من يعتنقون أدياناً أخرى يكونون بمثابة العناصر الأجنبية الضارة في إسرائيل ونستطيع إذن أن نستخلص ببساطة أن المؤسسات التعليمية في إسرائيل مستغلة لنصوص من التوراة إنما تسعى إلى هدفين:

الأول:

تدعيم الانتماء التاريخي ليهود إسرائيل إلى التاريخ اليهودي القديم.

الثاني:

تدعيم عنصرين رئيسيين في التكوين السيكولوجي الإسرائيلي المعاصر. وهما عنصر التمايز وعنصر الشعور بالاضطهاد.

المؤسسات العسكرية

قد تكون مهمة يسيرة أن يحدد الباحث حدود المؤسسات العسكرية في أي مجتمع، ولكن تلك المهمة تكاد أن تصبح ضربا من المحال إذا ما كان ذلك المجتمع هو إسرائيل. فما يحدث عادة هو أن تنشأ الأمة ثم تقوم الدولة وتتحدد أبعادها السياسية والأيديولوجية والطبيعية وتتحدد بالتالي بالتنظيمات السياسية المناسبة لها، وأخيرا تتشكل المؤسسات العسكرية وفقًا ونتيجة لكل تلك المقتضيات ولكن الأمر بالنسبة لإسرائيل يبدو وكأنه قد سار على عكس ذلك المسار تماما. صحيح أن أوروبا قد شهدت قيام التنظيمات السياسية الصهيونية ونشاطها من زمن بعيد إلا أن المؤسسات العسكرية كانت هي أول ما شهدته أرض فلسطين من الحركة الصهيونية ثم تلتها التنظيمات السياسية الإسرائيلية، ومن خلال تلك التنظيمات السياسية نشأت الدولة الإسرائيلية وما زالت، ولذلك فإنه إذا ما استرسل حديثنا عن المؤسسات العسكرية الإسرائيلية، فإنه لن يدع مجالاً لحديث منفصل عن التنظيمات السياسية أو الدولة في إسرائيل أو ما شابه ذلك.

فالمؤسسات العسكرية الإسرائيلية هي بداية النشاط الصهيوني على أرض فلسطين ومنتهاه أيضا. ولكننا سنحاول قدر مـا نستطيع أن نركز حديثنا على جانب إسهام تلك المؤسسات في عملية التنشئة الاجتماعية في إسرائيل.

ناقشنا فيما سبق دور المؤسسات التعليمية الإسـرائيلية في عملية التنشئة الاجتماعية في إسرائيل وذكرنا أن الاهتمام الشديد بدور تلك المؤسسات في هذا المجال قد يكون محاولة لتلافي القصور الذي تفرضه طبيعة تبـاين أصـول الأسـر الإسرائيلية على إنجاز دور الأسـرة فـي عمليـة التنشـئة الاجتماعية بالمستوى المطلوب وإذا كان لنا أن نتجاوز عـن الأثر الذي تركه انقسام المجتمع الإسرائيلي إلى يهود شرقيين ويهود غربيين فإن قيام المدرسة بدورها كبديل عن الأسـرة سوف يلقى بلا شك عقبة هائلة أخرى تتمثل في أن التلميذ في المدرسة الابتدائية خاصة يكون أقرب إلى التـأثر بأسـرته وغلى ما غرسته فيه من قيم وعادات وتقاليد مما قد يحـول دون تشربه بما تهدف المدرسة إلى غرسه فيه من تلك القـيم والعادات والتقاليد، وقد تكون تلك هي الأرضية الفكرية التي دفعت إسرائيل إلى بذل أقصى قدر من الاهتمام بالدور الذي

يمكن أن تلعبه المؤسسات العسـكرية فـي مجـال التنشـئة الاجتماع. فما يبدو للوهلـة الأولـى هـو أن المؤسسـات العسكرية تستطيع بحكم طبيعتها أن تتلافـى عقبتـين كانتـا تعوقان سبيل قيام المؤسسات التعليمية بدورها فـي مجـال التنشئة الاجتماعية وتتمثل العقبة الأولى التي كان يبدو أن في استطاعة المؤسسات العسكرية تخطيها في حقيقة أن التلاميذ وهم مجال التأثير الحقيقـي للمؤسسـات التعليميـة يبـدأون علاقتهم بتلك المؤسسات وهم مازالوا أقرب إلى تأثير الأسرة مما قد يسبب شيئًا من الصعوبة في بلوغ تأثير المؤسسـات التعليمية عليهم غايته. وتتمثل العقبة الثانية في أنه إذا كـان تأثير المؤسسات التعليمية يأخذ في التمركز تـدريجيا حـول قطاع واحد من الإسرائيليين هم الإسرائيليين الغربيين فـإن مثل ذلك الاتجاه قد يمكن تلافيه فيمـا يتعلـق بالمؤسسـات العسكرية.

لقد نشأت أولى التنظيمات المسلحة الإسـرائيلية علـى أرض فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر فـي صـورة منظمة الهاشومير وتعني الحرس اليهـودي والتـي وضـع بذرتها الصهاينة من الحالوتس الذين أقاموا مسـتعمرة بتـاح

تكفه في بداية حركات النزوح إلى إسرائيل واتخـذت تلـك المنظمة شكلها المحدد حوالي عام ١٩٠٧ واستمرت كـذلك إلى أن تحولت على أثر وعد بلفور عام ١٩١٧ إلى المنظمة المعروفة باسم منظمة الهاجاناه أي الدفاع – التي حصلت من بريطانيا عام ١٩٣٦ على اعتراف فعلى بها كمنظمة للـدفاع عن المستعمرات. ولقد برزت من الهاجاناه خلال عام ١٩٤٣ وبترتيب من القيادة البريطانية منظمة البالماخ – أي الفصائل المهاجمة – التي كان على رأسها إيجال الون. وإلى جانـب الهاجاناه فقد تأسست عام ١٩٣٧ منظمة الأرجـون زفـاي ليومي ومعناها المنظمة العسكرية لشعب إسرائيل وهي تعبير عن انشقاق قام به بعض الصهاينة المتطرفين وعلى رأسـهم جابوتنسكي على سياسة الدكتور حاييم وايزمان الـذي كـان ينادي باتباع أساليب أقل تطرفًا. وقد بـدأ عمـل الأرجـون بتنظيم عمليات واسعة لتهجير اليهود من أوروبا إلى فلسطين ثم لم تلبث أن اتخذت طابعها العسكري بعد ذلك. وقد شـهد عام ١٩٤٠ تأسيس منظمة عسكرية أخـرى هـي منظمـة شتيرن التي أسسها إبراهام شتيرن إثر انشقاقه على منظمـة الأرجون لرفضه قرارها بضرورة عقد اتفاق ودي وهدنة مع

بريطانيا ما دامت الحرب قائمة ضد ألمانيا النازية. واسـتمر الحال كذلك إلى أن أعلن بن جوريون عام ١٩٤٨ حل كافـة تلك المنظمات وإدماجها في جيش نظامي واحد.

تلك نظرة سريعة إلى تـاريخ المؤسسـات العسـكرية الإسرائيلية (٧٣، ص ٦٥ إلى ص ٨٣) قصـدنا منهـا أن نوضح أن تلك المؤسسات كانت بمثابة الوجه الآخر للحركة الصهيونية السياسية ولذلك فليس غريبا أن يرتبط كل من تلك الأحزاب السياسية بواحدة من تلـك المؤسسـات العسـكرية تاريخيا وسياسيا بل وأيديولوجيا أيضا، فيرتبط حزب حيروت بمنظمة الأرجون زفاي ليومي، ويرتبط حزب المابام بمنظمة البالماخ، كما يرتبط بمنظمة الهاجاناه، حزب الماباي.

ذلك عن التاريخ حتى ما قبل ١٩٤٨ فماذا عمـا بعـد ذلك؟ يقول جورج فريدمان في كتابه الذي سـبق أن أشـرنا غليه والذي كان نتاجا لزيارتين قام بهما إلى إسرائيل في عام ١٩٦٣، ١٩٦٤ على التوالي، لقد تم بالفعل تسخير مؤسسات البلاد من أجل تشكيل الشباب وتعريفهم بمشـاكل الـوطن، وصراعاته وما يتعرض له من مخاطر، وتنشئتهم كمواطنين لإسرائيل. ومن أكثر تلك المؤسسات أهمية الناحال (الشـباب

الطليعي المقاتل) وهي من الناحية النظرية فرع مـن قـوات الدفاع – أي الجيش – ويتم التجنيد لها عن طريق التطـوع الاختياري شأنها شأن القوات الجوية والبحرية. ولكـن مـن الناحية العملية فإن حركات الشباب في المدارس الثانوية وفي مواقع العمل تقوم بخلق النواه التي يتجمعغ حولها الجـارينيم (شبان تحت العشرين يعدون لحياة الكيبوتز). وعند وصـول شباب الناحال إلى سن الإلزام فإنهم يقضون عدة اسابيع فـي التعاونيات الزراعية ويألفون حياة الكيبوتز. ويعـد تـدريبهم العسكري فيما بين الرابعة عشر والثامنة عشر بمثابة تلمـذة مهنية في الزراعة وفي حياة الحالوتس، ويتولى مسئولية ذلك وزارتي الدفاع والتعليم معا.........."إن دور الجيش ككـل في التدريب المدني لا يقل أهمية عن دوره العسكري". (١٤، من ص ٢٦ إلى ص ٢٨). ويمضي فريدمان فـي موضـع آخر موضحا أن المهمـة الشـاقة التـي تواجـه المجتمـع الإسرائيلي – وهي مهمة الدمج بين الأشكنازيم والسفارديم – إنما تقع أساسا على عاتق مجالين هما الجيش ونشـر اللغـة العبرية. (١٤، ص ٣١). ويقول كمال غالي في كتابه النظام السياسي الإسرائيلي" يعتبر الجيش.... البوتقة التـي تـدمغ

الشباب بطابع عميق دائم، لذلك لم يقتصر الجيش على العمل العسكري وحده. بل نهض بمهمة اجتماعيـة واقتصـادية إذ وجد نفسه مسئولاً منذ اليوم الأول عـن كافـة المهـاجرين الجدد، داخل الجيش وخارجه، فهو يعمل على صـهر كافـة هذه العناصر المتفرقة المتباينة بإعطائها لغة واحدة، ومثـل أعلى واحد وتدريب عسكري وزراعي لإعمار المستعمرات الزراعية" (٦٩، ص ١٤٠).

ولو نظرنا نظرة فاحصة إلى برامج التـدريب الثقـافي للجيش الإسرائيلي بوصفها معبرة بشـكل مـا عـن اتجـاه المؤسسات العسكرية في عملية التنشئة الاجتماعية لوجدنا أن أبسط برامج التدريب الثقافية للجنود تتضمن المواد التالية:

١- تعليم اللغة العبرية حتى الإتقان.

٢- التوراه.

٣- التاريخ الإسرائيلي القديم.

٤- التاريخ الإسرائيلي الحديث.

٥- التاريخ العام.

٦- جغرافية إسرائيل.

٧- الجغرافية العامة.

٨- الحساب. (٧٣، ص ١٦١).

أي أن جوهر ما تقوم المؤسسـات العسـكرية بتلقينـه للجنود فيما يتصل بعملية التنشئة الاجتماعية أو خلق تكـوين سيكولوجي موحد بينهم هو تنمية الشعور بأن ثمة تاريخ قديم يربط بين يهود التوراه ويهود إسرائيل. ولو شئنا مزيدا مـن التعرف على مضمون ذلك الذي تقدمه المؤسسات العسكرية لجنودها فيما يتصل بالتاريخ مثلاً لوجدنا ما يؤكد استنتاجنا.

فكتاب التاريخ العبري الذي يدرس للجنود الإسرائيليين يتضمن"سردا كاملاً ومكثفًا لآلاف السنين الغابرات، وبخاصة حكاية الأعوام الأربعين التي تاه خلالهـا العبرانيـون فـي الصحراء وخراب الهيكل، والقمم الذي ارتفعت إليها رسـالة العبرانيين عبر التاريخ إلى ما فوق مستوى جميع الحضارات الماضية والحاضرة" (٧٣ ، ص ١٣).

أما فيما يتصل بالتوراه فإن انتقاء فصول معينـة منهـا يكشف عن طابع عام يجمع بين تلك الفصول جميعـا وهـو عنف الإسرائيليين البالغ في مواجهتهم لأعدائهم الـذين لـم يكفوا عن العدوان عليهم طوال ذلك التاريخ القـديم. (٧٣ ، ص ١٤ – ص ١٥). أي أننا مرة أخرى في مواجهة نفـس

العنصرين اللذين بدأنا بهما بحثنا واللذان وجدناهما في صميم التكوين السيكولوجي لسكان الجيتو والمتمردين عليه، أعنـي الحالوتس، ووجدناهما في صميم الأهداف التي تسعى إليهـا المؤسسات التعليمية في إسرائيل أيضـا، أعنـي عنصـري الشعور بالتمايز والشعور بالاضطهاد.

المؤسسات الدينية

تعد مشكلة الاندماج من أهـم المشـاكل التـي تواجـه إسرائيل منذ نشأتها حتى الآن. فلم تكف الحركة الصـهيونية لحظة واحدة عن السعي لإيجاد الرابطة التي يمكن أن تـربط بين قادم من جوهانسبرج في أقصى جنوب القارة الأفريقيـة وقادم من استُكْهلم في أقصى شمال القارة الأوروبية. بين من أمضى طفولته في الجوديريا حي اليهود في الـيمن. كيـف يمكن أن يخرج من كل الخليط تكوين سيكولوجي موحد؟ تلك هي المشكلة ولقد سبق أن أشرنا إلى أن اللغة تعـد بمثابـة الشرط الأول الحاسم في هذا الصدد. وأشرنا كذلك في إيجاز إلى دور المؤسسات التعليمية والعسكرية في إسـرائيل فيمـا يتعلق بتلك العملية. وإحياء اللغة العبرية يحتاج إلى تخطـيط للبرامج وإعداد للمناهج وتصنيف للمتلقين وفقًا لمسـتوياتهم الثقافية. وتمويل لذلك كله. وكذلك الحال بالنسبة للمؤسسـات التعليمية والمؤسسات العسكرية. ولقد يبدو للـبعض تسـاؤل ظاهره الاستفسار وباطنه الاستنكار، ولم كل ذلك الجهد لخلق رباط يربط بين هؤلاء القادمين جميعا؟ هـل أغفلنـا الـدين

اليهودي؟ أليس هو جوهر الدولة الإسـرائيلية؟ ألـيس كـل الصهاينة يهودا؟ يبدو أنه والأمر كذلك لـن يتطلـب حـل المشكلة تخطيطًا لبرامج ولا أعدادا لمناهج ولا تمويلاً لكـل ذلك، بل يبدو وأنه لن تكون ثمة مشكلة علـى الإطـلاق"أن اليهود وحدة لا تنفصم عراها، كل يهودي في أي بلد من بلاد العالم يعتقد أن وطنه هو الصـهيونية ومركزهـا فلسـطين. ومهما تعددت الجنسيات الرسمية بين اليهود، وظن الناس أن هذا إنجليزي وذاك أمريكي والآخر فرنسي، أو روسي فإنهم جميعا مواطنون صهيونيون" (٧٠، ص ١٨٤).

إلى هذا الحد وصل الأمر بالبعض في تبسيط المشـكلة التي مازالت إسرائيل تسعى دون كلل ودون جدوى في حلها. الحل في الدين اليهودي كما يرى هؤلاء وإسـرائيل ليسـت سوى مجموعة دينية عنصرية متعصبة" (٧٠ ص ١٨٧) وما كان الأمر ليكاف الصهاينة شيئًا، فالمعبد اليهـودي عرفـه اليهود في كل زمان ومكان، وما أيسر دعوتهم إلى الالتفاف من حوله.

والحقيقة أن الصهيونية لم تغفل شيئًا من ذلك قط ومـا قصرت لحظة في السعي إلى تحقيقه، ولكن الأمر لـم يكـن

بالسهولة التي يتصورها البعض بل أن صـعوبته وتعقيداتـه تزداد كل يوم. ليس هناك من يجهل حقيقة أن الصهيونية قـد دعت"اليهود" إلى التجمع في فلسطين ومازالت دعوتها لهـم قائمة من الناحية الرسمية على الأقل متمثلة في قانون العودة. ودعوة الصهيونية إنما تعني بلا جدال دعوتها لمن يعتنقـون الديانة اليهودية. وليس هناك من يجهل أيضا إلـى أي حـد مضت الصهيونية في تطعـيم دعايتهـا ليهـود الديسـابورا بمقتطفات من التوراه بل ليس هناك من يجهل ما تحفل بـه تصريحات المسـئولين الإسـرائيليين مـن الاستشـهادات والاقتباسات من التوراه. ولقد أشرنا بالفعـل إلـى اعتمـاد المؤسسات التعليمية والمؤسسات العسـكرية علـى الـدين اليهودي كدعامة تكفل الرباط الوثيق بين الإسرائيليين بل بين بين اليهود في أنحاء العالم قاطبه. بل أنه ليبدو لأول وهلة أنه يمكن بالفعل ومن خلال التركيز على الدين اليهودي التغلـب تماما على مشكلة تباين أصول الأسر الإسرائيلية فالدين يدخل كل منزل – أو بالأحرى فالمفروض إنه كذلك، وبالتالي فإنه يمكن أن يكون بمثابة العمود الفقري للمجتمـع الإسـرائيلي خاصة وأن هناك من الدراسات ما يشير إلى أن ثمة ارتبـاط

وثيق بين تماسك الأسرة وممارستها للطقوس الدينيـة فـي المجتمع الإسرائيلي (٣٩).... ترى هل تمكنت الصـهيونية من تحقيق ذلك فعلاً؟

صحيح أن هناك مزجا أو بالأحرى إتحادا وثيقًـا بـين الدين والحياة في إسرائيل (٦٣، ص ٣٢) ولكن إلى أي حـد أفلح ذلك المزج في بلوغ غايته؟ وإذا لم يكن قد أفلح تمامـا فما سر ذلك القصور؟ ولنبدأ أولاً بالإجابة على السؤال الأول ولحسن الحظ فلن نبحث طويلاً عن مظاهر نجاح أو إخفـاق الاعتماد على الدين اليهودي في جمع شـتات الإسـرائيليين، فلدينا دراسة حديثة نسبيا تدور حول الاتجاهات نحو الـدين في إسرائيل قام بها عام ١٩٦٣ الباحـث الإسـرائيلي آرون أنتنوفسكي وهو واحد من الفريق الذي يرأسه عالم الاجتماع عالم الاجتماع الشهير لويس جاتمان في المعهد الإسـرائيلي للبحوث الاجتماعية التطبيقية (١٤، ص ١٨٠ إلى ص ١٨٣) وقد أجرى البحث على عينه ممثلة تضم ١١٧٠ فـردا مـن الإسرائيليين الراشدين من خارج الكيبوتزات بالإضافة إلـى عينة خاصة تضم ٣٠٠ إسرائيليا راشدا من أبناء الكيبوتزات وقد استخدم الباحث في بحثه استمارة أسئلة تطبق في مقابلـة

شخصية تجري مع المفحوص وكان السؤال الأول هو" هل تلتزم بالتعاليم الدينية؟ وكان على المفحوص أن يختار واحدة من الإجابات الأربع التالية:-

أ- أني التزم بدقة بكل ما تنص عليه تلك التعاليم.

ب- أني التزم بغالبية التعاليم الدينية.

ت- أني التزم بتلك التعاليم إلى حد ما.

ث- أني لست ملتزما على الإطلاق حيث أنني لست متدينًا.

وكان السؤال الثاني هو: هل ترى أنه يجب على الحكومة أن تراعي المحافظة على اتفاق الحياة العامة مع تعاليم الدين اليهودي؟ وكان على المفحوص أيضا أن يختار واحدة من أربع إجابات هي:-

أ- نعم بالتأكيد.

ب- جائز.

ت- لا أظن.

ث- بالتأكيد.

وقد أجاب ١٥% من أفراد العينة على السؤال الأول بأنهم يلتزمون بدقة بكل ما تنص عليه التعاليم الدينية. وأجاب

١٥% أيضا على نفس السؤال بأنهم يلتزمون بغالبية التعاليم الدينية في حين أجاب ٤٠% بأنهم يلتزمون بتلك التعاليم إلى حد ما، وأجاب ٢٤% بأنهم لا يلتزمون مطلقًا بتلك التعـاليم وأجاب ١٤% منهم بأنهم يلتزمون بتلك التعاليم إلى حد مـا. في حين لم يجيب سوى ١٠% بأنهم يلتزمون بدقة بكل مـا تنص عليه تلك التعاليم وهؤلاء الذين تمثلهم تلك النسبة ليسوا سوى ٣٠ فردا، ممن ينتمون إلى إحدى الكيبوتزات الدينيـة. أما السؤال الثاني فقد أجاب عنه ٢٣% من أفراد العينة بنعم بالتأكيد، و٢٠% منهم بجائز و١٦% منهم بلا أظـن، ٣٧% منهم بالتأكيد.

وقد قام أنتنوفسكي بتحليل إحصائي لنتائجه قام فيه بدمج نتائج الإجابة على السؤالين واستخلص من ذلـك أن نسـبة الذين يتخذون موقفًا لا دينيا بشكل متسق تبلـغ ٤٩% بينمـا تبلغ نسبة من يتخذون موقفًا دينيا متسقًا ٢٢%.

ولا نظن أننا في حاجة إلى تعليق تفصـيلي فالأرقـام تتحدث عن نفسها كما يقولون ٤٩% مـن أبنـاء إسـرائيل يتخذون موقفًا متسقًا معارضا للدين بمعنى أنهم يتخذون موقفًا متسقًا معارضا للدين بمعنى أنهم يتخذون ذلك الموقف فيمـا

يتعلق بسلوكهم الشخصي أي بعدم التزامهم بتعـاليم الديانـة اليهودية ويتخذونه أيضا وفي نفس الوقت فيما يتعلق بالصلة بين الدين والدولة برفضهم تنظيم الحياة العامة في إسـرائيل وفقًا لما تقضي به الديانة اليهودية. ترى ما دلالة ذلك؟ أيـن إذن ذلك المجتمع الـديني القـائم فـي إسـرائيل؟ الحركـة الصهيونية لم تأل جهدا طيلة ما يزيد عن النصف قرن فـي سعيها لإضفاء الطابع الديني على إسرائيل ومازالت دعايتها حتى اليوم تقوم على الدعوة إلى"العودة إلى أرض الميعـاد" والمؤسسات التعليمية في إسرائيل تفـرض علـى التلاميـذ دراسة الدين اليهودي منذ الصغر ولعل دراسة تامارين (٦٠، من ص ٤٢ إلى ص ٤٤) التي سبق أن أشرنا إليها تعكـس قدرا من النجاح حققته تلك المؤسسات بالنسبة للأطفال فـي قطاع معين من المجتمع الإسرائيلي، ماذا دهـى الراشـدين إذن؟ والمؤسسات العسكرية تفرض للتدريس في كافة وحدات الجيش وكافة المستويات فصولاً منتقاه من التوراه لتدريسـها مطبوعة في كتاب كتب عليه"هذه هي التوراه، أمام نظـرك، كتاب الكتب لشعب إسرائيل أقرأه وأفهمـه" (٧٣ ص ١٩). كل تلك الجهود وفي مجتمع غالبيته من"اليهود" وعلى رأسـه

حكومة يهودية ومع كل ذلك أو بالأحرى بالرغم من كل ذلك فإن ٤٩% من أبناء ذلك المجتمع يتخـذون موقفـًا لا دينيـا متسقًا. ألا يعني ذلك أن الدين اليهودي ليس هو بحال جوهر المجتمع الإسرائيلي الصهيوني؟ أيمكن أن يكون هذا الدين هو جوهر المجتمع ونجد من بين أبنائه الخاص أعني من جيـل السابرا من يقول"أنني أكرههم هؤلاء اليهود المتدينون، وحين أراهم أستطيع أن أفهم لماذا يصبح الناس معا دون للسامية؟" (٢٧ ص ٣٨٨) أيمكن أن يكون هذا الدين هو جوهر ذلـك المجتمع ونجد بين أبنائه الخاص من يـرددون فـي فخـر واعتزازهم بأن أطفالهم لا يبدو على مظهرهم أنهـم يهـود؟ (٢٧ ص ٣٨٨).؟ أن جورج فريـدمان اليهـودي الديانـة الفرنسي الجنسية في كتابه الذي أشرنا غليه والمعنون أهـي نهاية الشعب اليهودي؟ لم يستطع رغم تعاطفه الواضح مـع التجربة الإسرائيلية، لم يستطع إلا أن يقرر"أن وحدة الشـعب اليهودي ليست سوى مفهوم براجماتي" (١٤، ص ٢٣٨) ثـم لا يلبث أن يقرر في وضوح"أن هناك... استحالة واضحة في تعريف الشعب اليهودي من خلال الدين" (١٤ – ص ٢٤٢).

ترى لماذا رغم كل تلك المحاولات، ورغم كـل تلـك الظروف التي تبـدو ظروفًـا مواتيـة تعثـرت محـاولات الصهيونية استخدام الديانة اليهودية كمحور يتجمـع حولـه الإسرائيليون وتتشكل من خلاله وحدة تكوينهم السيكولوجي؟ لذلك التعثر – فيما نرى – أسباب عديدة نوجز أهمهـا فيمـا يلي: -

أولاً:

لقد نشأت حركة الحالوتس في البدايـة كمـا سـبق أن أوضحنا احتجاجا على الحياة في الدياسبورا، وبالتحديد على الحياة في الجيتو. ولما كان التمسك بالدين اليهودي وبتقاليـده يعد سمة رئيسية من سمات حياة الجيتو فـإن تمـرد جيـل الحالوتس وهو الجيل الذي ترك بصماته واضحة على الحياة في إسرائيل حتى اليوم كان لابد وأن يمتد إلى طقوس ذلـك الدين الذي تمسك ب÷ آبائهم الذين تمردوا علـيهم (٤، ٢٤، ٢٥، ٢٧).

ثانيا:

لقد كان التمسك الشديد بطقوس الدين فـي الديسـابورا تعبيرا عن الشعور بالتمايز والاختلاف عن الآخـرين مـن

مواطني الأوطان الأصلية أما بعد أن أصبح الدين اليهـودي هو الدين الرسمي فضلاً عن أنه دين"الأغلبية" في إسـرائيل فإن التمسك الشديد بطقوس ذلك الدين لم يعد يـؤدي نفـس الوظيفة أعني إبراز تمايز اليهود واختلافهم عن غيرهم داخل إسرائيل، بل أن ذلك التمايز قد أصبحت له صورة الأخـرى الأكثر كفاءة في التعبير عنه.

ثالثًا:

أن ثمة تعارض حقيقي بين تعـاليم وطقـوس الديانـة اليهودية بالغة القدم، وبين ظروف الحياة الفعلية التي تعيشها إسرائيل، ويكفي للتدليل على ذلك أنه على رأس حكومـة[٣] تلك الدولة التي يرى دينها الرسمي أنـه علـى الرجـال أن يشكروا الله كل صباح لأنه لم يخلقهـم نسـاء، علـى رأس حكومة تلك الدولة امرأة.

رابعا:

---

٣ نشرت جريدة الأهرام في عددها الصادر في ١٢/٥/ ١٩٧٠ نقلاً عن رويتر مـا مؤداه أن المجلس الديني لأحد الأحياء الإسرائيلية بالقدس قضى بمقاطعة رجل مـن سكان الحي بسبب ارتكابه "خطيئته امتلاك تليفزيون" وذلك حتى يتوب عن خطيئة ، ويزيل الجهاز النجس والمثير للاشمئزاز من منزله والخبر غنى عن أي تعليق.

إن العلاقة الوثيقة التي تربط إسرائيل بالغرب عموما وبالولايات المتحدة على وجه الخصوص فضلاً عن تركيز جانب كبير من الدعاية الإسرائيلية على صورة إسرائيل الدولة الحديثة المتحضرة بل التي تعد امتدادا للحضارة الأوروبية كل ذلك يتعارض مع القول بضرورة التزام الدولة بتعاليم الدين اليهودي، ويفصح ذلك التعارض عن نفسه أمام رجل الشارع الإسرائيلي بل أمام اليهود الوافدين من الخارج حتى بغرض الزيارة (١٤ ، ص ٣٢٨).

خامسا: تضع إسرائيل ضمن مخططاتها الرسمية والفعلية إستدماج الأقليات الدينية الأخرى الموجودة في إسرائيل وتمثل عملية الاستدماج هذه تناقضا خطيرا بين ما يفرضه الأخذ بتعاليم الديانة اليهودية من تمسك، وما تفرضه عملية الاستدماج من تساهل نسبي (١٧).

سادسا: إن انقسام اليهود إلى إشكنازيم وسفارديم ليس بالانقسام السطحي ولا حتى بالانقسام الذي يقف عند حدود الاختلاف الحضاري والثقافي فحسب بل يتعداه بالفعل إلى انقسام في النظرة إلى الدين اليهودي نفسه، وفهم ذلك الدين. ولعل التعبير الرسمي عن ذلك الانقسام يتضح في وجود

منصبين لكبار الحاخامات أحدهما لكبير حاخامـات اليهـود الاشنازيم والثاني لكبيـر حاخامـات السـفارديم (١٤، ص ١٧٣).

سابعا: لقد ارتبطت المعابد الدينية في إسرائيل إرتباطًا وثيقًـا بالأحزاب السياسية فيها، وكان لابد أن ينعكس عليها ما بـين تلك الأحزاب من تنافس وتعارض جزئي ممـا أدى برجـل الشارع الإسرائيلي إلى فقدان إحترامه الروحي لها، بـل أن فريدمان يقرر أنه هناك عبارة كثيرة ما كان يسمعها تتـردد بين الجامعيين ورجـال الأعمـال والمـوظفين الحكـوميين والعمال، وهي عبارة"إن الدين في بلادنا ليس سـوى سياسـة" (١٤، ص ١٨٦).

تلك فيما نرى هي أهم الأسباب الموضوعية التي حالت وتحول دون أن يكون"الدين اليهودي" في حد ذاته هو محور التكوين السيكولوجي للإسرائيليين المعاصرين بصرف النظر عن اتفاق ذلك الدين أو اختلافه مع طبيعة ذلك التكوين.

خلاصة القول أن المؤسسات الدينية في إسرائيل تحاول بالفعل – رغم تعثرها – الإسهام في مجال التنشئة الاجتماعية للإسرائيليين. وأنها تركز في ذلك المجال كما اتضح لنا مـن

دراسة تامارين مـثلاً (٦٠، ص ٤٢ – ص ٤٤) – والتـي أشرنا إليها خلال حديثنا عن دور المؤسسات التعليمية – على تدعيم عنصري الشعور بالتمايز والشعور بالاضـطهاد فـي التكوين السيكولوجي للإسرائيليين المعاصرين.

المؤسسات الأيديولوجية

ونعني بالأيديولوجية في مجال بحثنا ذلك الاتجاه الفكري العام المتضمن لوجهات النظر والأفكار السياسية والتشريعية والفلسفية والدينية والجمالية السائد في مجتمع معـين – ولا تعني سيادة الاتجاه الفكري أنه اتجاه يعتنقه جميع من تضمهم حدود المجتمع المعين، بل يكفي أن تعتنقه أغلبية معقولة في ذلك المجتمع وكذلك فإن عمومية الاتجاه الفكري لا تعني أن لا مجال فيه. لاختلافات، ولكن الاختلافات في تلـك الحالـة تكون في حدود التفصيلات دون أن تتعداها إلى العموميات، والاتجاه الأيديولوجي العام السائد في مجتمع معين لابد وأن يصبغ كافة نواحي الحياة في ذلك المجتمع بطابعه بمـا فـي ذلك عاداته وتقاليده وأفكاره وباختصار فإنه يصبغ التكـوين السيكولوجي العام لأبناء ذلك المجتمع ذلك إذا كـان هنـاك اتجاه أيديولوجي عام حقًا، وسائد حقًا.

ولقد شهدت إسرائيل محاولات مضنية بـذلتها الحركـة الصهيونية دون كلـل لخلـق – أو بـالأحرى – لاختيـار أيديولوجية محددة للمجتمع الإسرائيلي وإذا كانـت الحركـة

الصهيونية قد حاولت قدر ما وسعها الجهد أن تخلـع علـى إسرائيل الثوب الديني لدولة"أرض الميعاد" فإنها قد حاولـت وبنفس الحماس أن تروج لأكذوبة"إسرائيل الاشتراكية". وإذا كانت أجهزة الدعاية الصهيونية قد أحرزت نجاحا لا ينكر في كسب الأنصار لوهم دولة أرض الميعاد فإنها أحرزت نجاحا أيضا في إلصاق بطاقة الاشتراكية على المجتمع الإسـرائيلي ولم يقتصر نجاحها على إيهام اليهود في الديسابورا بل أنهـا قد نجحت بالفعل في إرساء ذلك الوهم في عقـول الكثيـرين ممن لا يتعاطفون تعاطفًا كاملاً مع التجربة الإسرائيلية. ولعل أبرز الصور التي اتخذها ذلك النجاح وهي الصـورة التـي شجعتها – فيما نرى – الدعاية الصهيونية القول – ولو فـي ثوب النقد – بأن إسرائيل تجمع المتناقضات أي تجمع بـين الاشتراكية والرأسمالية أو – كما يقـال أحيانًـا – أن مـدن إسرائيل مدن رأسمالية أما قراها وكيبوتزاتها فهي اشـتراكية صريحة. ويعبر المفكر البريطاني مكسيم رودنسون عن ذلك الخلط أصدق تعبير في كتابه إسرائيل والعرب بقولـه:"لقـد اضطرت أوروبا أن ترى في إسرائيل صورة لمثلهـا وقـد تحققت. ولعله من الغريب أن البعض قـد رأى ذلـك فـي

البرلمانية والديمقراطية الجماعية والاقتصاد الرأسمالي الحر، في حين رآه الآخرون فيما يبدو كما لو كان بداية لمجتمع اشتراكي تسوده المساواه متحررا من الامتيازات التي تفرضها الثروة. (٢٣، ص ٤٧).

ورغم أننا لسنا بصدد التفنيد التفصيلي لدعاوى الاشتراكية في إسرائيل فإننا نجد لزاما علينا أن نشير إلى توضيح هام لتلك القضية – أعني قضية الاشتراكية الإسرائيلية – أورده برنشتاين في كتابه المعنون سياسات إسرائيل حيث يقول"بينما تقوم الحركات الاشتراكية عادة بتنظيم طبقة عاملة موجودة بالفعل من أجل الصراع الطبقي ضد استغلال وقمع الرأسمالية، فإن الاشتراكية الصهيونية قد خلقت في فلسطين بروليتاريا يهودية تلقى دعما ماليا وسياسيا من الرأسمالية اليهودية في أوروبا وأمريكا.. ولقد أصبح الهستدروت بمثابة أكبر المستثمرين في الاقتصاد الإسرائيلي.. وعلى عكس ما هو مألوف فإن الأحزاب الاشتراكية في إسرائيل تعارض بوجه عام التأميم والتخطيط الحكومي الشامل بينما تقف الأحزاب المدافعة عن الاستثمار الخاص في صف التخطيط الاقتصادي كما أنها تضغط من

أجل تأميم الصناعات الأساسية المملوكة الهستدروت فضـلاً عم يمتلكه الهستدروت أيضا في مجـال النقـل والخـدمات الصحية والتعليم.. وهكذا.. فإن التخطيط الاقتصادي والتأميم وهما عادة من معالم برامج أي حزب اشتراكي قد أصبحا في إسرائيل بمثابة الاستراتيجيات الأساسية في نضال الاستثمار الخاص ضد سيطرة الهستدروت على الاقتصـاد" (٣ ، ص ٢٢٩ إلى ص ٢٣٠) ألا تـذكرنا تلـك الصـورة بموقـف الأحزاب الاشتراكية والديمقراطية من الاحتكارات الألمانيـة في عهد هتلر؟ وعلى أي حال، ورغم تلك الصورة الغريبـة للاشتراكية فإن"موشى ديان" في حديثه إلى مـؤتمر حـزب الماباي في ١٥ أكتوبر عام ١٩٦٣ يقول"أن المثل الاشتراكية القديمة التي مازال يدافع عنها في مؤتمر حزب الماباي أولئك القادة من أمثال ليفي أشكول وجولدا مائير وزالمان آران ليس لها ببساطة ما تفعله لذلك النوع من الناس الذين يحيون الآن في إسرائيل"، بل أنه يمضي فـي نفـس حديثـه فيصـف الأيديولوجية بأنها"ترف لا تستطيع الأمم الناميـة الحصـول عليه" (١٤، ص ٨١).

لنترك ذلك كله مؤقتًا، فقضية الاشـتراكية الإسـرائيلية جديرة حقًا بجهد علمي منفصل. ولننتقل إلى موضوعنا أو ما يمس موضوعنا مباشرة أعني فلنحاول الإجابة على تسـاؤل محدد هو: ما هي أيديولوجية رجل الشارع الإسرائيلي؟ ومرة أخرى فإن الباحث الإسرائيلي آرون أنتونفسكي الذي سبق أن أشرنا إلى بحثه في مجال الاتجاهات نحو الدين يعـود مـرة أخرى فيوفر علينا جهد الاستنتاج، لقد نشر المعهد الإسرائيلي للبحوث الاجتماعية التطبيقيـة عـام ١٩٦٣ بحثًـا أجـراه أنتونفسكي ونشره جوداه ما تـراس فـي كتابـه: التغييـر الاجتماعي في إسرائيل (١٩، من ص ١٠٨ إلى ص ١١٠).

وقد قام أنتونفسكي في ذلك البحث بتوجيـه عـدد مـن الأسئلة المتعلقة بالاتجاهات السياسية نحو موضوعات أربعة هي:-

أ- الميل إلى الغرب (الولايات المتحدة) مقابل الميل إلى الشرق (الاتحاد السوفيتي).

ب- تفضيل النظام الاشتراكي لإسرائيل في مقابل تفضيل النظام الرأسمالي لها.

ت- الاتجاه المناصر للهستدروت مقابل الاتجاه المناهض له.

ث- الموافقة على استخدام العنف مع العرب مقابل عـدم الموافقة على ذلك.

وقد استخلص أنتونفسكي من واقع الإجابات على تلـك الأسئلة أن الخصائص الأيديولوجيـة للمجتمـع الإسـرائيلي تشكل تدريجا أحادي البعد قسمه إلى ستة أقسام تتخذ شـكل التدرج الهرمي المعروف إحصائيا. ولسـوف نعـرض أولاً لذلك التدريج بالشكل الذي قدمه أنتونفسكي والذي نراه مسرقًا في الغموض وغير محقق لهدف الكشف عن الوجه الحقيقـي للأيديولوجية الإسرائيلية ثم سوف نحاول بعد ذلك أن نعيـد بناء ذلك التدريج إحصائيا بحيث يكشف فعلاً عن ذلك الوجه الحقيقي.

يمضي تدريج أنتونفسكي على الوجه التالي:-

أولاً: مناصر للنظام الاقتصادي للاتحاد السوفيتي.

مناصر للاشتراكية في إسرائيل.

مناصر للهستدروت.

معاد لاستخدام العنف مع العرب.

ويمثل هذا النمط الأيديولوجي نسبة ٢% من أفراد العينة.
ثانيا: مناصر للنظام الاقتصادي للولايات المتحدة.
مناصر للاشتراكية في إسرائيل.
مناصر للهستدروت.
معاد لاستخدام العنف مع العرب.
وتمثل هذا النمط الأيديولوجي نسبة ٨% من أفراد العينة.
ثالثًا: مناصر للنظام الاقتصادي للولايات المتحدة.
ليس مناصرا للاشتراكية في إسرائيل.
مناصر للهستدروت.
معاد لاستخدام العنف مع العرب.
ويمثل هذا النمط الأيديولوجي نسبة ٢٢% من أفراد العينة.
رابعا: مناصر للنظام الاقتصادي للولايات المتحدة.
ليس مناصرا للاشتراكية في إسرائيل.
معاد لاستخدام العنف مع العرب.
ويمثل هذا النمط الأيديولوجي نسبة ٢٣% من أفراد العينة.
خامسا: مناصر للنظام الاقتصادي للولايات المتحدة.
ليس مناصرا للاشتراكية في إسرائيل.
معاد للهستدروت.

مناصر لاستخدام العنف مع العرب.
ويمثل هذا النمط الأيديولوجي نسبة ١٩% من أفراد العينة.
سادسا: مناصر للنظام الاقتصادي للولايات المتحدة.
ليس مناصرا للاشتراكية في إسرائيل.
مناصر للهستدروت.
مناصر لاستخدام العنف مع العرب.
ويمثل هذا النمط الأيديولوجي نسبة ١٠% من أفراد العينة.

هذا فضلاً عن نسبة ١٦% من أفراد العينة لم يقـدموا مـن الإجابات ما يكفي لتضمينهم في التحليل ولذلك فقد اعتبـرهم أنتونفسكي"معدومي الأيديولوجية". ترى هل يمكن لمثل هـذا التصنيف أن يجيب حقًا عن سؤالنا ما هي أيديولوجية رجـل الشارع الإسرائيلي؟ أن كل ما يمكن أن يـوحي بـه ذلـك التصنيف أن هناك تدرجا من ذلـك النـوع الـذي يسـميه الإحصائيون بالتوزيع الاعتدالي والذي يعني في النهايـة أن الأيديولوجية السائدة في إسرائيل لا تعرف تطرفًـا بـل أن النمطين المتطرفين – أي أولاً -،سادسا لا يمـثلا إلا نسـبة ٢% ، ١٠% من أفراد العينة علـى التـوالي.. فهـل هـذا صحيح؟. فلنحاول أن نعيد تفريغ نفس بيانـات أنتونفسـكي

بأسلوب إحصائي آخر بمعنى فلنحـاول أن نحسـب النسـبة المئوية الخالصة لكل من الاتجاهات الأيديولوجية الرئيسـية على حدة.

بعبارة أخرى فلنحاول أن ندع جانبا ذلك التجميع الذي اتبعه أنتونفسكي ولنحاول أن نعيد الحساب بحيث نعـرف توزيـع العينة بالنسبة للقضايا الأربعة المحـددة التـي دار حولهـا الاستفتاء بعد استبعاد من أسماهم أنتونفسكي"معدومي الاتجاه" ويمثلون ١٦% من أفراد العينة.

ولقد حاولنا ذلك بالفعل وأسفرت محاولتنا عما يلي:-

أولاً: الاتجاه الأيديولوجي نحو الميل إلى النظام الاقتصـادي للولايات المتحدة في مقابل الاتجاه نحو الميل إلـى النظـام الاقتصادي للاتحاد السوفيتي:-

أنماط أنتونفسكي	مناصر للنظام الاقتصادي الأمريكي	مناصر للنظام الاقتصادي السوفيتي	المجموع
أولاً	-	٢ %	٢ %
ثانيا	٨ %	-	٨ %
ثالثًا	٢٢ %	-	٢٢ %
رابعا	٢٣ %	-	٢٣ %

خامسا	١٩ %	-	١٩ %
سادسا	١٠ %	-	١٠ %
المجموع	**٨٢ %**	**٢ %**	**٨٤ %**

ثانيا: الاتجاه الأيديولوجي نحو مناصـرة الاشـتراكية فـي إسرائيل مقابل الاتجاه نحو عدم مناصرتها:-

أنماط أنتونفسكي	**مناصر للاشتراكية في إسرائيل**	**غير مناصر لها**	**المجموع**
أولاً	٢ %	-	٢ %
ثانيا	٨ %	-	٨ %
ثالثًا	-	٢٢ %	٢٢ %
رابعا	-	٢٣ %	٢٣ %
خامسا	-	١٩ %	١٩ %
سادسا	-	١٠ %	١٠ %
المجموع	**١٠ %**	**٧٤ %**	**٨٤ %**

ثالثًا: الاتجاه الأيديولوجي المناصر للهستدروث مقابل الاتجاه المعادي له:-

أنماط أنتونفسكي	مناصر للهستدروت	معاد للهستدروت	المجموع
أولاً	٢ %	-	٢ %
ثانيا	٨ %	-	٨ %
ثالثًا	%٢٢	-	٢٢ %
رابعا	-	٢٣ %	٢٣ %
خامسا	-	١٩ %	١٩ %
سادسا	%١٠	- %	١٠ %
المجموع	**٤٢ %**	**٤٢ %**	**٨٤ %**

رابعا: الاتجاه الأيديولوجي الموافق على استخدام العنف تجاه العرب مقابل الاتجاه غير الموافق على ذلك:-

أنماط أنتونفسكي	معادي لاستخدام العنف	مناصر لاستخدام العنف	المجموع
أولاً	٢ %	-	٢ %
ثانيا	٨ %	-	٨ %
ثالثًا	%٢٢	-	٢٢ %
رابعا	٢٣ %	-	٢٣ %

خامسا	-	١٩ %	١٩ %
سادسا	-	١٠ %	١٠ %
المجموع	**٥٥ %**	**٢٩ %**	**٨٤ %**

حقيقة الأمر إذن وفقًا لبيانات أنتونفسكي نفسه بعد إعادة معالجتها إحصائيا أن ٧٤% من الإسـرائيليين لا يوافقـون على"الاشتراكية" – حتى بـالمفهوم الإسـرائيلي – طريقًـا لإسرائيل.

ولنا أن نتساءل ما الذي أدى بأرقـام أنتونفسـكي إلـى ارتداء ذلك الثوب الغامض؟ ولماذا؟ المسألة ببساطة أنه قـد خلط بين الأيديولوجية وعدد من المواقف العملية المباشـرة مما أدى إلى تمييع الموقف ككل. فالموقف مـن الاشـتراكية موقف أيديولوجي خالص. أما الموقف من الهستدروت مـثلاً فهو موقف عملي تفصيلي معقد بحكم طبيعة الموقف الخاص للهستدروت ومن الهستدروت في إسرائيل والـذي سـبق أن أشرنا إليه في تعرضنا لحديث برنشتاين. وكذلك الموقف من استخدام العنف مع العرب، فلقد عبر الصغار عـن مـوقفهم العدواني صراحة في دراسة تامارين التي أشرنا إليها، أمـا

الكبار فموقفهم كان لابد وأن يختلف لعوامل عديدة يكفـي أن نشير منها على سبيل المثال إلى قدرة الكبـار علـى تقـدير الخطورة السياسية لأرائهم الخاصة إذا مـا كـان السـؤال صريحا مباشرا فضلاً عن قدرتهم على تغيير ذلك الموقـف لتقديرهم للظروف الخارجية المحيطة بإسرائيل – أما الموقف من النظم الاقتصادية للاتحاد السوفيتي أو الولايات المتحـدة فلعله – رغم كونه موقفًا عمليا في الأساس – أكثر المواقف ارتباطا بقضية الاشتراكية ولذلك فإن نسبة مؤيـدي النظـام الاقتصادي للولايات المتحدة بين الإسرائيليين قد ارتفعت بعد أن أعدنا معالجة بيانات أنتونفسكي إلـى ٨٢% لقـد تمكـن أنتونفسكي إذن من خلال ذلك الخلط بين ما هو أيـديولوجي وما هو عملي من صياغة نتائجـه الإحصـائية بطريقـة لا تمكننا مباشرة من الكشف عن حقيقة الاتجـاه الأيـديولوجي السائد بين الإسرائيليين. والسبب في ذلك واضح جلي فلقـد حرصت الدعاية الصهيونية كما سبق أن أشرنا إلى إظهـار إسرائيل أمل الغرب الرأسمالي وواحة الشرق الاشتراكي في نفس الوقت، وليست أرقام أنتونفسكي فيما نـرى إلا تعبيـرا بالأرقام عن تلك المحاولة للتزييف.

ليس ثمة تناقض ولا غموض إذن. وليست إسرائيل واحة للاشتراكية والرأسمالية معا. وليس ثمة تدرج اعتدالي هادىء في الاتجاهات الأيديولوجية الإسرائيلية، فالأرقام تتحدث عن نفسها ولعلنا لا نضيف شيئًا بالفعل إلى طبيعة تلك الأرقام إذا ما قلنا أن المجتمع الإسرائيلي من الناحية الأيديولوجية مجتمع رأسمالي معاد للاشتراكية.

ولسنا بحاجة بطبيعة الحال إلى تفصيل القول فيما تخلقه الأيديولوجية الرأسمالية من مناخ مواتٍ لنمو عنصري المنافسة الفردية والعدوان. وليس بخاف مدى تطابق هذين العنصرين مع عنصري التمايز والشعور بالاضطهاد كعنصرين أساسيين للتكوين السيكولوجي للإسرائيليين المعاصرين.

خلاصة القول إذن أن ثمة حتم سيكولوجي إلى جانب الحتم الاقتصادي في أن تتخذ إسرائيل الصهيونية مسارا رأسماليا. فالأيديولوجية الرأسمالية – وليس سواها – هي التي تكفل لأبناء إسرائيل حفاظًا على تكوينهم السيكولوجي الأساسي أو بعبارة أخرى على العنصرين الأساسيين في ذلك التكوين، أعني عنصري التمايز والاضطهاد.

الفصل الرابع

تجسـيد الوهـم

المثل الأعلى

فشل... هو النجاح المطلـوب.

المثل الأعلى

ليست عملية التنشئة الاجتماعية في النهاية سوى عملية تعلم أو تعليم. تعلم لعادات معينة، وتقاليد معينة، وقيم معينة، وأنماط معينة من السلوك، وما إلى ذلك. ورغم الأهمية البالغة للدور الذي تلعبه اللغة في عمليات التعلم بعامة، وفي عملية التنشئة الاجتماعية بوجه خاص إلا أنها – أي اللغة – ليست السبيل الوحيد أيضا لبلوغ عملية التنشئة الاجتماعية غايتها المرجوة. ثمة نوع من"التعليم الصامت" إذا صح التعبير. تعليم يستغنى عن الكلام أي يستغنى عن قيام حوار بين معلم ومتعلم. ذلك النوع من التنشئة الاجتماعية الذي أشرنا إليه فيما سبق أشارة عابرة واصفين إياه بأنه يعتمد على"ضرب القدوة" أو"اتباع النموذج" أو"الاقتداء بالمثل الأعلى".

ولا تخلو جماعة بشرية من وجود نماذج تكون بمثابة المثل العليا لأفراد تلك الجماعة بعامة، يسعون إلى الاقتداء بها، والسير على دربها، والتمثل بتصرفاتها، دون أن تسعى تلك النماذج سعيا ملموسا إلى دفع الأفراد لمثل ذلك السلوك

وقد يختلف المثل الأعلى من فرد لآخر، ولكن ذلك لا يعني عدم وجود نماذج تعد مثلاً عليا على نطاق المجتمع ككل. ويسعى المجتمع عادة إلى تأكيد وإبراز نماذجه هذه، والتي قد تكون شخصيات قيادية معاصرة، وقد تكون شخصيات تاريخية عرفها ذلك المجتمع في تاريخه القديم أو الحديث، وسعى المجتمع في هذا الصدد إنما هو في النهاية سعى إلى تدعيم وحدة التكوين السيكولوجي لأبنائه، وتدعيم لعملية التنشئة الاجتماعية التي تجري فيه.

وإذا كان المجتمع – أي مجتمع – لا يدخر وسعا في السعي في هذا السبيل، فإن عملية اختيار الأفراد لمثلهم العليا لا تتم في حدود الاستجابة السلبية الخالصة لذلك السعي. قد يختار الفرد مثله الأعلى من بين الخارجين على القانون السائد في مجتمعه. أو قد يجده في شخصية تاريخية نبذتها جماعته وتنكرت لها. ولا يقتصر الأمر في هذا الصدد على الأفراد فحسب بل قد تختار جماعة معينة في مجتمع معين كمثل أعلى لها شخصية أو نموذجا لا يلقى تأييدا من جانب المجتمع، بل لعله لا يلقى سوى الرفض والنبذ. ولذلك الاختيار أسباب شتى تتضافر في خلقها العوامل الفردية مع

عوامل البيئة والظروف الخارجية ولسنا بصـدد التعـرض التفصيلي لديناميكيات عملية الاختبار هذه. ولكن ما يعنينا هو أنه إذا ما تعرض الفرد لعدوان لا قبل له بمواجهته وأصبحت الهزيمة خطرا يهدد اتزانه النفسي، فإنه كثيرا ما يلجـأ إلـى اتخاذ مصادر العدوان نماذجا له يقتديها، ومثلاً عليـا يسـير على هديها حفاظًا على اتزانه النفسي.

ويعبر برونو تبلهايم عن ذلك خير تعبير عندما يتحـدث عن خبرته الشخصية في معسكرات الاعتقال النازيـة التـي قضى بها عاما تقريبا، فيقول:"إن السجين يكون قـد وصـل بالفعل إلى أقصى مراحل التوافق مع موقف المعسكر حـين يغير من شخصيته بحيث يتقبل قيم الجستابو باعتبارها قيمـة هو (٣٢) ثم يمضي معددا مظاهر ذلك التقبل كما شاهدها هو لدى المعتقلين اليهود في تشبههم بحراسـهم مـن الجسـتابو وتمثلهم لقيمهم. ويعلق عالم النفس المصري مصطفى زيور على جوهر تلك الظاهرة بالتحديد فيقول"التوحد بالمعتدي إذن حيلة لا شعورية تصطنع للتغلب على الخوف من المعتـدين" (٧٦)، وخلاصة القول إذن أن اختيار الفرد لنموذجه أو لمثله الأعلى لا يعني بالضرورة إن ذلك المثـل الأعلـى يحظـى

بإعجاب المجتمع بل أنه – ولعل ذلك هو الأهم فيمـا نحـن بصدده – قد لا يحظى بحب وتقدير الفـرد نفسـه بـالمعنى الشائع التعبيري الحب والتقدير.

ولو انتقلنا من ذلك الحديث النظري إلى مواصلة تناولنا للمجتمع الإسرائيلي وتساءلنا ترى هل غاب عن الصـهاينة استخدام ذلك الأسلوب المعروف أعنـي خلـق النمـوذج أو القدوة التي تصلح كمثل أعلى للإسرائيلي المعاصر؟ لكانـت الإجابة وبلا تردد، لا، لم يكن ذلك ليغيب عنهم بالتأكيد. إذن أين هو النموذج الذي تقدمه إسرائيل لأبنائها؟ التوراه مليئـة بالشخصيات بل أن أسماء الكثير من تلك الشخصـيات قـد بعثت إلى الحياة من جديد كأسماء للمنشـآت والمـدن، بـل وللناس أيضا في إسرائيل. ولكن هل تصلح تلك الشخصيات للقيام بذلك الدور رغم ما اشرنا إليه من تعثـر المؤسسـات الدينية في إسرائيل؟ على أي حال فإن تلك الشخصيات الدينية التاريخية موجودة كنماذج بالفعل ولكن تأثيرهـا لا يتعـدى حدودا معينة. أليس من مصدر آخـر؟ هنـاك العديـد مـن الشخصيات الإسرائيلية المعاصرة أو التي عرفهـا التـاريخ الإسرائيلي الحديث. ولكن تلك الشخصيات تعرضت – سواء

التاريخية منها أو المعاصرة – لتقييمات سياسية متناقضة بحكم طبيعة الصراع السياسي الذي حكم مسار الحركة الصهيونية منذ نشأتها حتى الآن. ولذلك فإن تأثير أي من تلك الشخصيات لابد وأن يكون محدودا في نطاق أنصار اتجاه سياسي معين. ومرة أخرى فإن تلك الشخصيات السياسية قائمة كنماذج أيضا وتمارس تأثيرها في حدودها الضيقة. ترى أليس ثمة ما يمكن أن نسميه بالنموذج القومي الإسرائيلي؟ يبدو – فيما نظن – أن مثل ذلك التساؤل قد واجه الحركة الصهيونية. ويبدو – فيما نظن أيضا – إنها قد أجابت عليه بالفعل وكانت أجابتها العملية هي"الكيبوتز".

يكاد من يقرأ عن تجربة الكيبوتز في إسرائيل أن يخيل إليه أن ذلك هو الطابع الغالب على الحياة في إسرائيل إن لم يكن طابعها الوحيد. الأضواء مركزة على الكيبوتزات. والاهتمام منصب عليها. والكتابات والدراسات والبحوث لا تنقطع عنها. من يكتب عن الحياة الاجتماعية في إسرائيل لابد وأن يتعرض للكيبوتزات، من يتحدث عن إسرائيل أو في إسرائيل من أهل التخصص في العلوم الإنسانية لابد وأن يشير إلى الكيبوتزات وأبناء الكيبوتزات. ولعل دافيد راباپوت

قد عبر عن ذلك خير تعبير في بحث لـه بعنـوان:"دراسـة أساليب التربية في الكيبوتز وتأثيرها علـى نظريـة النمـو" يقول"أن الكيبوتزات في إسرائيل إنما تمثل بالنسـبة للعـالم الاجتماعي ما تمثله التجربة الطبيعية للعالم الطبيعـي" (٤٦) فهل تلك الكيبوتزات تمثل حقًا للطابع الغالب علـى الحيـاة الإسرائيلية؟ أتضم مثلاً عددا من الإسرائيلين يبرر هذا القدر الهائل من الاهتمام بها؟

يقول آهارون كلاينبرجر في كتابه المعنـون"المجتمـع والمدارس، والتقدم في إسرائيل" (١٦، من ص ٢٦ إلى ص ٢٧) إن عدد الكيبوتزات في إسرائيل قد تزايد من ١٩ عـام ١٩٢٢م إلى ٤٧ عام ١٩٣٦م إلى ١١٦ عام ١٩٤٥م. كمـا أن تعداد المقيمين في الكيبوتزات قد ارتفع من ١١٩٠ عـام ١٩٢٢م إلـى ٣٨٠٠ عـام ١٩٣١م، إلـى ١١,٨٤٠ عـام ١٩٣٦، ثم وصل إلى ٣٧,٤٠٠ عام ١٩٤٥م. وذلك يعني – وفقًا لما يراه كلا ينبرجر – إنه بينما تضاعف تعداد اليهـود في فلسطين سبع مرات من ١٩٢٢ إلى ١٩٤٥م فإن تعـداد المقيمين في الكيبوتزات قد تضاعف ثلاثون مرة خلال تلـك الفترة. لقد كانت نسبة سكان الكيبوتزات للتعداد اليهودي العام

عام ١٩٢٢م ١,٤% ارتفعت إلى ٢,٩% عام ١٩٣٦م، ثـم إلى ٦,٤% عام ١٩٤٥م. ولو وقفنا عند حدود تلك الأرقـام لخيل إلينا إن ظاهرة الكيبوتزات آخذة في الازدهار وأن ذلك قد يكون هو سر الاهتمام بهـا. ولكنـا لـو نظرنـا إلـى الإحصاءات التي أوردها جوداه ما تراس في كتابـه التغيـر الاجتماعي في إسرائيل (١٩، جـدول ص ٤٤) لوجـدنا إن النسبة الأخيرة التي أشرا إليها كلاينبرجر وهي ٦,٤% عـام ١٩٤٥م (رغم أن ما تراس قد ذكر أنها ٦,٣ % فقط) تعـد أعلى نسبة وصل إليها سكان الكيبوتزات في إسرائيل. لقـد أخذت تلك النسبة في الانخفاض بشكل مضطرد تقريبا حتـى أصبحت نسبة سكان الكيبوتزات عام ١٩٦١م لا تتجـاوز ٤ % من سكان إسرائيل من اليهود. ففي الفترة من نوفمبر سنة ١٩٤٨ إلى مايو سنة ١٩٦١م وهي الفترة التـي زاد فيهـا تعداد اليهود بنسبة ١٧٠ % لم تتعـد الزيـادة فـي سـكان الكيبوتزات نسـبة ٤٠%. ويقـرر رانـدولف بـراهم فـي كتابه"إسرائيل نظام تربوي حديث". إن عدد الكيبوتزات قـد وصل عام ١٩٦٤م إلى ٢٢٣ كيبوتز بلـغ عـدد أعضـائها ٨٢,٥٠٠ أي أن نسبتهم لا تتجـاوز ٣,٥ % مـن سـكان

إسرائيل.. الاهتمام بالكيبوتزات إذن لا يرجع بحال إلى أنهـا ظاهرة آخذة في النمو.

ترى أيرجع ذلك الاهتمام إلى مكانة اقتصادية متميـزة تحتلها تجربة الكيبـوتز؟ أو إلـى أي دور خطيـر تلعبـه الكيبوتزات في الاقتصاد الإسرائيلي؟ يكفي أن نشير إلى مـا جاء في كتاب جورج فريدمان المعنون"أهي نهايـة الشـعب اليهودي؟" (١٤ ، ص ٥٢ إلى ص ٥٣) من أنـه لا يمكـن بحال الاعتماد على ما تدره الكيبوتزات من عائد من الإنتاج الزراعي في توفير مستوى الحياة المناسب لأعضائها، إذا ما وضع في الاعتبار رأس المال المستثمر في الأبنية والمـواد الخام والمعدات. ولذلك فقد لجأت الكيبوتزات إلى الاقتراض والاستدانة وكانت الوكالة اليهودية هي المصـدر الطبيعـي للقروض التي كانت تسدد خلال ٢٥ عاما بفائدة تتراوح بين ٣ % و ٤ % وفي عام ١٩٥٧م مثلاً كانت تكلفة اسـتيطان الأسرة في الكيبوتز تصل إلى ١٦٤٠٠ جنيها إسرائيليا، يـتم اقتراض ٧٥ % منها من الوكالة اليهودية بفائدة ٣ % والـ ٢٥% الباقية تقترض من الحكومة بفائدة ٦ % على أن تسدد خلال ١٢ عاما خلاصة القول أن الكيبوتزات ككل غارقة في

الديون اقتصاديا ماذا في تلك التجربة إذن يدعو الصهاينة إلى إبرازها والتركيز عليها بل والإنفاق عليها أيضا؟

يقرر برونوتبلهايم في كتابه"أطفـال الحلـم" (٤ ، ص ٢٨٣) إن إسرائيل لا تسعى إلى أن يصبح غالبية سكانها من المقيمين في الكيبوتزات، مرجعا ذلـك إلـى عـدة أسـباب أهمها:-

١- إن مجتمع الكيبوتز لا يمكن أن يستمر في الحيـاة اقتصاديا دون الاعتماد على التقـديم التكنولـوجي المحيط به في إسرائيل.

٢- إن مجتمعا يقوم على تلك التجمعـات الصـغيرة لا يمكن له أن يخلق ما هو في حاجة إليه من ميكنـة معقدة حتى لما هو قائم فيه من صناعات صغيرة.

٣- إخفاق كل المحاولات التي بذلت لخلق كيبـوتزات تضم مجموعات حضرية تعمل في مجال الإنتـاج الكبير. بحيث أن الكيبوتز لا يمكن أن يوجد – فيما يبدو – إلا في مجموعات صغيرة مغلقة.

٤- إن الكيبوتزات لا تحقق نموا ذاتيا في عدد أعضائها بل إن زيادة خصوبتها تعتمد أساسا على مـا يـتم اجتذابه إليها من دم جديد أو مجندين جدد.

مرة أخرى ماذا يدفع الصـهاينة إلـى تركيـز أقـوى أضوائهم وتسليط أبرع دعاياتهم على تلك التجربـة الفاشـلة اقتصاديا والمتخلفة حضاريا، والذابلة عدديا؟ هل ثمـة دور عسكري خطير تقوم به تلك الكيبوتزات؟ قـد يكـون ذلـك صحيحا – وهو صحيح بالفعل – ولكن تركيـز الدعايـة لا ينصب على كفاءة الكيبوتزات العسكرية بل على أمر آخـر مختلف تماما عن ذلك أعني على أسلوب الحياة المتبع فيهـا. فضلاً عن إننا لو سلمنا بـأن كـل تلـك الهالـة المحيطـة بالكيبوتزات إنما ترجع لخطورة دورها العسكري فإننـا لـن نجد تفسيرا لذبولها العددي المستمر رغم تزايـد الأخطـار العسكرية المحيطة بإسرائيل في فترات متفاوتة.

أهي معمل لتخريج قادة جدد لإسرائيل؟ يبـدو أن تكـل هي أقرب الإجابات إلى الدقة وأن لم تكن صـحيحة تمامـا ولعل أصدق ما قيل تعبيرا عن حقيقة الـدور الـذي تلعبـه تجربة الكيبوتزات هو ما يقوله برونو بتلهايم"بالنسبة لمسـألة

ما إذا كانت التربية المتبعة في الكيبوتزات يمكن أن تقـدم – أو إنها تقدم بالفعل قادة لإسرائيل، فإن المرء يمكنه أن يجيب على وجه التقريب... بأنها تستطيع ذلك، ولكن بشكل فريـد تماما: إنها تحقق ذلك بضرب المثل أكثر مما تحققه بتقـديم إنجازات حقيقية للأمة. إنها تحقق ذلك من خـلال رهبانيـة حديثة، أكثر مما تحققه من خلال الإنجازات العقلية والعملية والاجتماعية التي أعتدنا أن نربط بينها وبين القيادة التغيـر" (٤، ص ٢٨٥).

ذلك هو السر إذن. إن أبناء الكيبوتزات هـم النمـاذج والمثل التي تقدمها الصهيونية لأبناء إسرائيل لكي يقتدوا بهم. وذلك هو ما توسمناه في بداية الأمر ومن هنا، ورغـم قلـة عدد القاطنين في الكيبوتزات، ورغم تعثر التجربة اقتصـاديا وحضاريا، ورغم ذبولها عدديا فإنها تلقى كل ذلك القدر مـن الاهتمام والتركيز.

ومن هنا أيضا وجب علينا أن نمعن فيها النظر مدركين خطورتها البالغة بالنسبة للأجيال القادمة من الإسـرائيليين، فهي تحمل – فيما نرى – الخطوط الرئيسية للصورة التـي تسعى الصهيونية إلى مواجهتنا بها على المدى الإستراتيجي

البعيد. ولا يقال من ذلك مطلقًا ما يشير إليه الـبعض (١٤، ١٥) من نفور قاطني المـدن (الإسـرائيلية) مـن تجربـة الكيبوتزات أو حتى هجومهم عليها، بل ولا حتـى مهاجمـة أبناء الكيبوتزات لحياة المدن الإسرائيلية وأهلها. ولسنا بحاجة – في هذا الصدد -٠ إلى تكرار ما سبق أن أشرنا إليه مـن أن التوحد قد لا يتم بالمفروض فحسب بل بالمعتدى أيضا.

فلناق إذن بنظرة على طبيعة تلك التجربة ولسوف نعتمد في نظرتنا تلك على عدة مصادر أولها ذلك البحـث الـذي نشره ملفورد سبيرو بعنوان:"التربية في قرية جماعيـة فـي إسرائيل" (٥٠) فضلاً عن كتابه الشـهير أطفـال الكيبـوتز (٢٧)، ومصدرنا الثاني هو بحث نشره صمويل جولان تحت عنوان التربية التعاونية في الكيبوتز (٣٥). ومصدرنا الثالث هو كتاب برونو بتلهايم (أطفال الحلم) (٤). هذا بالإضافة إلى كتاب الكيبوتز لعبد الوهاب الكيالي (٦٦).

والحديث عن تفصيل الحياة فـي الكيبـوتز حـديث لا ينتهي، والاسترسال فيه قد يذهب بنا بعيدا عـن موضـوعنا الرئيسي. لذلك فقد آثرنا أن نستخلص مما قرأناه عددا مـن

الخصائص العامة لتلك الحياة رأينا أنها تمس موضوع بحثنا مسا مباشرا.

أولاً: أن تأسيس الكيبوتزات قد قام على أكتـاف عـدد مـن المهاجرين اليهود النازحين من أواسط أوروبا.

ثانيا: إن العمل الزراعي هـو العمـل السـائد فـي تلـك الكيبوتزات.

ثالثًا: تسود الكيبوتزات فكرة المساواة بين الجنسين بدرجة قد تصل إلى حد التطرف.

رابعا: يتناوب القيام على تربية الأطفال مربيات متخصصات من عضوات الكيبوتز يتولين رعاية أطفال الكيبوتز جميعـا. وبشكل مستمر سواء كان الآباء والأمهات في العمل أو داخل الكيبوتز.

خامسا: تترك الأم طفلها بعد الولادة بأربعة أيام تحت إشراف المربية وتقوم الأم بإرضاع طفلها في أوقات محددة بمعـدل ست مرات يوميا إلى فطامه في سن الثمانية شهور.

سادسا: عندما يبلغ الطفل من العمر ستة شهور يصبح مـن حق الوالدان أخذه إلى غرفتهما لمدة ساعة يوميا عند الظهيرة ثم إعادته إلى مكان تجمع الأطفال.

سابعا: تختلف تجمعات الأطفال في الكيبوتز من حيث مكـان التجمع وحجم التجمع وبرنـامج النشـاط اليـومي وأيضـا أشخاص المربيات حسب السن.

تلك في رأينا هي أهم الخصائص التي تميـز الكيبـوتز فيما يتصل بمجال بحثنا دون أن يعني ذلك تقليلاً مـن شـأن خصائصه الأخرى الاقتصادية والتاريخية والجغرافيـة ومـا إلى ذلك.

وينبغي أن نقرر هنا صراحة إننا قد آثرنا عن عمـد أن يكون تناولنا لتجربة الكيبوتز في إسرائيل، تنـاولا مـوجزا مختصرا حرصا على تناسب توزيع الاهتمام علـى أجـزاء الدراسة، تناولا موجزا مختصرا حرصا على تناسب توزيـع الاهتمام على أجزاء الدراسة جميعا. ولكنا نرى أن تجربـة الكيبوتز تستحق بلا جدال جهدا أكبر ووقتا رحب، ومزيـدا من تركيز الاهتمام على تفصيلاتها مما لم يكـن ممكنًـا أن نوفيه تماما في حدود هذه الدراسة.

ترى ما هي الآثار التي يمكن أن تخلفهـا مثـل تلـك الخصائص – التي ذكرناها – على أبناء الكيبوتزات؟ يجـدر بنا قبل أن نحاول الاقتراب من تلك الآثار كما تمثلت بالفعـل

في سلوك هؤلاء الأبناء أن نلقى بنظرة سريعة على ما يـراه أهل الاختصاص في ذلك الصدد بصفة عامة أعني ما يرونه من تأثير لمثل تلك الخصائص على حياة الأطفال بشكل عام وليس أطفال الكيبوتزات بالتحديد.

يتناول جون بولبي في كتابه رعاية الطفل ونمو الحـب (٥) مشكلة الاضطراب العقلي لدى الأطفال، مرجعـا إياهـا إلى أسباب ثلاثة هامة هي:-

١- عدم إتاحة الفرصة لإقامة علاقة وثيقة مع الأم أو بديلتها خلال السنوات الثلاثة الأولى من العمر.
٢- الحرمان الأموي لفترات محددة.
٣- التنقل من بديله للأم إلى بديلـة أخـرى خـلال الأعوام الثلاثة الأولى.

ورغم أن جون بولبي يتعرض تعرضا سريعا لأطفـال الكيبوتز محذرا من المماثلة بينهم وبين الأطفال الذين ينشأون في ملاجيء مفترضا أن الكيبوتز يتيح فرصة لإقامة علاقـة وثيقة بين الطفل ووالديه، فإن لنا أن نختلف معه فـي هـذا الافتراض من واقع ما كتبه الإسرائيليون أنفسهم عن حـدود تلك العلاقة، وأيضا من واقع نتائج الدراسات التي أجريـت

بالفعل على أبناء الكيبوتزات والتي سوف نشير إليهـا فيمـا بعد، وعلى أي حال فإن بولبي نفسه يؤكد ما نذهب إليه فـي دراسة أخرى قام بها بالاشـتراك مـع روبرتسـون تحـت عنوان"ملاحظات عن تتابع استجابات الأطفال الذين تتـراوح أعمارهم بين ١٨، ٢٤ شهرا خلال فترة الانفصال".

(٢٢، ص ٢١٥، ص ٢١٦) حيث يشير الباحثان فـي معرض حديثهما عن الطفل الذي تناوب التعلق بسلسلة مـن الأفراد الذين يسلمه كـل مـنهم للآخـر بقولهمـا إن ذلـك الطفل"سوف تعلمه الخبرة المريرة أنه من الحماقة أن يرتبط بأية مربية بالذات لأن المربيات يتنقلن من مكان إلـى آخـر ويتركنه وهكذا... وبعد سلسلة من التقلبات، وفقدان العديد من المربيات... فإنه سوف يقلل تدريجيا من توريط نفسـه مـع المربيات المتتاليات، ثم يأتي الوقت الذي يكف فيه تماما عن الإقدام على مغامرة بذل حبه واعتماده لأي شخص ولعل ذلك يكاد يكون تنبؤًا حرفيا بإحدى نتائج تربية الكيبـوتزات كمـا سيتضح لنا فيما بعد.

أما سيرجون إنجلش وجيرالد بيرسـون فـي كتابهمـا مشكلات الحياة الانفعالية (٦٤، ص ٢٥) فإنهما يقدمان نبوءة

أخرى سيتضح لنا أيضا مدى صدقها فيما بعد، حيث يقـولا في معرض حديثهما عن آثار التزام الصـرامة فـي تقـديم الإيذاء للأطفال، أي تقديمـه لهـم وفقًـا لجـداول زمنيـة محددة"يجب أن يقدم الإيذاء للأطفال بانتظام حسب إيقـاعهم الطبيعي أكثر منه حسب نظام مواعيد ثابت... وحين يلتـزم الطبيب أو الأم أو الحاضنة التزاما وثيقًا بنظام مواعيد للطفل متجاهلين إيقاعه الخاص فسينتابه القلق، وسيزداد اهتمامه بما إذا كانت حاجاته الأساسية ستشبع أم لا. ومثل هؤلاء الأطفال سيكونون في كبرهم أميل إلى الارتياب فيما إذا كان القـدر سوف يكون رحيما بهم، أو فيما إذا كان أشخاص سيعطفون عليهم.. وسيميلون إلى افتراض إخفاق خططهم ومطـامعهم، وسيشكون في إمكان قدرتهم على التأثير في البيئة مهما تكن الوسائل".

فشل... هو النجاح المطلوب

فلنحمل الآن تلك الآراء التي استقيناها من التراث متجهين إلى واقع ما خلفه أسلوب التربية المتبع في الكيبوتزات على شخصيات أبناء تلك الكيبوتزات بالفعل وليس أمامنا غلا أن نعتمد في ذلك على الدراسات الميدانية والنظرية التي قام بها عدد كبير من العلماء المتخصصين في هذا الصدد، والتي تبلغ من الكثرة ما يجل عن الحصر. ونظرة سريعة إلى تلك الدراسات تمكننا من تبين ظاهرة هامة. هي أن نتائج تلك الدراسات لا تبدو متفقة مع بعضها، بل على العكس فإنها تبدو أقرب إلى التناقض.

وسوف نبدأ أولاً بمناقشة تلك المجموعة من الدراسات التي توحي نتائجها بأن ثمة خير في ذلك الأسلوب المتبع للتنشئة في الكيوتزات أو على الأقل أن لا ضرر منه. وتهتم تلك الدراسات في مجملها بإبراز فكرة نظرية مؤداها أن الكيبوتز إنما هو مجتمع الأطفال، وأن الأسرة مازالت محتفظة فيها بكيانها ووظائفها فيقول ليون أيزنبرج وليوكانر في مقالهما المعنون التفكير الاجتراري الطفلي المبكر

(٣٨)"ينبغي الاهتمام بحقيقة أن ثقافة الكيبوتزات إنما تـدور حول الطفل" كما تؤكد أيريكا بادان فريمان في الرسالة التـي حصلت بها على درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا، والتي كان عنوانها"دراسة سيكولوجية لأسرة في أحـد كيبـوتزات إسرائيل (١٣) إن الأسرة"عامل اجتماعي وتربوي أساسي في حياة الكيبوتز" أما يونيتا تالمون، المدرسة في قسم الاجتمـاع بالجامعة العبرية فإنها في بحث لها بعنوان"البناء الاجتمـاعي وحجم الأسرة" (٥٢) تتخذ موقفًا أكثر واقعية إذ تسـلم بـأن وظيفة الأسرة في الكيبوتز وظيفة محدودة، ولكنها تـرى أن الحد من تلك الوظيفة إنما هو في صـالح علاقـات الأزواج ببعضهم، وعلاقات الآباء والأمهات بالأطفال أيضا. كما إنها تستمر في نفس اتجاهها في بحث آخر لها أحـدث تاريخًـا بعنوان" الشيخوخة في إسرائيل" (٥٣) إذ تبرز فيه أن النسب المئوية لكبار السن الذين يستحسنون الإقامة في الكيبـوتزات تزداد إذا ما كان لهؤلاء أبناء يقيمون في تلك الكيبـوتزات. ويتفق مع يونيتا تالمون فيما يتعلـق بوضـع الأسـرة فـي الكيبوتزات دارين داربكن في كتابه المجتمع الآخـر (٩/ص ١٨٣) بل إنه ليكاد يستخدم نفس ألفاظها إذ يرى أن الحد من

وظائف الأسرة في مجتمع الكيبوتز له تـأثير طيـب علـى العلاقات سواء بين الأزواج وبعضهم أو بين الآباء والأمهات وأطفالهم مستخلصا ذلك من أن معدل الزواج في الكيبوتزات مرتفع في حين أن معدل الطـلاق مـنخفض. أمـا ريفيكـا بارجوزيف مدرسة الاجتماع في الجامعة العبرية والتي سبق أن عملت مربية في أحد الكيبوتزات فإن لها بحثًـا نظريـا بعنوان"نمط التنشئة الاجتماعية المبكـرة فـي المؤسسـات الجماعية في إسرائيل" (٣١) تخلص فيه إلى وجود قدر كبير من التكامل في حياة الكيبوتز وتؤكد مارلين رينوجراد فـي بحث لها بعنوان"نمو الطفل الصغير في مؤسسـة جماعيـة" (٥٦) أن أطفال الكيبوتز أكثر سواء من الناحية الانفعالية من غيرهم.

ولا يتسع المقام لمزيد من التفصيل في هذا الصدد وإن كنا لا نستطيع أن ننهي تناولنا لتلك المجموعة من الدراسات دون الإشارة إلى سلسلة من البحوث قام بها البرت أ. رابين أستاذ علم النفس ومدير العيادة النفسية بجامعـة ميتشـيجان بالولايات المتحدة الأمريكية (٢٠، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥) وذلك لثلاثة اعتبارات:-

الأول: إنها تكاد تكون أكبر سلسلة من البحوث يقوم بها عالم واحد في موضوع واحد في هذا المجال.

الثاني: إنها تغطي فترة زمنية تتجـاوز العشـر سـنوات ، ١٩٥٨ إلى ١٩٦٨.

الثالث: إن تلك الدراسات بالذات تعد أكثر دراسات المجموعة تعبيرا عن اتجاهها العام فضلاً عن إنها أكثرهـا اسـتخداما للاختبارات النفسية والأرقام الإحصائية. والسمة الغالبة على تلك البحوث إنها بحوث مقارنة بمعنى أن رابين كان ينتقـي في الغالب عينة من أطفال الكيبوتزات، وعينة أخرى مقابلـة من أطفال الموشافيم أو أطفال المدينة ثم يقـارن أداء تلـك المجموعات أو العينات على اختبارات نفسية تدخل ككل في فئة الاختبارات الإسقاطية وأن تعددت صورها وخلاصة تلك البحوث جميعا – أعني تلك التي أجراها رابين – أنه يوجـد ثمة اضطراب وتخاف لدى أطفال الكيبوتز الصغار من حيث النمو العقلي أو بعض سمات النضج الانفعالي غير أن ذلـك كله لا يلبث أن يتلاشى في سن العاشرة. ولنا أولاً كلمة عن الاختبارات التي استخدمها رابين أعني ما يطلق عليه أهـل الاختصاص في علم النفس الاختبارات الإسقاطية. ولسنا في

معرض الحديث تفصيلاً [١] عن خصائص ومثالب ذلك النوع بالتحديد من الاختبارات النفسية. ويكفينا أن نشير إلى أن ذلك النوع من الاختبارات النفسية. ويكفينا أن نشير إلى أن ذلـك النوع من الاختبارات لا يلقى قبولاً كبيرا لدى الكثيـر مـن علماء النفس فهي ليس بالاختبارات"الموضوعية" التي يرضى عنها تماما أنصار مدرسة القياس النفسي ولا هي بالمقابلات الشخصية المفتوحة التي قد ترضى الأكثر ميلاً إلى التحـرر من قيود الاختبارات النفسية الموضوعية ولعل ذلك يعطينـا بعض الحق في التشكك في النتائج التي توصل إليها رابـين بالتحديد. وعلى أي حال فإن قول رابين أن ثمة اضـطرابات انفعالية وعقلية قد تبدو لدى أطفال الكيبوتز ثـم لا تلبـث أن تتلاشى بعد ذلك يذكرنا بما ذهـب إليـه الطبيـب النفسـي

---

(١) على الراغب في الاستزادة في هذا الصدد الرجوع على سـبيل المثال لا الحصر إلى مرجعين هامين في هذا الصدد هما:-

Ann Anastasl,Psychological Testing, mcmllan,١٩٦٣

وكذلك كتاب الاختبارات الإسقاطية، تأليف الدكتور سيد محمـد غنـيم والدكتورة هدى برادة الصادر عام ١٩٦٤ عن دار النهضـة العربيـة بالقاهرة.

منكوفسكي في كتابه"مبحث في علم النفس المرضـي" فـي معرض مناقشته لمشكلة الاضطرابات الوجدانيـة المرضـية لدى الأطفال اليهود الذين أمضوا فترة طفولتهم في معسـكر بوخنفالد النازي مشيرا إلى أن الكثير م هؤلاء الأطفـال قـد تمكنوا من استعادة بعض اتزانهم بعد ذلـك وخاصـة فـي إسرائيل، ولعل خير تفسير لذلك الاتزان هو ما قدمـه عـالم النفس المصري مصطفى زيور – والذي اعتمدنا عليه فـي إشارتنا لكتاب منكوفسكي – حين قال أن ذلـك" لا يعـدو أن يكون تنظيما للتوحد بالمعتدى في المجتمع الإسرائيلي" (٧٦).

ذلك هو مجمل الآراء التي ترى – كما سبق أن أشـرنا أن ثمة خير في أسلوب التربية في الكيبـوتزات، أو علـى الأقل أنه لا ضرر منه. ويمكننا أن نجمل ملاحظتنا عليها في نقاط ثلاثة:-

أولاً: أن عددا منها لم يكن سوى مجرد آراء نظريـة تفتقـد للوقائع العملية بل إنها – فيما نرى – تتعارض معهـا. (٩، ٣١، ٣٨).

ثانيا: يلاحظ بالنسبة لعدد من تلك البحوث أيضا صغر عـدد العينات التي أجرى عليها البحث مما يشكك في دلالة النتائج التي تم التوصل إليها (١٣ ، ٤٣، ٤٥، ٥٣، ٥٦).

ثالثًا: كانت البحوث عموما قاصرة على الحديث عن الأطفال دون التعرض للراشدين الذين تمت تنشـئتهم بالفعـل فـي الكيببوتزات (٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥).

وعلى أي حال فإن المجال لا يخلو من بحوث أجريـت على أبناء الكيبوتزات نتائجها أكثر ميلاً إلى تأكيد زيادة مـا لديهم من اضطرابات انفعالية عما هـو متوقـع. فإليزابيـث إيرفين مثلاً التي عملت كأخصائية اجتماعية في الطب العقلي في إسرائيل خلال عام ١٩٥٠، مما أتاح لهـا تجميـع قـدر معقول من البيانات عـن أطفـال الكيبـوتز نشـرت بحثًـا بعنوان"ملاحظات حول أهداف ومناهج تنشئة الأطفـال فـي مؤسسات جماعية" (٣٦) خلصت فيه إلى أن نسبة المصابين بالبوال من بين أبناء الكيبـوتزات تتجـاوز ٣٨% وتتضـح ضخامة تلك النسبة إذا ما قورنت بما توصلت إليه نيتا جلاس في بحثها"عادات الأكل والنوم والإخراج لدى أطفال المربيات وأطفال الأمهات". (٣٤) حيث لم تتجاوز نسبة الذين يعانون

من بوال منتظم ٦ % من أبناء الأسر الإنجليزيـة والـذين يشرف على تربية نصفهم مربيات. ولدينا أيضا دراسة هالفي التي أشار إليها مصطفى زيور في مقاله التفسـير النفسـي للسلوك الإسرائيلي (٧٧) وقد استخلص هالفي من دراسـته التي قارن فيها بين سكان إسرائيل بعامة وسكان الموشـاف وسكان الكيبوتز أن أعلى نسبة من الأمراض العقلية وخاصة الفصام كانت بين أبناء الكيبوتز.

ورغم تعدد الدراسات والبحوث التي تنحو ذلك المنحى فإن دراسة سبيرو المعنونة أطفال الكيبوتز تحتل – فيما نرى – مركز الصدارة بين تلك الدراسات جميعا وذلك لما تتميـز به من تعدد الوسائل التي استخدمها الباحث للوصـول إلـى نتائجه فضلاً عن إنها تضمنت تناولاً للأجيال المختلفـة فـي الكيبوتزات ابتداء من الأطفال حتى المؤسسين وإلى جانـب ذلك فإن أهمية تلك الدراسات بالتحديد إنما ترجع إلـى إنهـا أكثر اتفاقًا مع ما تشير إليه الخطوط العامة لتراث علم النفس في هذا الخصوص والتي سبق أن أشرنا إليها. لذلك فسـوف نعرض بشيء من التفصيل لبعض الجوانب التي تضـمنتها دراسة سبيرو هذه، والتي نرى أنها أكثر مساسا بموضـوع

بحثنا مشيرين خلال ذلك، وكلما لزم الأمر، إلى غيرها مـن الدراسات.

أولاً: نظرية الوالدين إلى الطفل:-

يبدأ سبيرو معالجته لتلك القضية بالرجوع قليلاً إلى الوراء، محاولاً بذلك أن يلقى الضوء على مالا حظه ولاحظه غير من الباحثين – من أن الرغبة في نصف سلطة الأب تكاد أن تكون سمه مميزة في أسلوب التربية المتبع في الكيبوتزات. فيوجه سؤالاً إلى مجموعة من مؤسسي الكيبوتز مؤداه: هل ثرت على والديك؟ وتكون الإجابة ٦٠% من هؤلاء"نعم بالتأكيد" بالإضافة إلى ٢٠% من هؤلاء كانت إجابتهم"هذا محتمل" (٢٧، ص ١٣) ثم يوجه سبيرو إلى هؤلاء الآباء سؤالاً عن القيم التي يأملون أن تتوافر لدى أطفالهم وإذا بهم يختارون ثلاثة عشر قيمة تحتل قيمة"احترام الوالدين" المركز الأخير من بينها أي المركز الثالث عشر (٢٧، ص ٢٠ إلى ص ٢١) ثم حين يسأل سبيرو عددا من الآباء والأمهات في الكيبوتزات" هل لديك التأثير الأكبر على طفلك"؟ تكون إجابة أكثر من ٦٨ % منهم" لا بالتأكيد" ولا يجيب أحدا على الإطلاق" نعم بالتأكيد" (٢٧ ، ص ٤٨).

ولا ينفي سبيرو مع ذلك مالا حظه من حب شديد مـن جانب الآباء والأمهات لأطفالهم في الكيبوتزات، ولكنه يرجع ذلك الحب الشديد إلى أسباب ثلاثة محتملة هي:-

١- أن الآباء يعتبرون عزلهم عن طفلهم بمثابة إحباط شديد لهم وبالتالي يحاولون استغلال لقاءاتهم القصـيرة مـع أطفالهم في الحصول على أكبر قدر ممكن من الإشباع.

٢- الخوف من فقدان الطفل، حيث أن الطفل في الكيبـوتز ليس مجبرا ماديا على الارتباط بوالديه، وبالتالي فليس أمامهما إلا بذل أكبر قدر من الحب لاجتذابه والاحتفاظ به منتميا إليهم.

٣- الشعور بالذنب، وهو ما عبر عنه الكثير مـن الآبـاء بالفعل، بمعنى إحساسهم أنهم بموافقتهم علـى أسـباب التربية الجماعية المتبع في الكيبوتز قد حرموا طفلهـم من المنزل والأسرة والحجرة الخاصة. ويتفق ذلك مع إجابات الآباء على سؤال مؤداه"هل توافق على أسلوب التربية الجماعية؟" حيث أجاب ٤٠ % بأنهم لا يوافقون على ذلك الأسلوب. ويشير سبيرو إلى أن تلك النسـبة كان يمكن أن ترتفع إذا لم يكن الأسلوب المستخدم فـي

الإجابة هو أسلوب الورقة والقلم الذي يستثير أكبر قدر من المقاومة الذاتية (٢٨ ، مـن ص ١٦١ إلـى ص ٦٤).

ثانيًا: سلوك أطفال الكيبوتز في سنوات العمر الأولى:-

أجرى سبيرو دراسة تفصيلية تعتمد علـى الملاحظـة الموضوعية الدقيقة على عينة تضم أربع مجموعـات مـن أطفال الكيبوتزات، وكانت خصائص كل عينة كما يلي (٢٧ ، جدول ص ١٣٢).

المجموعة الأولى:-

وتتكون من ستة أفراد تتراوح أعمارهم بين ثلاثة عشر شهرا وستة عشر شهرا بمتوسط خمسـة عشـر شـهرا. وتضـم المجموعة خمسة ذكور وأنثى واحدة.

المجموعة الثانية:-

وتتكون من ستة عشر فردا تتراوح أعمارهم بين تسعة عشر شهرا، وسنتان وخمسة شـهور بمتوسـط سـنتان. وتضـم المجموعة ثمانية ذكور وثماني أناث.

المجموعة الثالثة:-

وتتكون من عشر أفراد، تتراوح أعمارهم بين سنتان وتسعة شهور، وثلاث سنوات وثمانية شهور بمتوسط ثلاث سنوات. وتضم المجموعة خمسة ذكور وخمس إناث.

المجموعة الرابعة:-

وتتكون من خمسة عشر فردا تتراوح أعمارهم بـين ثـلاث سنوات وعشرة شهور، وخمسة سنوات بمتوسط أربع سنوات وأربعة أشهر وتضم المجموعة ستة ذكور وتسع إناث.

وترجع أهمية تلك الدراسة إلى أنها تضع أيدينا على ما يمكن أن نسميه بالتأثير الخام أو المباشر لأسـاليب التربيـة المتبعة في الكيبوتزات. كما أن المنهج الذي اتبعه سبيرو في سبيل الوصول إلى نتائج منهج يتسم بالموضوعية على عكس ما اتبعه برونوبتلهايم الذي خصص في كتابه أطفال الحلم (٤ ، ص ٦٥ إلى ص ١٤٤) ما يقرب مـن الثمـانين صـفحة لحديث مسترسل عن فترة الرضاعة والطفولة المبكـرة فـي الكيبوتزات وكانت مادتها لا تعدو بحال أن تكـون عرضـا لانطباعاته الشخصية. وعلى أي حال فإنه يقرر ذلك صراحة في مستهل كتابه المذكور واصفًا دراسته بأنها"تقريـر بـالغ الشخصية والانطباعية" (٤ ، ص ٨ إلى ص ٩).

ولنمض مع سبيرو في دراسته المقارنة لمجموعاته الأربع. يبدأ سبيرو بعرض لنتائج ملاحظة العلاقات المتبادلة بين أطفال كل مجموعة، وتصنيف تلك العلاقات إلى علاقات تكاملية وعلاقات غير تكاملية، واضعا نتائجه في الجدول التالي (٢٧، ص ١٥٣):-

أنماط التفاعل	**المجموعة الأولى**	**المجموعة الثانية**	**المجموعة الثالثة**	**المجموعة الرابعة**
تكاملية	١٧ %	٤١ %	٢٩ %	٣٧ %
مساعدة. مشاركة تعاطف	٦ %	٢١ %	٩ %	١٣ %
تعاطف بدني	٢ %	٣ %	٥ %	٥ %
لعب تعاوني	٩ %	١٧ %	١٥ %	١٩ %
غير تكاملية	٨٣ %	٥٩ %	٧١ %	٦٣ %
عدوان	٤٥ %	٣٩ %	٥٧ %	٥٢ %
صراع	٣٨ %	١٨ %	١١ %	٨ %
رفض المشاركة	صفر	٢ %	٢ %	٣ %

ويؤكد سبيرو أنه قد ثبت إحصائيا أن الفروق بين النسب المئوية للتفاعلات التكاملية وغير التكاملية كانت فروقًا ذات دلالة جوهرية إحصائيا. وعلى أي حال فإن دلالة تلك الأرقام غنية عن البيان. ويكفي أن تستخلص منها أن متوسط

الأفعال غير التكاملية في المجموعات الأربـع كانـت تبلـغ ٦٩% منها نسبة ٤٨,٢٥ % أفعال عدوانية صريحة.

ويمضي سبيرو بنفس منهجه الإحصائي الدقيق محلـلاً أنماط العدوان المتبعة في المجموعات الأربع فيعرضها ممثلة بنسب مئوية في الجدول التالي (٢٧ ص١٦٣).

العدوان	المجموعة الأولى	المجموعة الثانية	المجموعة الثالثة	المجموعة الرابعة
التقـولي (الوشاية)	صفر	صفر	٧ %	٢ %
اللفظي	صفر	٣ %	٩ %	٣١ %
بالعصيان	صفر	١٠ %	٤ %	٢ %
البدني	١٠٠ %	٨٧ %	٨٠ %	٦٥ %

ويعلق سبيرو على بيانات الجدول السابق موضـحا أن العدوان البدني، وهو أكثر أنواع العدوان انتشـارا يتضـمن ضروبا شتى من السلوك كالضـرب، والضـرب بشـيء، والركل، والعض، والدفع، والقذف بشيء، وتدمير ممتلكـات الغير، والخربشة، ومحاولـة قلـع العـين، وشـد العشـر،

والتلويث، والهز، وإعاقة النشاط، وتقطيع الشعر. ولقد كـان الضرب هو أكثر أنواع العدوان البدني انتشارا حيث كانـت نسبته المئوية من مجموع الأفعال العدوانيـة: ٣١ % ، ٦٦ % ، ٤٤ %، ٤٧ % علــى التــوالي (٢٧ ، ص ١٦٥). والعدوان إذن سمة واضحة وضوحا جليا لدى أطفال الكيبوتز في سنوات طفولتهم الأولى. ولكن ترى ما هي مثيرات ذلك العدوان؟ أن سبيرو يصنف مثيرات العـدوان بنـاء علـى الملاحظات الموضوعية علـى الوجـه التـالي: (٢٧، ص ١٦٦): [(٢)]

المثير	المجموعة الأولى	المجموعة الثانية	المجموعة الثالثة	المجموعة الرابعة
بـدون سـبب أو السـبب غيـر معروف	٦٤ %	٥٧ %	٦٤ %	٦٧ %
الأقران	١٦ %	٢٩ %	٢٩ %	٢٧ %
صراع	١٤ %	١٤ %	١٢ %	٩ %
عدوان بدني	صفر	١٣ %	١٤ %	١٣ %

---

(٢) أنظر الجدول في – الصفحة التالية:

غير ذلك	٢ %	٢ %	٣ %	٥ %
الكبار	٢٠ %	١٤ %	٧ %	١ %
تأنيب من المربية	صفر	٤ %	٣ %	١ %
حرمان المربية له من أشياء	صفر	٢ %	٢ %	صفر
حرمانه من اهتمـام المربية	١١ %	٣ %	صفر	صفر
سبب بدني	٩ %	٤ %	٢ %	صفر
غير ذلك	صفر	١ %	صفر	صفر
غير ذلك	صفر	صفر	صفر	٥ %

ويعلق سبيرو تعليقًا لماحا على نتائج هذا الجدول (٢٧، ص ١٦٧، ص ١٧٠) مشيرا إلى" أنه مما يسترعي الانتبـاه ولاشك أن النسبة الكبرى من أنواع العدوان البدني لا سـبب لها أو غير معلومة السبب. وانطلاقا مـن النظريـة العامـة للسلوك والتي تؤكد ببساطة إن السلوك بكافة أنواعه لابد وأن يكون مدفوعا ومن ملاحظتنا الخاصة أيضا نستطيع القـول بأن تلك الأفعال العدوانية التي يبدو كأن لا سبب لها إنما هي عبارة عن عدوان منقول (Displaced aggression)بل إننا نستطيع كذلك أن نفترض أن ذلك العدوان إنما كان موجهـا أساسا وقبل أن ينقل، إلى المربية... ويبدو أن السبب في عدم

توجيه العدوان إلى المربية مباشرة إنها لم تكن تتواجد عـادة مع الأطفال أثناء تعبيرهم عن عـدوانهم.. ولكـن السـبب الأعمق والأعم فيما يبدو هو خوف الأطفال من العقاب سواء بالإجراءات الفعلية أو بحرمانهم من الحب"عـدوان أطفـال الكيبوتز إذن أمر يرجع ببساطة إلى أسلوب التربيـة السـائد هناك، ذلك الأسلوب الذي يلقى كما سبق أن أشرنا أكبر قدر من الاهتمام والتركيز والدعاية من جانب الصهيونية".

ينتقل سبيرو بعد ذلك إلـى مناقشـة اسـتجابة أطفـال الكيبوتز للعدوان البدني وينبغي أن نؤكد هنا مـن جديـد أن سبيرو لم يكن يصطنع المواقف تجريبيا بل كان يلاحظ سلوك الأطفال على الطبيعة ويسجله وكانت النتيجة كما يلي: (٢٧، ص ١٧٢):

الاستجابة	المجموعة الأولى	المجموعة الثانية	المجموعة الثالثة	المجموعة الرابعة
البكاء والصـراخ والأنين	٥٦ %	٣٧ %	٤٨ %	٢٩ %
ليس ثمة اسـتجابة ظاهرة	٢٨ %	٣٠ %	٢٣ %	١٩ %
الثأر بالمثل (بدنيا	٢ %	٢١ %	١٦ %	٢٩ %

أو لفظيا)				
التراجع	١٠ %	٤ %	٩ %	١٠ %
التماس العون	٢ %	٤ %	١ %	١٣ %
مص الأصابع	٢ %	٣ %	٢ %	صفر
الضحك أو الحديث	صفر	٢ %	١ %	صفر

ويفسر سبيرو (٢٧ ، ص ١٧٢ - ص ١٧٣) ظاهرة التناقض التدريجي في الاستجابة بالصراخ مع زيادة متوسط سن المجموعة بسببين:-

أولاً: إن الأطفال مع نضجهم يتعلمون إن الصـراخ لا يوقف المعتدي عند حده بل إنه في كثير من الأحيان يدفعـه إلى الاستمرار فبمجرد أن تنطلق الطاقة العدوانية لدى هؤلاء الأطفال فإنه لا يبدون رحمة. كما أن تألم الضحية لا يدفعهم إلا لمزيد من العدوان. ثانيا: إن الأطفال يكتشفون بتقدم السن أن الصراخ باعتبار وسيلة لجلب حماية المربية لم يعد مجديا لانشغالها بالعديد من الوجبات والمسئوليات.

تأكيد جديد إذن لما سبق أن أشرنا إليه منـذ سـطور، أعني أن أسلوب التربية في الكيبوتزات هـو الـذي يربـي الأطفال على العدوان والقسوة.

ثالثًا: سمات شخصية السابرا:-

ونعني بجيل السابرا من أبناء الكيبوتزات أولئك الـذين ولدوا في الكيبوتزات ثم تربوا فيها ونضجوا في ظل نظامها التربوي. وهذا الجيل بالتحديد هو الذي تبذل الصهيونية كـل جهدها لكي يصبح النموذج الذي تلتـف حولـه الشخصـية الإسرائيلية الجديدة. وهو فضلاً عن ذلك جزء مـن الجيـل الذي تعده إسرائيل لمواجهتنا استراتيجيا بحكم السـن علـى الأقل. ولسوف نحاول أن نتعرض بشيء من الإيجاز لأهـم سمات شخصية هذا الجيل من واقع دراسة سبيرو وغيره.

العدوان:-

إن صفة العدوان التي أوضحها سبيرو بجلاء فيما سبق تمتد إلى سلوك السابرا متخذة صورا أكثر وضـوحا فتحـت عنوان واضح الدلالة هـو العرقيـة (Racism) (٢٧، ص ٣١٩ إلى ص ٣٢٠) يشير سبيرو إلى أن أبرز ما يميز أبناء الكيبوتز من السابرا هو كراهية الغرباء بعامة والمهـاجرين من الشرق الأوسط

بصفة خاصة. وهم ينظرون إليهم باعتبارم أدنى مـنهم ويطلقون عليهم لقب (Shchoism) أي السـود. ويصـبون

عليهم كافة أنواع العدوان اللفظي والبدني ويمتد ذلك العدوان ليشمل الأوروبيين الغرباء عن الكيبوتز.

ولا يجد برونوبتلهايم (٤، ص ٢٨٦) مفرا من التسـليم بحقيقة كراهية ومقاومة أبناء الكيبوتزات للغربـاء وخاصـة ليهود شمال أفريقيا، ولكنه يبذل جهدا هائلاً لمحاولة تبريـر ذلك بفرط خوف أبناء الكيبوتزات على تعكيـر مـا يسـود الكيبوتز من تكامل، نافيا احتمال أن يكون ذلك راجعـا إلـى نقص اهتمامهم أو حساسيتهم.

ب- الانطوائية:-

يشير سبيرو (× ٢٧ ، ص ٤٢٤ ، ص ٤٢٧) إلـى أن ما يتميز به السابر من انطوائية واضحة إنما يبدو في جوانب ثلاثة هي:-

١- الخجل والاضطراب عند تعاملهم مـع الغربـاء عـن الكيبوتز أو حتى مع أبناء الكيبوتز من غير أقرانهم.

٢- حرص كل منهم على الاحتفاظ ببعد سيكولوجي معـين بينه وبين الآخرين.

٣- ندرة أقامتهم لعلاقات انفعالية وثيقة مع بعضهم البعض.

ويمضي سبيرو مفسرا تلك الخاصية بقوله"أن الانطواء إنما يعني الابتعاد عن الآخرين أو تجنب إقامة علاقة بـبهم أصلاً. وإذا ما كان الابتعاد عموما يمثل استجابة للألـم، وإذا ما كان التجنب يمثل استجابة لتوقع الألم، فإن انطوائية أبنـاء السابرا قد يكون دافعها الألم الناتج عن خبراتهم المبكرة مـع الآخرين، أو الألم المتوقع مـن مزيـد مـن التفاعـل مـع الآخرين... أي أنهم ينظرون إلى الآخرين باعتبارم مصدرا للألم والخطر، وإذا ما كان الأمر كذلك فانطوائيتهم دليل على افتقارهم للأمن" (٢٧، ص ٤٢٧).

ويشير برونوبتلهايم أيضا إلى ما يميز السابرا من خجل من الغرباء فيقرر صراحة"إن هؤلاء الشبان شديدو الحياء من الغرباء. إنهم مغلقون على أنفسهم، بدرجـة لا تجعـل فـي مقدورهم الكشف عن دخائلهم إلا للأشخاص الذين تـربطهم بهم علاقة وثيقة تماما" (٤ ، ص ٢٨٧). ولكنـه عمـق لا يمكن أن يكشف عن نفسه في لقاءات عابرة..."إنني شخصيا قد فشلت في استثارة أي عمق في الأجيال الشابة رغم أننـي وجدته بشكل كاف لدى جيل المؤسسين وأيضا لـدى أولئـك

الذين ولدوا في الكيبوتزات ولكنهم غادروها بعد ذلـك" (٤ ، ص ٢٨٨).

والأمر فيما نرى ليس في حاجته إلى أي تعليق.

البرود الانفعالي:-

رغم أن سبيرو لا يشير إلى ما يتميز به الســابرا مـن برود انفعالي كسمة مستقلة إلا أننا نسـتطيع دون عنـاء أن نستدل على وجدودها من خلال عرضه العام لسلوكهم وعلى أي حال فإن برونوبتلهايم لم يستطع تجاهل تلك السمة حيـث ذكر إن أفراد جيل المؤسسـين (أي مؤسسـو الكيبـوتزات) يشكون من أن"أطفالهم في سن المراهقة أو حتى قبـل ذلـك السن يتصرفون حيالهم ببرود أو بلا مبالاة أو حتى بخشونة" (٤ ، ص ٢٨١) بل إنه يقرر في معرض تفسـيره لنـزوح البعض عن الكيبوتزات أن ثمة انتقاء طبيعي تفرضه الحيـاة في الكيبوتزات وأن"الانطفاء الانفعالي يكـاد يمثـل عامـل الانتقاء الوحيد الذي يحدد من يبقـى ويسـتمر". (١٤ ، ص ٢٨٨).

(د) الحقد:

تحت ذلك العنوان بالتحديد يؤكـد سـبيرو (٢٧ ، ص ٤٢٧ إلى ص ٤٢٩) أن العجرفـة هـي بـلا شـك أكثـر التعبيرات وضوحا لما يميز السابرا من حقد في تعاملهم مـع أعضاء الكيبوتز. ويمتد ذلك الحقد ليشمل من ليسوا أعضـاء في الكيبوتز أيضا، وإذا ما كان حقد السابرا في تعاملهم مـع أعضاء الكيبوتز يتخذ صورة العجرفة فإنه يتخذ في علاقتهم مع الغرباء صورة الانسحاب العدواني. وأفضل تفسير لكـل من الحقد والانسحاب قد يكون افتقاد الشعور بالأمن شـأنهما شأن الانطواء تماما.

ويمضي سبيرو معلقًا على ذلك (٢٧ ، ص ٤٢٩، إلـى ص ٤٣٥) مشيرا إلى أننا ما دمنا قد استخلصنا أن ما يتميز به السابرا من حقد وانطوائية وحاجة شديدة إلـى التعـاطف والتشجيع إنما هي جميعا أعراض لافتقاد الشعور بالأمن فإن لنا أن نفترض أن ثقافة الكيبوتز تتضمن من الخبرات ما يثير تلك الأعراض. وإذا ما قسمنا التنشئة الاجتماعية في الكيبوتز إلى أقسام ثلاثة:

(١) العناية Caretaking

(٢) التدريب Training

(٣) الرعاية Nurturance

فإننا نستطيع وفقًا لما يراه سبيرو – أن نستبعد احتمـال أن يكون أي من القسمين الأوليين مصدرا لتلك الخبرات، ولا يبقى أمامنا إلا القسم الثالث أي قسم الرعاية.

ونعني بالرعاية إشباع حاجـات الطفـل إلـى الحـب والحماية، ويمكننا أن نستخلص بسهولة أن حاجات الطفل إلى الاعتماد الانفعالي والحماية والحب تلقى إحباطا شـديدا فـي ثقافة الكيبوتز. ويضيف سبيرو أننا نستطيع أن نتبين عـددا من مصادر الإحباط أهمها:-

(١) : عدم وجود مربية واحدة ترافق الطفل طيلة طفولته.

(٢) : بعد أن يحاط الطفل بقدر مبالغ فيه من عطف وحنان وحماية والديه خلال لقاءاته معهم إذا به يفتقد كل ذلـك بمجرد إنجاب طفل أصغر يصبح بدوره مركزا لكـل الاهتمام.

(٣) : الجماعة – أي جماعة الكيبوتز – بأسرها لا الوالدين فقط، تركز اهتمامها على الطفل الأصغر بشكل عـام ومنتظم.

(٤) : الأطفال يتركون بمفردهم ليلاً بما يسبب لهم خبرات بالغة الرعب.

(٥) : كثيرا ما يبتعد الوالدان لسبب أو لآخر عن الكيبـوتز مما يسبب كثيرا من الاضطراب للطفل.

(٦) : نظرا لأن المربية كثيرا ما تكـون مثقلـة بالأعبـاء والمسئوليات فإن الطفل يترك وحيدا ليواجـه عـدوان الأقران فيما قبل سن المدرسة.

(هـ): مشاعر الدونية:

يتحدث سبيرو تحت هذا العنوان مشيرا إلى"إننا بتحليلنا لافتقاد السابرا للأمن أرجعناه إلى إدراكهم للآخرين إدراكـًا مشوبا بالألم، ولكن هناك أساس آخر لذلك الافتقاد للأمن هو إدراكهم المؤلم لذواتهم هم. أنهم يتشككون في قدراتهم الذاتية، وإمكانية الاعتماد عليهم.. ويعد ذلك التشكك بمثابة المصـدر الأول لشعورهم بالدونية. أما المصدر الثاني فهو اعتقـادهم بأنهم أقل ثقافة من غيرهم، وبالتالي أنهم أدنى مـنهم.. أمـا

المصدر الثالث لمشاعر الدونيـة فهـو هـويتهم اليهوديـة فمشاعرهم نحو ديانتهم اليهودية ليست بالمشاعر المحايدة، بل أنها لتنضح حقدا. ونحن نرجح أن ذلك الحقد إنما هو حيلـة دفاعية تحميهم من مشاعر العار والدونية، أو بعبارة- أخرى فإن ذلك الحقد يؤكد شعورهم بالدونية (٢٧، ص ٤٤٥).

خلاصة القول إذن أن ذلك الجيل من السابرا الذي تعده الصهيونية – فيما نرى – لكي يكون النموذج الذي يقتدي به الإسرائيليون المعاصرون، متكلفة في ذلك من المال والجهـد ما حاولنا أن نشير إليه قدر الإمكان ذلـك الجيـل يتصـف بخمس صفات أساسية هي: العدوان، والانطوائية، والبـرود الانفعالي، والحقد، ومشاعر الدونية. وقد يبـدو للـبعض – ومنهم سبيرو – أن ذلك يعني فشلاً أو لنقل تعثـرا لتجربـة الكيبوتز. ولكنا نرى رأيا آخر. أننـا نـرى أن ذلـك هـو المطلوب فعلاً:

نموذج يتجسد فيه عنصري التمايز والاضـطهاد فـي أعنف صورهما، عدواني لا يعرف الرحمة، منغلـق علـى نفسه، لا يعرف حرارة الانفعال، حاقد على كل مـن حولـه شاعر بأنه مختلف عنهم. نموذج يـرفض الـدين اليهـودي

ويتخطاه متخطيا بالتالي ما قد يثيره النمـوذج الـديني مـن عقبات سبق أن أشرنا إليها، نمـوذج يسـتغني تمامـا عـن ضرورة الإلحاح على استمرارية التاريخ اليهودي وما يحمله ذلك الإلحاح من تناقضات. نموذج يبدأ من إسرائيل ليتوحـد به أبناؤها.

ولا يعني ذلك بحال أن تجربـة الكيبـوتزات تجربـة مكتوب لها النجاح حتما فيما تستهدفه مـن خلـق للنمـوذج الإسرائيلي المعاصر، بل أن هناك عقبـة كبـرى تعتـرض طريقها رغم كل الجهود المبذولة مـن جانـب الصـهيونية وتتمثل تلك العقبة – فيما نرى – في امتداد ذلـك الانشـقاق الذي يقسم المجتمع الإسرائيلي إلى أشكنازيم وسفارديم إلـى تلك التجربة أيضا. فالكيبوتزات قد أنشأها الأشـكنازيم ولـم تضم سواهم بشكل عام حتى الآن. بل إن من تسرب إليها من غيرهم قد ووجه – كما بينا – بعدوان شديد. ولـذلك فمـن المحتمل أن يمارس ذلك النموذج الجديد تأثيره على اليهـود الأشكنازيم ويبقى اليهود السفارديم بعيدين عن تأثيره.. مجرد احتمال.

كذلك فإن حديثنا عن حرص الصهيونية علـى إبـراز تجربة الكيبوتزات لا يعني بحال إننا نتوقع قطعا زيادة فـي نسبة عدد قاطنيها أو زيادة في عددها بل على العكس فإننـا نتوقع مزيدا من الذبول العددي للكيبوتزات وقاطنيها للأسباب التي سبق أن أشرنا إليها. بل إنه لن يدهشنا كثيرا أن تعـدل الصهيونية في صمت عن تجربة الكيبوتزات ولكن بعـد أن تكون قد حققت هدفها بالفعل أي بعد أن تخلـق النمـوذج أو المثل الأعلى للإسرائيليين المعاصرين، فهي بعـد أن تنجـز ذلك الهدف – إذا تمكنت من إنجازه لن يصبح هناك مبـرر سيكولوجي على الأقل لاستمرارها في الوجود.

تلخيص وتقييـم

لقد استهدفت دراستنا أساسا محاولة الوصول إلى فهـم موضوعي قدر الإمكان للتكوين السـيكولوجي للإسـرائيليين المعاصرين، وإلى تنبؤ موضوعي – قدر الإمكان أيضـا – لما قد يطرأ على ذلك التكوين مستقبلاً. وحرصا على اكتمال تلك المحاولة بدأناها بعرض لفهمنا لقضية المعرفة الإنسانية بعامة. ومعرفة المجتمع الإسرائيلي بوجه خاص. ثـم ألقينـا نظرة إلى التراث السيكولوجي العام استعرضنا فيها بإيجـاز أهم الأساليب التي اتبعت في الدراسات السابقة التي استهدفت فهما لسيكولوجية شعب من الشعوب دون الاقتراب المباشـر من ذلك الشعب... متناولين كل تلك الأساليب بتقيـيم نقـدي يبرز مزاياه ويوضح مثالية.

وانتهينا من ذلك إلى أنه ليس أمامنا إلا أن نتبع أسلوب دراسة التراث محاولين الاقتراب من المجتمع الإسرائيلي من خلال ما كتبه غيرنا من الباحثين المتخصصين الذين أتيح لهم الاقتراب من ذلك المجتمع. ثم تناولنا بشيء مـن التفصـيل مبررات اختيارنا لعملية التنشئة الاجتماعية كمدخل يمكننا من فهم للاستراتيجية السيكولوجية لإسرائيل، ثم ألقينا الضوء قدر استطاعتنا على ما توقعنا أن يعترض طريقنا من عقبات.

التمسنا بعد ذلك نقطة من نقاط الماضـي نبـدأ عنـدها بحثنا، فاستعرضنا النقاط المختلفة التي انطلق منها غيرنا من الباحثين في فهمهم للمجتمع الإسرائيلي منتهين إلى أن نقطـة البداية المناسبة فيما نرى هي نشأة ذلك الجيل الـذي يطلـق عليه الحالوتس والذي قامت على أكتافـه بالفعـل التجربـة الإسرائيلية. وبدأنا دراستنا بالفعل من تلك النقطـة بفـرض أساسي استخلصناه من دراستنا للتراث مـؤداه أن التكـوين السيكولوجي لذلك الجيل قد تميز بعنصرين أساسـيين همـا الشعور بالتمايز، والشعور بالاضطهاد.

وعرضنا لهذين العنصرين بشيء من التفصيل مركزين على الشواهد الدالة على توافرهما، مناقشين ما قد يبدو مـن شواهد تتعارض مع ذلك، ثم انتقلنا إلى مناقشة طبيعة الحيـاة في أحياء الجيتو بوصفها المناخ الـذي تربـى فيـه جيـل الحالوتس مبرزين ما كانت تحفل به تلك الحياة من مدعمات لعنصري التمايز والاضطهاد محاولين مناقشة ظهور جيـل الحالوتس كاحتجاج على حياة الجيتو وكتعبير أيضا عن نفس العنصرين: التمايز والاضطهاد.

وبدأنا بعد ذلك سياحتنا في المجتمع الإسرائيلي المعاصر الذي يجمع بين جنباته أكثر من مائة قومية مختلفة ومتباينة، والذي يسعى للعثور على البوتقة والصيغة المناسبة لصـهر ذلك الشتات، فتعرضنا أولاً لاستحالة أن تكون الأسرة بمثابة تلك البوتقة، ثم تابعنا بحث المجتمع الإسرائيلي عن بوتقتـه في إحياء اللغة العبرية ثم في المؤسسات التعليمية ثـم فـي المؤسسات العسكرية الدينيـة فالمؤسسـات الأيديولوجيـة، موضحين قدر المستطاع ما يعترض كل من تلك المحاولات من عقبات وما تحرزه من نجاحات.

وتعرضنا بعد ذلك لمناقشة تجربة الكيبوتزات باعتبارها – فيما نرى – أخطـر المحـاولات التـي أقـدمت عليهـا الصهيونية في مجـال خلـق تكـوين سـيكولوجي موحـد للإسرائيليين أي باعتبارها محاولة خلق النموذج الإسـرائيلي المعاصر الذي تعده الصهيونية لمواجهتنا استراتيجيا. فأبرزنا أهم الخصائص السيكولوجية لذلك النموذج وكذلك ما يعترض طريقة من عقبات.

تلك في إيجاز بالغ أبرز الخطوط الرئيسية لدراستنا التي حاولنا خلالها قدر ما استطعنا أن نلتزم بما أشرنا إليـه فـي

استهلالنا لها من أن أسلوب المعرفة الإنسانية هو في جوهره معرفة بما حدث وتفسير له، وتنبؤ بما سيحدث واستعداد له.

وإن هدف تلك المعرفة في النهاية هو كفالة أمن الإنسان واستمراره في حياة آمنة. وفي الحقيقة فإنه لا حدود للمعرفة بهذا المعنى. فمعرفة ما حدث لا تكتمل أبدا، حتى معرفتنـا بعصور ما قبل التاريخ مازالت تزداد حتى اليوم وبالتالي فإن تفسير ذلك الذي حدث عملية مستمرة أبدا كـذلك وبالتـالي فليس ثمة تنبؤ نهائي في العلم وفي العلم بالإنسان على وجه الخصوص، وغلا كف ذلك العلم عن التقدم مكتفيا بما حققـه من فهم للماضي، قانعا بما يكفله له ذلك الفهـم مـن تنبـؤ بالمستقبل.

ويرى بعض أهل العلم – وهم على حق فيما نظن – أن القيمة الحقيقية لأي إنجاز علمي ليست فيما أجاب عنه مـن تساؤلات، بل فيما يطرحه أو يثيره من تساؤلات جديدة. ولو كان لنا أن – نطرح ما أثارته دراستنا من تساؤلات لـدينا، مقدمة لما نأمل أن نثيره من تساؤلات ادى غيرنا فإننا نطرح تلك التساؤلات كما يلي:-

أولاً: ما هي الخصائص السيكولوجية المميـزة لكـل مـن الجماعات التي ينقسم إليها المجتمـع الإسـرائيلي وخاصـة الأشكنازيم والسفارديم؟ إن ذلك الانقسام يمثل أكبر العقبـات التي اعترضت ومازالت تعترض طريق كافـة المحـاولات الصهيونية لخلق كيان سيكولوجي واحد للإسرائيليين.

ثانيا: لابد من دراسة تبعية موضوعية أكثـر تعمقًـا لجيـل السابرا عامة ولتجربة الكيبوتزات بوجه خاص من الناحيـة السيكولوجية في محاولة للوصول إلى تنبؤ أكثر تفصيلاً عن احتمالات المستقبل أمام تلك التجربة باعتبارها – فيما نرى – تمثل أخطر تحديات الصهيونية لنا في مجال الإنسان.

ثالثًا: لابد من دراسة موضوعية أيضـا لتفاصـيل طبيعـة العلاقات – السيكولوجية المعقدة التي تربط بين يهود إسرائيل ويهود الديسابورا.

رابعا: لابد من مسح تقييمي شامل ودقيق لكل ما كتبه العرب عن التجربة الإسرائيلية محاولة منا لتقييم نظرتنا إلـى هـذه التجربة.

تلك هي أهم التساؤلات التي أثارتها لدينا دراستنا هـذه. وإذا كانت تلك التساؤلات تطرح نفسها أساسـا عـل أهـل

الاختصاص العلمي المحدد، فإن هناك تساؤلات أعم وأشمل مطروحة علينا جميعا دون التزام بحدود تخصص معين، ما الذي يجب أن نغيره من أنفسنا لنستطيع مواجهة اســتراتيجية إسرائيل سيكولوجيا؟ وما الذي نستطيع أن نستفيده عمليا من فهمنا لتلك الاستراتيجية المعادية؟

مراجع البحث

أولاً: المراجع الأجنبية:

١. begin, Menachem. The revolt: Story of the Irgun. N. Y.: ١٩٥٤.

٢. Bentwich, N. Palestine, London, ١٩٣٤.

٣. Bernetein, N. H. The politics of Israel: The first decade of statehood, Princeton: ١٩٥١.

٤. Bettelheim, Bruno. The children of the drean, ١٩٦٩.

٥. Bowiby, John, Child care and the Growth of love, London ١٩٥٢.

٦. Braham, Randolph L. Israel: a modern deducation system, Washington, ١٩٦٦.

٧. Brim, O. G. Jr. and Whealer, S. Socialization through the life cycle, In, O. G. Brim, Jr. and S. Wheeler socialization after childhood, N. Y. ١٩٦٦.

٨. Churchill, Randolph S. and Winston S. The si day war, London: ١٩٦٧.

٩. Dairn – Drabkin, H. The other society, London: ١٩٥٢.

١٠. Eisenstadt, S.N. Israeli Society, London: ١٩٥٢.

١١. Elkin, F. The child and society N. Y. ١٩٦٠.

١٢. Fein, Leonard J. Politics in Israel, Boston: ١٩٦٧.

١٣. Freeman, Erika Padan, Psychological study of a family in a kibbutz in Israel, (Unpublished): ١٩٦٤.

١٤. Friedman, Georges. The end of Jewish people., N. Y.: ١٩٦٨.

١٥. Klatzmann, Joseph. Les enseignements de l'experience Israelienne, Paris: ١٩٦٣.

١٦. Kleinberger, Ahara on F. Society, Schools and Progress in Israel, London: ١٩٦٩.

١٧. Landau, J.M. The arabs in Israel: a Political Study. London, ١٩٦٩.

١٨. Levin Shamariah. Childhood in exile, N.Y. ١٩٣٩.

١٩. Matras, Judah. Social Change in Israel, Chicago: ١٩٦٥.

٢٠. Rabin, Al I. growing up in the kibbutz, N.Y. ١٩٦٥.

٢١. Riesman, David. Some types of character and society, In, Stephan P. Spitaer. The psychology of Personality, N. Y. ١٩٦٩.

٢٢. Robertson, A. and Bowlby, J. Observations of the sequences of responses of separation, In, Ashley Montague. The direction of human development; London ١٩٥٧.

٢٣. Rodinson, Maxime. Israel and the Arabs; London: ١٩٦٨.

٢٤. Roth, Cicil. History of the Jews, N. Y. ١٩٦٦.

٢٥. Sacher, Howard morley. The course of modern Jewish hisroty, N. Y.: ١٩٦٣.

٢٦. Sartre, Jean Paul. Anti-semite and Jew, N.Y.: ١٩٦٨.

٢٧. Spiro, Melford E. Children of the kibbutz, N. Y.: ١٩٦٥.

٢٨. Talmon, J.L. The unique and the universal. London: ١٩٦٥.

٢٩. Weiss, Rosmarin T. Jewish survival N. Y.: ١٩٤٩.

٣٠. Willner, Darothy, Nation – Building and community in Israel, Princetion: ١٩٦٩.

ثانيا: الدوريات الأجنبية:

٣١. Bar – Yoseph, rivkah. The pattern of early socialization in the collective settlements in Israel, Hum. Rela. ١٢ N. ٤: ٣٤٥ – ٣٦٠.

٣٢. Bettelhein, B. Individual and mass behavior in extreme situations, Jour. Abno. Socio. Paych., ٣٨: ٤١٧ – ٤٥٢, ١٩٤٢.

٣٣. Eisenstadt, S.N. National character in the perspective of the social sociences, Annals, ١١٦ – ١٢٣ March ١٩٦٧.

٣٤. Glass, Netta Eating sleeping and elimination habits in children attending day nurseries and children cared for at home by bothers, Am. Jour. Orthe, ١٩: ٦٩٧ – ٧١١, ١٩٤٩.

٣٥. Golan, Scmuel. Collective education in the kibbutz, Am. Jour. Ortho., ٢٥: ٥٤٩ – ٥٥٦, ١٩٥٨.

٣٦. Irvine, Elizabeth E. observations on the aims and methods of child – rearing in communal settlements in Israell, Hum Rela. ٥, N. ٣: ٢٤٧; ١٩٥٢.

٣٧. Karp, Richard. Behavior research in collective settlements in Israel: editorial statement, Am. J. Ortho., ٢٨: ٥٤٧ – ٥٤٨, ١٩٥٨.

٣٨. Leon, eisenberg and Kanner, Leo. Early infantileautim, Am. J. Ortho., ٢٦: ٥٥٦ – ١٩٥٦.

٣٩. Matras, Judah. Religion observance and family formation in Israel: some intergenerational change; Am. J. Soc. ٦٩. N. ٥: ٤٦٤ – ٤٧٥, ١٩٦٤.

٤٠. Mead, Margaret. Some critical considerations on the problem of mother – child separation, Am. J. Orto., ٢٤: ٤٧١ – ٤٨٣, ١٩٥٤.

٤١. Meir, Gol.da. In: Life, V. ٤٧ N. ٨: P. ٣٦, ٣١/ ١٠/ ١٩٦٩

٤٢. Rabin, A.I. Attitudes of Kibbuts children to family and parents, Am. J. Orto ٢٩. ١٧٢ – ١٧٩, ١٩٥٩.

٤٣. ________ Childrens apperception test findings with kibbutz and non-kibbutz preschoolers, Jour. Proj. tech., V. ٣٢ N. ٥: ٤٢٠, ١٩٦٨.

٤٤. ________ Infancts and children under conditions of''intermittent' mothering in the kibbutz, am. J. ortho., ٢٨: ٥٧٧ – ٥٨٦, ١٩٥٨.

٤٥. ________ Kibbutz adolescents, Am. J. Orto., V. ٣١ N. ٣: ٤٩٣ – ٥٠٤, ١٩٦١.

٤٦. Rapaport, David. The study of kibbutz education and its bearing on the theory of developments, Am. J. Ortho. ٢٨: ٥٨٧ – ٥٩٧., ١٩٥٨.

٤٧. Rosenfeld, Eva., The American social secientist in Israel: a case study in role conflict, Am. J. Ortho., ٢٨: ٥٦٣ – ٥٧١, ١٩٥٨.

٤٨. Shuval, Judith T. the role of class in structuring inter – group hostility, Hum Rela. V. X N. ١: ٦١ – ٧٥, ١٩٥٧.

٤٩. The role of ideology as a predisposing farme of reference for immigrants, Hum. Rela. V. XXII N. ١: ٥١ – ٦٣, ١٩٥٩.

٥٠. Spiro, M. E. Education in communal village in Israel, Am. J. Ortho. ٢٥: ٢٨٣ – ٢٩٢, ١٩٥٥.

٥١. Talmon, J. L. In: Life, V. ٤٨ N. ٤: P. ٣٥, ٢/٣/١٩٧٠.

٥٢. Talmon Yonina. Social structure and family size, Hum Rela., V. XII N. ٢: ١٢١ – ١٤٥, ١٩٥٩.

٥٣. A ging in Israel, Amer. J. Socio. V. ٦٧ N. ٣: - ٢٩٥, ١٩٦١.

٥٤. Tamostu, Shibutani. Reference groups as perspective, Amer. J. Socio. ٦٠: ٥٦٢ – ٥٦٩, ١٩٥٥.

٥٥. Weintraub, D. and Shapiro, M. The traditional Family in Israel in the process of change, Crisis, and continuity.(Preliminary draft to be published in the British Journal of Socio.).

٥٦. Winograd, Marilyn. The development of the young child in a collective settlement, Amer. J. Ortho., ٢٨:٥٥٧ – ٥٦٢, ١٩٥٨.

ثالثًا: المراجع العربية:

٥٧- أحمد بهاء الدين. إسرائيليات. القاهرة: ١٩٦٥.

٥٨- إسماعيل صبري عبد الله. في مواجهة إسرائيل، القاهرة: ١٩٦٩.

٥٩- إيزنك، هـ. ج. الحقيقة والوهم ف يعلم النفس (ترجمة: قدري حفني ورؤوف نظمي) القاهرة: ١٩٦٩.

٦٠- إيفانوف، يوري. الصهيونية حذار (ترجمة: ماهر عسل) القاهرة: ١٩٦٩.

٦١- جمال حمدان. اليهود أنثروبولوجيا، القاهرة: ١٩٦٧.

٦٢- حاتم صادق. نظرة على الخطر، القاهرة: ١٩٦٨.

٦٣- حسن البدري، وأحمد فخر. الفكر العسكري للعدو وكيف نواجهه، القاهرة: ١٩٧٠.

٦٤- سيرجيون إنجلش، وجيرالد بيرسون. مشكلات الحياة الانفعالية (ترجمة فاروق عبد القادرة، فرج أحمد، قدري حفني، محمد وهبة)، القاهرة: ١٩٥٨.

٦٥- صبري جرجس. التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي، القاهرة: ١٩٧٠.

٦٦- عبد الوهاب الكيالي. الكيبوتز أو المزارع الجماعية في إسرائيل. بيروت: ١٩٦٦.

٦٧- عبده الراجحي. الشخصية الإسرائيلية. القاهرة: ١٩٦٩.

٦٨- غسان كنفاني. في الأدب الصهيوني. القاهرة: ١٩٦٧.

٦٩- كمال الغالي: النظام السياسي الإسرائيلي. القاهرة: ١٩٦٤.

٧٠- محمد علي علوية: فلسطين والضمير الإنساني. القاهرة: ١٩٦٤.

٧١- محمد فرج، فلسطين عربية، القاهرة: ١٩٦٧.

٧٢- محمد بن الشريف، اليهود في القرآن، القاهرة: ١٩٦٩.

٧٣- هيثم الكيلاني: المذهب العسكري الإسرائيلي، دمشق: ١٩٦٩.

رابعًا دوريات عربية

٧٤- السيد يسن. التحليل الاجتماعي للأدب غير المنشور، الآداب، ١٠: ١٨ – ٢٤، أكتوبر ١٩٧٠.

٧٥- قدري حفني. حول التفسير النفسي للتاريخ، الفكر المعاصر، ٦٠: ٢٤ – ٣٤، فبراير ١٩٧٠.

٧٦- مصطفى زيور. التفسير النفسي للسلوك الإسرائيلي، ورحلة اليهودي التائه من الجبن إلى الطغيان، الأهرام، السنة ٩٥، العدد ٢٠١٩٢، ١٩٦٩/٨/٩م.

٧٧- __________ التفسير النفسي للسلوك الإسرائيلي لماذا اختار اليهود أرض فلسطين.. وما هي الدوافع النفسية في سلوك إسرائيل العسكري، الأهرام السنة ٩٥، العدد ٢٠١٩٠٣، ١٩٦٩/٨/١٠م.

٧٨- يهوشفاط هاركابي. الأسباب الرئيسية لهزيمة العرب في حرب الأيام الستة. عرض وتعليق السيد يس. مايو سنة ١٩٧٠، بحث غير منشور.

ملحق رقم ١

تعريف موجز بأهم الأعلام

آرون انتنوفسكي:

أحد العاملين مع لويس جاتمان في المعهد الإسرائيلي للبحوث أشار إليه جورج فريدمان في كتابه"أهي نهاية الشعب اليهودي"؟ كما أن له بحث شهير آخر عن الأنماط الأيديولوجية في إسرائيل أشار إليه جوداه ما تراس في كتابه"التغيير الاجتماعي في إسرائيل ويسير أنتنوفسكي في بحوثه على هدى منهج أستاذه جاتمان فيعتمد على العينات الكبيرة والأسئلة المباشرة والمعالجات الإحصائية. وإن كان ذلك لم يحل دون استخدامه لتلك المعالجات الإحصائية نفسها لإخفاء الحقائق كما يتضح من معالجتنا لإحصاءاته في بحثه عن الأنماط الأيديولوجية في إسرائيل.

سالو ويتمايربارون:

أستاذ التاريخ اليهودي في جامعة كولومبيا بأمريكا من أبرز المؤرخين للتاريخ اليهودي من وجهة النظر الصهيونية. له مؤلف بعنوان" التاريخ الاجتماعي والديني لليهود" صادر

عام ١٩٦٦م يحاول فيه جاهدا أن يرجع فكرة امتداد تاريخ اليهود المعاصرين إلى أزمان غابرة.

ريفكا باريوسف:-

إخصائية اجتماعية، أتمت دراستها في الجامعة العبرية وجامعة هارفارد. كانت تعمل عام ١٩٥٩م في قسم الاجتماع بالجامعة العبرية سبق لها العمل كمربية في أحد الكيبوتزات، ومن خلال تلك الخبرة كتبت بحثًا نظريا عن مقومات التكامل في حياة أبناء الكيبوتزات. اهتمامها الرئيسي بعلم الاجتماع الصناعي.

جوزيف بن دافيد:

أحد أساتذة علم الاجتماع في الجامعة العبرية، مهتم على وجه الخصوص بدراسة جيل السابرا من الوجهة الاجتماعية نشر عام ١٩٦٢م في واشنطون دراسة هامة عن ذلك الجيل بعنوان"الصورة الموحدة والمنحرفة للشباب في مجتمع جديد" وقد أشار جورج فريدمان إلى تلك الدراسة في كتابه"أهي نهاية الشعب اليهودي" منوها بأهميتها.

ماكس بيلوف:-

مؤرخ بريطاني معاصر من مواليد عام ١٩١٣م مدرس للتاريخ في جامعة أكسفورد. له مؤلفات عديدة في موضوعات متصلة بالتاريخ السياسي يميل عموما إلى تبني وجهة النظر الصهيونية.

برونو بتلهايم:-

من أبرز المحللين النفسيين في أمريكا،، من مواليد فيينا عام ١٩٠٣م يجمع بين الفلسفة والخبرة العيادية، غزير الإنتاج، أصدر إلى عام ١٩٦٩م حوالي ثمانية كتب. له مدرسة لتقويم الأطفال عقليا وعصبيا وهي (Orthogenie School) التابعة لجامعة شيكاغو. كان نزيلاً في معتقلي داخاو وبوخنفالد النازيين، وقد نشر عام ١٩٤٣ مقالاً عن خبرته تلك مركزا على مالا حظه من توحد للمعتقلين بحراسهم كما أصدر كتابا عن نفس تلك الخبرة أسماه"القلب الواصل" روى فيه كيف أن تلك الخبرة في خلصته من أفكاره السيكولوجية الدماطيقية السابقة. له كتاب عن تجربة الكيبوتزات الإسرائيلية بعنوان"أطفال الحلم" أتخذ فيه موقفًا متحيزا للتجربة الإسرائيلية بشكل ماف للنظر.

شمويل نواه أيزنشتادت:-

دكتوراه في الفلسفة، أستاذ ورئيس قسم علم الاجتماع في الجامعة العبرية حيث يقوم بالتدريس منذ عام ١٩٤٧م، عمل كأستاذ زائر في جامعات أوسلو، وشيكاغو، وهارفارد، وغيرها. له عدد هائل من المؤلفات المعروفة الذائعة.

يوريل فوا:-

أحد تلامذة جاتمان في المعهد الإسرائيلي للبحوث الاجتماعية التطبيقية.

جورج فريدمان:-

مدير ومؤسس مركز دراسة وسائل الاتصال الجماهيرية التابع لجامعة السوربون، ولد في باريس عام ١٩٠٢م وتخصص في مشاكل العمل وتأثير التكنولوجيا على المجتمع الحديث زار العديد من بلدان الشرق والغرب، وقام بزيارتين لإسرائيل في عامي ١٩٦٣، ١٩٦٤م، على التوالي، وكتب من وحيهما كتابه أهي نهاية الشعب اليهودي. لا يخفى تعاطفه مع التجربة الإسرائيلية. وأن كان ذلك لا يحول بينه وبين رؤية بعض مثالب المجتمع الإسرائيلي - شغل منصب رئيس الرابطة الدولية للعلوم الاجتماعية في الأعوام من ١٩٥٦ - ١٩٥٩.

اليزابيت أ. إيرفين:-

تخرجت من قسم اللغات في جامعة كمبردج عام ١٩٢٧م ثم عملت تحت إشراف سوزان إيزاكس، وتنقلت في عدة وظائف. وخلال عام ١٩٥٠م كانت تعمل كإخصائية اجتماعية في الطب العقلي في إسرائيل تحت إشراف الدكتور جيرالد كابلان، حيث جمعت قدرا من البيانات عن أطفال الكيبوتز من أجل بحث كان يقوم به الدكتور جون بولبي بالاشتراك مع هيئة الصحة العالمية.

جوزيف كلاتزمان:-

من أكبر المراجع في الزراعة الإسرائيلية. مدير معهد الدراسات العملية ومستشار معهد التنمية الصناعية والاجتماعية في فرنسا. يميل في إشاراته إلى تجربة الكيبوتزات إلى أبراز جوانب إخفاقها الاقتصادي وأهميتها التربوية.

جاكوب م. لاندو:-

محاضر في كلية العلوم الاجتماعية بالجامعة العبرية في مادة نظم الحكم في الشرق الأوسط. له مؤلفات عديدة عن الشرق الأوسط في العصر الحديث. كان أستاذا زائرا في

قسم دراسات الشرق الأدنى بجامعة ولاية واين – ديترويت – ميتشجيان عام ١٩٦٨م/ ١٩٦٩ – له دراسة شهيرة عن العرب كما أن له دراسة حديثه عن اليهود في مصر في القرن التاسع عشر.

جوداه ماتراس:-

محاضر في علم الاجتماع بالجامعة العبرية، له كتاب بعنوان التغيير الاجتماعي في إسرائيل – وعدة مقالات في نفس الاتجاه.

ألبرت أ. رابين:-

أستاذ علم النفس ومدير العيادة النفسية في جامعة ميتشجيان له كتاب بعنوان"النمو في الكيبوتز" فضلاً عن مجموعة من البحوث عن أطفال الكيبوتز، استخدم فيها الاختبارات الإسقاطية وحاول فيها بشكل متعسف تبرير تجربة الكيبوتزات والدفاع عنها.

سيسيل روث:-

تلقى تعليمه في جامعة أكسفورد، وأصبح محاضرا في الدراسات اليهودية بها منذ عام ١٩٣٩م أحد محرري انسيكلوبيديا بريتانيكا. من أبرز المؤرخين الصهانية للتاريخ

اليهودي له كتاب بعنوان"تاريخ اليهود" يرجع فيه بذلك التاريخ إلى حوالي (١٦٠٠ ق.م).

هوارد مورلي ساخار:-

حصل على درجاته الجامعية من سوارثمور وهارفارد يعمل مديرا لمعهد جاكوب هيات Jacob Hiatt في إسرائيل التابع لجامعة برانديز Brandais له مؤلف بعنوان"مسار التاريخ اليهودي الحديث".

جوديث ت. شوفال:-

حصلت على ليسانس الاجتماع من كلية هنتر ثم على الماجستير والدكتوراه من كلية راد كليف عام ١٩٥٥ عملت خبيرة في البحوث الاجتماعية في اليونسكو في المعهد الإسرائيلي للبحوث التطبيقية حيث قامت أساسا بتجميع بيانات عن توافق المهاجرين وذلك خلال ١٩٥٧. عملت عام ١٩٥٩م كباحث مساعد في المعهد إلى جانب قيامها بتدريس علم الاجتماع في الجامعة العبرية.

ملفورد أ. سبيرو:-

أستاذ علم الأنثروبولوجيا بجامعة كونكتيكت عمل فترة في قسم الاجتماع بالجامعة العبرية. له دراسة بعنوان"أطفال

الكيبوتز" تعد من أهم الدراسات في هذا المجال، فضلاً عن مجموعة من المقالات في نفس الموضوع. يتميز بأن اتجاهه أقرب إلى الموضوعية وأن كان لا يخفى تعاطفه مع التجربة الإسرائيلية بعامة رغم تحفظه فيما يتعلق بتجربة الكيبوتزات بالتحديد.

جاكوب ل. تالمون:-

أستاذ في قسم التاريخ بالجامعة العبرية. عرض عليه حزب المباي الحاكم مقعدا في الكنيسيت ولكنه رفض. ولد في بولندا عام ١٩١٦م. تلقى تعليمه في بولندا وفلسطين وفرنسا. هرب إلى لندن عقب سقوط فرنسا عام ١٩٤٠م حيث استمر في بحوثه وحصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٤٣م - عمل في المجال الدبلوماسي السياسي إلى أن استقال عام ١٩٤٧م وتلقى منحة دراسية من إسرائيل تمكن خلالها من كتابه مؤلفه"أصول الديمقراطية الشمولية" وبعد أن انتهى منه عين أستاذا للتاريخ الحديث في الجامعة العبرية.

يونيتا تالمون جارير:-

محاضرة في قسم الاجتماع بالجامعة العبرية. لها مؤلف بعنوان"الأسرة في المؤسسات الجماعية" قائم على دراسة ميدانية استمرت لمدة ٤ سنوات.

د. رانتروب:-

أحد مدرسي علم الاجتماع في الجامعة العبرية يتصدر في الأوساط الأكاديمية اتجاها نقديا لتجربة الكيبوتزات باعتبارا لا تساير متطلبات العصر.

ترود فايس روزمارين:-

رئيسة تحرير مجلة جويش سبكاتاتور. لها مؤلف بعنوان انتصار اليهود في صراع البقاء تحاول فيه أن تفسر التاريخ اليهودي باعتبار أن اليهودية دين وقومية في نفس الوقت.

دورثي ويللنر:-

تشغل منصب أستاذ علم الأنثروبولوجيا في جامعة كانساس لها مؤلف بعنوان" بناء الأمة والجماعة في إسرائيل (١٩٦٩)". تتخذ موقف الدفاع عن التجربة الإسرائيلية.

الباب الثالث

شباب عجـوز

دراسة

في سيكولوجية السابرا الإسرائيليين [٣]

---

[٣] أعد هذا البحث للنشر في أكتوبر ١٩٧٢م.

الفصل الأول

السابرا بين مقتضيات السياسة وأصول العلم.

الشباب أم السابرا: صـراع بـين التـاريخ والمكـان

سيكولوجية الشباب الإسرائيلي بين الوحدة والتعدد.

الفصل الثاني:

السابرا وتكوينهم السيكولوجي.

علامات على الطريق.

الانطوائية.

الشعور بالدونية.

التشاؤم والشك.

العدوانية.

الفصل الثالث:

السابرا: شباب عجوز.

محاولة للتفسير.

شباب عجوز.

خـاتمة.

الفصل الأول

" السابرا"! بين مقتضيات السياسة وأصول العالم

الشباب أم السابرا: صراع بين التاريخ والمكان

سيكولوجية الشباب الإسرائيلي: بين الوحدة والتعدد

الشباب أم السابرا:
صراع بين التاريخ والمكان

لم يكن عبثًا أن تعتبر اللغة مقوما أساسيا من مقومـات القومية. فهي في النهاية نتاج بشري تمايز بتمايز المجتمعات البشرية. وأسهم في أحداث ذلك التمايز أيضـا (٤)،(٥)،(٦) ، (٧). ولعل حرص الإسرائيليين على صك لغتهم الخاصة القائمـة

---

(٤) Alexandre, Pierre. Seme linguistic problems of nation – building in Negro – Africa, J.A. Fishman, et al. (eds.) Language Problems of developing nations, John Wily & sons Inc. ١٩٦٨.

(٥) Berezin, F.M. Lectures on linguistics, Highes scl dol publishing house, ١٩٦٩, P. ٥.

(٦) Das Gupta, J.S.J.J. Guparz, Language, Communication, and control in North India, J.A. Fishman, et. Al (eds.) Language problems of developing nations, John wily & sons Inc., ١٩٦٨.

(٧) ستالين، ج حول الماركسية في علم اللغة، دار ابـن سـينا، بيروت (تاريخ النشر غير مبين)، ص ٤.

على"أحياء" اللغة العبرية القديمة، فضلاً عن كونه انعكـاس لضرورات تفرضها طبيعة تكوين المجتمـع الإسـرائيلي[٨]، فإنه كان أيضا تعبيرا عن وعي القائمين على شئون المجتمع بأهمية اللغة كمقوم أساسي من مقومات القومية لا المجتمـع فحسب.

ولعل عالم اللغويات الإسرائيلي حاييم بلانك لم يجـاوز الحقيقة كثيرا في إشارته إلى أنه ليست أكثر الأمور غرابـة بالنسبة للغة العبرية، إنها كانت ميتة وتم أحياؤها صـناعيان بل الغريب حقًا إنها لم تكن اللغة الأم لأحد علـى الإطـلاق وإنه لم يكن ثمة متكلمين بأي لهجات وثيقة الصـلة بهـا[٩]. وعلى ذلك، فإن اللغة العبرية الحديثة – أو اللغة الإسـرائيلية – لغة قديمة الأصول حديثة الاستخدام. ولقد كان على مـن

---

(٨) قدري حفني تجسيد الوهم، مركـز الدراسـات الفلسـطينية والصهيونية – القاهرة/ ١٩٧١م، ص ١٤٥ – ٤٥٠.

(٩) Blance, H. The Israeli koine as an emergent national standard, J. A. Fisman, et al. (eds.) Language roblems of developing nations, john wiley & Sons Inc., ١٩٦٨.

تصدوا لاصطناع المجتمع الإسـرائيلي أن يتصـدوا أيضـا لاصطناع لغة متميزة لذاك المجتمع.

تضم اللغة الإسرائيلية العديد من تلك المصطلحات ذات المذاق الخاص، والتي تم صكها داخل المجتمع الإسـرائيلي، ومن واقع التجربة الإسرائيلية، ولا نعني هنا بطبيعة الحـال ذلك الركام الهائل من المصطلحات التـي شـملتها عمليـة العبرنة السريعة التي لجأ إليهـا الإسـرائيليون، ومـازالوا ماضين فيها لاعتبارات عديدة لسنا بصـدد التعـرض لهـا. فالأمر لا يتعدى في تلك الحالة مجـرد ترجمـة أو تسـمية بسيطة أو حتى معقدة لظواهر اجتماعية أو طبيعية تعرفهـا مجتمعات كثيرة وتتعدد تسمياتها بتعدد لغات تلك المجتمعات. أن ما نعنيه بالتحديد هو تلك المصطلحات التي تـم صـكها للتعبير عن واقع إسرائيلي فريد لا نظير له في المجتمعـات الأخرى. ولا تعني عملية الصك هـذه بالضـرورة ابتـداع المصطلح ابتداعا، بمعنى إضافة كلمة جديدة إلـى مفـردات اللغة لم يكن يضمها قاموس تلك اللغة من قبل لتعبر عن ذلك المقصد الجديد. بل أن ما يحدث في كثير مـن الأحيـان – وخاصة في مجال المصطلحات الاجتماعية – أنه من خـلال

ملابسات اجتماعية محددة يتم إضفاء معنى جديد على كلمـة مستخدمة بالفعل، أي على كلمة موجودة مـن قبـل ضـمن مفردات اللغة المعينة. وذلك هو ما حدث بالتحديـد بالنسـبة لمصطلح الكيبوتز مثلاً في إسرائيل. أن كلمة كيبوتز بالعبرية تعني جماعة. ولكن ثمة ملابسات اجتماعية تاريخية محـددة أضفت على تلك الكلمة القاموسية المعتادة معنـى اجتماعيـا خاصا بحيث أصبحت تعبر عن ظاهرة اجتماعية يتميز بهـا المجتمع الإسرائيلي، والأمر بالمثـل بالنسـبة لمصـطلحات أخرى عديدة تضمها اللغة المستخدمة في إسرائيل حاليا.

وإذا كان أدراج مصطلحات مثل الكيبـوتز، والفاتيـك، والحالوتس ضمن تلك المصطلحات التي تعبـر عـن واقـع إسرائيلي محدد لا نظير له في غير إسرائيل من المجتمعات لا يثير جدالاً، فإن ضم مصطلح السابرا إليها قد يثير جـدالاً كثيرا.

فالقراءة العابرة للكتابات الإسرائيلية توحي أن مصطلح السابرا ليس سـوى تسـمية عبريـة تـدل علـى الشـباب الإسرائيلي، وتحت عنوان السابرا يدور الحديث عـادة عـن طلبه وجنود وأطفال ومراهقين وما إلى ذلك.

أي أنه حديث يدور عن شباب [١٠]، [١١]، [١٢]، [١٣]. وطالما أن الشباب ظاهرة تعرفها المجتمعات البشرية جميعـا. فـإن تناول مصطلح السابرا باعتبار تعبيرا عن واقـع إسـرائيلي فريد قد يعد تعسفًا لا محل له في مجـال التنـاول العلمـي الموضوعي.

قـد يكـون للسـابرا مـن الخصـائص الاجتماعيـة والسيكولوجية بل والبيولوجية أيضا ما يميزهم عن غيـرهم من الإسرائيليين. وقد يكون لهم أيضا ما يميزهم عن شـباب المجتمعات الأخرى ولكن أليس ذلك هو الحال بالنسبة للشباب

---

(١٠) انظر الصفحة التالية.

(١١) Essring, H.S. Abraham Segal. Israel today, Union of American Hebrew congregations, New York ١٩٧٠. P. ٩٧.

(١٢) Spiro, M.E. The Sabras and Zionism; a study in personality and ideology, Social problems, ٥ (٢) ١٩٥٧. pp. ١٠٠ – ١١٠.

(١٣) Friedman, G. The end of Jewish people ? (Trans. French by Eric Mosbacher), Doubleday & Comp. Inc. New York; ١٩٦٨ Passim.

في المجتمعات الإنسانية جميعا. ثمة ما يميزهم عن بقية فئات المجتمع، وثمة ما يميزهم أيضا عن أقـرانهم مـن شـباب المجتمعات الأخرى ولكن أليس ذلك هو الحال بالنسبة للشباب في المجتمعات الإنسانية جميعا. ثم ما يميزهم عن بقية فئات المجتمع، وثمة ما يميزهم أيضا عن أقـرانهم مـن شـباب المجتمعات الأخرى؟ ذلك هو جوهر وجهة النظر التـي قـد تعترض على تناول مصطلح السابرا باعتبار تعبيرا عن واقع إسرائيلي فريد. ولنحاول أن نختبر صحة وجهة النظر هـذه. أو بعبارة أخرى فلنحاول التصدي للإجابة على تساؤل محدد مؤداه: هل"السابرا" تعني"الشباب" في الواقع الإسرائيلي؟.

فلنحدد أولاً ما يعنيه مصطلح"الشباب" بعامة في أي من المجتمعات الإنسانية. لقد درج علماء الإنسانيات على تقسـيم أفراد أي مجتمع يتصدون له تقسيمات تتنـوع بتنـوع مـا تستهدفه تلك التقسيمات. فقد يقسم أفراد المجتمع وفقًا للجنس إلى إناث وذكور، وقد يقسمون وفقًـا لمحـال إقامـاتهم أو لمستويات تعليمهم، أو لمحـال مـيلادهم، أو لـدياناتهم، أو لمهنهم إلى أخر تلك التقسيمات التي لاتخلو منهـا الجـداول الديموجرافية لأي مجتمع بشري.

ومن بين تلك التقسيمات تقسيم أفراد المجتمـع المعـين وفقًا لفئات عمرية تضيق أو تتسع، وتزيد أو تقل حسب مـا يستهدفه التقسيم. ويقوم ذلك التقسيم العمـري أساسـا علـى محكات كمية بحيث ينقسم أفراد المجتمع إلى فئات، تضم كل فئة عددا معينًا من سنوات العمر. وغالبا ما يلي ذلك التقسيم الكمي تسمية نوعية تميز كل فئة أو مجموعة مـن الفئـات العمرية عن غيرها. وأبرز تلك التسميات النوعية وأكثرهـا شيوعا هي: الأطفال، والشباب، والراشدين، والشيوخ.

وقد تتغير تلك التسميات من مجتمع إلى آخر، وقد تنقسم فئة من تلك الفئات إلى فئتين أو أكثر، وقد تندمج فئتـين أو أكثر في فئة واحدة، كما قد تتغير الحدود العمريـة الفاصـلة بين مختلف الفئات من مجتمع إلى آخر. ولكـن يبقـى فـي النهاية أن الشباب مصطلح يدل على إحدى الفئات التي يقسم إليها الأفراد وفقًا لأعمارهم. ينطبق ذلك على الشـباب فـي كافة المجتمعات الإنسانية وكافة العصور أيضا. صـحيح أن الشباب قد يختلفون عن سواهم من أبنـاء نفـس المجتمـع سيكولوجيا واجتماعيا وبيولوجيا، ولكن محور ذلك الاختلاف وجوهره يظل عامل السن دون سواه من العوامـل. ولعـل

التركيز على هذه الحقيقة هو ما يتيح لنا فهم الطبيعة الدينامية المتغيرة لمن يضمهم مصطلح الشباب، بل الطبيعة الديناميـة للتقسيم العمري عامة: أن أطفال اليوم هم شباب الغد وراشدو اليوم هم شباب الأمس، وشباب اليوم هم راشدو الغد وهكذا..

وخلاصة القول إذن أن مصطلح الشـباب يقـوم علـى دعامتين وبدونهما أو بدون أي منهما يفقد المصطلح معنـاه كمصطلح، أي كتعبير أصطلح الناس على معنى محدد له.

وتتمثل هاتين الدعامتين في إيجاز في أن فئة الشـباب تتمايز عن غيرها على أساس من السن. ومن ناحية أخـرى في أن مصطلح الشباب يعبر عن واقع دينامي متغير.

ترى هل يمكن أن ينطبق مصطلح الشـباب بدعامتيـه هاتين على السابرا في إسرائيل؟ أن المعنى الحرفـي لكلمـة السابرا في اللغة العبرية هو نبات التـين الشـوكي. ولعـل معرفتنا بالملابسات الاجتماعية التي صاحبت إضـفاء ذلـك المعنى الفضفاض لجيل السابرا على كلمة التـين الشـوكي وتحويلها إلى مصطلح اجتماعي تسهم إسهاما كبيرا في إلقاء الضوء على دلالة ذلك المصطلح.

لقد أصدر جورج فريدمان عـالم الاجتمـاع الفرنسـي المعروف والرئيس الأسبق للجمعية الدولية لعلم الاجتماع في عام ١٩٦٥م – كتابه المشار إليه آنفًا والمعنون"أهـي نهايـة الشعب اليهودي؟" وقـد ضـمنه تقييمـا مفصـلاً للتجربـة الإسرائيلية كما شاهدها خلال زيارتين قام بهما لإسرائيل في عام ١٩٦٣م ، ١٩٦٤م على التوالي وقابل خلالهما العديـد من قادة الفكر والعلم والدولة في إسرائيل فضلاً عن لقاءاتـه بالعديد من الإسرائيليين المنتمين لمختلف الفئات. وفي مستهل الفصل الرابع في ذلك الكتاب والمعنون"السابرا. أزمة القـيم" يورد فريدمان قصة الملابسات الاجتماعية التاريخيـة التـي صاحبت إطلاق تسمية السابرا هذه مقررا أن ذلك المصطلح قد أخذ يتردد في أعقاب الحرب العالمية الأولى مباشرة وأنه قد انبثق للمرة الأولى في مدرسة هرزليا الثانوية فـي تـل أبيب. وكانت من كبرى المدارس في فلسطين آنذاك، أي في فترة الانتداب البريطاني وكانت تلك المدرسـة تضـم بـين تلاميذها اليهود آنذاك شبابا من مواليد فلسطين إلـى جانـب

آخرين من أولئك الذين نزحوا مع آبائهم من أوروبـا إلـى فلسطين إلى جانب آخرين من أولئك الذين نزحوا مع آبـائهم من أوروبا إلى فلسطين. وغالبا ما كان أولئك الأوروبيـون الذين قدموا من حضارة أكثر تقدما. ونشأوا في ظروف أكثر يسرا، يتفوقون في الدراسة على زملائهم من مواليد فلسطين أبناء الحضارة الأقل تقدما والذين نشأوا في ظـروف أكثـر خشونة. وبالتالي فقد كان مواليد فلسطين هؤلاء يحسون نقصا حيال أقرانهم الأوروبيين اللامعين دراسيا، ومن ثـم كـانوا يلجأون لتعويض شعورهم بالنقص إلى تحدي أولئك الأقـران المتفوقين في نوع من النشاط يرد لهم اعتبارهم وقد تمثل ذلك النشاط في الإمساك بثمرات التين الشوكي وتقشيرها بالأيدي العارية. وكان اليهود من أبناء فلسطين في مدرسة هرزليـا يكسبون التحدي في ذلك المضمار عادة، ويتمكنون بسـهولة من نزع القشرة الشائكة وتحمل وخز أشـواكها والحصـول على الثمرة الحلوة[١٤].

---

(١٤) Friedman, g. Op. Cit. p. ١١٧.

ومن هنا التصقت كلمة"التين الشوكي" –"السابرا" بأولئك الذين كانوا يتفوقون في تقشيره في مدرسة هرزليا ومن هنـا أيضا انتشرت التسمية لتغطية ما يسمى بجيل"السابرا" ذلـك الجيل أذي يختتم فريـدمان روايتـه هـذه بالإشـارة إليـه قائلاً:"وهكذا فقد شهدت إسرائيل في العشرينات جـيلاً مـن السابرا بلغ أفراده الآن سن التقاعد"(١٥).

ولكن... أي سابرا هؤلاء؟ أو بعبارة أخرى، مـا هـي خصائص أولئك الذين أطلق عليهم ذلك المصـطلح للمـرة الأولى، ما هي خصائص أولئك الذين أطلـق علـيهم ذلـك المصطلح للمرة الأولى؟ ترى هل يمكن أن تتوافر دعـامتي مصطلح الشباب اللتان أشرنا إليهما في تعبير السابرا أو على الأصح في أولئك الذين أطلق عليهم ذلك التعبير في البدايـة؟ لكي نتحقق من كل ذلك علينا أن – نتصدى للإجابـة علـى تساؤلين محددين:

أولاً:

(١٥) Ibid.

هل تتمايز فئة السابرا عن غيرها من الفئات السكانية في إسرائيل على أساس السن؟

ثانيا:

هل يعبر مصطلح السابرا عن واقع دينامي متغير في إسرائيل؟.

أن رواية فريدمان – لو أخذنا بها على علاتها – تشير إلى خصائص أربع توافرت فيمن أطلق عليهم تعبير السابرا في العشرينات من هذا القرن:-

(١) : إنهم الشبان اليهود المولودون في فلسطين، في مقابل أقرانهم من الشبان اليهود المولودون في أوروبا.

(٢) : إنهم المتخلفون حضاريا، في مقابل أقرانهم المتفوقين حضاريا.

(٣) : إنهم المتخلفون دراسيا، في مقابل أقرانهم المتفوقين دراسيا.

(٤) : إنهم الأكثر قدرة على تحمل المشاق البدنية المؤلمة في مقابل أقرانهم الأقل قدرة على تحمل مثل تلك المشاق.

ونظرة متأنية إلى تلك الخصائص كفيلة بالرد على مـا طرحناه من تساؤلات. أن من أطلق عليهم تعبير السابرا ومن أطلق في مواجهتهم ذلك التعبير، كانوا جميعا مـن الشـباب اليهودي. بل أنهم جميعا ينتمون إلى شريحة واحدة محددة من الشباب هم طلبة المدارس الثانوية. ومن هنا فـإن مصـطلح السابرا لم يكن منذ البداية ليميز بين الشـباب وغيـرهم ولا حتى بين شريحة شبابية وغيرها بل ولا حتى بين سن وآخر على الإطلاق.

وبذلك نكون قد أجبنا علـى تسـاؤلنا الأول وانهـارت الدعامة الأولى التي يقوم عليها مصطلح"الشباب" أمـا فيمـا يتعلق بالتساؤل الثاني عن مدى تعبير مصطلح السابرا عـن واقع دينامي متغير فيكفي أن نقف قليلاً أمام أولى الخصائص الأربع التي استخلصناها من رواية فريدمان .

فقد يراهم البعض اليوم أكثر تفوقًا في الدراسـة. وقـد يراهم البعض أقل جلدا على تحمل المشاق البدنية، وأقل إقبالاً على العمل اليدوي بعامة من آبائهم وقد يبدو والأمر كذلك أن مصطلح السابرا قد تغير مدلوله بالفعل ويصبح علينا إذن أن نرصد ذلك التغيير ونبين مداه. غير أن المسألة ليست كـذلك

علـى الإطـلاق أن مـا يعنينـا الآن ليسـت الخصـائص السيكولوجية والاجتماعية المميزة لذلك"الجيل" بل هي أساسا قضية التعريف المحدد للمقصـود بتعبيـر"جيـل السـابرا" فاختلاف وجهات النظر حول الخصائص أو الصفات التـي تنسب إلى جيل من أجيـال مجتمـع معـين لـيس بـالأمر المستغرب على الإطلاق في مجال علم النفس الاجتماعي، بل أن مثل ذلك الاختلاف قد يصل أحيانًا إلى حـد التعـارض الصريح خاصة إذا ما تعلق الأمر بجيل الأطفال أو الشباب. ومع ذلك تبقى المسلمة الأساسية التي يقوم عليها الحوار دون التعرض لها بالمناقشة وهي أنه ثمـة أجيـال بالفعـل، وأن التمايز بين تلك الأجيال يقوم أساسا على محور العمر.

ومن هنا ينبغي أن يكون تساؤلنا هو: هل أدت خمسون عاما من استخدام"السابرا" إلى أن يصبح العمر هو المحـور الأساسي لانتماء الفرد الإسرائيلي إلى جيـل يحمـل ذلـك الاسم؟.

لا يبدو أن الأمر قد أصبح كذلك علـى الإطـلاق. أن الكتابات الإسرائيلية الحديثة، رغم إنها – كما سبق. أن أشرنا – تتناول تحت عنوان السابرا فئات شابة من الإسـرائيليين،

إلا أنها تحرص على تأكيد أن صفة السابرا تتعلـق أساسـا بمواليد إسرائيل مـن اليهـود[(١٦)]، [(١٧)]،[(١٨)]،[(١٩)]،[(٢٠)]. ولنـا أن نتصور إذن أن جيل السابرا بهذا المعنى يضم بين صـفوفه فئات عمرية شتى ليست من الشباب في شيء، ويخرج مـن بين تلك الصفوف فئات شبابية شتى كذلك.

وقد ينتمي إلى ذلك الجيل – وفقًا لحرفيـة التعريـف – شيخ يهودي ولد منذ تسعون عاما مثلاً على أرض فلسطين، ونشأ عليها منذ ذلك الحين. وقد ينتمي إليه أيضا شاب يهودي

---

(١٦) Essring, H. & Abraham Segal. Op. Cit. PP. ٩٧ – ١٠٣.

(١٧) Bettelheim, Bruno, The children of the Dream, MacMillan Company, London: ١٩٦٩, Passin.

(١٨) Spiro, M.E. The Sabras and Zionism Op. Cit.

(١٩) Spiro M. E. Kibuts: Venture in Utopia, Schooken Books, New York: ١٩٦٧ P. ٦١.

(٢٠) دويتشر، إسحق، دراسات في المسألة اليهوديـة (ترجمـة مصطفى الحسيني ١٧٢) دار الحقيقـة بيـروت: ١٩٧١: ١٩٧١. ص ٧٨.

يبلغ العشرين ولد على أرض فلسطين لأسرة نزحت من اليمن مثلاً وأقامت في إسرائيل. وقد يضم جيل السابرا كذلك كهلاً يهوديا في الخمسين من عمره ولد منذ ذلك الوقت. ومن ناحية أخرى فإن أقرانًا لهؤلاء يماثلونهم في العمر أو حتى يصغرونهم قد لا يشملهم"جيل السابرا" لأنهم ولدوا خارج إسرائيل ثم نزحوا مع آبائهم أو بمفردهم إليها. وقد يكون من بين هؤلاء مثلاً شقيق لذلك الشاب اليهودي اليمني الذي يبلغ العشرين ولكنه كان رضيعا حين نزحت الأسرة من اليمن ولذلك فإنه لا ينتمي لجيل السابرا في حين ينتمي إلى ذلك الجيل شقيقه الذي يصغره ولو بعام واحد بل قد يكون بين هؤلاء أيضا طفل يهودي هاجر مع أسرته إلى إسرائيل أثر مولده منذ خمس سنوات مثلاً.

جيل السابرا إذن يضم شيوخًا وشبابا، ويستبعد أيضا شيوخًا وشبابا من الإسرائيليين.

لعل ذلك الفهم لتعبير"جيل السابرا" هو الذي يتيح لنا إدراك سر ذلك التداخل والخلط بينه وبين مصطلح الشباب. فرغم اتساع ذلك التعبير ليضم شيوخًا وكهولاً إلى جانب الشباب والأطفال، إلا أن الطبيعة التاريخية لتكوين المجتمع

الإسرائيلي قد أدت إلى أن تصبح النسبة الغالبة حاليـا بـين هؤلاء من الشبان والأطفال. وإن كان استمرار تلـك الغلبـة أمر مرهون بحجم الهجرات المتوقع وفودها إلـى إسـرائيل مستقبلاً. وفي ضوء ذلك الفهم وحده يمكن أن ندرك دلالـة قول فريدمان"أن حوالي ثلث سكان إسرائيل حاليا قد ولـدوا على التراب الفلسطيني (كذا)" ثم قوله أثر ذلك مباشـرة" أن غالبية السابرا من صغار السن" (٢١).

والتسليم بصحة تلك العبارة لا يعني بالضـرورة أن - عكسها صحيح كذلك، أي أنه لا يعني أن غالبية صغار السن في إسرائيل هم ممن ولدوا على التراب الفلسطيني أو بعبارة أخرى ينتمون لما يسمى جيل السابرا.

ولندع الآن مؤقتًا قضية الغالبية والأقلية هذه، فيكفينا أن نستخلص أن"جيل السابرا" يضم بين صفوفه شيوخًا وكهولاً، كما أن أطفال وشباب إسرائيل يضمون بين صفوفهم مـن لا ينتمون لذلك الجيل وبالتالي فإن للكتاب الإسرائيليين ولغيرهم أيضا أن يتحدثوا تحت عنوان السابرا عن شباب إسـرائيلي

Friedman, G. Op. Cit. P. ١١٧ (٢١)

ولكن ليس لهم بحال أن يتحدثوا تحت ذلـك العنـوان عـن الشباب الإسرائيلي.

ترى هل غابت كل تلك البديهيات الأولية عمن تصـدوا للحديث عن السابرا باعتبـارهم الشـباب الإسـرائيلي؟ إن الإحصاءات الديموجرافية الإسرائيلية حي تتعرض لتصنيف سكان إسرائيل تهتم – ضمن ما تهتم به – بتصـنيفهم وفقًـا لمحال ميلادهم. وليس ثمـة بـأس أو غرابـة فـي ذلـك، فالإحصاءات الديموجرافية الخاصة بالتجمعات السكانية فـي العالم أجمع تكاد لا تخلو من تصنيف ينحو ذلك النحو.

ولكن الأمر فيما يتعلق بإسرائيل يتخذ طابعا أخطر مـن مجرد الوقوف عند حد التصنيف. إن إسـرائيل – مجتمعـا ودولة وفكرا – قامت على الاستيطان ومن هنا فإن تصنيف سكانها وفقًا لمحـال مـيلادهم لا يعنـي مجـرد إحصـاء ديموجرافي فحسب يقتصر الاهتمام به على المختصـين أو المهتمين بعلم السكان، ويقتصر تأثيره على حدود ذلك العلـم وما يتصل به من تطبيقات تتعلق بالتخطيط السكاني أو مـا إلى ذلك.

إن محـل مـيلاد المسـتوطن الإسـرائيلي لا يعنـي مجرد"مكان" إنه يعني كذلك – بل قبل ذلك –"تاريخًا" بكل ما تحمله كلمة التاريخ من أبعاد نفسية واجتماعية وحضارية[٢٢]. وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للمستوطن الإسرائيلي المهاجر، فإنه ليس كذلك على الإطلاق بالنسبة للمواطن المولود فـي إسرائيل لأسرة مهاجرة من الشرق أو من الغـرب. محـل الميلاد في تلك الأخيرة لا يمثل سـوى"المكـان" فحسـب"، وليس"التاريخ" بحال من الأحوال. ولابد لنا من التمييز بدقـة بين دلاله بيان"محل الميلاد" في الحالة الأولى ودلالـة ذلـك البيان في الحالة الثانية إنه الفارق بين"المكان" و"التاريخ".

وإذا جاز للديموجرافيين الإسرائيليين التغاضي عن ذلك التمييز بحكم تخصصهم الذي يهتم في المقام الأول بالمكـان والأرقام.ز فإن إقدام علماء النفس والاجتماع على مثل ذلـك الموقف يخرج بالأمر عن نطاق التغاضي المبـرر المفهـوم ليصبح تجاهلاً متعسفًا، وخلطًا يثير التساؤل، وإن لـم يكـن مستعصيا على الفهم.

(٢٢) قدري حفني (تجسيد الوهم)، مرجع سابق، ص ٧٣ – ٧٦.

إن مشكلة تعدد الأصول الحضارية للسكان تعد من أبرز المشكلات التي تواجه إسرائيل. وتتمثل تلك المشكلة في حقيقة أن سكان إسرائيل يحملون تواريخًا حضارية واجتماعية ونفسية تتعدد بتعدد مجتمعاتهم الأصلية. ولقد بذلت إسرائيل – دولة وفكرا – ومازالت تبذل جهودا عديدة وفي اتجاهات شتى لصهر سكانها جميعا على اختلاف أصولهم في بوتقة واحدة تكفل لهم تكوينًا سيكولوجيا موحدا.

وكان طبيعيا أن يتوقع علماء الإنسانيات من الإسرائيليين أو من المهتمين بإسرائيل أن تؤتي تلك الجهود ثمارها متمثلة في أجيال يهودية شابة، تولد على أرض فلسطين، ويتجسد فيها ذلك التكوين السيكولوجي الموحد المرتقب. وليس ثمة ما يحول – من الناحية النظرية الخالصة – دون تحقق مثل ذلك التوقع إذا ما توافرت له الشروط الموضوعية اللازمة لتوحيد أو تنميط عملية التنشئة الاجتماعية كمقدمة لما يمكن أن يترتب على ذلك من تقارب في القيم والعادات والتقاليد والمشاعر مما يؤدي إلى تشكيل التكوين السيكولوجي الموحد.

الأمر بذلك التصور لا يتطلب مجرد أن يتوالد جيـل أو جيلين أو حتى أجيال ثلاثة أو أربعة كما يرى الـبعض[٢٣] ، .على قطعة أرض واحدة ليتحقق ذلك الاندماج تلقائيا، بل[٢٤] إن الأمر لأعقد من ذلك بكثير. مرة أخرى فإن القضية ليست قضية"المكان الجغرافي الواحد" بل إنها أساسا قضية"التـاريخ القومي الواحد" والتاريخ القـومي لا يتشـكل فـي أجيـال معدودات. بل إن مضى الزمن مهما طال لا يمثل فـي حـد ذاته إلا واحدا فحسب من العوامـل المسـاعدة علـى ذلـك التشكيل. وإن كان ذلك لا ينفي أن إمكانية تشكله على المدى الزمني البعيد، ومع توافر الشروط اللازمة تظل قائمة دائما.

ولم تكن مشكلة تعدد الأصول الحضارية في إسـرائيل بالمشكلة التي تحتمل التأجيل أو مجرد الصـبر لقـرون ولا حتى لأجيال. أنها لم تكن مجرد مشكلة أكاديمية أو منهجية أو حتى مشكلة تطبيق عابر يواجهها علمـاء الإنسـانيات فـي

---

(٢٣) Bettelhein, B. Op. Cit. P. ٢٩٩.

(٢٤) Shaham, Nathan La Seconde Generation, Esprit, ٣٤, Innes. No ٣٥٢, Sept. ١٩٦٦. pp. ٢٠٠ – ٢٠٦.

إسرائيل ويتخذون فيها قرارهم وفقًا لمـا تقتضـيه أصـول المنهج العلمي والمقتضيات الموضوعية للتطبيق فحسب. إنها مشكلة موقف سياسي ملح، بل إنها مشـكلة ترسـيخ كيـان إسرائيل الاجتماعي ووجودها السياسي في المقام الأول.

لقد قام"مجتمع" إسرائيل على حجة مؤداهـا أن ليهـود العالم تاريخًا قوميا موحدا، ولا ينقصهم سوى المكان الواحد. ولكن ما أن انهالت موجات المهاجرين اليهود من شتى أنحاء العالم على إسرائيل حتى اهتزت تلك الحجة من الأساس، ولم يجد القائمون على الدولة في إسـرائيل مـن رجـال العلـم والسياسة على حد سواء مناصا من التسليم بأن مشكلة تعـدد الأصول الحضارية أو ما يعرف بمشكلة الاختلافات العرقية من أهم المشكلات التي تواجه الكيان الإسرائيلي، وإن صهر تلك الأصول العرقية المتباينة يعد من أولى المهام التي تواجه القائمين على ذلك الكيان.

ولم يكن الأمر في حاجه إلى تخصص دقيق في العلـوم الإنسانية ليتضح للجميـع أن عمليـة صـهر المسـتوطنين الإسرائيليين أي أولئك الذين هاجروا إلى إسرائيل من شـتى بقاع الأرض ليس بالعملية السهلة. بل ليس بالعملية الممكنـة

على الإطلاق. لم يكن مستطاعا بحال صهر مهاجر بولنـدي وآخر يمني، وثالث إيطالي في بوتقـة واحـدة توحـد مـن تكويناتهم السيكولوجية المتباينة. قد يكون ممكنا، وذلك هو ما حدث بالفعل بدرجات متفاوتة خلق نوع من التعاون والتماسك الموقفي بين هؤلاء جميعا. ولكن ذلك أمر -٠ حتى لو تحقق – يختلـف كليـة عـن توحيـد تكوينـاتهم السـيكولوجية، والاجتماعية.

لم يكن بد أذن أمام المفكرين الإسرائيليين من اصطناع مفهوم جديدة للوحدة القومية بين سكان إسرائيل من اليهـود بعد أن تحطمت فكره وحده التاريخ القومي لليهـود ببـروز الصراعات الحضارية بين سكان إسرائيل واستحالة تحقيـق الدمج الحضاري المنشود بين أفواج المهاجرين المسـتوطنين وتمثــل ذلــك المفهــوم فــي شــعارات مثــل"ثقافــة السابرا"..."الخصائص النفسية لجيل السابرا"..."الاتجاهـات الاجتماعية لجيل السابرا"..." موقف السـابرا مـن التـاريخ اليهودي"...." رأي السابرا في محاكمة إيخمان"... إلى آخـر تلك الشعارات والعبارات التي قد تتعدد أشكالها ومضـامينها أيضا ويظل ما يربط بينهما جميعا – وهو ما يعنينا في هـذا

الصدد – إنها تقوم على التسليم بأن ثمة كتلـه واحـدة مـن الأفراد المتجانسين حضاريا واجتماعيا وسيكولوجيا قد تكونت في إسرائيل بالفعل.

كتله منسـجمة لهـا مواقفهـا وآرائهـا وخصائصـها واتجاهاتها. كتله موحدة من المواطنين الإسـرائيليين تحـل محل الفرق المتنافرة من المسـتوطنين الإسـرائيليين التـي استعصت على التوحيد. كتله يمكن من خلال تأكيد وجودهـا وتجانسها تدعيم مفهوم جديد عن الهوية الإسرائيلية الموحـدة بعد إن أتت حجج العلوم الإنسانية وحقائق الواقع الإسرائيلي نفسه على مفهوم وحده التاريخ القـوم اليهـودي والتكـوين السيكولوجي لليهود بعامه.

وقد تختلف الآراء حول خصائص أو عادات أو طبـاع ذلك الجيل المزعوم ولا بأس من ذلك الخـلاف علـى مـا يستهدفه الفكر الإسرائيلي من إبراز لمفهوم"السابرا" لا بـأس

من أن يرى البعض أن جيل السابرا أقرب إلى السواء [٢٥] ، [٢٦] وأن يراه البعض الآخر أقرب إلى الاضـطراب[٢٧]. لا بأس أن يرى البعض في ذلك الجيل حلا لمشكلات إسـرائيل وبشيرا باستقرارها[٢٨]. وأن يلمح البعض الآخـر إلـى أن بروز ذلك الجيل نذير بصدام بين"الإسرائيلية" و" اليهوديـة" بشكل أو بآخر[٢٩] ، [٣٠] ، [٣١] لا بأس في تلك الاختلافـات

---

(٢٥) Rabin, Ablert I. Kibbutz adolescent, American Journal of Orthopsychiatry, ٣١ (٣), ١٩٦١, PP. ٤٩٣ – ٥٠٤.

(٢٦) Betteheim, B. op. Cit. Passim.

(٢٧) Spiro, M. Children of the kibbutz, Schocken Books, New York ١٩٦٥ Passim.

(٢٨) Alport, E.A. The integration of oriental jews in Israel, The world Today : ٢٥ (٤), ١٩٦٧, pp. ١٥٣ – ١٦٠.

(٢٩) Russcol, Herbert & Margait Banai: The First Million Sabras, Dodd, Mead & Comp., New York : ١٩٧٠ Passim.

(٣٠) Spiro, M. The Sabras and Zinoism, Op. Cit.

جميعا على الأهداف البعيدة لاصطناع مفهوم السابرا طالمـا أن الجميع يسلمون رغم اختلافاتهم بأن ثمة كيـان متجـانس سيكولوجيا واجتماعيا وحضاريا بدرجة تسمح بأن تطلق عليه تسمية واحده تشمل أفراده جميعا هي"السابرا".

بل لعل تلك الاختلافات والمجـادلات المنصـبة علـى التفصيلات قد نجحت بشكل غير مباشر في تدعيم المفهـوم وترسيخه بأن شدت المناقشات بعيدا عن التعرض لمشروعية إطلاق ذلك المصطلح ابتداء في مجال الحديث عن التكـوين السيكولوجي الاجتماعي الحضاري.

---

(٣١) Bettelheim, B. Op. Cit.

سيكولوجية الشباب الإسرائيلي
بين الوحدة والتعدد

قد لا يكون ثمة خلاف حول مشروعية استخدام مصطلح السابرا في المجال الديموجرافي، أو بالتحديد في مجال الإحصاءات السكانية للدلالة على أولئك الذين ولدوا على أرض فلسطين من اليهود بصرف النظر عن الأصول التي انحدروا منها تقاربت أو تباعدت، وبصرف النظر عن الظروف التي نشأوا فيها تشابهت أو تنافرت. على أي حال فإن الاستطراد في هذا المجال أمر قد يخرج بنا كثيرا عن حدود بحثنا الحالي. إن السؤال الذي يواجهنا هو: هل يشكل أولئك الذين ينطبق عليهم مصطلح السابرا ديموجرافيا فئة متجانسة من حيث التكوين السيكولوجي.؟

لابد لنا من وقفة أولاً أمام ما نعنيه بالتحديد من تعبير"التكوين السيكولوجي الموحد". وقد سبق لنا في بحث آخر التعرض بتفصيل واف للديناميات التي تشكل مثل ذلك

التكوين[٣٢] ويمكننا أن نوجز أهم ما فصلناه في فكره واحـدة مؤداها أن التكوين السيكولوجي للفرد – أو طابع شخصيته – إنما يتشكل من خلال عملية التنشئة الاجتماعية – وبالتـالي فإن مدى وحده أو تشابه التكوينـات السـيكولوجية لتجمـع سكاني معين إنما يتحدد وفقًا لمدى وحدة أو تشابه عمليـات التنشئة الاجتماعية التي يتعرض لها أفراد ذلـك التجمـع... بعبارة أخرى، فـإن مـا يجمـع بـين أصـحاب التكـوين السيكولوجي الموحد هو تاريخهم الاجتماعي المتمثـل فـي تشابه عمليات التنشئة الاجتماعية التي تعرضوا لها.

نستطيع إذن أن نعيد صياغة السؤال الذي طرحناه فـي بداية نقاشنا: هل ثمة قدر من التشابه في عمليـات التنشـئة الاجتماعية التي تعرض لها مواليد إسرائيل من اليهود يتـيح لنا أن نتصور لهم جميعا تكوينًـا سـيكولوجيا موحـدا؟ إن الإجابة على ذلك السؤال تقتضينا التسـليم ابتـداء بتماثـل عمليات التنشئة الاجتماعية التي تعرض لها شاب يهودي ولد

---

(٣٢) قدري حفني، المرجع السابق، صـفحات مـن ٤٦ – ٥٨ ومن ٧٣ – ٧٦.

في إسرائيل لأسرة ألمانية مهاجرة مع تلك العمليـات التـي تعرض لها شاب يهودي آخر ولد في إسرائيل أيضا لأسـرة نزحت من جنوب أفريقيا مع تلك التي تعرض لها شاب ثالث ولد في إسرائيل كذلك لأسرة يمنية مهاجرة. بـل إن الأمـر يقتضينا حتما أن نسلم كذلك بأن تلك العمليات جميعا تتشـابه بدورها مع نظيرتها التي تعرض لها شاب يهودي ينحدر من أسرة يهودية لم تبرح مكانها قط.

ترى هل يمكن التسليم بكل ذلك؟ لا نظن أن أحدا مهما بلغ تعصبه للتجربة الإسرائيلية يمكن أن يصل إلى هذا الحـد وإلا لما كان ثمة مبرر على الإطلاق لكل تلك الجهود التـي تبذلها إسرائيل على كافة المسـتويات لحـل مشـكلة تعـدد الأصول العرقية لسكانها، بل لما كان ثمـة مبـرر أصـلاً لإطلاق تسمية السابرا على الشباب الإسـرائيلي رغـم مـا يشوب ذلك من قصور وتناقض.

إن أقصى ما يمكن التسليم به في هذا الصـدد هـو أن العامل الموضوعي المميز الوحيد الذي يجمع بـين هـؤلاء السابرا جميعا وعلى قدم المساواه، والذي يميزهم في الوقـت

نفسه عن غيرهم من يهود إسرائيل إنما يتمثل فـي محـال ميلادهم. أي في أنهم ولدوا وتربوا على أرض فلسطين.

إذن فليس ثمة ما يميز"السابرا" تمييزا جامعا مانعا سوى العامل الجغرافي دون سواه. أما دون ذلك من العوامل فهـي إما عوامل لا تستطيع لهم جمعا كعامل التنشئة الاجتماعيـة التي تتعدد صورها بينهم بتعدد أصولهم الحضـارية. وأمـا عوامل لا تستطيع لغيرهم منعا كعوامل الشعور بـالخطر أو بالاضطهاد أو بالتمايز التي لا يقتصر تأثيرها عليهم وحدهم بل يشمل معهم الإسرائيليين جميعا[٣٣].

وقد يردد البعض. وما الضير في ذلك؟ فليكن ما يجمع بين السابرا هو العامل الجغرافي أو عامل المكاني. ألا تترك الطبيعة الجغرافية بصماتها على التكوين السيكولوجي للبشر؟ أليس صحيحا إن"طبيعة" أهل الصحاري تختلف عن"طبيعـة" أهل الوديان الزراعية؟.. واضح إن مثل تلك التساؤلات إنما تستند إلى حصيلة متراكمة مـن المشـاهدات والملاحظـات المباشرة. فقد يكون صحيحا علميا أن لأهل الصحاري مـن

---

(٣٣) قدري حفني، المرجع السابق.

الخصائص السيكولوجية ما يميـزهم عـن أهـل الوديـان الزراعية، ولكن السؤال هو: هل يرجع ذلك التمايز أساسـا إلى اختلاف الطبيعة الجغرافية أم إلى غير ذلك من العوامل؟ بعبارة أخرى هل ترجع الخصائص السيكولوجية التـي قـد تميز أهالي الصحاري فعلاً إلى شيء ما يكمن في التكوينات المادية لبيئتهم الجغرافية من رمال وجبال وحرارة وعواصف وما إلى ذلك؟ أم أن تمايزهم السيكولوجي إنما يرجع أساسـا إلى اختلاف عمليات التنشئة الاجتماعية التي يتعرضون لهـا عن تلك التي يتعرض لها غيرهم؟

إن جان برويك أستاذ الجغرافيـا بجامعـة مينوسـوتا والرئيس السابق للجمعية الجغرافية الأمريكية يتعرض لمثـل ذلك الموضوع في مقاله المعنون"الطابع القومي فـي ضـوء الجغرافيا" الحضارية مفندا فكرة أن الطبيعة الجغرافية تترك بصماتها على شخصيات البشر المحتكين بها مؤكدا إن علاقة الجغرافيا بالطابع القومي إنما تتمثل فيما يتركه البشـر مـن

بصمات على بيئتهم الجغرافية[٣٤] بعبارة أخرى فـإن تـأثير البشر على البيئة الجغرافية كما يتضح في مدى تمكنهم مـن تغيير معالم البيئة قد يعكس طابعهم القومي أو خصائصـهم الأساسية وليس العكس بمعنى أن العوامل الجغرافية ليسـت بحال من العوامل المحددة للطابع القومي للبشر. ومن هنا فإن لنا أن نؤكد بدورنا أن وحده العامل الجغرافي الذي قد يميـز السابرا ديموجرافيا لا يمكن أن يؤدي في حد ذاتـه إلـى أي تشابه في تكوينهم السيكولوجي.

ترى كيف لنا إذن أن نفسر وجود ذلك الركام الهائل من الكتابات والبحوث والأفكار التي تسلم ابتداء بوجود السـابرا ككيان متجانس سيكولوجيا وسسيولوجيا، ثـم نمضـي فـي الحديث عن خصائص ذلك الكيان وتقييم تلك الخصائص؟ هل تلك الكتابات جميعا، بكل ما تتضمنه من إحصاءات وجداول – رياضية، واختبارات نفسية ومقارنات بين"السابرا" وغيرهم

---

(٣٤) Brock, Jan O.M. National Character in the perspective of Cultural Geography, The Annals of the American Academy of Political and Social Science. Vol. ٣٧٠ March ١٩٦٧. pp. ٨ – ١٥.

داخل إسرائيل، وبين السابرا وأقرانهم خارج إسرائيل هل كلها محض افتراء؟ إذا صح ذلك بالنسبة للأفكار النظرية المجردة فهل يصح كذلك بالنسبة لتلك الأفكار المستخلصة من بحوث ميدانية عملية؟ هل كل هؤلاء العلماء المتخصصين في علوم النفس والأنثروبولوجيا والاجتماع والسياسة من الإسرائيليين وغير الإسرائيليين ومن المتعاطفين مع السابرا والناقدين لهم هل هم جميعا بين مخدوع ومخادع؟ ثم ألا يعتبر إقدامنا على التعامل مع تعبير السابرا بعد كل ذلك وقوعا منا في أسار تلك المخادعة؟

قد يبدو منطقيا إذن أن نلقى بكل شيء في اليم فرحين، نافضين أيدينا من كل ما كتب عن وحده التكوين السيكولوجي للسابرا بقضه وقضيضه، محاولين أن نبحث لأنفسنا عن مدخل جديد يمكننا من دراسة تلك التكوينات السيكولوجية المتعددة التي ينقسم إليها الشباب الإسرائيلي. غير إن ذلك الموقف فيما نرى ليس من الصواب في شيء، لاعتبارات عديدة أهمها:

أولاً:

إنه رغم التسليم بعدم مشروعية استخدام مصـطلح السـابرا للتعبير عن التكوين السيكولوجي للشباب الإسرائيلي بعامـة، فإن إقدام ذلك العدد الكبير من علماء الإنسانيات الإسرائيليين وغير الإسرائيليين على استخدامه وجمع بيانـاتهم الميدانيـة على أساسه يفرض علينا مبدئيا التصدي الدحض مغـالطتهم أو لكشف أخطائهم، وهو مالا يمكـن أن يتحقـق بصـوره مرضية دون إمعان النظر في كتاباتهم.

ثانيا:

إن البحوث السيكولوجية والأنثروبولوجية والاجتماعية التـي أجريت في ذلك المجال قد أجريت بالفعل على شباب يعـيش في إسرائيل. صحيح إن من قاموا بتلك البحوث قـد أطلقـوا على من أجروا عليهم دراسات تعبير السابرا، وصحيح كذلك أن غالبية من قاموا بتلك البحوث قد اعتبروا أن السابرا هـم الشباب الإسرائيلي. ولا جدال في أن ثمة مغالطة في إطلاق التعبير وثمة تعسف في تعميم النتائج. ولكن ذلك كله لا ينفي حقيقة أنه وإن كانت نتائج تلك البحوث لا تعبر عن الشـباب الإسرائيلي غلا أنها تعبر على أي حال عن شباب إسرائيلي. وبالتالي لا يمكن لمن يتصدى لدراسة الكل أن يسـقط مـن

حسابه تلك الدراسات التي تمت بالفعل لجزء من أجزاء ذلك الكل مهما كان موقعه.

ثالثًا:

إن نتائج تلك البحوث التي أجريت تحت عنوان السابرا على شباب إسرائيلي تشير إلى أن ثمة تركيب سيكولوجي متجانس يميز أولئك الذين أجريت عليهم البحـوث. بمعنـى إن تلـك النتائج تشير – بدرجة أو بأخرى – إلى وجـود خصـائص نفسية محددة ومتجانسة تميز قطاعا من قطاعـات الشـباب الإسرائيلي وبصرف النظر عن التسمية التي أطلقها أصحاب البحوث على أفراد ذلك القطاع. وبصرف النظر أيضا عـن تعسفهم في تعميم نتائجهم، فإن علينا إبراز حدود ذلك القطاع من الشباب الإسرائيلي ومناقشة خصائصه النفسية كما تشير إليها نتائج البحوث، ثم علينا قبل ذلك كله تفسير اختيار ذلـك القطاع بالتحديد باعتبار النموذج الممثل للشباب الإسـرائيلي لدى أولئك الباحثين. وتلك كلها أمور لا يمكن أن تتـأتى إلا بتناول تلك البحوث تناولاً متأنيا موضوعيا.

يقول مورتون روبين في عرضـه لكتـاب روفائيـل باتاي"إسرائيل بين الشرق والغرب" موجها خطابه إلى علماء

الإنسانيات الإسرائيليين وذلك عام ١٩٥٤"إن إسرائيل توشك أن تتمزق إلى جماعات عرقية ودينية وسياسية شتى، والأمر موكول إلى المتخصصين في العلوم الاجتماعية ليتكاتفوا في بذل جهودهم"

ويبدو لنا أن اصطناع تعبيـر السـابرا، أو بـالأحرى الانطلاق بذلك التعبير من مجال الاستخدام الدراج إلى مجال العلوم الإنسانية كان نتاجا لتكاتف أولئك الذين توجـه إلـيهم مورتون بخطابه لتلافي تمزق المجتمع الإسرائيلي.

إن استخدام تعبير السابرا في مجال العلـوم الإنسـانية بعامة، وعلم النفس، على الوجه الخصوص، كان فيما نـرى لتحقيق هدف سياسي. وبالتالي فإن فهم دلالة تعبير السـابرا في ذلك المجال يقتضي أن نسلم بأنه تعبير سياسـي ولـيس تعبيرا سيكولوجيا، ونعني بأنه تعبير سياسـي إنـه يكتسـب دلالته من خلال الأهـداف السياسـية الإسـرائيلية وتتحـدد استخداماته بل وتتغير ضيقًا وإتساعا – وفقًا لما تمليـه تلـك الأهداف. وعلى أي حال فإن ذلك ليس بالأمر المستغرب، بل ولا القاصر على تعبير السابرا وحده في إسـرائيل. ولنأخـذ كمثال تعبيرا إسرائيليا سوف تتضح علاقته الوثيقة بموضوع

بحثنا فيما بعد وهو تعبير السفارديم، وهم أساسا يهود البلقان والشرق الأدنى في مقابل الأشكنازيم وهم يهود غرب ووسط وشرق أوروبا.

إن روث بوندي وهي صحفية إسرائيلية الجنسية يهودية الديانة تشيكوسلوفاكية المولد تقول في كتابها الإسـرائيليون: صورة شعب في معرض حديثها عن تعبيـر السـفارديم"إن مصطلح السفارديم كثيرا ما يتسع أو يضيق وفقًا لما تتطلبـه الظروف. فرغم إن اليهودي الإيطالي الذي يعمـل أسـتاذا للفيزياء قد يعتبر سفارديا من حيث المذهب الديني إلا أنه لا يعتبر سفارديا على الإطلاق من الناحية الاجتماعية حتى إن الأم الأشكنازية – رغم تعصبها – قد لا تعترض على قبوله كزوج لابنتها باعتبار (واحد منا). ومن ناحية أخـرى فقـد يتسع معنى المفهوم ليشمل كل من ليس اشكنازيا، بما في ذلك كل يهودي قادم من آسيا وشمال إفريقيا[٣٥] حيث يطلق على

---

(٣٥) المفروض أن يندرج هؤلاء تحت فئة متميزة هي "اليهـود الشرقيين" وليس السافارديم رغم أن الترجمات العربية كثيراً ما تخلـط بين الفئتين بترجمة السفارديم إلى اليهود الشرقيون.

هؤلاء أيضا، اسـتمرارا فـي مجافـاة المنطـق – تعبيـر الفرانكيون رغم إن أسلافهم لم يروا مطلقًا فرانكفونيـا تلـك المنسوب إليها ذلك الاسم الذي تحول مع الزمن إلى سبة(٣٦).

كذلك الحال فيما نرى فيما يتعلق بتعبير السابرا بحيـث يمكن أن يتسع إذا اقتضى الأمر ليشمل كافة أولئـك اليهـود الذين ولدوا على التراب الفلسطيني، ويمكن أيضا أن يضـيق ليقتصر على شريحة بالغة الدقة من أولئك اليهـود – وقـد يجمع باحث واحد بين تلك الإمكانات المتناقضة جميعا فـي بحث واحد كما هو الحال بالفعل بالنسبة لكثير من البحـوث السيكولوجية التي أجريت في هذا المجال، حيث يبدأ الباحث بحثه باستخدام واسع الشمول لتعبير السابرا وكأنهم الشـباب الإسرائيلي جميعا، ثم يركز تناوله الميداني بعد ذلـك علـى قطاع محدود من الشباب الإسرائيلي، ثم يعود فـي النهايـة

---

(٣٦) Bondy, Ruth The Israelis: Profile of a people (Translated from the Hebrew by: Israel ١. Taslitt), Funk & Wagalls (Sabra books), New York: ١٩٦٩, P. ٣٩. .

ليعمم من نتائجه معتبرا من جديد إن السـابرا هـم الشـباب الإسرائيلي جميعا.

وما يعنينا في ذلك الخضم من الضيق والاتسـاع فـي استخدامات تعبير السابرا هو التعرف على هويـة المنتمـين لذلك القطاع من الشباب الإسرائيلي الذي يستأثر عمليـا دون غيره من القطاعات بالجانـب الأكبـر مـن جهـد علمـاء الإنسانيات المهتمين بذلك المجال.

من هم أولئك السابرا ذوي التكوين السيكولوجي الموحد بحكم نتائج البحوث السيكولوجية والأنثروبولوجية فـي هـذا المجال؟ إن تحديد الهوية الاجتماعية في مجتمـع كإسـرائيل إنما يعني في المقام الأول تحديد الأصل العرقي الذي ينتمي إليه الفرد. وبالتالي فليكن سؤالنا: إلى أي الأصول العرقيـة ينتمي هؤلاء السابرا؟ أو بتحديد أكثر: شـباب أي الأصـول العرقية في إسرائيل يشكل السابرا؟.

في عام ١٩٧٠م نشر هربـرت روسـكول، وزوجتـه مارجاليت باناي – وهما من مواطني إسرائيل – كتابا سـبق أن أشرنا إليه بعنوان"المليون الأول من السـابرا": صـورة للإسرائيليين مولدا ووطنًا. ويكفي ذلك العنوان الفرعي الذي

اختاراه للكتاب للدلالة على نظرتهما للسابرا باعتبارهم مواليد إسرائيل بعامة ولقد شملت تلك النظرة صفحات الكتاب جميعا التي أكد فيها المؤلفان أن السابرا هم الإسرائيليون الصـغار من أبناء وبنات المهاجرين من كافة بقـاع الأرض، وإنهـم أصبحوا يمثلون الغالبية بين سكان إسرائيل اليوم بل وإنهم قد طبعوا إسرائيل بطابعهم. ورغم ذلك فإن فكرة واحدة وردت – عرضا ومرت دون تعقيب كفيلة بأن تهدم من الأساس تلك المسلمة التي قام عليها الكتاب عنوانًـا وموضـوعا. ففـي معرض الحديث عما يثير قلق السابرا في إسـرائيل يـورد المؤلفان العديد من الموضـوعات المثيـرة لـذلك القلـق. موضوعات سياسية واقتصادية شتى"... يشعر السابرا بالقلق تجاه موضوعات عديدة تشغلهم المساعدات الروسية للعرب، وارتفاع ضرائب الدخل كنتيجة مباشرة لمحـاولات العـرب المتكررة القضاء عليهم، ويشغلهم كذلك التضـخم النقـدي، وعدم الاستقرار الاقتصادي، وارتفاع قيمة خلو الرجل"، ثـم يضيف المؤلفان بعد ذلك مباشرة"كما يشغلهم – ولكن بدرجة أقل – ارتفاع معدل مواليد اليهود الشرقيين الذي يبلغ ثـلاث

أضعاف نظيره لدى اليهود القادمين من الغرب مما سوف يجعل في إسرائيل شعبا متخلفًا داكن البشرة" [٣٧].

"السابرا" إذن – رغم كل محاولات روسكول وزوجته وباعترافهما أيضا ينزعجون لارتفاع معدل مواليد اليهود الشرقيين. ولو سلمنا ع روسكول وزوجته بأن السابرا هم أولئك الإسرائيليون مولدا وموطنًا، لكان علينا أن نقنع أنفسنا بأن زيادة عدد السابرا يزعج السابرا أنفسهم. أليس مواليد اليهود الشرقيون أيضا إسرائيليون مولدا ومواطنًا؟ أم أن هناك صنفين من السابرا يتربصان ببعضهما الدوائر؟ أم أن أولئك اليهود الشرقيون بتخلفهم وبشرتهم الداكنة لا علاقة لهم بالسابرا؟.

إن جورج مايكس يلقى مزيدا من الضوء على هذه القضية في كتابه"عزم النبي: إسرائيل اليوم وغدا". يقول مايكس في معرض حديثه عن السابرا"لقد غيرت كلمة السابرا من معناها مرتين. كانت تطلق في الأصل على ثمرة حلوه صغيرة شائكة، ثم أصبحت تعني الشباب المولود في

Russcol, H. Op. Cit. P. ٩. (٣٧)

إسرائيل. لقد كان السابرا منذ عشرين عاما شيئًا نادرا بـين أصحاب ذلك البلد من المهاجرين. أما اليوم فإن ما يزيد عن نصف السكان مولودون بالفعل في إسرائيل. ومن ثـم فقـد غيرت الكلمة معناها مـرة أخـرى... إن الأطفـال السـتة والسبعة الذين أنجبتهم أسرة مغربية مـثلاً، والـذين ولـدوا بالفعل في إسرائيل، ولكنهم تربوا في ظل التقاليـد الشـرقية البالية مثل هؤلاء الأطفال بعيدون عن السابرا بعـد موشـى ديان عن القرآن"[٣٨].

ترى هل صحيح أن كلمة السابرا قد غيـرت معناهـا للمرة الثالثة؟ لا نظن. لقد كانت السابرا – وفقًا لعبارة مايكس – تعني الشباب المولود في إسرائيل. كان ذلك منذ عشـرين عاما ولا يقدم لنا مايكس تفسيرا لتغيير مدلول السابرا للمـرة الثالثة سوى بزيادة عدد اليهود المولودين في إسرائيل، وهـو تفسير لا يبدو مقنعا على الإطلاق. لقد كـان السـابرا منـذ عشرين عاما هم الأبناء اليهود المولودين في إسرائيل والذي

---

(٣٨) Mikes: George The Prophet motive: Israel Today and Tomorrow, Andre Dautsch Ltd. London: ١٩٦٩, P. ١٥٣.

تغير في إسرائيل أساسا خلال تلك الحقبة ليس هؤلاء الأبناء عددا أو طبيعة بل إن الذي تغير هو الآباء. ولقد وفدت على إسرائيل خلال تلك الحقبة أعداد هائلة من الآباء الجدد الـذين هاجروا من أوطان عديدة لينجبـوا أبنـائهم علـى التـراب الفلسطيني ولينشئوهم على عاداتهم وتقاليدهم وليربوهم"فـي ظل التقاليد الشرقية البالية" وفقًـا لقـول مـايكس. التنشـئة الاجتماعية إذن كانت ومازالت هي الأساس في التفرقة بـين السابرا وغيرهم، كل ما حدث إن الخصائص التـي كانـت تجمع بين غالبية المولودين في إسرائيل منذ عشرين عاما – أي منذ عشية قيام الدولة الإسرائيلية لم تعد صـالحة للجمـع بين هؤلاء وأولئك الذين ولدوا فيها بعد ذلـك، لأسـباب لا تتعلق بالعدد كما أنها لا تتعلق بالمكان بل هي مـرة أخـرى أسباب تاريخية.

مرة أخرى: من هم هـؤلاء السـابرا؟ يقـول جـورج فريدمان في كتابه أهي نهاية الشعب اليهودي"أعتقد أن ثمـة ثقافة فرعية هي ثقافة السابرا قد اتخذت لها مكانه راسخة في إسرائيل حيث يمكن التمييز بالفعل بين عدد من مثـل تلـك الثقافات الفرعية: ثقافة الفاتيكم ذات الأساس الراسخ والتـي

أندمج فيها كافة المهاجرين القدامى، وأغلبهم من الأشـكنازيم الذين يحتلون مراكز المسئولية في كافـة قطاعـات الحيـاة الإسرائيلية، ثم هناك ثقافة الكيبـوتزيم، وثقافـة الموشـافيم القدامى التي تشكلت قبل موجات الهجرة الكثيفة التي شهدتها الخمسينات" ثم يضيف فريدمان بعد ذلك مباشرة"هناك أخيرا ثقافة جيل السابرا الجديد، وهم أبناء الفاتيكيم الذين لم يبلغـوا الثلاثين" [٣٩]. السابرا إذن وفقًا لعبارة فريـدمان هـم أبنـاء الفاتيكيم الذين هم أساسا من الأشكنازيم الذين يحتلون مراكز المسئولية في كافة قطاعات الحياة الإسرائيلية.

خلاصة القول إذن أن السابرا ليسوا مواليـد إسـرائيل بعامة. وليسوا أيضا الشباب اليهودي المولودين في إسـرائيل جميعا. وهم بالتحديد ليسوا شباب السفارديم ولا شباب اليهود الشرقيين. إنهم من الشباب اليهودي الإسـرائيلي أصـحاب الحضارة الأرقى والمكانة الأرفع والبشرة البيضاء إنهم أبناء الصفوة الإسرائيلية وهم بالتالي صفوة أبنـاء إسـرائيل. إن السابرا في النهاية ليسوا سوى أبناء الأشكنازيم.

Friedman, G. Op. Cit. p. ١٢١. (٣٩)

ترى إلى أي حد يتفق ذلك التحديد الذي توصـلنا إليـه لتعبير السابرا مع ما تشير إليه البحوث التي أجريـت فـي مجال العلوم الإنسانية في ذلك الصدد؟ ينبغي أن نسلم ابتداء بأن عددا من تلك البحوث والكتابات لا يتفق مع ذلك التحديد، بل ينحو أصحابها إلى تناول الشباب الإسرائيلي من الناحيـة السيكولوجية والاجتماعية باعتبار – كالشباب في أي مجتمع آخر – كيانًا منسجما بمعنى أن ما يجمع بين أفراده ككل أكثر مما يفرق بينهم. أو بعبارة أخرى أن أوجه الشبه بين أفـراده تفوق أوجه الخلاف.

إن بنيامين وولمان في دراسته المنشـورة فـي مجلـة الدراسات الاجتماعية اليهودية عام ١٩٤٩ والتي أجريت قبل قيام الدولة الإسرائيلية وعنوانها"التطور الاجتماعي لإسرائيل: الشباب" يخلص إلى تأكيد أن الشباب الإسرائيلي قد تحقق له – قبل قيام الدولة – الاندماج والكيان المنسـجم سـيكولوجيا واجتماعيا[٤٠]. والذي يستوقف النظر حقًا إن ذلك الذي خلص

Wolman, Benjamin. The Social Development (٤٠)
of youth. Psychological Abstracts, ١٩٥٠, No. ٥٧٥٩.

إليه وولمان كما تقول به الدراسة – لم يكن محض اسـتنتاج نظري بل كان نتاجا لدراسة ميدانية استغرقت ثلاثة أعـوام من ١٩٤٣م – ١٩٤٧م. واستمدت بياناتها من أربعـة آلاف شاب وفتاة تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة حتى العشرين. فضلاً عن أن أساليب البحث التي استخدمت في الدراسة قـد تعددت لتشمل المقابلات الشخصية وتحليل المذكرات اليومية الخاصة، والاستبيانات، إلى جانب الملاحظات. فلنسلم ابتداء بأن العينة الكبيرة من الأفراد الذين شملهم البحث تمثل حقًـا الشباب الإسرائيلي آنذاك أو أنها تمثل غالبيته على الأصـح. هل في مقدورنا إذن أن نعمم من نتائج تلك الدراسة لتشـمل الشباب الإسرائيلي اليوم مع التزايد المطرد في نسـبة أبنـاء اليهود الشرقيين واليهود السفارديم في إسرائيل؟ الحقيقـة – فيما نرى – أن النتيجة التي توصل إليها وولمـان صـحيحة تماما في إطارها الزمني. بل إنها لتؤكد ما نذهب إليـه مـن وجود كيان منسجم سيكولوجيا واجتماعيا للسابرا باعتبـارهم أبناء الأشكنازيم أما أبناء السفارديم فهم خارج تلك الدراسـة حتما لأنهم ببساطة لم تكن لهم آنذاك نسبة يعتـد بهـا بـين قاطني إسرائيل من اليهود.

وإذا كان لبحث وولمان وجاهته ومبرراته فـي إطـاره التاريخي فإن بحثًا أجراه حاييم أورميان يفتقد للكثير من ذلك كله. وحاييم أورميان من قدامى المتخصصين في علم النفس في الجامعة العبرية وكاد يكون من أبـرز علمـاء الـنفس الإسرائيليين الذين أمدوا مجلة الملخصات السيكولوجية فـي الخمسينات بالكثير مـن الملخصـات الإنجليزيـة للبحـوث السيكولوجية التي نشرت أصلاً بالعبرية. وقد نشر أورميـان عام ١٩٥٠م أي قبل أن يمضي أكثر من عامين علـى قيـام الدولة الإسرائيلية مقالاً بعنوان" اتجاه طلبة المدارس الثانوية في إسرائيل نحو مندل[٤١] قام فيه برصد اتجاه عينـه مـن طلاب المدارس الثانوية في إسرائيل تجاه أعمال مندل خالصا من رصده إلى أن الشباب في إسرائيل لديهم عامـة اتجـاه إيجابي نحو القصص التي تصف القرية اليهودية في شـرقي

---

(٤١) مندل موشير سيفوريم.

(١٨٢٥ – ١٩١٧) اسمه الحقيقي سولومون رابينوفيتش وهو من أبرز الشخصيات في الأدب اليهودي الحديث، وقد اشـتهر بقصصـه الواقعية التي تدور حول حياة اليهود في الجيتو خاصة في قرى شرقي أوروبا.

أوروبا وخاصة نحو أعمال مندل، نظرا لما تتضمنه من قيم يهودية هامة وأيضا لمهارة مندل في تصوير الحياة اليهودية، وكذلك كاستجابة انفعالية للكارثة الأخيرة [٤٢].ولكـن نمـط الحياة الذي يصفه مندل كان أحيانًا مثيـرا لاتجـاه رافـض ومتناقض وجدانيا [٤٣].

ولنا على بحث أورميان ملاحظتين:-

أولاً:

إنه اعتبر نتائج بحثه معبرة عن اتجاهات الشباب الإسرائيلي بعامة وهو أمر لا يمكن التسليم به منطقيـا لأسـباب ثلاثـة مرتبطة بعضها بالبعض.

(١): إن فترة الخمسينات أي فترة إجراء البحث قد شـهدت تدفق أعداد كبيرة من المهاجرين إلى إسرائيل من بلـدان الشرق.

---

(٤٢) لعله يعني بذلك العسف النازي الذي شهدته أوروبا آنذاك.

(٤٣) Ormian, H. The attitude of Israel High – School students towards mendele, Psychological Abstracts, ١٩٥٠, no. ٧٣٩١.

(٢) : إن أبناء هؤلاء المهاجرين من الشرق إلى إسرائيل لـم يكونوا ليمثلوا نسبة يعتد بها بين طلاب المدارس الثانوية الإسرائيلية آنذاك لانخفاض مسـتوياتهم التعليميـة عـن أقرانهم من أبناء الحضارة الغربية.

(٣) : إنه إذا كان منطقيا أن يتعاطف آنذاك أبناء الحضـارة الغربية – أي أبناء الأشكنازيم – مع ما يتصـل بالحيـاة اليهودية في قرى شرقي أوروبا – مهد حضارتهم – فإنه ليس منطقيا على الإطلاق أن نسلم بوجـود مثـل ذلـك التعاطف لدى اليهود الشـرقيين والسـفارديم الـذين لا تربطهم أية روابط تاريخية ولا عاطفية مع تلك الحياة.

خلاصة القول أن بحث أورميان ينصب فيما نرى علـى اتجاهات أبناء الأشكنازيم في إسرائيل آنذاك.

ثانيا:

أنه حتى في نطـاق اتجاهـات السـابرا – أي أبنـاء الأشكنازيم – نحو أعمال مندل بالتحديد، فإن تلك الاتجاهات قد تغيرت تماما فيما بعد – ويكفي أن نشير إلـى مـا أورده سبيرو في هذا الصدد وهو بمعرض حديثه عـن اتجاهـات السابرا نحو الأدب اليهودي حيث ينقل تعليقًا كثر تردده بينهم

على أعمال مندل يصفها بأنها"لا تثير اهتمامـا لـدينا"[٤٤] ، وإنهم يعتبرون مندل كاتبا"مثيرا للضيق... لأنه يكتـب عـن تلك الأحياء الضيقة المليئة بالخرافات"[٤٥] وأن قراءة منـدل تعد لديهم بمثابة"الخبرة التي تثير قدرا هـائلاً مـن الفـزع والضيق"[٤٦].

ويتفق ذلك الموقف المتضارب من تعريف السابرا مـع ما يقول به ملفورد سبيرو، في مقال له نشر عـام ١٩٥٧ – تحت عنوان"السابرا والصهيونية: دراسـة فـي الشخصـية والأيديولوجية". ويتعرض سبيرو في هـذا المقـال لدراسـة شباب أحد الكيبوتزات في إسرائيل واصفًا إياهم في مسـتهل مقاله بأنهم"مجموعة خاصة من السابرا" باعتبار أن مصطلح السابرا يشير عامة إلى أي يهودي ولد في إسرائيل ويمضي سبيرو في بحثه ويزداد موقف تلك"المجموعة الخاصة مـن

(٤٤) Spiro, M.E. Children of the kibutz. Op. Cit. P. ٣٩٥.

(٤٥) Spiro, M.E. Op. Cit. PP. ٤٥٥ – ٤٥٦.

(٤٦) Sprio, M.E. Ibid, P. ٣٥٧.

السابرا" حيال بقية السابرا وضوحا. إنهم يتخذون من اليهود الشرقيين هدفًا يصبون عليه ازدراءهم وكراهيتهم.

وعادة ما يطلق على الطلبة الشـرقيين فـي المدرسـة الثانوية تعبير"السود" ويكونون عرضه لكثير مـن الإهانـات والمضايقات والسباب.. بل إن بعـض الطلبـة يرفضـون الجلوس على نفس المائدة مع أولئك اليهود الشرقيين الـذين يعملون في الكيبوتز. إن إحـدى فتيـات الكيبـوتز تقـول صراحة"عندما جلس أحدهم – أي أحد هـؤلاء الشـرقيين – بجواري على المائدة وقفت وانصرفت. إن الجلـوس معهـم على نفس المائدة يشعرني بالغثيان. كما أن أحد الراشدين من الذين يطلق عليهم سبيرو تعبير السابرا – يعبر عن مشاعره حيال أولئك الشرقيين بقوله:"لقد كانت أمور هذه البلد علـى خير ما يرام حتى جاء هؤلاء السود"[(٤٧)].

ولا يجد سبيرو ما يفسر به ظاهرة الرفض العنيف هذه، فيكتفي بأن يقرر أن تفسير تلك المشاعر العنيفة التي تميـز كراهية الشرقيين ليس بالأمر البسيط. إن تلك المشاعر فـي

---

(٤٧) Spiro, M.E. The Sabra and Zionism, Op. cit.

حاجة إلى تفسير أكثر تركيبا[٤٨]. إن حيرة سبيرو إنما ترجع إلى خطأ منطلقة النظري الأول. فقد اعتبر منـذ البدايـة أو أولئك الذين تناولتهم دراسته ليسـوا سـوى"مجموعـة مـن السابرا" أي أنهم جزء من كيان متجـانس أكبـر يضـم"أي يهودي ولد في إسرائيل".. وبالتالي فقد كان حتما، أن تنتابـه تلك الحيرة وهو يرى ما تشير إليه نتائجه من أن ذلك"الجزء" يرفض رفضا قاطعا وعنيفًا تقبل بقية أجزاء الكـل، أي أنـه يرفض الانتماء إلى ذلك الكل الذي افترض سبيرو منذ البداية أنه ينتمي إليه. ولم يكن الأمر يتطلب مثل تلك الحيرة علـى الإطلاق لو عدل سبيرو من منطلقه النظري الأول مدركًا أن أولئك الذين يدرسهم ليسوا"مجموعة خاصة من السابرا" بـل إنهم – على الأقل – مجموعتـان أحـداهما مـن السـابرا والآخرين لا تربطهم بالسابرا سوى الكراهية والعداء.

ويتفق ذلك الاتجاه أيضا مع ما يقول به دايتريخ جولـد شميدت في مقاله المنشور عام ١٩٦٢ تحت عنوان"إسـرائيل والعالم الثالث" حيث يتحدث عن موقف من اسـماهم – دون

---

(٤٨) Ibid.

تمييز – الأجيال الشابة الإسرائيلية – حيال الفصل بين الدولة والمجتمع والدين(٤٩).

ويتفق ذلك أيضا مع موقف تاموستوشـيبوتاني وكيـان كوان في كتابهما الصادر عـام ١٩٦٥ والمعنـون"التـدريج العرقي" حيث يعرفا السابرا بأنهم أبناء المهـاجرين اليهـود بعامة، وإنهم"يطورون ثقافة جديدة مختلفة تماما عـن ثقافـة آبائهم(٥٠).

أما شيجيير وزوجتـه، وهمـا مـن رجـال التعلـيم الإسرائيليين فقد نشرا عام ١٩٦٨ مقالاً بعنوان"الاتجاهـات نحو الأطفال العجزة في مجتمع إسرائيل ذو الثقافات المتعددة" وتقوم مادة المقال على بحث أجرى على (١٣٣٣) من الفتيان والفتيات في إسرائيل ممن تتراوح أعمارهم بين عشر سنوات وإحدى عشر سنة، بهدف التعرف على اتجاههم نحو أنـواع العجز البدني والحركة التي تصيب الأطفال. وقد تم تقسيمهم

---

(٤٩) Goldschmidt, Dietrich Israel and the modem world, social compass, ٩ (٣) ١٩٦٢, pp. ٢١٥- ٢٢٠.

(٥٠) Shibutani J. Tamatsu & Klan M. Kwan- Ethnic stratificaxion, MaCmillan, ١٩٥٥, P. ١٢٢.

وفقًا لعدد من العوامل مثل: الأصـل العرقـي، والجـنس، والمكانة الاجتماعية والاقتصادية، ومجال الإقامـة، ومـدى التمسك الأورثوذكي بالدين، وذلك بهدف تبين أن تلك العوامل أكثر تأثيرا في تحديد اتجاهات هؤلاء الأطفال. واتضح مـن النتائج وفقًا لما يقرره المقال – أن العامل الوحيد ذو التـأثير الجوهري في تحديد تلك الاتجاهات كـان عامـل المكانـة الاقتصادية الاجتماعية دون بقية العوامل[٥١].

ويمكننا أن نتبين للوهلة الأولى أن المقال يتجاهل حقيقة يتميز بها المجتمع الإسرائيلي، وهي أن التقسيم وفقًا للمكانـة الاجتماعية والاقتصادية يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالتقسـيم وفقًـا للأصول العرقية حيث يمثل الأشكنازيم قمة الهرم الاقتصادي والاجتماعي ومن ثم فليس من المتصور منطقيـا أن يكـون للعامل الاقتصادي الاجتماعي دون العامل العرقي مثل ذلـك التأثير الجوهري في تمايز الاتجاهات. خاصة وإن المـؤلفين

---

(٥١) Chigier, K. & Mirian Chigier Attitudes to disability of children in the multicultural society of Israel, Journal of health and social behavior ٩٨ (٤), ١٩٦٨, pp. ٣١٠ – ٣١٧.

يسلمان كما هو واضح من عنوان المقال بأن إسرائيل"مجتمع متعدد الثقافات".

لقد ذكر شيجبير وزوجته في مقالهما أنهما قاما ببحثهما المشار إليه بهدف إعادة فحص النتائج التي توصل إليها العالم الأمريكي ريتشاردسون ونشرها مع زملاء له عام ١٩٦١ في مقال بعنوان"التماثل الثقافي في الموقف حيال العجز البـدني" ولو نظرنا إلى بحث ريتشاردسون لوجـدناه يلتـزم بـنفس المنهج ونفس التقييم للعينة وفقًا لعوامـل الجـنس والمكانـة الاجتماعية الاقتصادية، والأصول العرقية، ومحل الإقامة... إلخ.. إلا أن بحث ريتشاردسون لم يسفر عن مثل ذلك التأثير الغالب لعامل المكانة الاجتماعية الاقتصادية ولا لغيره مـن العوامل على الاتجاهـات حيـال العجـز البـدني ويعلـق ريتشاردسون وزملاءه على نتائج بحثهم بقولهم"إن قدرا كافيا من الدلائل في ثقافتنا يشير إلى أن ثمة ما يحط مـن شـأن

أولئك الأشخاص الذين يعانون من عجز بدني" وينتشر مثل ذلك التقييم عامة في وسائل الاتصال الجماهيري... [(٥٢)].

الموقف من العجز البدني ينطلق إذن من ذلك الجانب من التكوين السيكولوجي الذي يشترك فيه أبناء ثقافة معينة على مختلف أصولهم ومكاناتهم ومحال إقامتهم إلى آخره... إنه بعبارة أخرى نتائج لما يعرف بالطابع القومي للشخصية وبالتالي فليس ثمة تفسير لما خاص إليه البحث الإسرائيلي المشار إليه من وجود تأثير جوهري لعامل المكانة الاقتصادية الاجتماعية في ذلك المجال سوى أن ذلك العامل في المجتمع الإسرائيلي إنما يخفى وراءه عاملاً أكثر خطرا وأشد تأثيرا هو عامل التمايز العرقي. اللهم إلا إذا ظن أحد أن الصراع الاقتصادي والاجتماعي في إسرائيل أكثر حدة وبالتالي أشد تأثيرا على التكوينات السيكولوجية للأفراد عنه في الولايات المتحدة الأمريكية.

---

(٥٢) Richardson, S.A. et. Al. Cultural uniformity in Reaction to physical disabilities, American Sociology ٢٦, ١٩٦١, pp. ٢٤١ – ٢٤٧.

كانت تلك نماذج لكتابات حرص أصحابها علـى عـدم التفرقة بين السابرا والشباب الإسرائيلي إما بالإشارة صراحة أو ضمنًا إلى عدم وجود مثل تلك التفرقة، وإما بعدم الإشارة أصلاً إلى تعبير السابرا وتناول الشباب الإسـرائيلي ككـل باعتبار كيانًا سيكولوجيا منسجما. ولكـن ذلـك الموقـف لا ينسحب على بقية الكتابات جميعا. صحيح أنه ليس ثمة تفرقة صريحة واضحة بين تعبيري السابرا والشـباب الإسـرائيلي لدى من تناولوا ذلك الموضوع سواء من الإسرائيليين أو من غيرهم. إلا أن مثل تلك التفرقة يمكن أن نتبينها ضـمنًا فـي ثنايا العديد من البحوث.

لقد نشر باكاليار – آلوان عام ١٩٤٩ مقـالاً بالعبريـة بعنوان" حول الخصائص الانفعالية والعقلية للشباب اليمنـي" تناول فيه بالفحص النفسي ٢٣٧ من الفتيان والفتيـات مـن اليهود اليمنيين الهاربين من الدراسة في مدارس تـل أبيـب ممن تتراوح أعمارهم بين ١٣، ١٥ سنة بهـدف مقـارنتهم بأقرانهم من غير اليمنيين من حيث مستوى الذكاء. والقـدرة على التحصيل الدراسي، وكذلك من حيث تفضيلاتهم للمناهج

الدراسية[٥٣]... وليس لأحد أن يخطيء دلالة تعبير"الشـباب اليمني" الذي يشير ضمنيا إلى أن ثمة شباب ألماني وشـباب عراقي وشباب إيطالي هم في النهاية الشـباب الإسـرائيلي. وذلك فضلاً عن تأكيد باكاليار – ألون في عرضـه لنتائجـه على أن تخلف هؤلاء الشباب اليمنيين في الذكاء والتحصـيل الدراسي إنما يرجع لأسباب وصفها بأنها أسـباب تاريخيـة وليست عرقية.

أما العالم الأمريكي رونالد ماركمان فإنه يتخذ في هـذا الصدد موقفًا أكثر وضوحا وحسما. وإن لم يستخدم – تعبير السابرا على الإطلاق في مقاله المنشور عام ١٩٦٦ تحـت عنوان"جناح الأحداث في إسرائيل" يقول مـار كمـان فـي مستهل مقاله إن المهاجرين الذين تدفقوا على إسرائيل منـذ قيامها في ١٤ مايو عام ١٩٤٨ قد نزحوا إليها مـن بيئـات شتى تتراوح بين المستويات شديدة البدائية والمستويات شديدة التحضر. ورغم اشتراك هؤلاء جميعا في التراث اليهـودي،

---

(٥٣) Bakaliar – Alon Sh. About the emotional and intellectual features of the Yemenite Youth, Psychological Abstracts, ١٩٥٣, No. ١٨٩٨.

فإن هناك فجوة ثقافية ملحوظة تفصل بين اليهودي الأوروبي واليهودي الأفريقي ثم يحدد ماركمان لبحثه هدفين هما:-

(١) استعراض ماطرأ على معدلات الجناح في إسرائيل من ارتفاع أثر موجات الهجرة مباشرة.

(٢) رصد الدور الذي تلعبه الأصول العرقية فـي تطـوير ذلك الجناح. وأهم ما يعنينا حاليا مـن نتـائج دراسـة ماركمان هو تقريره بوضوح"إنه بتحليل الحجم العددي لليهود المولدين في إسرائيل وفقًا لتعداد ١٩٦١، وكذلك الحجم العددي لمن أدينوا قضائيا من الأحداث وفقًا لذلك التعداد، اتضح أن نسبة الأطفال الجانحين المنحـدرين من أسلاف أفرو أسيويين تبلغ ١٨,٧ في الألـف فـي حين تبلغ تلك النسبة بين أولئك المنحدرين من أسلاف أوروبيين أمريكيين ٢ في الألف.. أي أن أكثـر مـن ثلاثة أرباع المذنبين قضائيا خلال عـام ١٩٦١ مـن

الأطفال المولودين في إسرائيل ينتمون إلى ربع التجمع السكاني أي إلى المجموعة الأفروأسيوية [(٥٤)].

خلاصة القول:

إذن إن الشباب اليهودي المنحدر مـن أصـول أفـرو أسيوية أكثر جناحا من غيره في إسرائيل، وذلـك بصـرف النظر عن محل مولده، أي سواء ولد في إسرائيل وتربى فيها أو ولد في موطنه الأصلي وهاجر إليها. ثمة فروق إذن فـي التكوين السيكولوجي بين المنحدرين من مختلـف الأصـول العرقية لا تسمح بالتسليم بأن ثمة شباب إسرائيلي يمثل كيانًا سيكولوجيا منسجما.

وإذا كانت نتائج بحث ماركمان تشير إلى أن الشباب في إسرائيل يتمايزون فـي مجـال الجنـاح وفقًـا لأصـولهم الحضارية، فإن هافاهس في بحث لها نشر بالعبريـة عـام ١٩٦٥ تحت عنوان" نتائج لدراسة مسحية لتلاميـذ الصـف

(٥٤) Markman R.A. Juvenlle dellnquency in Israel, American Journal of Psychiatry ١٢٣ (٤), ١٩٦٦, pp. ٤٦٣ – ٤٦٩.

الثامن بالمدارس الخاصة" تخلص إلى نتيجـة مشـابهة وإن كانت في مجال التحصيل الدراسي حيث قامت باختبار ٨٥٣ تلميذًا من تلاميذ الصف الثـامن بالمـدارس الخاصـة فـي إسرائيل مقارنة بين مستوى التحصيل المدرسي وعدد مـن المتغيرات مثل الجنس والسن وموقع المدرسة والوطن الأم.. إلى آخره. وقد وجدت هافاهس أن ثمة علاقة جوهرية بـين مستوى التحصيل والوطن الأم [٥٥]:

وتتفق تلك النتيجة مع ما توصـل إليـه ج. ب هـس المسئول عن العيادة الخارجية للأمراض العقلية في كوبـات عوليم بالقدس في مقاله المنشور بالعبرية عام ١٩٦٧ تحـت عنوان"مشكلات المراهقة من وجهة نظر العلاج العقلي" فقـد خلص هس بعد فحصه لألفي حاله من المترددين على العيادة

---

(٥٥) Huss, Hava Results of a survey on ٨ th grade pupils in special schools, psychological A bstracts, ١٩٦٧, No. ٦٩٨.

إلى أن ثمة دلائل كثيرة تشير إلى ازدياد معـدلات التخلـف العقلي لدى أولئك الذين ينتمون لأصول شرقية(٥٦).

لقد طرح أيزنشتادت منـذ زمـن مبكـر فـي مقالـه المعنون"الشباب والثقافة والبناء الاجتماعي في إسرائيل" فكرة نرى أنها مازالت جديرة بالمناقشة حتى بعد أن مضى علـى طرحها عشرون عاما أو ما يزيد. يقول أيزنشتادت، وهو في معرض حديثه عن ثقافة الشباب في إسرائيل: إن اتخاذ ثقافة الشباب من الحركات الشبابية القانونية شكلاً معبرا عنهـا أو بالمقابل اتخاذها من السلوك المنحرف كالجناح وسيلة لمثـل ذلك التعبير، أمر يتوقف على الاتجاهات القيمية المشـتركة للبناء الاجتماعي الذي تنبثق منه ثقافة الشباب(٥٧).

---

(٥٦) Hess, J.P. Problems of adolescence from the point of view of psychiatric clinic, Psychological Abstracts, ١٩٦٨, No. ٣٩٩٧.

(٥٧) Eisenstadt, S.N. Routh, Culture, and social structure in Israel, British journal of sociology Vol. ٢, ١٩٥١, pp. ١٠٥ – ١١٤.

ترى هل أجابت أحداث عشرون عاما في إسرائيل على تساؤل أيزنشتادت؟ لقد أجابت بالفعل، ومنذ وقت بعيد وكانت إجابتها إبراز أن ما يسمى بالشباب الإسرائيلي قد اتبع – ولم يكن أمامه غلا أن يتبع كلا الطريقين معا: الحركات الشبابية القانونية والجناح. ذلك لأن ثمة شبابين في إسرائيل: شـباب الأشكنازيم، وشباب غير الأشكنازيم.

الفصل الثاني

السابرا وتكوينهم السيكولوجي

(١) علامات على الطريق.

(٢) الانطوائية.

(٣) الشعور بالدونية.

(٤) التشاؤم والشك

(٥) العدوانية.

علامات على الطريق

خلصنا من حديثنا في الفصـل السـابق إلـى أن ثمـة سيكولوجيتان – على الأقل – يمكن أن يندرج تحتهما الشباب في إسرائيل: واحدة تضم أولئك الشباب الذين ينتمون لأصول سفارديه بغض النظر عما إذا كانوا قد ولدوا بالفعـل علـى أرض فلسطين أو هاجروا إليها مؤخرا. والثانية تضم أولئـك الشباب الذين ينتمون لأصول أشكنازيه دون النظر أيضا إلى مكان مولدهم الفعلي. وواضح أن أغفالنا لمسألة مكان المولد قد انبنى على تسليمنا الذين فصلناه فيما سـبق بـأن قضـية التكوين السيكولوجي هي في الأساس قضية تاريخ وليسـت بقضية مكان.

ولسوف يتركز حديثنا في هذا الفصل علـى التكـوين السيكولوجي لتلك المجموعة من الشـباب اليهـودي الـذين يعيشون على أرض فلسطين، وينتمون لأصول غربيـة أعني شباب الأشكنازيم واختيارنا لتلك المجموعة بالذات دون غيرها لا يعني على الإطلاق أي إغفـال لأهميـة دراسـة التكوين السيكولوجي لشباب السفارديم في إسرائيل. فمثل ذلك

التكوين خليق دون شك بدراسة منفصلة ومفصلة، غيـر أن لاختيارنا المقصود أسبابا أهمها:-

(أ) : أن تلك المجموعة الأشكنازية من الشباب الإسرائيلي هي التي ينطبق عليها بالتحديد تعبيـر السـابرا فـي الاستخدام اليومي لرجل الشارع في إسرائيل في حـين أن السفارديم، وفقًا لذلك الاستخدام يقعون خارج نطاق ذلك المصطلح. ولا يقلل من أهمية تلك الحقيقـة مـا يذهب إليه بعض المتخصصين فـي الإنسـانيات مـن الإسرائيليين وغير الإسرائيليين من اسـتخدام لمفهـوم السابرا بحيث يغطي الشباب الإسرائيلي ككل وعلى حد سواء. فمثل ذلك الاستخدام له من الأغراض السياسية ما سبق أن تناولناه بالتفصيل فيما سبق.

(ب) إن السابرا – وفقًا لفهمنا لذلك التعبير – هم الأقرب إلى تصور السلطة الإسرائيسلية لما ينبغي أن يكون عليـه الشباب في إسرائيل. وليس ذلـك. علـى أي حـال – بالأمر المستغرب، فهؤلاء السابرا ليسوا فـي النهايـة سوى الأبناء الشرعيين لأصحاب السلطة الحقيقية فـي إسرائيل، أعني الأشكنازيم، ولعل ذلك هو ما يفسر لنا

ذلك الحرص الغريب على تركيز الضوء على تجربة الكيبوتز باعتبارها البوتقة المأمولة لصهر هؤلاء الشباب في المقام الأول ثم لتقديم النموذج لغيرهم بعد ذلك[٥٨].

(ت) إن هؤلاء السابرا يمثلون ولسنوات قادمة احتياطي السلطة الإسرائيلية بمعنى أنه إذا كان للأشكنازيين التأثير الأكبر على صنع القرار السياسي في إسرائيل اليوم، فإنهم حريصون على أن يستمر لهم ذلك التأثير في المستقبل من خلال امتدادهم الحضاري والسياسي والسيكولوجي كما يتمثل في أبنائهم أي في السابرا.

(ث) إن أولئك السابرا يمثلون الجانب الغالب – عددا وتأثيرا – من بين العسكريين الإسرائيليين الذين يواجهوننا بالفعل – ومن هنا تكتسب دراسة الأشكنازيم بالنسبة لنا أهمية خاصة تبرر احتلالها للأسبقية الأولى. فلكبارهم اليد الطولى في اتخاذ القرار السياسي والعسكري في

---

(٥٨) قدري حفني، تجسيد الوهم، مرجع سابق، ص ١٨٩، ٢٠١.

قمة الحكم في إسرائيل، ولشبابهم اليد الطولى أيضا في اتخاذ القرارات التنفيذية العملية في الممارسة اليومية في كافة مناحي الحياة في إسرائيل وفي مقدمتها الناحية العسكرية.

حديثنا إذن سوف ينصب على السابرا وحدهم، أي على شباب الأشكنازيم محاولين التوصل قدر ما نستطيع إلى القسمات الرئيسية التي تميز التكوين السيكولوجي لهؤلاء الشباب. ونود أن نؤكد مرة أخرى أن التكوين السيكولوجي ليس سوى النتاج البعيد لعديد من العوامل الاقتصادية والتاريخية والاجتماعية ونكتفي هنا بتلك الإشارة الموجزة دون أن نتعرض لتلك العوامل العديدة التي أسهمت في تشكيل التكوين السيكولوجي الراهن للسابرا، فقد سبق أن تعرضنا لها بقدر من التفصيل في بحث آخر[٥٩] ولنركز حديثنا مباشرة على تلك القسمات المميزة للتكوين السيكولوجي للسابرا.

---

(٥٩) قدري حفني، تجسيد الوهم، مرجع سابق.

تعد قضية دراسة التكوين السيكولوجي عن بعد قضـية شائكة حقًا، وإذا ضربنا صفحا عن الصعوبات المنهجية التي تكتنف مثل ذلك النوع من الدراسات بعامـة فـإن دراسـتنا للتكوين السيكولوجي للسابرا يكتنفها عدد مـن الصـعوبات العملية أهمها:-

(١) أن الدراسات التي تعرضت للموضوع تغطي فترة زمنية طويلة تبدأ على أثر قيام الدولة الإسـرائيلية مباشرة ويمتد حتى اليوم. ورغم ما يضيفه طول تلك الفترة من ثراء فيما يتعلق بالمـادة التـي تتيحهـا البحوث التي أجريت خلالها، فإنه يتطلـب حرصـا شديدا في تناول نتـائج تلـك البحـوث فاصـطناع الصهاينة للمجتمع الإسرائيلي الحديث في فلسـطين عملية قد اتسمت بسرعة وتعـدد التغيـرات التـي صاحبتها خاصة بعد قيام الدولة وبالتالي فإن ما قـد يبدو من اختلاف أو تناقض بين نتائج بعـض تلـك البحوث المتتالية قد يرجع إلـى تغيـر الظـروف الموضوعية المتفاعلة في المجتمع الإسرائيلي، وإلى

ما يترتب على ذلك من تغير لخصـائص العينـات الممثلة لذلك المجتمع.

ولما كان ذلك مجرد احتمال لا يمكن إقامة الدليل علـى تأثيره في نتائج بحوث بعينها إلا بتثبيت مسبق لعديـد مـن العوامل المحددة لتلك النتائج وهو أمر مستحيل قطعا، فـإن تفسير اختلاف نتائج وهو أمر مستحيل قطعا، فـإن تفسـير اختلاف نتائج البحوث المتشابهة التي أجريت علـى فتـرات زمنية متباعدة يظل خاضعا لمدى شمول المعرفـة المتاحـة للباحث خارج النطاق الضيق المتخصص في علـم الـنفس. وكل ذلك هو في النهاية صعوبة إضافية تفرضـها طبيعـة الموضوع.

(٢) : لو استطعنا بوسيلة أو بأخرى تجـاوز الصـعوبة السابقة فإن صعوبة جديدة تواجهنا على الفور. فثمة تناقض قد يبدو في نتائج عدد مـن البحـوث التـي أجريت في نفس الوقت أو في أوقات متقاربة بما لا يسمح بإرجاع ذلك التناقض إلى أن ثمة تغيـر قـد حدث في المجتمع الأصلي موضع البحث بمعنى أن البحوث المتأنية قد تسفر عـن اتصـاف السـابرا

بصفات قد تبدو للوهلة الأولى وكأن لا علاقة بينها، بل حتى وكأنها متناقضة. صفتان كالانطوائية والعدوان مثلاً، أو كاللامبالاه والقلق قد تبدو للوهلة الأولى – أو للعين غير المدربة – كما لو كانتا صفتين على طرفي نقيض ويصبح على الباحث حيال ذلك أن يعود أولاً منقبا في تفاصيل كل بحث على حده باحثًا عن تفسير ذلك التباين في خطوات البحث نفسه.

فإذا ما أطمأن إلى اتساق وسلامة تلك الخطوات من الناحية المنهجية كان عليه أن يلجأ إلى التراث السيكولوجي بعامة محاولاً العثور على بغيته فيه. وهي في النهاية صعوبة إضافية ثانية تفرضها طبيعة الموضوع.

(٣) صعوبة ثالثة تفرضها أيضا طبيعة الموضوع وتتمثل فيما يمكن أن نطلق عليه تغاير معاني المصطلحات فعلم النفس علم حديث إلى حد ما وحداثته تلك قد شجعت وتشجع الكثيرين من علماء النفس والعاملين في مجاله على الاجتراء على اصطناع المصطلحات المناسبة لما يودون في قوله

أو حتى على استخدام المصطلحات السائدة استخدامات جديدة مختلفة. ويستطيع المرء إذا ما كان بصدد دراسة مفردة متأنية تتم عن قرب أن يضع من التعريفات الإجرائية ما يضمن تفسيرا محددا لمصطلحاته. أما إذا كان الباحث حيال ركام هائل من البحوث التي أجراها عديد من الباحثين. فإن الاطمئنان إلى أن ما يعنيه ذلك الباحث بهذا المصطلح هو عين ما يعنيه باحث آخر بنفس المصطلح ليس بالأمر الميسور، بل أنه ليتطلب من الباحث أولاً أن – يوفر لنفسه القدر الأكبر من وضوح التصور النظري لموضوع بحثه ولفروضه الأولية بحيث يمكنه على ضوء ذلك الوضوح أن يتبين طريقة.

(٤) : ولو استطعنا أن نتجاوز تلك الصعوبات السابقة منتهين إلى عدد من القسمات الرئيسية نراها تميز التكوين السيكولوجي للسابرا فقد يواجهنا اعتراض مؤداه: وما أدرانا أن الصفات التي تنتهي تلك البحوث إلى أنها تميز سيكولوجية السابرا هي

صفاتهم حقًا؟ أليس ثمة احتمال أن نكون بشـكل أو بآخر ضحية تحيزات إسرائيلية أو يهوديـة تحـدد مسار تلك البحوث بل وتفرض نتائجها أيضا؟.

ولا يكفي في هذا المقام أن نركن إلـى الاسـتبعاد المنطقي لمثل ذلك الاحتمال البعيد، بل لابـد إلـى جانبه من محك موضوعي يمكن أن نطمـئن إليـه. وليس من محك متاح لنـا سـوى مقارنـة نتـائج الدراسات المختلفة بعضها ببعض وهـي دراسـات شتى قام بها باحثون متعددون، ومن جنسيات مختلفة مستخدمين أساليبا شتى، وبالتالي فإن ما يتوافر مـن اتفاق بين نتائج تلك البحوث يمكن أن يعد محكًا جيدا لصدق تلك النتائج على الأقل في حدود اتفاقها مـع بعضها البعض.

(٥) : تأتي بعد ذلك صعوبة عـرض المـادة المتاحـة. البحوث عديدة، والنتائج شتى، والأساليب المتبعة في البحث متعددة. ويصبح الباحث والحال كذلك حيـال منزلقين يتهددان وضوح عرضه بـل ومفهوميتـه أيضا. ويتمثل المنزلق الأول في أن ينجذب الباحث

نحو عرض أكبر قـدر ممكـن مـن التفصـيلات تتضمنها البحوث التي أتيحت له، مشدودا بمـا قـد تتضمنه تلك التفصيلات من جدة وتشويق، مهمـلاً وضع إطار نظري يضم نتائج تلك البحوث جميعـا. ويصبح القاريء آنذاك حيال شذارات مفتتـة مـن المعلومات لا يستطيع لها جمعا. معلومات قد تكون شيقة، وقد تكون جيدة، وقد تكون صحيحه أيضـا، ولكنها في النهاية ونظرا لتفرقها لا تضيف شـيئًا ذا بال لمعرفة القاريء بموضوع البحث.

أما المنزلق الثاني فيتمثل في أن تخوف الباحث تخوفًـا مبالغًا فيه من الإغراق في التفاصيل قد يؤدي بـه إلـى أن يكتفي بالإشارة من بعيد إلى تفاصيل البحوث التي يتعـرض لها بحيث يقتصر عرضه في النهاية على مجـرد فـروض واستخلاصات نظرية قد لا ينقصها التشويق فحسـب، بـل والمعنى أيضا، ومن هنا فإن وضع خطـة لعـرض المـادة المتاحة بحيث يتجنب بها الباحث هـذين المنـزلقين يمثـل صعوبة عملية إضافية ينبغي الإحاطة بهـا، والتنبـه إليـه، والسعي إلى تجاوزها.

(٦) : إن الحديث عن الخصائص السيكولوجية المميـزة للسابرا هو في جوهره حديث في العلم، وفي علـم النفس بالتحديد وليس بحال حـديثًا فـي الأخـلاق. والفرق كبير شاسع. العلم يبدأ بما هو كائن بالفعل، وله بعد ذلك أن ينطلق إلى المستقبل ما شـاء. أمـا الأخلاقيات فهي تبدأ أولاً بما ينبغي أن يكون ثم لها بعد ذلك أن تعود إلى ما هو كائن مصدرة أحكامهـا عليه. ولذلك فإنه إذا كانت وظيفـة الأخـلاق هـي إصدار الأحكام القيمية فإن وظيفة العلم ليست مـن ذلك في شيء. وقد لا يكون لمثـل ذلـك التحديـد ضرورة بمثل ماله في مجال علم النفس وهو العلـم الذي مازال لصيقًا في أذهان الكثيـرين بالأحكـام الأخلاقية، أي بما يجـب ومـالا يجـب أمـا وإن موضوع بحثنا هو الإسرائيليون فإن ذلـك التحديـد يصبح حتما لا مفر منه وإلا فقدت نتائجنا أي معنى وأية دلاله فتراثنا الفكري مليء بالأحكـام العرقيـة المطلقة على الإسرائيليين وأخشى مـا نخشـاه أن

توضع نتائج دراستنا هذه في إطار تلـك الأحكـام الأخلاقية.

(٧) بمعنى أن تصـيح حكمـا أخلاقيـا جديـدا علـى الإسرائيليين وتأكيدا لأحكام أخلاقية سابقة تصـمهم بالسوء والنذالة وما إلى ذلك. وذلك بصرف النظـر عن صحة أو خطأ تلك الأحكام من الناحية الواقعية.

ورب من يسائلنا هنا: ترى وما الفرق إذن؟ ما الفـرق بين"البخل" كحكم قيمي أخلاقي وبين"البخل" كخاصية سلوكية، أليس البخل واحدا في الحالتين؟ والفرق فيما نرى ليس مجرد تباين في مبررات إطلاق الصفة في الحالتين، أو الأسـاليب التي أتبعت في التوصل إليها، بل إن الفرق يكمن أساسا فـي تغير النتيجة العملية المترتبة على إطـلاق الصـفة المعينـة كالبخل مثلاً من موقع الحكم الأخلاقي وإطلاقها من موقـف الوصف السلوكي العلمي. والحكم الأخلاقي حكم مطلـق لا يعرف النسبية، فالبخل صفة ذميمة، وليس علينا – بل لـيس لنا – بعد ذلك أن نبحث في كيف تكونت، ولماذا ومتى وبأي مقدار، وفي أية ظروف. وبذلك يصبحك البخل كحكم أخلاقي نهاية لطريق المعرفة. نهاية يطمئن إليهـا مصـدر الحكـم

ويمضي مرددا لها، متمسكًا بها، محاولاً تفسير سلوك البخيل بأنه تعبير عنها أو محاولة فاشلة طبعا، لنفي تلك النسبة عنه.

أما البخل كخاصية سلوكية فهو حكم نسبي في أسـبابه نسبي في نتائجه أيضا. بمعنى أنه يضع في اعتبار، أو فـي خلفيته الفكرية على الأقل، الظروف المحـددة لبـروز تلـك الخاصية ولتفاوتها بين فرد وآخر وبين مجموعة وأخـرى، وبالتالي فإن البخل كخاصية سلوكية يصبح مجرد بدايـة لا تستعصي على المناقشة والتفنيد، ويمكن إخضـاعها دائمـا للبحث من جديد.

(٨) : إن الحدود بين المرض والسوء في علـم الـنفس حدود بالغة الدقة، فالانطواء والعـدوان والشـعور بالإثم والانبساط وما إلى ذلك ليست أمراضا نفسـية قد توجد لدى المرضى والأسوياء على حد سـواء، والفيصل في بلوغها حد المرض النفسي أو التزامها نطاق السواء النفسي أمر قـد تختلـف النظريـات النفسية في تفصيلها، وتفصـيلها أيضـا لمحكاتـه المختلفة، وإن كانت تكاد تتفق جميعا على أن الفرق بين المريض والسوى بالنسبة لأي من الخصـائص

النفسية هو فرق كمي في منشئة، وإن المحك العملي الوحيد للتفرقة بينهما هو قدرة الفرد على التوافق مع البيئة الاجتماعية المحيطة به بمعنى أن الدرجة التي يبلغ عندها العدوان حد المرض يختلف من جماعـة إلى أخرى وفقًا للمعايير السلوكية السائدة داخل كـل جماعة.

وبذلك المعنى بالتحديد، فإن الخصائص النفسـية التـي سوف يسفر بحثنا عن أنها تميز السابرا في إسرائيل لا يمكن بحال، ومهما كانت طبيعتها، اعتبـارا خصـائص مرضـية بالمعنى العلمي المتعارف عليه، طالما أن المجتمع الإسرائيلي لا ينظر إلى هؤلاء السابرا باعتبارهم مرضى نفسيين.

قد يكون المجتمع الإسرائيلي"مريضا" بمعنى مـا هـو كذلك بالفعل في حدود معينة، إلا أن ذلك لا يعني بحـال أن السابرا مرضى نفسيون، بل إنه ليعني علـى العكـس أنهـم أسوياء تماما في نطاق ذلك المجتمع"المريض" طالمـا أنهـم متوافقون معه، وطالما أنه متقبل لهم.

وخطورة عدم التنبه إلى ذلك ليست بالتأكيد مجرد خطأ علمي منهجي فحسب، بل إنها في المقام الأول تمثل خطـرا

استراتيجيا إذا صح التعبير. خطرا يكمن في أن الانطلاق من مرضية تلك الخصائص النفسية والتسـليم بالتـالي باعتبـار السابرا مجرد مرضى نفسيين يجعل من التصـدي للقضـية الفلسطينية – في هذا المجال على الأقل – أمر منوطـًا فـي الأساس بعلماء النفس، بل ويكاد يكون قاصرا على علمهـم حيث يجب أن يلتمس المرضى النفسيون علاجهم. ويـؤدي مثل ذلك الموقف من الناحية العملية إلى إهمال علوم أخـرى هي في حقيقة الأمر الأوثـق صـلة والأكثـر تـأثيرا فـي الموضوع كعلوم الاقتصاد والتاريخ والسياسة.

خلاصة القول إذن أن السابرا أسوياء في مجتمعهم وإن أقصى ما تصبوا إليه دراستنا هذه هو السعي إلـى فهمهـم وليس بحال الدعوة إلى علاجهم.

(٨) : الشخصية الإنسانية كيان مركب وليست بالكيان البسيط على الإطلاق ولذلك فكثيرا ما يحذر أساتذة علم النفس مـن يدرسون عليهم من التسرع في إصدار الحكم على شخصـية فرد معين استنادا إلـى تـوافر أو عـدم تـوافر خاصـية سيكولوجية معينة مهما كانت أهمية تلك الخاصية من وجهـة نظر الباحث بعبارة أخرى فإنه لا يمكن الحكم على شخصية

الفرد من خلال تقدير مهما بلغت موضوعيته ودقته لسمه أو لخاصية سيكولوجية واحدة. ومن هنا كان تأكيـد المشـتغلين بالقياس السيكولوجي على مفهوم البروفيل السـيكولوجي أي الصورة التخطيطية التي تجمع في إطار واحد بين التقديرات المتاحة لعدد من القدرات العقلية والانفعالية.

وإذا كان ذلك هو الحال بالنسبة لشخصية الفرد، فالقاعدة أولى بالاتباع بمزيد من التدقيق إذا ما كنا بصـدد محاولـه التعرف على الخصائص السيكولوجية المشتركة لدى أفـراد جماعة معينة. وتزداد أهمية الالتزام بتلك القاعدة إذا ما كانت دراستنا تندرج ضمن تلك الدراسات التي تتم عن بعد.

وفضلاً عن ذلك فإن التسرع في إصدار التقييم النهائي السيكولوجي للسابرا اعتمادا على خاصية مفرده مهما كان بروزها، ومهما كانت أهميتها إنما يؤدي بنا أيضا إلى الوقوع في خطأ شائع يتهدد ذلك النوع من الدراسات عن بعد. وقد سبق أن أطلقنا على ذلك الأسلوب في دراسة سابقة تسمية"أسلوب دراسة العنصر البارز" وتعرضنا بقدر من التفصيل لمثالبه [١].

وعلى أي حال فإنه لا ينبغي قط أن يفهم من ذلك التحديد أن المطلوب هو مجرد استخلاص عدد من الخصائص السيكولوجية ورصدها ثم تسجيلها جنبا إلى جنب. تلك هي بداية الطريق فحسب. فبعد ذلك الرصد والتسجيل تبدأ عملية التقييم، أعني عملية الصياغة النظرية المتكاملة التي تربط بين تلك الخصائص السيكولوجية جميعا في إطار نظري متسق داخليا وخارجيا. بمعنى أن ذلك الإطار من الناحية الداخلية ينبغي أن يتيح إمكانية استخلاص فهم موحد من تلك الخصائص جميعا. فضلاً عن أنه – من الناحية

---

(1) قدري حفني، تجسيد الوهم، مرجع سابق، ص ٣٣ – ٣٥.

الخارجية – ينبغي أن يكون متسقًا قدر الإمكان مع معطيات تلك العلوم الأخرى الأكثر اتصالاً بالموضوع كالتاريخ والاقتصاد والسياسة.

الانطوائية

يمكننا ببساطة أن نعتبر الكيبوتزات الإسرائيلية سواء في ماضيها أو حاضرها وسواء في شكلها أو مضمونها بمثابة مؤسسات شبابية أشكنازية. فهي تتميز من ناحية بأسلوبها الفريد في التنشئة الاجتماعية لأبنائها من الميلاد حتى النضج. وهي تتميز من ناحية أخرى بأن عضويتها تكاد أن تكون قاصرة على الأشكنازيم وأبنائهم، فضلاً عن أنها كفكرة قد صدرت عن مهاجري شرق أوروبا، أي عن الأشكنازيم، ثم إنها كواقع عملي قائم تخضع – شأنها شأن ما في إسرائيل جميعا – لتوجيه وإشراف الأشكنازيم، وبذلك فإن الحديث عن تجربة الكيبوتزات الإسرائيلية يدخل مباشرة في نطاق بحثنا. بل لعله بمثابة بؤرة ذلك النطاق.

ويعد العالم الأنثروبولوجي الأمريكي ملفورد سبيرو واحدا من أبرز الذين كتبوا عن تجربة الكيبوتزات في إسرائيل وتكتسب كتابات سبيرو أهمية خاصة لدينا من تأثر صاحبها بعلم النفس بعامة، وبنظريات التحليل النفسي على وجه الخصوص مما يضفي عليه قدرا من نفاذ البصيرة

والجرأة على التصدي للتفسير نفتقده لدى الكثيرين ولقد عبر سبيرو عن قدراته تلك كأوضع ما يكون التعبير في كتابيه الكيبوتز: مغامرة في مدينة فاضلة[٢] الصادر عام ١٩٥٦م، وأطفال الكيبوتز[٣] الصادر عام ١٩٥٨م. وكان سبيرو يزمع أن يضم إلى كتابيه هذين كتابا ثالثًا لتكتمل بذلك ثلاثيته عن الكيبوتزات في إسرائيل. يختص أول مجلداتها بعرض المناخ الحضاري الاجتماعي السائد في الكيبوتزات. ويختص ثانيهما بتوضيح انعكاسات عملية التنشئة الاجتماعية على نمو الشخصية في الكيبوتزات. ويختص ثالثهما بعرض بناء ديناميات شخصية السابرا كما تكشف عنها نتائج اختبارات الروشاخ[٤]. وقد صدر من تلك الثلاثية بالفعل الكتابين المشار إليهما واعتذر سبيرو عن إصدار الكتاب الثالث في مقدمة الطبعة الجديدة لكتابه الأخير[٥].

Spiro, M.E. Kibbutz: Venture n Utobia op. cit. (2)

Spiro, M.E. Children of the Kibbutz, op. cit. (3)

Spiro, M.E. Op. Cit. P. XX. (4)

Spiro, M.E. Op. Cit. P. XVI.(5)

يورد سبيرو في كتابه الأخير ملاحظة أبدتها إحدى الأمهات الإسرائيليات على سلوك السابرا الكيبوتزيين نصها:"أن الانطواء والتعالي هما أبرز خاصيتين تميزان السابرا" ويعقب سبيرو على تلك الملاحظة واصفًا إياها بأنها"تكشف عن بصيرة سيكولوجية نفاذة" [٦]. ويمضي واصفًا إياها بأنها"تكشف عن بصيرة سيكولوجية نفاذة"[٧] . ويمضي واصفًا سلوك السابرا بقوله:"إنهم لا يتحاشون العلاقات الانفعالية العميقة التي على نطاق ضيق فحسب، بل إنهم يجدون ميلاً للتباعد السيكولوجي حيال الكثرة كذلك.. أنهم يبدون كما لو كانوا قد أحاطوا أنفسهم بقوقعة لا تمتد شخصياتهم إلى خارجها إلا فيما ندر، فضلاً عن أنها تحول دون نفاذ الآخرين إلى ما تحت سطحها الخارجي[٨].

وقد يبدو للوهلة الأولى أن ذلك التباعد السيكولوجي قاصر على العلاقة بين المراهق ووالديه وهو في هذه الحالة

Spiro, M.E. Op. Cit. P. XVI.(6)

Spiro, M.E. Op. Cit. P.124.(7)

Ibid.(8)

قد لا يعدو كونه صورة عابرة من صور صراع الأجيال لا يقتصر وجودها على السابرا ولا حتى على الإسرائيليين بل يكاد يشترك فيها البشر جميعا. إن سبيرو يحسم تلك القضية بتأكيده" أن الخجل والاضطراب في حضور أعضاء الكيبوتز الآخرين يعد من الخصائص المميزة لانطوائية السابرا" [٩]. فضلاً عن تأكيده أن ذلك التباعد السيكولوجي إنما هو خاصية تمتد جذورها إلى ما سبق أن عاناه السابرا في الكيبوتز من خبرات تتميز بالرفض والإهمال في طفولتهم وبالتالي فإنها خاصية ينفرد بها هؤلاء بل إنه ليقرر إمكانية التنبؤ بمظاهر ذلك التباعد من خلال دراسة طبيعة عملية التنشئة في الكيبوتزات، ويمضي مؤكدا"... ونعتقد إن ذلك التنبؤ ينعكس في خاصيتين تميزان السابرا – قلة زياراتهم للوالدين والتباعد النفسي الذي يميز علاقاتهم بالوالدين وبالراشدين الآخرين. وقد يعتبر المظهر الأول بمثابة انسحاب جسمي بعيدا عن مصدر الإحباط المؤلم يمكن التعبير عنه بعبارة: لأنك لا تحبني فمن المؤلم أن أتفاعل معك كذلك فإن المظهر

Spiro, M.E. Op. Cit..(9)

الثاني قد يعتبر أيضا انسحابا للأنا بعيدا عن مصدر الإحباط المؤلم يمكن التعبير عنه بعبارة: لأنك لا تحبني، فإنه يؤلمني أن أظل على رباط عاطفي بك"[١٠].

ويؤكد سبيرو كذلك إن انعدام العلاقات الوثيقة مع الراشدين، والذي لوحظ لدى السابرا لا ينسحب على الشباب الإسرائيلي بعامة مستدلاً على ذلك بأن أحد المسئولين عن حركة الشباب قال له"إنه لم يجد صعوبة قط في إقامة علاقات مع مجموعة من الشباب الشرقي، كانت من بينهم مجموعة من مواليد إسرائيل"[١١]. بل إن ملاحظات سبيرو نفسها تبرز بوضوح أن ذلك التباعد السيكولوجي لا يشمل أبناء الكيبوتز موضع الدراسة جميعا بل السابرا منهم على وجه التحديد[١٢].

ويقرر سبيرو مرة أخرى في موضع آخر من كتابه، وهو بصدد الحديث عن السابرا أن أهم الخصائص التي تميز علاقة المراهق بوالديه هي تباعده السيكولوجي فرغم أن

Ibid. (10)

Spiro, M.E. Op. Cit. P. 425.(11)

Spiro, M.E. Op. Cit. P. 428. (12)

المدرسة الثانوية لا تبعد بأكثر من خمس دقائق سيرا على الأقدام عن محل إقامة أي من الآباء، فإن تسعة فقط من التلاميذ ضمن عينه ممثلة تضم واحدا وثلاثون تلميذًا ذكروا أنهم يزورون آبائهم يوميا، وكانت أعمار هؤلاء جميعا فيما عدا اثنين تقل عن الخمسة عشر عاما[١٣]. ويعلق سبيرو على ذلك بقوله:"إذا ما كان لنا أن نعتبر معدل التفاعل الاختياري مقياسا مناسبا للتباعد النفسي، فإن لنا أن نستخلص من تلك البيانات وحدها أن التباعد السيكولوجي هو الوصف الحقيقي لاتجاه هؤلاء التلاميذ" [١٤].

خلاصة ما يذهب إليه سبيرو إذن أن السابرا يتميزون ضمن ما يتميزون به بإنطوائية تكاد أن تضرب ستارا كثيفًا يحول بينهم وبين إقامة علاقات مع بعضهم أو مع غيرهم. ويحول بين الآخرين وبين النفاذ إلى دخائلهم.

وللقاريء بطبيعة الحال، بل ولنا أيضا، أن نتشكك في ذلك الذي توصل إليه سبيرو رغم حرصه على توثيق كافة

Spiro, M.E. Op. Cit. P. 337.(13)

Ibid.(14)

ملاحظاته توثيقًا تفصيليا دقيقًا بإسنادها إلى الملاحظات الموضوعية المضبوطة وإلى الاختبارات المقننة ما أمكن ذلك. فضلاً عن حرصه على عرض تلك الملاحظات والاستخلاصات في صورة الجداول الرياضية مما يسهل فهمها بل وتفنيدها كذلك. ورغم كل ذلك يمكننا أن نطرح شكوكنا في صورة تساؤلين محددين:-

(١): لقد خلص سبيرو إلى نتائجه تلك من دراسة أجراها على كيبوتز أسماه كيريات بيديديم خلال إقامته في ذلك الكيبوتز إقامة استمرت إحدى عشر شهرا من عام ١٩٥١م، ترى هل ما يصدق على السابرا في ذلك الكيبوتز يصدق على أبناء الأشكنازيم جميعا؟

(٢): لقد أجريت دراسة سبيرو كما أشرنا عام ١٩٥١م، أي منذ ما يزيد عن عشرين عاما. ترى أليس محتملاً أن يكون سابرا السبعينات أقل انطوائية وأكثر انفتاحا عن سابرا الخمسينات؟.

وللإجابة على هذين التساؤلين علينا أن ننقب في البحوث الحديثة التي أجريت على السابرا محاولين أن نتبين ما إذا كانت خاصية الانطواء هذه قد خفتت أو تلاشت من

نتائج تلك البحوث أم أنها مازالت قائمة تعبر عن نفسها في تلك النتائج. وذلك هو ما قمنا به بالفعل وخلصنا منه على الملاحظات التالية:-

أولاً:

لم يسفر تنقيبنا فيما أمكن لنا الإطلاع عليه من بحوث تتصل بسيكولوجية السابرا عن إشارة واحدة لوجود نقيض لتلك الصفة لدى السابرا. أعني أن بحثًا واحدا لم تشر نتيجته إلى أن السابرا يتصفون بالانبساطية أو الانفتاح الاجتماعي أو سهولة إقامة أو تبادل العلاقات مع الآخرين.

ثانيًا:

يشير برونو بتلهايم في كتابه الصادر عام ١٩٦٩م وهو في معرض حديثه عن السابرا إلى"أن هؤلاء الشباب شديدو الحياء من الغرباء، إنهم مغلقون على أنفسهم بدرجة لا تجعل في مقدورهم الكشف عن دخائلهم إلا للأشخاص الذين تربطهم بهم علاقة وثيقة تماما" ثم يمضي عارضا لخبرته الشخصية معهم قائلاً:"إنني شخصيا قد فشلت في استثارة أي

عمق انفعالي في الأجيال الشابة رغم إنني وجدته بشكل كاف لدى جيل المؤسسين" [١٥]. ويكفي أن نشير إلى أن ذلك الذي فشل في استثارة أي عمق انفعالي خلال تعامله مع السابرا محلل نفسي معروف أي أنه بحكم الحرفة متخصص في استثارة الأعماق الانفعالية. ومن ناحية أخرى ينبغي أن نشير إلى أن دراسة بتلهايم قد أجريت على كيبوتز يختلف عن ذلك الذي أجرى عليه سبيرو دراسته سواء من حيث المكان أو الانتماء السياسي فضلاً عن الوقت بطبيعة الحال.

ثالثًا:

ومن ناحية أخرى فإن عالم النفس الأمريكي ليو الكسندر بيرو جنيكوف بالاشتراك مع اثنين من علماء النفس الإسرائيليون هما ايلانا هادار وآفنرهادار قد قدموا في المؤتمر السنوي للجمعية النفسية الأمريكية المنعقد في عام

Bettelheim, B. Op. Cit. pp. 287 – 288.(15)

١٩٧٠م. بحثًا بعنوان:"الدوجماطيقية والتباعد الاجتماعي: دراسة عبر حضارية"[(١٦)] .

عرضوا فيه لدراسة قاموا بها، وقارنوا خلالها بين مجموعات أربع – تضم المجموعة الأولى عينه ممثلة من شباب أحد الكيبوتزات الحديثة في إسرائيل وتضم المجموعة الثانية عينه من الشباب الإسرائيلي من غير سكان الكيبوتزات، وتضم المجموعة الثالثة عينه من اليهود الأمريكيين، وتضم المجموعة الرابعة والأخيرة عينه من الأمريكيين من غير اليهود. وقد اعتمدت الدراسة على استخدام مقياسين سيكولوجيين إحداهما لقياس الدوجماطيقية، والثاني لقياس التباعد الاجتماعي وهو ما يعنينا في هذا الصدد. وقد تضمنت فروض الدراسة فرضا مؤداه"أن ابناء الكيبوتزات بمقارنتهم بغير أبناء الكيبوتزات من الإسرائيليين سوف يكونون أكثر تفهما وإقبالاً على إقامة وتبادل العلاقات

---

(16) Pirojnikoff, L.A. et. Al. " Dogmatism and social distance: A cross – scultural study" Proceedings of the annual convention of the APA, Part I, No. 5, 1970, pp. 323 – 324.

الاجتماعية مع الآخرين" وبتطبيق مقياس التباعد الاجتماعي على عينات البحث اتضح العكس، أي اتضح أن أبناء الكيبوتزات أميل للعزوف عن إقامة أو تبادل العلاقات الاجتماعية مع الآخرين.

رابعًا:

كذلك فإن هاري ايسرنج اليهودي الأمريكي الذي يجمع بين كونه من رجال الدين اليهودي الرسميين في الولايات المتحدة، وكونه واحدا من علماء النفس الأمريكيين قام بالإشتراك مع ابراهام سيجال في عام ١٩٧٠م بإصدار الطبعة الجديدة المزيدة والمنقحة من كتابهما:"إسرائيل اليوم". والهدف من نشر هذا الكتاب يعبر عنه صامويل جراند مدير قسم التعليم التجريبي والوسائل السمعية والبصرية بوكالة التعليم اليهودي بالولايات المتحدة الأمريكية والذي قام بكتابه مقدمته بقوله:"لقد شعرنا لسنوات طويلة أن الطلبة في مدارسنا اليهودية الدينية.

يتعلمون عن الإسرائيليات القديمة أكثر مما يتعلمون عن الإسرائيليين المعاصرين[١٧]. فالكتاب إذن قد كتب أصلاً بهدف أن يتيح للطلبة الأمريكيين اليهود صوره معاصرة للإسرائيليين عام ١٩٧٠م.

ويكفي أن نقتبس من الكتاب فقرة واحدة وردت تحت عنوان"أفهموا السابرا" تقول الفقرة:"قد يجد المراهقين الأمريكيين السابرا لدى أول لقاء لهم بهم، باردين إلى حد ما، أن السابرا ليسوا كالأمريكيين في سرعة إقامتهم للصداقات. إنهم يجب أن يقابلوك مرات عديدة لكي تعرفهم جيدا" [١٨].

ولعلنا لسنا في حاجة إلى أن نؤكد إن الإشارة هذه المرة ليست قاصرة على أبناء كيبوتز بعينه بل هي تشمل السابرا جميعا.

ولعلنا نستطيع بعد تلك الملاحظات أن نطمئن إلى حقيقة أن السابرا يتميزون بانطوائية كشفت عنها نتائج البحوث

Essring, H. & A. Segal, Op. Cit., P. IV.(17)

Essring, H. & A. Segal, Op. Cit. P. 105.(18)

المتخصصة بل ولم يكن ممكنًا أن تخطئها حتى العين غير الخبيرة للطلبة اليهود الأمريكيين.

الشعور بالدونية

أبرز سبيرو في كتابه المشار إليه فيما سبق أن الشعور بالدونية يعد من الخصائص المميزة للسابرا في إسرائيل موضحا أن تلك الخاصية تتضمن إحساسهم بأنهم أقل من سواهم من حيث الكفاءة العقلية أو القدرة على الإنجاز[١٩].

ولم تمض أعوام قليلة حتى نشر الباحث السيكولوجي الإسرائيلي أ. هاندل مقالاً بالعبرية عام ١٩٦١م تحت عنوان"مفهوم الذات لدى المراهقين في الكيبوتز" [٢٠]. يؤكد فيه نتائج سبيرو رغم توصله إليها بطريقة مختلفة تماما. فقد استخدم هاندل أسلوبا يعرف في مجال قياس الشخصية بأسلوب ك ويقوم ببساطة على استخدام قائمة تضم عددا من العبارات وتقدم إلى المفحوص ويطلب منه أو من آخرين يستطيعون الحكم عليه تصنيف كل من تلك العبارات إلى عدد

Spiro, M.E. Op. Cit. pp. 445 – 459.(19)

Handel, A. Self concept of the kibuts, adolescent, (20) In, A.I. Rabin, Kibbutz studies, 1971, 72 – 73.

من الفئات تمثل مدى انطباق تلك العبارة عليه. بحيث تحصل كل عبارة بذلك على درجة تشير إلى مدى القوة النسبية المتوافرة للسمة أو للحاجة التي تمثلها بالنسبة للفرد المفحوص وقام هاندل باستخدام ذلك الأسلوب في دراسته التي شملت ٨١ من الشبان الإسرائيليين من سكان المدن و٧٠ من قاطني الكيبوتزات. وقد أسفرت الدراسة عن فروق جوهرية بين المجموعتين حيث اتضح أن المراهقين الكيبوتزيين ينظرون إلى أنفسهم باعتبار أنهم أقل قدرة على مواجهة الصعاب بثقة كما أنهم أقل ثقة في مستقبلهم، وأكثر تشاؤما حياله، وأكثر تحقيرا لأنفسهم وإحساسا بعجزهم. إلى جانب أنهم يظنون أنفسهم أقل ذكاء، وأشد حساسية للنقد، وأكثر قلقًا في مجابهة المواقف الحرجة ومواجهة الغرباء.

ويلخص هاندل بحثه مستخدما تعبيرات هنري موراي في نظريته عن الحاجات[٢١] مؤكدا أن شباب الكيبوتزات

---

(21)هول، ك و ج. لندزى، نظريات الشخصية (ترجمة فرج أحمد فرج، وقدري حفني، ولطفي فطيم)، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة: ١٩٧١م، ص ٢٣٢.

يتميزون بقدر أكبر من الحاجة إلى تجنب المذلة، والحاجة إلى تجنب التأنيب. والمقصود بالحاجة إلى تجنب المذلة وفقًا لما يقول به موراي الابتعاد عن المواقف المحرجة أو تجنب الظروف التي تؤدي إلى التصغير: الازدراء أو السخرية أو عدم المبالاة من جانب الآخرين. الكف عن العمل بسبب الخوف من الفشل[٢٢]. كذلك فإن المقصود بالحاجة إلى تجنب التأنيب وفقًا لنظرية موراي"الحاجة إلى تحاشي التأنيب بكف الدفعات المرفوضة اجتماعيا، الخوف من التأنيب، أو النبذ، أو العقاب. الحاجة إلى المعاملة الطيبة"[٢٣].

وترجع أهمية هاتين النتيجتين اللتين خاص إليهما هاندل إلى أنهما من ناحية أخرى يؤكدان ما ذهب إليه سبيرو ومن ناحية أخرى فإن التوصل إليها قد تم بأسلوب موضوعي يعتمد اعتمادا مباشرا على رصد التوصل إليها قد تم بأسلوب

---

(22) هول، ك، المرجع السابق، نفس الموضع.

(23) Blamavoidance need A comprehensive dictionary of Psychological and psychoanalytical terms, By, Horace B : English & Ava Champney English, Longmans, U.S.A. 1958.

موضوعي يعتمد اعتمادا مباشرا على رصد تصور هؤلاء السابرا لأنفسهم وليس أساسا على رصد انطباعات أو تصورات الآخرين عنهم.

وعلى أي حال، فإن مثل تلك النتائج التي توصل إليها سبيرو وهاندل هي التي يمكن أن تتيح لنا فهما معقولاً لعبارة أوردهنا تيدبركمان في كتاب أصدره عام ١٩٦٦ – بعنوان (السابرا) حيث يقول إن لدى السابرا في الحقيقة تواضع حقيقي يجعلهم لا يستريحون لدور المنتصر [٢٤]. وواضح إن بركمان الذي يعلن صراحة أنه إنما يكتب تمجيدا للسابرا ولدورهم لحضارتهم، لم يكن أمامه إلا أن يستخدم تعبير (التواضع) وهو تعبير أخلاقي لا نجد أي صعوبة ولا حرج في استبداله بالتعبير العلمي الشائع في الكتابات السيكولوجية وهي"الشعور بالدونية". أما الجزء الثاني من العبارة، أي الانطلاق من أن السابرا يتصفون بالتواضع إلى اعتبار ذلك بمثابة التفسير لكونهم لا يستريحون لدور المنتصر، فإنه

Berkman, Ted Sabra Harper & Raw Publishers. (24) U.S.A. 1969, p. 2.

يتضمن مغالطة واضحة. إن عدم الارتياح لدور المنتصر وهي ظاهرة سيكولوجية يتصف بها هؤلاء حقًا لا ترجع إلى تواضع ولا حتى إلى الشعور بالدونية بل مرجعها ما يميز التكوين السيكولوجي الإسرائيلي بعامة من إحساس عميق بالاضطهاد.

وقد سبق أن أشرنا في بحث آخر، وبشيء من التفصيل للعلاقة بين الإحساس بالاضطهاد كعنصر مميز للتكوين السيكولوجي الإسرائيلي، وبين رفض تقبل دور المنتصر [٢٥]. وبذلك فإن ظاهرة عدم تقبل دور المنتصر ليست بالظاهرة المميزة ولا القاصرة على السابرا دون سواهم من الإسرائيليين.

---

(25) قدري حفني، تجسيد الوهم، مرجع سابق ص ١٠٣ ، ١٠٤.

التشاؤم والشك

تضمن بحث هاندل الذي تعرضنا له آنفًا عدة إشارات إلى تشاؤم السابرا أو بعبارة أدق إلى إدراك السابرا لأنفسهم باعتبارهم أكثر تشاؤما من سواهم [٢٦] ترى هل ثمة بحوث أخرى تدعم نتائجها من تلك الإشارات؟.

لقد قام ملفورد سبيرو في دراسته المشار إليها آنفًا بتطبيق"اختبار ستيورات للاستجابة الانفعالية على ٥٤ من السابرا". والاختبار ببساطة يهدف إلى استقصاء مسببات سبعة مشاعر انفعالية محددة لدى من يطبق عليهم الاختبار. والمشاعر الانفعالية السبعة هي: الشعور بالسعادة، والشعور بالحزن، والشعور بالخجل، والشعور بالغضب، والشعور بالخوف ثم الشعور بأن شيئًا ما هو أفضل الأشياء، والشعور بأن شيئًا ما هو أسوأ الأشياء.

وقد أسفرت نتائج الاختبار ضمن ما أسفرت عنه في مجال الشعور بالحزن عن أن الحرمان بشقيه المادي وغير

Handel, A. Op. Cit.(26)

المادي – يحتل المقام الأول من بين مسببات الحزن لدى السابرا. ولو اقتربنا من البيانات الواردة بالجداول الملحقة بدراسة سبيرو والمتضمنة لنتائج تطبيق اختبار ستيوراث [٢٧] محاولين إعادة معالجتها إحصائيا لاتضح لنا أن الشق المادي من استجابات الحرمان، أي الحرمان من أشياء مادية كالنقود أو الملابس وما إلى ذلك لا يمثل سوى ٢٧% من مجموع تلك الاستجابات في حين أن الحرمان من أشياء غير مادية في مقدمتها الرحيل – أي الرغبة في مغادرة محل الإقامة – يمثل ٧٣% من مجموع تلك الاستجابات.

كذلك فقد أسفرت نتنائج الاختبار فيما يتعلق بما هو أفضل الأشياء لدى السابرا عن أن الخبرات الشخصية السارة تحتل المقام الأول. ولمعالجة البيانات الواردة في الجدول المتضمن لتلك النتائج [٢٨] يتضح أن تلك الخبرات الشخصية السارة تنقسم إلى خمس فئات ترتيبها كما يلي وفقًا للنسب

Spiro M.E. Op. Cit. P. 484. (27)

Spiro, M.E. Op. Cit. P. 486. (28)

المئوية لتكرار كل فئة إلى مجموع الاستجابات المدرجة تحت" خبرات شخصية سارة":-

١- الرحيل ٤٥,٣٨ %

٢- التعليم ٣٥,٢٩ %

٣- طول العمر ٨,٤١ %

٤- العمل ٥,٨٨ %

٥- الامتياز الاجتماعي ٥,٠٤ %

ويعلق سبيرو على تلك الأهمية التي يحتلها الرحيل لدى السابرا بقوله:"إذا كان لنا أن نسلم بأن أولئك الذين يجدون سعادتهم حيث هم لا يحسون رغبة شديدة في الرحيل إلى أي مكان آخر، فإن رغبة السابرا في الرحيل تشير بشكل ما إلى ضيقهم بالحياة في الكيبوتز"(٢٩).

١- استجابات تدل على الرغبة في تحقيق الذات مثل"... أكون غنيا".

٢- استجابات تشير إلى الرحيل، وتتمثل في عبارة واحدة مكررة هي..." سوف أرحل".

Spiro, M.E. Op. Cit. P. 370. (29)

وكانت النسبة المئوية للإسرائيليين الذين تندرج استجاباتهم تحت الفئة الأولى ٤٤% في مقابل ٥٦% تندرج استجاباتهم تحت الفئة الثانية. ولعل تلك النتيجة بالتحديد تكاد تكون تكرارا لما توصل إليه سبيرو وأشرنا إليه فيما سبق رغم اختلاف العينتين والأسلوبين، بل واتجاه كل من الباحثين أيضا.

ونستطيع أن نخلص من تلك النماذج إلى أن نتائج بحث رابين تقدم تأكيدا لما سبق أن أنتهي إليه هاندل وسبيرو من أن التشاؤم والشك يعدان من الخصائص المميزة للسابرا في إسرائيل.

العدوانية

لم يكن قد مضى على قيام الدولة الإسرائيلية رسميا إلا حوالي ستة سنوات حين نشرت جيرالد كابلان دراستها المعنونة"ملاحظات أكلينيكية على الحياة الانفعالية لأطفال المستوطنات الجماعية في إسرائيل[٣٠]. وقد تضمنت تلك الدراسة إشارة واضحة إلى ما أبداه الأطفال الكيبوتزيين الإسرائيليين من"ضعف في السيطرة على عدوانهم" مما أرجعته كابلان إلى احتمال وجود"حرمان أموى" يعاني منه هؤلاء الأطفال وهو المسئول عن عدوانيتهم هذه.

وفي تلك الفترة بالتقريب قام سبيرو بدراسته المنشورة في كتابه الذي أشرنا إليه آنفًا، والتي تضمنت العديد من الدلائل والمؤشرات التي تشير جميعا إلى أن قدرا هائلاً من

---

(30) Caplan, Gerald. Clinical observations on the emotional life of children in communal settlements of Israel, in : Problems of Infancy and childhood: Transactions of the seventh conference, ed. By: M.S.E. Sean, Joseah Macy, Jr. Foundation, New York; 1954.

العدوانية ينتشر في شخصيات السابرا ويكاد أن يصبغ سلوكهم جميعا في كل اتجاه، سواء نحو الغرباء عنهم، أو الراشدين من بينهم، أو حتى في علاقات بعضهم بالبعض. وتستحق دراسة سبيرو أن نعرض لها بشيء من التفصيل:-

أ- العدوان نحو الغرباء:

يعرض سبيرو بالتفصيل لعدوانية السابرا حيال الغرباء عنهم وهؤلاء"الغرباء" يشملون المدرسين، والعمال الذين يعملون بالأجر من خارج الكيبوتز وهم الشباب الشرقيين، بل إنهم يشملون بعدوانهم أيضا زملائهم في الدراسة وفي الكيبوتز من هؤلاء الشرقيين. بل إنه حين التحقت مجموعة من كيبوتز مجاور بنفس المدرسة فإن الطلبة من الكيبوتز محل الدراسة أبدوا كراهية شديدة تجاههم، وخاصة تجاه الفتيات منهم. فضلاً عن أنه توجد دلائل عديدة تشير إلى أنهم يعتدون بالضرب على الفتيات في الكيبوتزات المجاورة[٣١].

وذلك العدوان نحو الغرباء لا يعكس موقفًا أيديولوجيا واضحا مبررا بل إنه – وتلك هي خطورته – قد يتعارض

Spiro, M.E. Op. Cit. P. 319.(31)

تعارضا صريحا مع المظهر الأيديولوجي لاقتناعات السابرا. يقول سبيرو" إن العديد من الطلبة الذين يؤيدون الهجرة إلى إسرائيل أيديولوجيا – يبدون حقدا شديدا تجاه أولئك المهاجرين من الشرق الأوسط، وينظرون إليهم باعتبارهم أدنى منهم مرتبة، ويطلقون عليهم تسمية: السود[٣٢].

ولا تقتصر عدوانية السابرا ضد الغرباء على ذلك العدوان الموجه ضد" السود" بل تمتد حتى إلى البيض ماداموا غرباء أيضا. يقول سبيرو"إن المهاجرين الأوروبيين قد يكونوا موضعا للكراهية أيضا. فحين قررت سلطات المدرسة أن الطلبة البولنديين المهاجرين ينبغي أن يندمجوا مع زملائهم الآخرين بدلا من بقائهم كمجموعة منفصلة، رفض هؤلاء البولنديين الحياة مع أبناء الكيبوتز لعدوانيتهم وهددوا بترك المدرسة إذا ما كان ثمة إصرار على فرض الدمج[٣٣].

ويتضح ذلك الاتجاه العدواني في مجال العمل كذلك فقد دلت دراسة سبيرو على أن السابرا الذين يعهد إليهم بملاحظة

Ibid.(32)

Ibid.(33)

عمل الشباب في حدائق الكيبوتز يطلبون باستمرار شبابا من الشرقيين أكثر من طلبهم لشباب من المدرسة. وحين تقرر منح هؤلاء الشرقيين يوما إضافيا كإجازة استشاط السابرا الملاحظون غضبا لتلك الوقاحة رغم أن ذلك سوف لا يزيد من الأجازة إلا لتصبح عشرة أيام فقط في حين أن أجازة طلبه المدرسة ثلاثة أسابيع[٣٤].

(ب) العدوان نحو الراشدين:-

يورد سبيرو العديد من الأمثلة التي تؤكد أن المدرسين هم أول ضحايا عدوانية السابرا من الراشدين[٣٥] وقد يبدو للبعض أن السلوك العدواني من التلاميذ تجاه مدرسيهم في فترة المراهقة أمر شائع في المجتمعات الحديثة جميعا. ومسألة الشيوع هذه مسألة نسبية تماما.

صحيح أننا قد لا نعدم في مجتمع من المجتمعات الحديثة أن نجد طالبا عدوانيا حيال مدرسيه أو مجموعة من الطلبة، أو حتى مدرسة بأسرها ولكن أن تكون تلك هي

Ibid.(34)

Spiro, M. Op. Cit. P. 329.(35)

القاعدة، بل والقاعدة التي يخطط لها وتوضع لها البرامج فهو أمر في حاجة إلى تأمل. ولنكتفي بإيراد مجموعة من النماذج أوردها سبيرو[٣٦] من واقع ملاحظات لعلها تتيح للقاريء صورة أقرب ما تكون إلى الواقعية:-

- فتاة من الصف التاسع لا تنتبه للدرس، ومدرسها (وهو من أعضاء الكيبوتز) يطلب منها أن تفعل ما يفعله بقية الفصل. فتقول له إنها تفعل بالدقة ما يفعله بقية الفصل: تضييع الوقت.

- بعض طلبة الصف التاسع جاءوا إلى الفصل متأخرين يغنون، طلب منهم المدرس (وهو من غير أبناء الكيبوتز) مغادرة الفصل فاستشاطوا غضبا، واحتدوا عليه – وأخيرا خرجوا من الفصل ولكن بالقفز من فوق المقاعد.. وبعد قليل عبروا أمام الغرفة وقالوا ما يحقر من شأن المدرس، ومضوا في طريقهم.

Spiro, M. Op. Cit. P. 322.(36)

- طالبة تثير شغبا في الفصل أثناء حصة اللغة الإنجليزية، فيطلب منها المدرس أن تكف. تقول له الفتاة"لماذا"؟ إنك لم تدرس لنا شيئًا على الإطلاق طول العام.

- مدرس في الصف العاشر يطلب من تلاميذه الهدوء دون جدوى. يطلب من إحدى الفتيات أن تقرأ فتقول"لا" يقول المدرس"إنني أقرر لا أرجو". تقول الفتاة: وأنا كذلك لا أرجوك بل أقرر أنني لا أريد ذلك.." يسود الاضطراب الفصل.. يوقف المدرس الدرس قائلاً إنه لا جدوى من الاستمرار طالما أن أحد لا ينصت. الكل يوافقه قائلين إنه شيء مثير للضيق تماما يحاول أن يناقش معهم وهم يصيحون فيه كما لو كان تلميذًا منهم.

ويقرر سبيرو إن بعض المدرسين وجدوا أنه من المستحيل عليهم التدريس في ظل مثل تلك الظروف السيكولوجية الصعبة إلى حد أنهم كثيرا ما كانوا يقدمون على الاستقالة إذا لم يكونوا أعضاء في الكيبوتز." قد حدث قبل وصولنا مباشرة أن استقال أحد مدرسي اللغة الإنجليزية نظرا للضغط المستمر الذي يتعرض له، فالطلبة يحضرون إلى

الفصل متأخرين، ويضحكون من نطقه للعبرية، وينقدون طريقته في التدريس(٣٧).

(جـ) العدوان نحو الأقران:-

يفصل سبيرو الحديث في مجال التدليل على عدوانية السابرا تجاه بعضهم البعض أو ما يسميه بالعدوان نحو الأقران مشيرا إلى أن تطبيق اختبار ستيوارت للاستجابة الانفعالية قد أسفر عن أن ٧٠% من عينة السابرا التي طبق عليها الاختبار قد أشارت مباشرة أو بشكل غير مباشر إلى الأقران باعتبارهم مصدرا لإثارة انفعال الغضب(٣٨).

ويحدد سبيرو ستة صور من ذلك. النوع من العدوان تتضح من سلوكات السابرا هي":-

١- العدوان الجماعي نحو من يخرج على معايير الجماعة.

٢- النميمة، وهي أفضل ما يمضي فيه طلبه المدرسة الثانوية أوقات فراغهم.

Spiro, M.E. Op. Cit. P. 323.(37)

Ibid.(38)

٣- السخرية والتحقير.

٤- الخشونة وسوء المعاملة"نادرا ما يراعى السابرا أصول اللياقة إذا ما تطلبت المناسبة ذلك[٣٩].

٥- مضايقة الأصغر سنًا، والاعتداء عليهم وتدبير المقالب للسخرية منهم. وإن كان ذلك لا يقتصر تماما على الأصغر بل يشمل الأقران جميعا كذلك.

٦- العدوان البدني.

ذلك هو تصور سبيرو لعدوانية السابرا بمجالاتها الثلاثة نحو الغرباء، ونحو الراشدين، ونحو الأقران ونستطيع أن نخلص منها دون تعسف إلى أن العدوان يمكن أن يعد خاصية مميزة لسلوك السابرا. إلا أننا بذلك قد نختلف إلى حد ما مع سبيرو رغم أنه صاحب لدراسة وجامع الملاحظات التي انبنت عليها النتائج.

يعلق سبيرو على بعض النتائج التي أسفر عنها تطبيق اختبار استيورات بقوله: إنني لعلى ثقة رغم ما يلقاه المدرسون من شغب من أن العدوان المتبادل بين الأشخاص

Spiro, M.K. Op. Cit. P. 423(39)

في صورته البدنية على الأقل، أقل كثيرا في المدرسة عنه بين الأطفال الأصغر سنًا فبينما يمثل العدوان البدني أهم الأسباب المؤدية إلى انفعال الغضب بين أبناء المدرسة الإعدادية كما يتضح من نتائج اختيار ستيورات لاستجابة الانفعالية فإنه يعد من أقل تلك الأسباب أهمية لدى أبناء المدرسة الثانوية[٤٠]. ويمضي سبيرو في تعليقه موضحا أن ثمة تفسيرين محتملين لذلك الانحدار المفاجيء: إما إنه يرجع إلى تأقلم مع العدوان وإما إنه يرجع إلى نقصان حقيقي في الخبرات العدوانية.

ويختتم سبيرو تعليقه مقررا "إن ملاحظاتنا ترجح بالفعل التفسير الأخير"[٤١]. ترى هل هذا صحيح؟ إننا نرى أن المنطق – فضلاً عن ملاحظات سبيرو نفسها يرجح التفسير الأول.

ولن نمضي بعيدا مستقرئين لقواعد المنطق، ولا منقبين في ملاحظات سبيرو. ففي نفس الصفحة التي ورد فيها

Ibid.(40)

Ibid.(41)

التعليق السابق، بل وإلحاقًا بذلك التعليق أورد سبيرو عبارة حرص على وضعها في الحاشية نصها كما يلي"على أي حال فإن الدلائل المستقاه من اختبار الاستجابة الانفعالية تبدو غامضة فيما يتعلق بالعدوان اللفظي. فرغم أن هناك تضاؤلاً في تكرار استجابات الغضب التي يسببها العدوان، فإن هناك تزايدا في تكرار استجابات الحزن"(٤٢).

ويكتفي سبيرو – رغم فطنته وعلمه – بتقرير أن ذلك أمر"غامض". ولسنا نراه من الغموض في شيء على الإطلاق. ولنشرك معنا القاريء في استقراء الأرقام الدالة على نتائج اختبار الاستجابة الانفعالية كما أوردها سبيرو(٤٣).

Ibid.(42)

(43) الأرقام والفئات والنسب المئوية مقتبسة كما هي ودون تعديل من الجداول الواردة في الصفحات ٤٨٣ ، ٤٨٤ من كتاب ملفورد سبيرو المشار غليه آنفا وكان تدخلنا قاصراً على طريقة العرض والتجميع حيث تصبح محققة للهدف.

العدوان كمصدر لإنفعال	الحـــزن			الغضـــب		
	سنة ٦ – ١١	سنة ١٢ – ١٧	سنة ١٨ +	سنة ٦ – ١١	سنة ١٢ – ١٧	سنة ١٨ +
الاستهداف لعدوان بدني	٥ %	٣ %	صفر %	٢٦ %	٦ %	صفر %
الاستهداف لعدوان لفظي	١٠ %	١٧ %	٥ %	٣٣ %	٢٢ %	٤ %
عدوان بدني	٥ %	١ %	٥ %	-	-	-
جماعي	٢ %	صفر	٥ %	-	-	-
الحرب	٢ %	صفر	٥ %	-	-	-
غضب الفرد نفسه	٢ %	٦ %	صفر	-	-	-
عدوان لفظي من الآخرين تجاه الآخرين	-	-	-	١٠ %	٥ %	صفر
المجموع	٢٤ %	٢٧ %	١٥ %	٦٩ %	٣٣ %	٠٤ %

وواضح أن سبيرو يقصر مقارنته على فئة"الاستهداف لعدوان لفظي" كما أنه يقصر تلك المقارنة على فئتي العمر الأوليين لكي يستنتج أن تلك الفئة من العدوان قد أشار إليها ١٠% من المستجيبين الذين تتراوح أعمارهم بين ٦ و ١١ سنة باعتبارها مصدرا لانفعال الحزن لديهم في حين ارتفعت تلك

النسبة إلى ١٧% لدى الذين تتراوح أعمارهم بين ١٢ و ١٧ سنة. ومن ناحية أخرى فقد أشار ٣٣ % من المستجيبين الذين تتراوح أعمارهم بين ٦ و ١١ سنة إلى تلك الفئة باعتبارها مصدرا لانفعال الغضب لديهم مقابل ٢٢ % ممن تتراوح أعمارهم بين ١٢ و ١٧ عاما. وباختصار فإن ملاحظة سبيرو قد اقتصرت على أن الاستجابة للتعرض للعدوان اللفظي بالغضب قد انخفضت من ٣٣ % إلى ٢٢ % ثم ارتفعت الاستجابة لذلك العدوان بالحزن من ١٠ % إلى ١٧ %... وإن ذلك أمر غامض.

وواضح أن قصور ملاحظة سبيرو قد أسهم في ارتباك تفسيره للظاهرة فضلاً عن أن ارتباطه بما أكده في الفقرة الأصلية من تناقص الخبرات العدائية التي تصبغ سلوك السابرا قدم مزيدا من الإسهام في ذلك الارتباك.

ولو عدنا إلى أرقام الجدول متخلصين من تلك العوامل التي أربكت تفسير سبيرو لاستطعنا أن نضع أيدينا على بعض الملاحظات:-

لو تخطينا اقتصار سبيرو على النظر إلى فئة العدوان اللفظي دون غيرها وعلى فئتي العمر الأوليين فحسب

ونظرنا إلى خانة المجموع باعتبارها معبرة عن الاستجابة للعدوان بعامة، محاولين رصد ما يطرأ عليها من تغير في فئات العمر الثلاث وبالنسبة لانفعالي الحزن والغضب لاتضح لنا شيئًا هاما.

إن الاستجابة للعدوان بالحزن تتخذ مسارا هرميا عبر فئات العمر الثلاث بمعنى أنها تبلغ قمتها لدى أولئك الذين تتراوح أعمارهم بين ١٢ و ١٦ سنة ثم تعود للانخفاض بعد ذلك. ولو قارنا ذلك المسار الذي تتخذه الاستجابة بالحزن للعدوان بشكل عام بالمسار الذي تتخذه الاستجابة بالحزن أيضا للعدوان بشكل عام بالمسار الذي تتخذه الاستجابة بالحزن أيضا للعدوان اللفظي وحده لما وجدنا بين المسارين فرقًا على الإطلاق. نفس المسار الهرمي الذي تتمثل قمته في الفئة الوسطى التي تضم أولئك الذين تتراوح أعمارهم بين ١٢ و ١٦ سنة.

ونفس الظاهرة تتكرر بالنسبة للاستجابة للعدوان بالغضب فإنها تتخذ مسارا تنازليا مضطرا (٦٩ % - ٣٣ % - ٤ %) ويتكرر نفس المسار لو اقتصرنا – كما فعل

سبيرو – على النظر إلى الاستجابة بالغضب للعدوان اللفظي (٣٢ % - ٢٢ % - ٤ %).

وواضح إذن أن العدوان اللفظي بالتحديد، وكما يتضح من الأرقام هو أكثر أنواع العدوان تعبيرا عن الاتجاه العام سواء بالنسبة لانفعال الغضب، أو بالنسبة لانفعال الحزن. وعلى أي حال فإن ذلك يتفق تماما مع ما تقول به قواعد المنطق فعلاً عن حقائق علم النفس من أن العدوان هو العدوان سواء كانت ممارسته بالفعل أو بالقول أو بالإشارة.

وهكذا يتضح أن"الجزء" الذي اختار سبيرو أن يقصر حديثه عليه هو خير الأجزاء تعبيرا عن"الكل".

وبالتالي فما كان أجدره أن يتحدث عن"الكل" فذلك أدعى إلى الوضوح وأبعد عن احتمال الخطأ. أعني أنه كان الأوجب على سبيرو أن يتحدث في هذا المقام عن العدوان عامة لا عن العدوان اللفظي بالتحديد.

يمكننا إذن أن نطرح القضية من جديد على الشكل التالي: إن تكرار ورود العدوان كمصدر لانفعال الغضب يتناقص باضطراد مع التقدم في العمر. في حين أن تكرار

ورود العدوان كمصدر لانفعال الحزن يتزايد حتى يبلغ قمته في فئة العمر ١٢ – ١٧ ثم ينحدر تكراره بعد ذلك.

وقبل أن نمضي في التعليق يجدر بنا أن نطرح تساؤلاً يبدو أنه قد غاب لسبب ما عن فطنه سبيرو وعلمه: ترى ما هي الاستجابة الطبيعية للعدوان؟ أهي الغضب أم الحزن؟ بعبارة أخرى: إذا ما تعرض إنسان سوى لنوع من أنواع العدوان، ترى هل الأكثر احتمالاً أن يغضب أم يحزن؟.

وقبل أن نشرع في الإجابة عن التساؤل، ولكي نتجنب ما قد يثيره تفسير مصطلحات نسبية كالطبيعية و" السواء" من شبهه التعسف أو مظنة التحيز فلنحتكم إلى معجم مصطلحات علم النفس والتحليل النفسي وهو واحد من المعاجم المحترمة في هذا المجال لنجد أنه يعرف الغضب بأنه"استجابة انفعالية تنجم عن الإعاقة أو الإيذاء أو التهديد"[٤٤].

(44)الأرقام الواردة في هذه المقارنات مستقاة من الجدول الملحقة بدراسة سبيرو المشار إليها في الصفحات من ٨٤٣ إلى ٤٨٦، وينحصر تدخلنا الرياضي في حساب المتوسطات، فضلاً عن التفسيرات بطبيعة الحال.

الغضب إذن هو الاستجابة الطبيعية للعدوان بمعنى أنها الاستجابة التي لا تحتاج منا إلى تفسير خاص. فإذا مالا حظنا كما هو واضح من الأرقام أن تلك الاستجابة الطبيعية تتناقص باضطراد في حين أن الاستجابة للعدوان بالحزن لا تتخذ مثل ذلك الاتجاه المضطرد نحو النقصان حق لنا أن نتساءل ما السبب؟ ولنرجيء التفسير مؤقتًا، ولنمض في رصد ملاحظاتنا.

فلنوسع من نظرتنا قليلاً ولننظر إلى العدوان كمصدر لمجموع الانفعالات جميعا وليس لانفعالي الحزن والغضب ومسار ذلك عبر فئات السن الثلاث:-

(١) بالنسبة للفئة الأولى أي الذين تتراوح أعمارهم بين ٦ سنوات و ١١ سنة: تشير الأرقام (١) إلى ورود الاستجابة للعدوان كمصدر للحزن بنسبة ٢٤ %، وورود الاستجابة للعدوان كمصدر للغضب بنسبة ٦٩%، وورود الاستجابة للعدوان – كمصدر للخجل بنسبة ٨ % (٤٥) وورود الاستجابة للعدوان كمصدر

(45)أرجع إلى الهامش رقم (١) بالصفحة التاليـة.

للخوف بنسبة ١٣ % أي أن متوسط ورود العدوان كمصدر للانفعال بعامة في هذه الفئة من فئات العمر تبلغ ٢٨,٥ %.

(٢) بالنسبة للفئة الثانية، أي الذين تتراوح أعمارهم بين ١٢ سنة و ١٧ سنة: تشير الأرقام إلى ورود الاستجابة للعدوان كمصدر للحزن بنسبة ٢٧ %، وورود الاستجابة للعدوان كمصدر للغضب بنسبة ٣٣ %، وورود الاستجابة للعدوان كمصدر للخجل بنسبة ١٤%[٤٦]، وورود الاستجابة للعدوان كمصدر خوف بنسبة ٥ %. أن متوسط ورود العدوان كمصدر للانفعال بعامة في هذه الفئة من فئات العمر تبلغ ١٩,٧٥%.

(٣) بالنسبة للفئة الثالثة، أي الذين تبلغ أعمارهم ١٨ سنة فأكثر:

تشير الأرقام إلى ورود الاستجابة للعدوان كمصدر للحزن بنسبة ١٥ %، وورود الاستجابة للعدوان كمصدر

Ibid.(46)

للغضب بنسبة ٤ %، وورود الاستجابة للعدوان – كمصدر للخجل بنسبة (١٩ %)[(٤٧)] ، وورود الاستجابة للعدوان كمصدر للخوف بنسبة صفر %. أي أن متوسط ورود العدوان كمصدر للانفعال بعامة في هذه الفئة من فئات العمر تبلغ ٩,٥ %.

ولنضع الآن تلك المتوسطات الثلاثة أمام أعينا، راصدين لمسارها مستنتجين تفسيرا لاتجاه ذلك المسار، أن النسب الثلاث وفقًا لاتجاه العمر نحو الزيادة هي كما يلي:

٢٧,٥ % ثم ١٩,٥% اتجاه واضح نحو النقصان. ترى ما دلالته؟ ما دلالة أن يتضاءل الحجم الذي يشغله العدوان كمصدر من مصادر الانفعال بعامة؟ وهل ذلك التضاؤل تضاؤل حقيقي جدير بالمناقشة؟ إن نظرة سريعة إلى مزيد

---

(47) فيما يتعلق بهذه النسب الدالة على انفعال الخجل فقد كانت تجميعا لبندين وردا في جدول ص ٤٨٤ بكتاب سبيرو المشار إليه. وقد تعمدنا الجمع بين الأقدام على العدوان والتعرض لعدوان للكشف عن حجم ظاهرة العدوان بعامه. وعلى أي حال فإن أرقام الجدول المشار إليه تبين غلبة النوع الأول.

من الأرقام الذي يوردها سبيرو في دراسته كفيلة بتوضيح أن تلك الظاهرة جديرة بالمناقشة.

يتضمن اختبار ستيورات للاستجابة الانفعالية والذي اعتمد عليه سبيرو في ذلك الجانب من دراسته، يتضمن إلى جانب انفعالات السعادة، والحزن، والخجل، والغضب، والخوف، مجالين أساسيين هما أن يحدد المفحوص أفضل الأشياء في نظرة وأسوأها أيضا. فلننظر إلى ذلك المجال الأخير لتر موقع العدوان من ترتيب السابرا للأشياء حسب سوءها في نظارهم.

فئة السن **فئة العدوان**	**٦ – ١١**	**١٢ – ١٧**	**١٨ +**
الاستهداف العدوان بدني	٥ %	صفر	صفر
الاستهداف لعدوان لفظي	صفر	٢ %	صفر
ممارسة العدوان	٥ %	٢ %	٥ %
المجموع	**١٠ %**	**٤ %**	**٥ %**(٤٨)

---

(48) أرقام الجدول مقتبسة كما هي من الجداول الواردة في كتاب سبيرو المشار غليه ص ٤٨٦، وكل ما أضفناه هو الأرقام الواردة في خانة "المجموع".

أرقام الجدول تعني أن ١٠% من أفراد فئة السن الأولى قد اعتبروا العدوان ضمن أسوأ الأشياء في نظرهم كما تشير تلك الأرقام إلى تضاؤل تلك النسبة مع التقدم في السن.

ترى ما دلالة ذلك كله؟ ما دلالة أن يتضاءل مع التقدم في السن حجم العدوان كمصدر للانفعال من ناحية وأن تتضاءل من ناحية أخرى وأيضا مع التقدم في السن نسبة الذين يدرجون العدوان بصوره المختلفة ضمن"أسوأ الأشياء"؟.. أذلك راجع – كما يقول سبيرو – إلى تضاؤل حجم العدوان في بيئة السابرا مع التقدم في العمر؟ بعبارة أخرى هل يرجع ذلك أن ما يراه السابرا وما يمارسونه من عدوان فعلى يقل مع تقدمهم في العمر؟.

فلنناقش أولاً قضية العدوان كخاصية سيكولوجية من الناحية النظرية الخالصة. إن حقائق علم النفس تفرق بين مفهومين محددين للعدوان كخاصية سلوكية. العدوان في الحالة الأولى يعرفه البشر جميعا معرفة الممارسين لا المشاهدين فحسب. فليس ثمة إنسان لم يمارس العدوان مطلقًا. قد تختلف الصور التي يمارسه بها من القتل الفعلي

إلى مجرد السباب اللفظي بل حتى إلى مجرد التمنيات العدوانية، وقد يتفاوت مقدار ممارسة ذلك العدوان الموقفي من فرد إلى آخر بل ومن وقت إلى آخر. كل ذلك تبعا لمقتضيات الموقف الخارجي ومتطلباته. ولكن إذا ما تحدثنا كمتخصصين في علم النفس عن العدوان كخاصية سلوكية أو كسمة تميز الشخصية فأننا نتحدث حينئذ عن مجموعة من البشر وليس عن الشر جميعا. نتحدث عن أولئك الذين تعتبر العدوانية طابعا مميزا لشخصياتهم وهي تتخطى بذلك حدود المواقف الخارجية ومتطلبات تلك المواقف وهؤلاء الذين نطلق عليهم صفة"العدوانيون" إنما يختلفون عمن ليسوا كذلك في حجم عدوانهم من ناحية، وفي مدى شموله من ناحية أخرى. البشر جميعا يمارسون العدوان كسلوك موقفي، ولكن"العدوانيين" يمارسون عدوانًا أشد واشمل. بمعنى أن الموقف الذي لا يستثير عادة لدى عامة الناس سوى قدرا ضئيلا من العدوانية قد لا يتعدى مجرد اللفظ أو الإشارة يثير لدى هؤلاء"العدوانيون" قدرا هائلا من العدوان قد يصل إلى حد القتل أحيانا. ومن ناحية أخرى فإن موقفا قد لا يستثير عدوانا على الإطلاق لدى عامة الناس فإذا بأصحابنا

العدوانيين يرون في ذلك الموقف المحايد ما يسمح باستثارة عدوانهم. وقد يجهد الآخرون أنفسهم في محاولة تفحص ذلك الموقف محاولين تبين ما قد يكون خافيا عليهم من مثيرات للعدوان. ثم هم بعد ذلك قد ينقلبون إلى أصحابنا العدوانيين محاولين ما وسعهم الجهد أن يبينوا لهم (بالعقل) و (بالمنطق) إن لا مبرر على الإطلاق لعدوانهم وثورتهم فإذا بكل تلك الجهود تذهب هباء. لماذا؟ لأن العدوانية في تلك الحالة الأخيرة لا تنبع من الموقف الخارجي وهي بالتالي لا تخضع لمنطق المناقشة. بل إنها كسمة من سمات الشخصية إنما تنبع من أعماق بعيدة ترجع إلى عمليات التنشئة الاجتماعية المبكرة التي تعرض لها هؤلاء العدوانيين في طفولتهم الأولى.

ترى هل تلك المظاهر العدوانية التي رصدها سبيرو لم تكن تعبر إلا عن عدوان (موقفي) سرعان ما تلاشى بتلاشي الموقف المسبب له؟ لقد طبق سبيرو، اختبار ستيوارت للاستجابة الانفعالية على عينة تبدأ أعمارها من سن السادسة ولعله لم يستطع – لأسباب فنية تتعلق بطبيعة الاختبار – أن يضم إلى عينته من تقل أعمارهم عن ذلك – ولكن ماذا عن

هؤلاء؟ ماذا عن أطفال سبيرو فيما قبل السادة وهي سنوات التنشئة الاجتماعية الأولى التي يتحدد فيها وبشكل قاطع ما إذا كانت العدوانية سوف تستمر كاستجابة موقفية، أم أنها سوف تتحول إلى سمة سلوكية تضرب بجذورها في شخصية الفرد وتلقى بظلالها على سلوكه جميعا دون اعتبار كبير لخصائص الموقف.

لقد سبق لسبيرو في نفس كتابه المشار إليه أن قام بدراسة سلوك أطفال الكيبوتز في سنوات العمر الأولى. وقد اعتمدت دراسته تلك على الملاحظة الموضوعية الدقيقة لمجموعات متسلسلة من أطفال الكيبوتز تتراوح أعمارهم من ثلاثة عشر شهرا إلى خمس سنوات، وقد سبق لنا أن عرضنا بشيء من التفصيل لتلك الدراسة في بحثنا المعنون"تجسيد الوهم: دراسة سيكولوجية للشخصية الإسرائيلية"، وخلصنا من عرضنا لتلك الدراسة إلى"أن أسلوب التربية المتبع في الكيبوتزات هو الذي يربي الأطفال على العدوان والقسوة" (٤٩).

---

(49)قدري حفني، تجسيد الوهم، مرجع سابق ص ٢١٥.

العدوان إذن سمه سلوكية تميز السابرا وليس سلوكًا موقفيا يختفي باختفاء مبرراته الخارجية. ومن هنا فإن ملاحظة سبيرو – وهي صحيحة بلا شك – عن اختفاء ظاهرة للانفعال بالعدوان لا يعكس اختفاء مقابلاً للعدوان نفسه بل هو يعني بالتحديد أن العدوان لم يعد يثير انفعالاً: لا بالحزن، ولا بالغضب بل ولا حتى بالخجل أو الندم. إن العدوان ببساطة لم يعد أمرا شديد السوء. كل ذلك قد أشارت إليه دراسة سبيرو وإن كنا نختلف معه في التفسير، أو بالتحديد فإننا نرجع التفسير الذي استبعده سبير وهو أن يكون ذلك الاختفاء للانفعال بالعدوان تأقلما مع العدوان (٥٠). ذلك بالتحديد هو ما نراه: إن تضاؤل مظاهر الانفعال بالعدوان إنما تعني أنه بالتقدم في السن يزداد الفرد من السابرا توافقا مع بيئته العدوانية، بمعنى أن يصبح من ناحية أكثر عدوانية،

(50) قدري حفني، قراءة سيكولوجية لنماذج من الأدب الإسرائيلي المعاصر: دراسات اشتراكية العدد ٨ أغسطس سنة ١٩٧٢م ، ص ١٣٧، ١٤٠.

ويصبح من ناحية أخرى أقل احتفالاً – أو انفعالاً – بالعدوان.

والتعبيرات الأدبية في هذا المجال غنية عن البيان[51] ويكفي أن ننظر إلى الشاعر الإسرائيلي يعقوب باسار وهو يكشف بوضوح في قصيدته المعنونة الحرب المقبلة والتي نشرت في أكتوبر عام ١٩٦٨م حين يقول:

الحرب المقبلة.

ننشئها.. نربيها.

ما بين حجرات

النوم.

وحجرات الأولاد

....

كذلك فإن يائيل دايان الروائية الإسرائيلية التي تنتمي هي وأباها موشى دايان إلى السابرا موضع دراستنا تقدم دليلاً إضافيا في هذا الصدد في قصتها "ولدان الموت" وهي

---

(51) إبراهيم البحراوي. أضواء على الأدب الصهيوني المعاصر، كتاب الهلاك، العدد ٢٥٧، دار الهلال، القاهرة ١٩٧٢، ص ٧٣.

في معرض الحديث عن بطلها المقاتل الإسرائيلي"دانيال" إذ بها تقول" إنه لم يكن يحس بالبهجة، ولا بالكراهية حينما كان يقتل.. ولم يكن حتى يشغل باله بالمرارات الخلقية التي تجعله يضغط بإصبعه على الزناد.. لقد أصبح القتل وظيفة بالنسبة له.. [٥٢].

(52) معين بسيسو، نماذج من الرواية الإسرائيلية المعاصرة، الهيئة العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٧٠م.

الفصل الثالث

السابرا............. شباب عجوز

- محاولة للتفسير
- شباب عجوز
- خـاتمـ ـة

محاولة للتفسير

تلك إذن هي أهم الخصائص السيكولوجية التي تميز السابرا، وهي ليست بحال كل ما يميزهم سيكولوجيا، بل إنها ليست سوى ما رأيناه نحن أكثر أهمية من غيره وقد اعتمدنا في انتقائنا لتلك الخصائص واستبعادنا لغيرها على أساسين:-

أولاً : أن تكون الأبعد جذورا في التكوين السيكولوجي للسابرا بمعنى أن تكون بدايتها أبعد ما تكون غورا في التنشئة الاجتماعية البعيدة للسابرا.

ثانيا : أن نرى في الخاصية المستبعدة أنها تمثل نتاجا للخصائص التي ذكرناها أكثر من كونها تمثل أرضية أو منطلقا لخصائص جديدة.

ووفقًا لهذين المعيارين فضلنا مثلاً أن نتناول تحت عنوان منفصل خاصتين لا نستطيع أن ننكر أهميتها في التكوين السيكولوجي للسابرا وهما خاصية الشعور

بالإثم[٥٣]، [٥٤] ، [٥٥]، [٥٦] وخاصية اللامبالاة أو الجمود أو البرود الانفعالي [٥٧]، [٥٨]،[٥٩] ، [٦٠].

تلك وغيرها خواص هامة لاشك في ذلك. وعدم تناولنا لها بالتفصيل لا يعني بحال تقليلاً من أهميتها بل إنه التزام

---

(53) Spiro, M. Op. Cit. pp. 415 – 418, 484 – 485.

(54) Rabin, A.I. Comparison of American and Israeli Children by means of a sentence completion technique, Op. Cit.

(55) Rabin, A.I. The relationship of severity of guil to intensity of identification in Kibutz and non – kibutz children, The Journal of Social Psychology, vol. 69, 1966 pp. 159 – 163.

(56) Luria, Zolla, Mirian Goldwasser, Response to transgression in stories by Isreall children, child development, vol. 34, 1963, pp. 271 – 280.

(57) Rabin, A.I., Kibbutz children, Op. Cit.

(58) Rabin, A.I. Some S. Psychos exual differences between Kibbutz and non Kibbutz Israeli boys, J. Of Projective techniques, Vol. 22, 1958, pp. 328 – 332.

(59) Spirg, M. Sabras and Zionism, Op. Cit.

(60) Ziv, Avner & Hannah Shauber Contribution to a crosscultural study of manifest anxiety in children, Naman development, Vol. 12, 1969, pp. 178 – 191.

بالأساسين الذين أشرنا إليهما آنفا فضلا عن التقيد بأنه مادام عمل واحد لا يمكن أن يحوي كل شيء فلابد من اختيار أهم تلك الأشياء. وإن كان ذلك كله لا ينفي في النهاية أنه اختيار ذاتي يحكمه من ناحية اتجاه الباحث الشخصي في مجال علم النفس ونحو موضوعاته. ويحكمه من ناحية أخرى ذلك المدى الذي أمكن للباحث أن يطلع في حدوده على نتائج البحوث التي أجريت على المجتمع الإسرائيلي وجهة نظر سيكولوجية.

ترى هل تنتهي محاولتنا عند هذا الحد؟ أعني عند حد رصد عدد يزيد أو يقل من الخصائص ووضعها بعضا إلى جوار بعض تحت لافتة"الخصائص السيكولوجية المميزة لجيل السابرا".

إننا بذلك لا نكون قد أضفنا شيئًا ذا بال للعلم ولا لأصحابه فالبحوث تتوالى، وتيارها لا يتوقف، والنتائج تزداد تراكما يوما بعد يوم... وما ايسر أن يسفر كل ذلك عن المزيد والمزيد من تلك الخصائص المتشابهة، بل والمتنافرة في كثير من الأحيان، دون أن يضيف كل ذلك التراكم معرفة حقيقية جديدة بسيكولوجية السابرا.

أعني أننا لو وقفنا ببحثنا عند هذا الحد فإننا لن نجد له موضعا متميزا وسط ذلك التيار الجارف من البحوث السيكولوجية التي أجريت ومازالت تجري على المجتمع الإسرائيلي مجرد رصد لخصائص توصل لها غيرنا، وقد يتوصلون فيما بعد أن يتوصل غيرهم إلى تأكيد لتلك الخصائص أو إلى نفي لها أو إلى خصائص أخرى جديدة تماما وهدف العلم – فيما نرى – ليس من ذلك في شيء. إن هدف العلم – إنسانيا كان أو طبيعيا – ليس مجرد الوصف والرصد بل أساسا الفهم والتحليل. ولعلنا بذلك نختلف مع الكثيرين من علماء النفس المتأثرين بالفلسفة الوضعية المنطقية في تصورهم للهدف من العلم بعامة ومن العلوم الإنسانية على وجه الخصوص.

ولا يجب لمثل ذلك الاختلاف أن يخفى عن أعيننا ما في وجهة النظر المخالفة لنا من وجاهة في المنطق، بل وما تضفيه على الممارسة وفقًا لقواعدها من يسر وأمان. فليس أيسر من رصد الوقائع وتسجيلها. ولعل التطور التكنولوجي في مجال بحوث العلوم الإنسانية قد بلغ بعملية الرصد والتسجيل هذه حدا من الدقة واليسر معا لم يكن أي من علماء

الإنسانيات يحلم به منذ سنوات قليلة. هذا من حيث اليسر أما من ناحية الأمان فالأمر أوضح بكثير، فشتان بين التسجيل والتفسير أو بين الرصد والتحليل. هدف التسجيل في النهاية مهما بلغت دقته وتكنولوجيته هو بشكل أو بآخر محاكاة الواقع. إنه لا يطمع في أكثر من بلوغ صوره للواقع لا يغفل فيه تفصيلاً مهما كان دقيقا ولا علاقة مهما كانت طفيفة وهو – أي التسجيل أو الرصد – قابل في كل مرحلة للمراجعة الباردة المطمئنة سواء بالرجوع إلى الواقع المرصود من جديد أو بتطوير أساليب الرصد والتسجيل.

في النهاية فإن مخافة الوقوع في منزلق الذاتية تكون أقل ما تكون في مجال الرصد والتسجيل. والذاتية هذه هي بمثابة الكابوس الذي يؤرق علماء الإنسانيات بالتحديد بأكثر مما يؤرق سواهم من العلماء، لأسباب لسنا في معرض تفصيلها [(٦١)،(٦٢)،(٦٣)،(٦٤)].

---

(61) قدري حفني، رأى في نشأة علم النفس، الفكر المعاصر إبريل ١٩٧٠، ص ٤٢ – ٥١.

(62) قدري حفني، نظرة مادية إلى نشأة علم النفس، الفكر المعاصر، يونيو ١٩٧٠، ص ٣٠ – ٤١.

أما عمليات التفسير والتحليل فإنها تبدو للوهلة الأولى"إضافة ذاتية" فالواقع في حد ذاته لا يحوي تفسيرا ولا تحليلاً، إنه ليس سوى وقائع أو مدركات قد تكون قابلة للوصف فحسب. أما التحليل والتفسير فهو إضافة دخيلة على ذلك الواقع، إضافة نابعة من الذات، أي إضافة ذاتية وعند ذلك الحد، يفزع الكثير من علماء الإنسانيات وتجف أقلامهم، وتنضب أفكارهم، وينجح كابوس الرعب من الذاتية في شل حركتهم، ودفعهم إلى إيثار السلامة والأمان بالالتزام بحدود الوصف والتسجيل.

ولسنا نرى في العلم نفعا ولا نرى له جدوى دون الأقدام على تفسير الظواهر وتحليلها. صحيح أن الطريق ليس بآمن. وصحيح ومنطقي كذلك أن التقدم التكنولوجي لم يضف إلى إمكانيات الباحث في التفسير والتحليل بقدر ما أضاف إلى إمكانياته في الوصف والتسجيل. وصحيح أيضا أن مجال

---

(63) قدري حفني، علم النفس بين الطبقية والموضوعية، الفكر المعاصر، أكتوبر سنة ١٩٧٠، ص ١٣ – ٢٢ .

(64) قدري حفني، الدراسات النفسية بين التشابه والاختلاف، الطبيعة، ديسمبر سنة ١٩٧٠، ص ٨٢ – ٨٨.

الخلاف بين العلماء في التفسير والتحليل يبقى أكثر بكثير من مجال الخلاف بينهم في الوصف والتسجيل. ولكن الصحيح أيضا ورغم ذلك كله إن الإقدام على التفسير رغم ما قد يكتنفه من شبهة الذاتية أمر ضروري لكي يحرز العلم بعامة تقدما كيفيا فضلا عما تتطلبه الضرورات الخاصة المتعلقة بطبيعة مجال بحثنا من مزيد من الشجاعة – ومن المجازفة – في الإقدام على التفسير.

فلنعد إلى ما أسفر عنه بحثنا من نتائج محاولين أن نخطو خطوه أبعد في طريق تفسيرها. ولنوجز أولاً من جديد تلك الخصائص التي أسفر بحثنا عن اتصاف السابرا بها، فلعل إدراكنا لها مما ييسر من عملية تفسيرها والربط بينها ولن نقتصر في سردنا الموجز لتلك الخصائص على ما تناولناه تحت عناوين منفصلة بل إن ذلك السرد سوف يتضمن أيضا تلك الخصائص التي أشرنا إليها عرضا وكذلك تلك التي لم نشر إليها مباشرة.

إن أهم الخصائص التي تميز السابرا هي دون ترتيب:-

- الانطوائية.

- الكآبة
- التشكك
- التشاؤم
- الشعور بالدونية
- العدوانية
- اللامبالاة
- البـ رود
- الإحساس بالفشل
- الحساسية المفرطة للنقد
- الحاجة إلى المديح والإطراء.
- خشونة المظهر وانفعالية الأعماق.

ونستطيع أن نمضي في سرد المزيد من تلك الخصائص ولكن ترى ما هو الخيط السيكولوجي الذي يربط بين تلك الخصائص جميعا؟ بعبارة أخرى ما هي الصورة العامة لشخصية السابرا كجماع لتلك الخصائص كلها.؟

إن ألبرت رابين عالم النفس الأمريكي الذي أشرنا إلى بعض بحوثه خلال دراستنا يقدم على شيء من هذا القبيل وهو بصدد تفسير بعض نتائج أسفرت عنها دراسة له بعنوان"نضج الشخصية لدى الأطفال الكيبوتزيين، وغير الكيبوتزيين كما يعكسها الرورشاخ"[٦٥] حين يؤكد أن ثمة نضجا مبكرا يميز شخصيات السابرا.

وتزداد إشارة رابين وضوحا في مقالة له تالية سبق أن أشرنا إليها[٦٦] يحاول رابين في هذه المقالة أن يفسر ما أسفر

---

(65) Rabin, A.I. Personality maturity of kibbutz (Israeli Collective settlement) and on – kibbutz children as reflected in Rorschach, Journal of Progective Techniques, Vol. 21, 1957, pp. 148 – 153.

(66) Rabin, A.I. Comparison of American and Israeli children by neans of a sentence completion technique, Op. Cit.

عنه بحثه من اتصاف السابرا ببعض الخصائص السلوكية كالتشكك والتشاؤم بتعبير شامل مؤداه أنهم أكثر جدية أو أكثر نضجا من أقرانهم أو بعبارة أخرى أنهم يسبقون سنهم.

يقول رابين:"إن الأطفال الإسرائيليين يبدون أقل تفاؤلا إذا ما قورنوا بما هو معروف عن الأمريكيين من تفاؤل. إن عددا أقل يرون المستقبل ورديا. ولعل ما يسود أمتهم من مخاطر وما تضفيه عليهم خبرات العمل من اتجاه واقعي يجعل حتى الطفل الذي يبلغ العاشرة أقل تفاؤلا بالمستقبل كذلك فإن أهدافهم (كما عبرت عنها نتائج الاختبار) أقل طفلة، ويغلب عليها أن تكون أهدافًا مهنية معبرة عن استمراريتهم في دور الراشدين.. إن الأطفال الإسرائيليين يبدون أكثر نقدا أنفسهم، وأكثر انشغالا بخروج الآخرين على القيم الخلقية.. وربما يرجع ذلك إلى كونهم يصبحون راشدين في فترة أسبق عن غيرهم [٦٧].

إن رابين فيما نرى لم يجاوز الحقيقة كثيرا في تفسيراته، وإن لم تتسع تلك التفسيرات للحقيقة كلها. فلنحاول

Ibid.(67)

أن نمعن النظر من جديد في تلك التفسيرات لعلنا نستطيع من خلالها أن نستشرف من الحقيقة ما يكمل لدينا الصورة.

ما معنى أن تصف طفلا أو إنسانا بعامة بأنه يسبق سنه؟ هل يعني ذلك إننا حيال مجرد نضج مبكر؟ وإذا كان الأمر كذلك فبأي قدر يسبق السابرا أعمارهم؟.

لقد شدت ظاهرة النمو النفسي اهتمام المشتغلين بعلوم الإنسان منذ زمن بعيد، وكانت مجالا لعديد من دراسات علماء النفس ولقد"تطورت هذه الدراسات جميعا حتى أصبحت علما مستقلاً يبحث في سيكولوجية النمو بجميع مظاهره وفي جميع مراحله واتصلت هذه المظاهر جميعا وتداخلت مع بعضها في اتساق منطقي علمي تجريبي، وبذلك نشأ علم النمو النفسي.. وهذا يعني أن الخواص المختلفة لظاهرة النمو النفسي أصبحت واضحة الحدود والمعالم، وتمايزت في خصائصها وفي أطوارها، واستقامت كميدان مستقل من ميادين علم النفس الحديث [٦٨].

---

(68) فؤاد البهي السيد: الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة، دار الفكر العربي، القاهرة: ١٩٦٨، ص ١٩ ، ٢٠.

والنمو النفسي وفقًا للتعريف العلمي المحدد" سلسلة متتابعة متماسكة من تغيرات تهدف إلى غاية واحدة، هي اكتمال النضج ومدى استمراره وبدء انحداره. فالنمو بهذا المعنى لا يحدث فجأة، ولا يحدث خبط عشواء، بل يتطور بانتظام خطوة أثر خطوة، ويسفر في تطوره هذا عن صفات عامة تحدد ميدان أبحاث ...."[٦٩] وتخضع أطوار النمو لتتابع منتظم وتأتلف مظاهره في سلم متعاقب الدرجات لا تتقدم فيه خطوة عن أخرى. فالطفل يقعد قبل أن يناغي، ويناغي قبل أن يتكلم، ويجيد رسم المنحنيات قبل أن يجيد رسم الخطوط المستقيمة[٧٠].

النمو النفسي إذن ليس سباقًا مفتوحا، الفوز فيه لمن بلغ النضج مبكرا. صحيح أننا قد نشهد في حياتنا اليومية طفلاً يمشي قبل أقرانه، أو يتمكن من نطق الكلمات قبلهم، أو يسبقهم في الإمساك بالقلم أو في التحكم في عادات النظافة أو ما إلى ذلك. كل ذلك قد نشهده دون أن يثير دهشة

---

(69) فؤاد البهي السيد/ مرجع سابق ص ٢٢.

(70) فؤاد البهي السيد/ مرجع سابق ص ٨٨.

المتخصصين من بيننا. ولكن لكل شيء حده ومقداره الذي إذا تجاوزه أثار تساؤل المتخصصين ودهشة غير المتخصصين أيضا. ولنتصور مثلاً طفلا في الثانية من عمره يستطيع نظم الشعر مثلاً، أو طفلا في الخامسة من عمره يستطيع حل المعادلات الرياضية. عند ذلك الحد تنبعث الدهشة ويثار التساؤل إذ نصبح حيال ما قد يسميه العامة"طفل معجزة".

لقد تعمدنا أن نختار أمثلتنا التصويرية من مجال يندر فيه حدوث مثل تلك المعجزات، أعني مجال"القدرات العقلية" وذلك بحكم طبيعة تلك القدرات وتركيبها، واعتماد مراحلها بعضها على البعض بشكل صارم. وقد هدفنا من سوق تلك الأمثلة أن نوضح فحسب إن"النضج المبكر" قد يكون أمرا عاديا في حدود معينة، وأنه قد يصبح شيئًا شاذا إذا ما تخطى تلك الحدود.

والأمر بالمثل فيما يتعلق بالنضج الانفعالي، فلكل مرحله من مراحل النمو خصائصها الانفعالية التي تميزها عن سواها، والانتقال من مرحلة إلى مرحلة في هذا المجال يحكمه ما يحكم النمو عامة من قوانين وقواعد. غير أن ثمة فرقًا هاما بين المجال العقلي والمجال الانفعالي يجدر بنا

الإشارة إليه. قد يكون النضج العقلي المبكر أمرا مرغوبا اجتماعيا وأخلاقيا، وسواء كان بلوغه ممكنا أو مستحيلاً، بل لعل الكثيرين منا يسعون جاهدين لكل يحققوا أبنائهم ذلك السبق العقلي المبكر أو هم يتمنونه على الأقل. وبصرف النظر عما يمكن أن يحققه ذلك السعي أو التمني من فائدة أو ضرر فمما لا شك فيه أننا وإن دهشنا لطفل يسبق أقرانه عقليا فإن دهشتنا تلك تكون غالبا نوعا من الانبهار بقدراته والإعجاب بها أما فيما يتعلق بالموقف من النضج الانفعالي المبكر فإن الأمر لا يبدو على ذلك القدر من التقبل الاجتماعي والأخلاقي. ولنتصور معا طفلاً لا يلعب ولا يثرثر، ولا يضحك إلا بمقدار ولسبب معقول، يحزن إذا حزن بمقدار، ويبكي إذا بكى بمقدار، يتحدث أحاديث الكبار، وينفعل كما ينفعلون. صحيح أننا قد نعجب بمثل ذلك الطفل ولكنا حينذاك لا نعجب منبهرين بل مشفقين.

خلاصة القول أنه إذا ما كان ثمة خير في النضج العقلي إذا ما جاوز حده، فليس ثمة خير كثير في نضج انفعالي يجاوز تلك الحدود. إننا لا نصبح في تلك الحالة الأخيرة

حيال استباق لمراحل النمو، بقدر ما نصبح حيال إجهاض لمرحلة أو أكثر من مراحل ذلك النمو.

ولنعد بعد ذلك الاستطراد الضروري إلى موضوع بحثنا إلى السابرا وتلك الخصائص الانفعالية التي أسفر بحثنا عن اتصافهم بها. ترى إلى أي مرحلة من مراحل النمو تنتمي تلك الخصائص؟.

لقد أجرى العالم النفسي بروزيك دراسة نشرها عام ١٩٥٥م [٧١] على مجموعتين من الأفراد: الأولى من الشباب الراشدين، والثانية من الكبار الذين تمتد أعمارهم من ٤٥ سنة إلى ٥٥ سنة. ومن بين الفروق الانفعالية التي أسفرت الدراسة عن أنها تميز بين المجموعتين:- إن الكبار لا يحبون النقد، وإنهم أقدر على إخفاء مظاهر غضبهم، وأن انفعالاتهم أقل تواترا في حدوثها من انفعالات الشبان.

كذلك فإن عالم النفس المصري فؤاد البهي السيد وهو بصدد رصده للمظاهر الانفعالية لمرحلة الشيخوخة وهي – في رأيه – تبدأ منذ سن الستين يشير إلى عدد من الخصائص

---

(71) فؤاد البهي السيد: المرجع السابق ص ٤٢٢.

لا تخفى دلالتها على أحد في مجال بحثنا، فالشيوخ"يميلون للمديح والإطراء[(٧٢)]... وقد يؤدي بهم القلق إلا الكآبة... وما أكثر شكوك الشيوخ وريبتهم في الآخرين... [(٧٣)]

ثم يحدد فؤاد البهي ما يميز مرحلة الشيخوخة انفعاليا عن بقية المراحل في نقاط ثمان نوردها كما هي دون تصرف[(٧٤)].

(١) يحلو للشيوخ أحيانا أن يقفوا من البيئة المحيطة بهم موقفًا سلبيا لا ينفعلون لها أو معها، وكأنهم بهذا يعبرون عن شعورهم بالهوة السحيقة التي تفصلهم عن الأجيال الأخرى التي تضطرب بها الحياة من حولهم.

(٢) ولذا كثيرا ما تتصف انفعالاتهم بالخمول وبلادة الحس.

(٣) وقد يرجع هذا الشعور الغريب بالسلبية والبلادة إلى عدم إدراك الشيخ للمسئولية التي تواجه من يحيطون به. فهو يمضي في حياته، ومشاكل الناس حوله تدفعه

---

(72) فؤاد البهي السيد: المرجع السابق ص ٤٢٣.

(73) فؤاد البهي السيد: المرجع السابق ص ٤٢٤.

(74) فؤاد البهي السيد: المرجع السابق ص ٤٢٤ - ٤٢٥.

إلى ألوان مختلفة من الكفاح المرير، وهو لا يشعر نحوهم ولا نحو مشاكلهم بأية مسئولية تتطلب منه استجابة انفعالية محددة.

(٤) ولذلك يقل حماسهم لما يحيط بهم من مشكلات انفعالية يضطرب فيها الآخرون.

(٥) وهم عندما ينفعلون، كثيرا ما يخطئون إدراك الموقف المحيط بهم. وتجيء انفعالاتهم شاذة لا تتناسب ومقومات الموقف الذي أثار في نفوسهم ذلك الانفعال.

(٦) ويغلب على انفعالهم لون غريب من التعصب الذي لا يقوم في جوهره على أي أساس، فهم يتعصبون لجيلهم ولآرائهم، ولعواطفهم، ولكل ما يمت إليهم بصلة قريبة.

(٧) وعندما لا يتقبل الآخرون ذلك التعصب بروح المشاركة والولاء فإنهم يحسون في أعماقهم بأنهم مضطهدون.

(٨) ويؤدي بهم الشعور بالاضطهاد إلى الإحساس العميق بالفشل. وقد يتخذون سلوكًا معاديا فيجابهون الاضطهاد الذي يقع عليهم باضطهاد الآخرين.

ترى هل مازلنا في حاجة للقول بأن تلك الخصائص التي أوردها فؤاد البهي باعتبارها مميزة للشيوخ يمكننا أن نعيد قراءتها باعتبارها مميزة السابرا دون ما حاجة إلى تعديل كبير؟

السابرا إذن ليسوا مجرد أطفال أو شباب يميزهم نضج مبكر، بل إن ذلك النضج ليمضي إلى أبعد من ذلك، إنه يمضي لهم إلى الشيخوخة إذا ما اعتبرنا أن الشيخوخة مرحلة من مراحل النضج، وهي كذلك بالفعل. إنهم من الناحية السيكولوجية أطفال شيوخ أو بعبارة أخرى (شباب عجوز).

وإلى هنا ينبغي أن يقف بنا الحديث في حدود علم النفس أو علم النمو النفسي فإذا شئنا مزيدا من التفسير، أو بعبارة أخرى إذا ما كان لدينا من الجهد والرغبة ما يشدنا إلى مزيد من التوغل في ذلك الطريق غير الآمن، طريق التفسير والتحليل والفهم، فإن علينا أن نتجاوز قليلاً حدود علم النفس منقبين في مجالات أخرى أدخل في نطاق علوم الاجتماع والتاريخ والاقتصاد والسياسة. محاولين في ذلك التنقيب عن الإجابة عن عدد من التساؤلات يتمثل محورها في تساؤل

مؤداه: ما دلالة أن يسعى مجتمع من المجتمعات إلى صنع ذلك النوع من"الشباب العجوز"؟.

شباب عجوز

كما أن للبشرية علوما أنجزتها ومازالت تعمل على إثرائها، فإنها قد عرفت عبر تاريخها الطويل الكثير من الأحلام التي كانت في كثير من الأحيان تعبيرا عن شوق الإنسان إلى المعرفة بالكون واستباقًا بالأماني إلى منجزات العلم الطبيعي. وكانت في أحيان أخرى تعبيرا عن شوق الإنسان إلى العدل الاجتماعي، واستباقًا بالأماني إلى منجزات العلوم الإنسانية. وتاريخ الفكر الإنساني بما يحويه من أساطير وحكايات، وما يتضمنه من مدن فاضلة، يعد معينا لا ينضب لمن يرغب في التنقيب عن تلك الأحلام الرؤى التي تحقق منها ما تحقق. وبقى منها ما بقى محتفظًا بقدرته على حفز البشر إلى تحقيقه. وتحطم منها ما تحطم على صخور الواقع العلمي، فاقدا قدرته على الحفز، قانعا بدوره كحلم مستحيل ترويه الجدات العجائز لأطفالهن عند النوم، ويطمئن إليه أولئك المشتاقون إلى المعرفة أو إلى العدل الاجتماعي ممن تقعد بهم إمكانياتهم أو عزائمهم عن جهد محاولة اإلنجاز، ويحول طموحهم وتطلعهم دون اقتناعهم باستحالة

المستحيل فيلبثون في إمكانهم، مطمئنين لأحلامهم كأشد ما يكون الاطمئنان، سعداء برؤاهم كأشد ما تكون السعادة.

وقد نجد غير هؤلاء وهؤلاء من البشر من لا يكفون عن محاولة المستحيل يفشلون مرة ومرة وتتعدد مرات فشلهم وهم لا يستطيعون تخليا عن حلمهم بعد أن اطمأنوا إليه، ورغم كل ما يشير إلى استحالته بل وإلى عدم جدوى تحقيقه أيضا. أنهم ورغم كل شيء يمضون في محاولاتهم، دون أن يفقدوا الأمل في وقوع المعجزة، وتحقق المستحيل.

ويعنينا من تلك الأحلام والرؤى حلمان متميزان. عرفهما الإنسان واستحال عليه أن يحقق أيا منهما. ورغم ذلك فقد ظلا دوما يداعبان خياله. ومن حين إلى آخر يقدم الإنسان على محاولة تحقيق أيا منهما آملاً في وقوع المعجزة وتحقق المستحيل والحلمان الذين نعنيهما مرتبط أحدهما بالآخر ارتباطًا وثيقًا، وحتى ليكادا يكونا شكلين لأمنية واحدة تتمثل في محاولة الجمع في الفرد الواحد بين مزايا الشباب والشيوخ جميعا. أو بالتحديد في محاولة أن يلبس الشيخ لباس الشباب انفعالا وعاطفة وفي محاولة أن يلبس الشاب لباس الشيوخ تعقلاً وبرودا.

واتخذت الصورة الأولى أشكالاً عديدة تطالعنا على مستوى الأمنيات والأساطير والحكايات الشعبية التي تدور عن إكسير للحياة الطريق إليه شاق، وطويل ومليء بالصعاب. ومن استطاع تحمل مشاق الطريق، وبلغ الغاية، ورشف من ذلك الإكسير لم تعرف الشيخوخة إليه سبيلاً، وحصل على شباب دائم، والقصص كثيرة تجل عن الحصر. ولعل ما نشهده الآن من شغف الكثيرين وتتبعهم، بل وترقبهم، لما يمكن أن يقدمه"العلم" في هذا الصدد من عقاقير وأدوية تعيد للشيوخ شبابهم – لعل ذلك كله يمثل أشكالاً جديدة لنفس الصورة وإن كانت على مستوى محاولة الإنجاز.

وفي الحقيقة فإن الصورة الثانية، أو الحلم الثاني هو الأكثر التصاقًا بموضوعنا، أعني السعي نحو أن يصبح الشاب شيخًا في حكمته وبروده ولا يبقى له من شبابه إلا قوته وقدرته على الاحتمال.

لقد راود البشرية ذلك الحلم منذ قديم. والفكر البشري بما فيه من أساطير وقصص شعبية مليء بحكايات لا حصر لها ع معجزة"الطفل الحكيم" الذي لا ينطبق رغم صغر سنه

إلا حكمة خالصة والذي يصدر في تصرفاته عن تعقل يعجز عن مجاراته في الشيوخ الحكماء، وغالبا ما تنتهي مثل تلك الحكايات باقتناع الشيوخ بإعجاز ذلك الطفل وإسلام قيادهم له.

وإذا كانت الأساطير الشعبية لا تعني كثيرا بتفسير مثل تلك المعجزات ولا تنشغل بالتخطيط أو السعي لإحداثها فإن تاريخ الفكر الفلسفي والاجتماعي لا يخلو من محاولات التصدي لتلك المعجزات تفسيرا وتخطيطًا بل وسعيا كذلك.

يقول آرثر شوبنهور"إذا جذبنا فجأة من سيل الرغبات المتدفق عامل خارجي، وميل داخلي، فخلصت المعرفة من استبداد الإرادة بحيث لا يعود انتباهنا يتجه إلى دوافع الرغبة بل إلى تفهم الأشياء، وهي حره مما يربطها بالإرادة من روابط، ثم ينظر إليها نظرة لا يشوبها شيء من الهوى الشخصي والنزعة الذاتية أي ينظر إليها نظرة موضوعية خالصة. إذا ما انصرف العقل بكليته إلى الأشياء باعتبارها أفكارا لا باعتبارها دوافع مثيرة للرغبة، عندئذ يرفرف علينا السلام الذي طالما نشدناه، والذي ما فتيء يفلت في ذلك

السرداب من الرغبات"[٧٥] ذلك هو ما قاله شوبنهور الفيلسوف الألماني في النصف الأول من القرن التاسع عشر على وجه التقريب مؤكدا أن السعادة إنما تتحقق بانتصار العقل على الرغبة والفكر على الإرادة. ولقد جسد شوبنهور فكرته في تصوره"للعبقري" – إنسانه المثالي – باعتباره أعلى صورة من صور هذه المعرفة اللاإرادية [٧٦].

ويتحول الحلم من عبقري"شوبنهور إلى"سوبرمان" نيتشه الذي يقول عنه"النشاط والعقل والكبرياء – هذه هي مقومات الإنسان الأعلى ولكن على أن يكون بينها انسجام واتساق، ولن تكون العواطف قوة دافعة إلا إذا وحد بينها غرض جليل يصوغ شتى الرغبات في شخصية متزنة قوية، فويل للمفكر الذي لا يقف من أفكاره وعواطفه موقف البستاني الذي يهذب ويشذب، ويقنع بأن يكون تربة ينمو فيها النبات.... إن من ينساق لعواطفه وغرائزه هو الضعيف الذي تعوزه قوة أكبر

---

(75) أحمد أمين، وزكي نجيب محمود. قصة الفلسفة الحديثة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٤٣٩ ، ٤٤٠.

(76) أحمد أمين، وزكي محمود. مرجع سابق ص ٤٤٠.

والذي ليس لديه من القوة ما يقول به لا إذا وجب قولها فأسمى ما يسموا إليه الإنسان هو أن ينظم نفسه، فإذا أردت ألا تكون نكره من غمار الناس وسوقتهم فما عليك إلا أن تعسر على نفسك في الحساب"[٧٧]. كان ذلك هو تصور نيتشه للسوبر مان أو للإنسان الأعلى. هو الإنسان الذي يتخذ من عواطفه موقف الكبح والرفض والتقييد.

لم يقف نيتشه عند حد طرح تصوره للسوبر مان بل إنه قد تقدم بالعديد من المقترحات والأساليب التي رآها كفيلة بخلق ذلك الإنسان الأعلى ومن بين تلك المقترحات والأساليب اقتراح محدد بإنشاء مدرسة يرى فيها نيتشه الطريق لصياغة الإنسان الأعلى. ونرى فيها نحن صورة قريبة الشبه بالكيبوتز الإسرائيلي.

يقول نيتشه في وصف مدرسته تلك."إنها مدرسة عنيفة قاسية تقصد بتلاميذها إلى الكمال، فتلقى عليهم بواهظ الأعباء دون أن ينعموا بكثير من أسباب الترف، ويؤخذ الجسم

---

(77) أحمد أمين، وزكي نجيب محمود، المرجع السابق . ص ٥٤٠ – ٥٤١.

بالتعذيب والقسوة ليحتمل البلاء في صمت، وتتعلم الإرادة كيف تطيع وكيف تأمر" (٧٨).

لقد سقنا هذين النموذجين كمجرد أمثلة على ذلك الفكر الذي عرفته البشرية منددا بالعواطف والرغبات والانفعالات مناديا بسيادة العقل والفكر، وداعيا إلى خلق إنسان نموذجي يتجسد فيه كل ذلك. ومثل ذلك الإنسان المأمول ليس فيما نرى سوى نموذجا للشاب العجوز أو الطفل الحكيم الذي أشرنا إليه سواء أسماه شوبنهور"العبقري" أو أسماه نيتشه"السوبر مان" أو أطلق عليه غيرهم غير ذلك من الأسماء.

إن ذلك الفكر جميعا لم يتعد على أيدي أصحابه من الفلاسفة حدود التصور وغذا تعداها فأقصى ما وصل إليه هو التخطيط ولكن على المستوى النظري كذلك. ولكن ليت الأمر كان قاصرا على الفلاسفة وفلسفاتهم إذن لهان كثيرا. ولكن ذلك لم يحدث.

---

(78) أحمد أحمد، وزكي نجيب محمود، المرجع السابق ص ٥٣٩.

لقد وجد النظام الفاشي المتمثل في النازية بغيته في تلك الأفكار وسرعان ما تبناها ووضعها موضع التطبيق الفعلي تعبيرا عن سعيه المقصود نحو خلق إنسان جديد متفوق يجمع بين"عبقري" شوبنهور، و"سوبر مان" نيتشه تحت اسم جديد هو"الإنسان الآري". لقد كان نيتشه هو الأب الفكري للفاشية [٧٩].

ترى ما الذي يشبع ذلك الفكر في النظام الفاشي؟ هل ثمة ما يتعارض في ذلك النظام مع الخصائص السيكولوجية للشباب بحيث يسعى إلى وأدها؟ أم إنه مجرد سعي خالص لتحقيق اسطورة"الشباب العجوز" بعيدا عن أي ملابسات اجتماعية؟.

إن العديد من الكتابات المتخصصة [٨٠]،[٨١]،[٨٢] ، تشير بوضوح وبأساليب شتى إلى أن ثمة رباط وثيق يربط بين أمور ثلاث تشكل معا الطابع الاجتماعي للنظام الفاشي:-

---

(79) Nathan, Peter, The psychology of Fascism, Faber & Faber & Faber, p. 107.

(80) Fromm, Iric, Escape from freedom, Farras & Rinchart, Inc., New York: 1941.

(١) ظروف اقتصادية وسياسية وتاريخية معينة.

(٢) تصور فكري يعبر عن تلك الظروف ويعد في نفس الوقت انعكاسا ونتاجا لها وقد تمثل ذلك التصور في الفكر العنصري بعامة، وفي فكرة"الإنسان الآري" على وجه الخصوص.

(٣) انعكاس تلك العوامل جميعا الاقتصادية والسياسية والتاريخية والفكرية في أساليب معينة للتنشئة الاجتماعية تدعم البناء الاقتصادي الاجتماعي للفاشية وتكون في نفس الوقت انعكاس لذلك البناء، وضمان لاستمراره بكفالة أجيال جديدة من الشباب الفاشي أعني الشباب العجوز.

ويمثل الكيبوتز الإسرائيلي فيما نرى صورة جديدة من صور ذلك السعي نحو شكل جديد من ذلك"الشباب العجوز"

---

(81) Reich, W. The mass psychology of fascism, Orgone Institute Press, New York, 1946.

(82) A dorno, T.W., K.F. Brunswik, D.J. Levinson & R.N. Sanford. The Authoritarian Personality. Harper & Brothers, New York, 1950.

شكل يتجسد فيه"عبقري" شوبنهور"وسوبرمان" نيتشة، بل ويتجسد فيه أيضا"الإنسان الآري" الذي سعت إليه النازية بكل ما يميزه حتى من تعصب عنصري. وليتخذ هذه المرة اسما جديدا هو"السابرا".

إنسان إسرائيلي جديد، يصنع له أباؤه الاشكنازيون مدرسة هي الكيبوتز تقترب في مواصفاتها من مدرسة نيتشه ينشئونه فيها على كل ما يريدونه أن ينشأ عليه من خصائص سبق أن فصلناها قدر ما استطعنا. وإذا ما شئنا إيجازا للعملية كلها لقلنا إن الأشكنازيين الإسرائيليين – شأنهم شأن النازيين الألمان – يسعون ما وسعهم السعي إلى أن يبتكروا من أساليب التنشئة الاجتماعية ما يكفل لهم بقدر المستطاع وأدا لخصائص الشباب السيكولوجية لدى أبنائهم وغرسا وتدعيما لخصائص الشيوخ لديهم.

ولعل تفسير ذلك السعي الإسرائيلي نحو خلق"شباب عجوز" إنما يكمن فيما بين النظام الإسرائيلي والنظام النازي من رباط أساسي يتمثل في ذلك التقسيم العنصري الصارم لفئات المجتمع. صحيح أن النازية كانت تسعى علانية للدفاع عن ذلك التقسيم وتدعيمه. وصحيح كذلك أن النظام

الإسرائيلي – أعني الحكومة الإسرائيلية – تسعى ما وسعها الجهد إلى القضاء على ذلك التقسيم أو على الأقل تغطيته. ورغم كل ذلك، فإنه صحيح أيضا أن"المجتمع الإسرائيلي" و" المجتمع النازي"، مجتمعات تسودها العنصرية من الناحية العملية بصرف النظر عن نوايا الحكومات المعلنة أو الخبيئة ومادام ذلك هو الواقع الاجتماعي الفعلي فلا مناص – مهما بلغت النوايا من أن يترك انعكاسه واضحا في كافة نواحي الحياة في ذلك المجتمع.

خـــاتمة

ذلك هو تصورنا لسيكولوجية السابرا في إسرائيل أنهم"شباب عجوز". ولعل سؤالا قد ألح على القاريء وعلينا كثيرا: وماذا عن النصف الآخر، أعني عن شباب السفارديم الإسرائيلي؟ ما هي المكونات الرئيسية لسيكولوجيتهم.؟

والإجابة عن ذلك السؤال تقتضي ولاشك بحثا منفصلا لعلنا، أو لعل غيرنا من الباحثين يتمكن من إنجازه...

مراجع البحث

أولاً: المراجع الأجنبية:

1. Adorno, T.W.E.F. Brunswik, D.J. Levinson & R.N. Sanford. The Authoritarian Personality Harper & Brothers, New York: 1950.
2. Alexander, Pierre some Linguistic problems of nation bulding in Negro Africa In Language problems developing nations, (eds), J. A. Fishman, C.A. Ferguson & J. Das Gupta, John Wiley & Sons Inc. New York: 1968.
3. Alport, E.A. the integrations of Oriental jews in Israel, The World today, vol. 23, 1967, pp. 153 – 160.
4. Bakaliedar – Alon, Sh. About the emotional and intellectual features of the Yemennte youth, Psychological Abstracts, No. 1898, 1953.
5. Berezin, F.M. Lectures on linguistics, Higher School publishing, House, Moscow: 1969.
6. Berkman, Ted, Sabra, Barper & Row publishers, New York: 1969.
7. Bettelhaim, Bruno, The children of the dream, Macmillan Company, London, 1969.

8. __________ Personality formation in the Kibbutz, American Journal of Psychoanalysis, vol. 29, 1969 pp. 3 – 9.
9. Blance, Haim, The Israeli Koine as an emergent national standard In Language problems of develping nations, (eds.), J.A. Fishman, C.A. Ferguson & Das Gupia, John Wiley.
10. Bondy, Ruth The Israelis, (Trans. From the Hebrew: Israel, I. Taslitt), Funk & Wagnalls, New York: 1969.
11. Brock, Jan O.M. National character in the perspective of cultural geography, The Annals, Vol. 370, 1967 pp. 5 – 15.
12. Chigier, E. & Mirriam chigier. Attitudes to disability of children in the multi – cultural society of Israel, Journal of Health & Social Behavior, vol. 9, 1968, pp. 310 – 317.
13. Das Gupta, J. J.G. Gumperz. Language, Communication, and control in North India, In, Language problems of developing nations (eds.), J.A. Fishman, C.A. Ferguson & J. Das Gupta, John Wiley & Sons inc., New York: 1968.

14. Eisenstadt, S.N. Youth, Culture, and social structure in Israel, Brit. J. Of Sociology, vol. 2, 1951.
15. English, H.B. & A.C. English. A comprehensine dictionary of psychological and psycohoanalytical terms, Longmans, Harlow: 1958.
16. Essring, Harry & Abraham segal Israel today, Union of American Hebrew Congregations, New York: 1970.
17. Friedman, Georges. The end of the Jewish people Doubleday & Company inc., New York: 1968.
18. Fromm, Eric Escape from freedom, Farrar & Rinshart, Inc., New York: 1941.
19. Goldschmidt, Dietrich" Israel and the modern world", Social compass, vol. 9, 1962 pp. 215 – 220.
20. Handel, A. Self- concept of the kibbutz adolescent, kibbutz atudies, In, A.I. Rabin, Michigan State University press, Michigan: 1971 pp. 72 – 73.
21. Hess, J.P. Problems of adolescence from the point of view of the psychiatric clinic, psychological abstracts, No., 3997, 1968

22. Huss, Hava. Results of a survey on 8th grade pupils in special schools, Psychological Abstracts, No. 789, 1967.
23. Luria, Zella, Miriam Goldwasser & Adena Goldwasser. Response to transgression in stories by Israeli Children. Child development, Vol. 34, 1963 pp. 271 – 280.
24. Markman, Ronald A. Juvenile delinquency in Israel, Amer. J. of psychiatry vol. 123, 1966 pp. 363 – 469.
25. Mikes, George. The prophet motive: Israel today and tomorrow, andre Deutsch LTD., London/1959.
26. Nathan, Peter the psychology of Fascism, Faber and Faber Ltd., London (undated).
27. Ormain, H. The attitudes of Israel high – school students toward Mendelle, Psychological Abstrats, No. 7391, 1951.
28. Priojnikoff, L.A., J. Hadar & A. Hadar. Dogmatism and social distance: Across – Cultural study, Proceedings of the annual convention of the APA, vol. 5, 1970 pp. 323 – 324.
29. Rabin, A.I. Personality maturity of Kibbutz and non – kibbutz children as reflected in Rorshach, Journal of

Projective Techniques, Vol. 21, 1857, pp. 148 – 152.

30. ------------ some psychosexual differences between kibbutz and non – kibbutz Israeli boys, Journal of projective techniques, vol. 22, 1958., pp. 328 – 332.

31. ----------- Comparison of American and Israeli children by means of a sentence completion technique, The Journal of Social psycho. Vo. 59, 1959. pp. 3 12.

32. ------------ Kibbutz Adolescents, Amer. J. of Orthopsychiatry, vol. 31, 1961, pp. 493 – 504.

33. ------------- & Hanna Goldman, The relationship of severity of guilt to intensity of identification in Kibutz and non – Kibbutz children, J. of Social Psychology, vol. 69, 1956, pp. 159 – 163.

34. Reich, W. The mass psychology of Fascism, Organe Isntute Press, New York: 1946.

35. Richardson, S.A. et al. Cultural uniformity in reaction to physical disabilities, American Sociological Review, vol. 26, 1961, pp. 241 – 247.

36. Rubin, Morton (Review) Israel Between East and west, by Raphael Patai, American Anthropologist, vol., 56, 1954, pp. 310 – 311.
37. Russcol, H. & M. Banai The first million of Sabras a portrait of the native-0 born Israelis, Dodd., Mead. Comp., New York: 1970.
38. Shaham, Nathan La second generation, Esprit, 34, Annee, No. 352, 1966 pp. 200 – 206.
39. Shibutani, T. & K.M. kwan ethnic stratification; Macmillan: New York: 1965.
40. Spiro, M.E. the sabras and Zionism, social problems vol. 5, 1957, pp. 100 – 110.
41. ----------- Children of the kibbutz, schooken Books, New York, 1965.
42. ------------- Kibbuts: Venture in Utopia, schocken Books, New York: 1967.
43. Wolman, B. The social development of Israel Youth, Psychological Absteacts, No. 5759, 950.
44. Ziv, Avener & H. Shauber contribution to a crosscultural study of manifest anxiety in children, Human development, vol. 12, 1969, pp. 178 – 191.

ثانيًا: المراجع العربية

٤٥- إبراهيم البحراوي – أضواء على الأدب الصهيوني المعاصر، دار الهلال، القاهرة، ١٩٧٢.

٤٦- أحمد أمين، وزكي نجيب محمود – قصة الفلسفة الحديثة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة: ١٩٤٩.

٤٧- دويتشر، اسحق، دراسات في المسألة اليهودية، ترجمة مصطفى الحسيني، دار الحقيقة، بيروت: ١٩٧١.

٤٨- ستالين، ج، حول الماركسية في علم اللغة، دار ابن سينا، بيروت: (تاريخ النشر غير معلن).

٤٩- فؤاد البهي السيد. الأسس النفسية للنمو: من الطفولة إلى الشيخوخة، دار الفكر العربي، القاهرة: ١٩٦٨.

٥٠- قدري حفني: رأى في نشأة علم النفس، الفكر المعاصر القاهرة: أبريل ١٩٧٠، ص ٣٠ – ٤٢ – ٥١.

٥١- __________: نظرة مادية إلى نشأة علم النفس، الفكر المعاصر، القاهرة يونية ١٩٧٠، ص ٣٠ – ٤١.

٥٢- __________: علم النفس بين الطبقية والموضوعية، الفكر المعاصر، القاهرة أكتوبر ١٩٧٠، ص ٨٢ – ٨٨.

٥٣- __________: الدراسات النفسية بين التشابه والاختلاف الطليعة، القاهرة، ديسمبر سنة. ١٩٧٠ ص ٨٢ – ٨٨.

٥٤- تجسيد الوهم: دراسات سيكولوجية للشخصية الإسرائيلية مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية، مؤسسة الأهرام، القاهرة: ١٩٧١.

٥٥- __________ قراءة سيكولوجية لنماذج من الأدب الإسرائيلي المعاصر. دراسات اشتراكية. القاهرة: أغسطس سنة ١٩٧٢، ص ١٣٧، ١٤٠.

٥٦- معين بسيسو. نماذج من الرواية الإسرائيلية المعاصرة الهيئة العامة للتأليف والنشر: القاهرة ١٩٧٠.

٥٧- هل، ك. وج. لنذري – نظريات الشخصية، (ترجمة: د. فرج أحمد فرج، وقدري حفني، ولطفي فطيم ومراجعة: د. لويس كامل مليكة) الهيئة العامة للتأليف والنشر، القاهرة: ١٩٧١.

الباب الرابع

التكوين السيكولوجي الإسرائيلي وقضايا الحرب والسلام[٨٣]

- تجمع إسرائيلي في مؤسسة عسكرية
- وجهتا نظر
- أي حرب نعني؟ وأي سلام نسته
- خفوت التهديد
- افتقاد الأمن
- الآثار النفسية لحرب أكتوبر

---

(83) تم اعداد هذا المقال في منتصف عام ١٩٧٧

تجمع إسرائيل في مؤسسة عسكرية

رغم الحداثة النسبية لتعبير"المؤسسة العسكرية" فإن وجود مثل تلك المؤسسات أيا كان تعريفنا لها يكون أمرا حتميا وطبيعيا في كافة المجتمعات البشرية. فالمؤسسة العسكرية هي التنظيم الاجتماعي الذي يتحدد دوره في السعي إلى تحقيق أهداف متمثلة في الدولة إذا ما تطلب بلوغ هذه الأهداف استخدام القوة.

ويعلمنا التاريخ أن الأرض والبشر هما البداية. ومن خلال تفاعل جماعة بشرية معينة، فوق بقعة من الأرض، وعبر مراحل تاريخية متشابكة. ينشأ المجتمع وتتبلور العلاقات المتبادلة بين أبناء المجتمع بمختلف فئاتهم لتحدد طبيعة السلطة وشكل الدولة في هذا المجتمع، وأبعادها السياسية والأيديولوجية. وتتحدد بالتالي التنظيمات السياسية المناسبة لتلك الأبعاد، وأخيرا تتشكل المؤسسات العسكرية وفقًا لتلك المقتضيات جميعا. صحيح أن بعض تلك الخطوات قد يتأنى أو يتشابك ولكن لا يمكن أن يسبق بعضها البعض.

هكذا تسير الأمور في المجتمعات"الطبيعية" أما بالنسبة للتجمع الإسرائيلي ومؤسساته العسكرية فقد اتخذ الأمر عكس هذا المسار التاريخي الطبيعي تماما. فخلال القرن التاسع عشر، بدأ النشاط العملي للصهيونية في أوروبا مستهدفًا الفصل بين الأرض"والبشر" عنصري البداية التاريخية الأولى. لقد سعت إلى الفصل بين الفلسطينيين و"الأرض العربية" مستهدفة في النهاية انتزاع اليهود من أرضهم، واستنباتهم في أرض جديدة. ولم يكن بد والأمر كذلك من أن يكون الهدف العملي الأول للصهيونية على الأرض العربية هو إخلائها من أصحابها وأعدادها لاستقبال النبت الغريب. ولم يكن ممكنًا أن تتم عملية الإخلاء هذه بهدوء وسلام، بل كان على الصهيونية أن تعد عدتها لانتزاع أصحاب الأرض من أرضهم انتزاعا. ومن ثم فقد كان"طبيعيا" والأمر كذلك أن تتمثل البداية الأولى للتجمع الإسرائيلي على أرض فلسطين في صورة"مؤسسة عسكرية" وكان على المؤسسة العسكرية الصهيونية أن تنشيء الدولة ثم أن تصطنع ذلك"مجتمعا".

لقد نشأت أولى التنظيمات المسلحة الصهيونية على أرض فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر متمثلة في

منظمة الهاشومير وتعني الحرس اليهودي. والتي وضع بذرتها صهاينة قدموا من وسط أوروبا إلى فلسطين حيث أنشأوا مستعمرة بتاح تكفاه بداية حركات النزوح الصهيوني. وقد اتخذت منظمة الهاشومير شكلها المحدد حوالي عام ١٩٠٧م. واستمرت كذلك إلى أن تحولت على أثر وعد بلفور عام ١٩١٧م إلى المنظمة للمعروفة باسم منظمة الهاجاناه من بريطانيا على اعتراف فعلي بها كمنظمة للدفاع عن المستعمرات. ومن خلال منظمة الهاجاناه وبترتيب من القيادة البريطانية، تشكلت منظمة البالماخ، أي الفصائل المهاجمة. وكان على رأس منظمة البالماخ عند تشكيلها عام ١٩٤٢م ايجال آلون.

وفي عام ١٩٣٧م تأسست إلى جانب الهاجاناه منظمة عسكرية أخرى هي منظمة ارجون زفناي ليومي أي المنظمة العسكرية لشعب إسرائيل. وهي تعبير عن انشقاق قام به بعض الصهاينة المتطرفون وعلى رأسهم جابوتنسكي على سياسة الدكتور حاييم وايزمان بدعوى أنه يتبع أساليبا متهاونة. وقد تركز نشاط الأرجون في البداية في تنظيم عمليات واسعة لتهجير اليهود من أوروبا إلى فلسطين. ثم لم

تلبث بعد ذلك أن اتخذت طابعها العسكري وكان ممن تولوا رئاستها مناحم بيجين الذي تولى رئاسة الحكومة الإسرائيلية فيما بعد.

وشهد عام ١٩٤٠م تأسيس منظمة عسكرية أخرى هي منظمة شتيرن. وقد أسس هذه المنظمة إبراهام شتيرن أثر انشقاقه على منظمة الأرجون لرفضه قرارها بضرورة عقد اتفاق ودي وهدنة مع بريطانيا مادامت حربها قائمة ضد ألمانيا النازية. وقد ظلت كافة تلك التنظيمات العسكرية الصهيونية قائمة على هذه الصورة، إلى أن أعلن بن جوريون عشيه قيام الدولة الإسرائيلية عام ١٩٤٨م قراره بحلها جميعا وإدماجها في جيش نظامي واحد، وأطلق عليه اسم"جيش الدفاع الإسرائيلي".

تلك نظره عجلى إلى تاريخ المؤسسات العسكرية الإسرائيلية على أرض فلسطين[٨٤] ونود أن نؤكد أن حديثنا عن ظهور هذه المؤسسات على أرض فلسطين لا يعني بحال أنها انبثقت من تفاعل أبنائها يهودا كانوا أو غير يهود. إن

---

[84] هيثم الكيلاني: المذهب العسكري الإسرائيلي دمشق، ١٩٦٩.

كلا من تلك المنظمات العسكرية كانت بمثابة الجناح العسكري لحزب إسرائيلي سياسي صهيوني أوروبي المنبت والنشأة. ومن هنا نستطيع أن نفهم الرابطة بين حزب حيروت ومنظمة الأرجون زفاي ليومي. وبين حزب المابای ومنظمة البالماخ. بين حزب الماباي ومنظمة الهاجاناه.

وليس غريبا والأمر كذلك أن نجد للمؤسسة العسكرية الصهيونية دورا يختلف عن دور المؤسسات العسكرية في أي مكان آخر. فالعسكريون في إسرائيل هم منشئو الدولة وصانعوا سياستها وفكرها.

لقد قام جورج فريدمان مؤسس مركز دراسة وسائل الاتصال الجماهيرية التابع لجامعة السوربون بزيارتين لإسرائيل في عامي ١٩٦٣م، ١٩٦٤م على التوالي، وكتب من وحي هاتين الزيارتين كتابا، اختار له عنوانًا بالغ الدلالة وهو"أهي نهاية الشعب اليهودي؟". ويقول فريدمان في هذا الكتاب"لقد تم بالفعل تسخير مؤسسات البلاد من أجل تشكيل الشباب. وتعريفهم بمشاكل الوطن وصراعاته، وما يتعرض له من مخاطر، وتنشئتهم كمواطنين يكرسون ولائهم لإسرائيل. ومن أكثر تلك المؤسسات أهمية منظمة الناحال

(الشباب الطليعي المقاتل) وهي من الناحية الشكلية فرع من قوات الدفاع أي الجيش – ويتم التجنيد لها عن طريق التطوع الاختياري شأنها شأن القوات الجوية والبحرية. ولكن من الناحية العملية، تقوم منظمات الشباب في المدارس الثانوية وفي خمواقع العمل بخلق النواة التي يتجمع حولها الجارينيم (شبان تحت العشرين يعدون لحياة الكيبوتزات). وعند وصول شباب الناحال إلى سن الإلزام فإنهم يقضون عدة أسابيع في التعاونيات الزراعية، ويألفون حياة الكيبوتز. ويعد تدريبهم العسكري فيما بين الرابعة عشر والثامنة عشر بمثابة تلمذة مهنية في الزراعة وفي حياة الحالوتس (الرواد الأوائل) ويتولى مسئولية ذلك وزارتا الدفاع والتعليم معا.. إن دور الجيش ككل في التدريب المدني لا يقل أهمية عن دوره العسكري" (٨٥) ثم لا يلبث فريدمان أن يمضي مؤكدا إن المهمة الشاقة التي تواجه إسرائيل، وهي مهمة الدمج بين

---

(85) Friedman, G. The end of Jewish people? Doubleday, 1968 pp. 26 – 28.

الأشكنازيم والسفارديم إنما تقع أساسا على عاتق مجالين هما:- الجيش، ونشر اللغة العبرية(٨٦).

وعلى أي حال فإننا لن نمضي طويلاً في تعداد أوجه الأنشطة العامة التي تقوم بها المؤسسات العسكرية الصهيونية والتي تجل عن الحصر، والتي تؤكد في النهاية أن محاولة الفصل بين ما هو مدني وما هو عسكري داخل المجتمع الإسرائيلي ليست بالمهمة الميسورة على الإطلاق.

---

(86) Op. Cit. P. 31.

وجهتا نظر

لقد اختلفت الآراء، ومازالت تختلف، حول تأثير الحرب على التجمع الإسرائيلي بما يميزه من طابع عسكري استيطاني. ويشير استمرار هذا الخلاف وحدته، رغم تكرار المواجهات العسكرية بين العرب والتجمع الإسرائيلي إلى أنه يمس أمرا يتصل بصميم مستقبل المواجهة العربية الصهيونية، أو بعبارة أخرى فإنه يمس جوهر الاستراتيجية العربية حيال العدو.

ونستطيع أن نجمل تلك الآراء المتصارعة في وجهتي نظر أساسيتين:-

أولاً:

ثمة وجهة نظر ترى أن الحر ب توفر للتجمع الإسرائيلي المناخ الأمثل لوجوده وازدهاره. وتستند وجهة النظر هذه إلى العديد من المؤشرات المستمدة من واقع التجمع الإسرائيلي خلال فترات القتال وفترات الهدوء.

ترى وجهة النظر هذه أن انغماس التجمع الإسرائيلي في الحرب يجذب إليه المزيد من المهاجرين اليهود. وخاصة من

بين الشباب القادر على القتال كذلك فإن مناخ الحرب يكسب التجمع الإسرائيلي مزيدا من التعاطف اليهودي وما يؤدي إليه ذلك من تزايد تدفق المعونات والهبات. كذلك فإن مناخ الحرب يتيح لقوى الإمبريالية العالمية المساندة للتجمع الإسرائيلي أفضل الظروف لضرب القوى الوطنية العربية من خلال العسكرية الإسرائيلية، أو على الأقل استنزاف إمكانيات التنمية العربية من خلال أعباء النفقات العسكرية – وفضلاً عن كل ذلك فإن الحرب – وفقًا لوجهة النظر هذه – تجعل المستوطنين الإسرائيليين على اختلاف أصولهم وتباينها، أكثر اتحادا وتماسكًا، وأشد عدوانية وعداء للعرب.

ومن ناحية أخرى، ترى وجهة النظر هذه أن السلام – حتى ولو كان مفروضا على التجمع الإسرائيلي إنما يعني دفع تناقضاته الداخلية إلى التفاقم. ويضعف من حافز المهاجرين للهجرة إليه. كما يضعف أيضا من حدة التعاطف اليهودي – بل والعالمي – معه – وبالتالي فإنه يؤثر على حجم المعونات والهبات الواردة إليه – فضلا عن أن مناخ السلام هو المناخ الأنسب لازدهار القوى الوطنية العربية، وتوجيه جهودها إلى نشاطات التنمية.

خلاصة ما تراه وجهة النظر هذه أن مقتل التجمع الإسرائيلي إنما يكمن في السلام، وإن بقاءه مرهون بالحرب.

ثانيا:

ثمة وجهة نظر أخرى ترى – على العكس – من وجهة النظر السابقة أن السلام هو الذي يمكن أن يوفر للتجمع الإسرائيلي المناخ الأمثل لوجوده وازدهاره وتستند وجهة النظر هذه بدورها إلى العديد من المؤشرات المستمدة من الواقع الإسرائيلي خلال فترات القتال وفترات الهدوء.

ترى وجهة النظر هذه أن اليهودي، شأنه شأن غيره، إذا ما قدم على الهجرة فإنه إنما يستهدف ضمن ما يستهدفه الاستقرار في مكان آمن. ومن ثم فإن مناخ السلام هو الذي يمكن أن يجتذب – على المدى البعيد أعدادا أكبر من المهاجرين وخاصة من بين أصحاب الأسر وهم الأقدر على الاستقرار والرسوخ وهم الأنسب بالتالي لمد جذور التجمع الإسرائيلي في أرض فلسطين.

كذلك ترى وجهة النظر هذه أن السلام هو الذي يمكن أن يؤدي حقًا وعلى المدى البعيد إلى مزيد من التعاطف والتماسك بين يهود العالم والتجمع الإسرائيلي، وذلك باعتبار،

أن مناخ السلام هو الذي يتيح للصهيونية أن تبرز التجمع الإسرائيلي باعتباره وطنًا آمنًا لليهود، نجح في أن يحقق الحلم اليهودي بالفعل، وذلك أدعى للتعاطف معه والحافظ عليه.

وترى وجهة النظر هذه أن السلام هو الذي يكفل حقًا المزيد من تدفق رؤوس الأموال الاستثمارية على التجمع الإسرائيلي. فرأس المال – أيا كانت جنسيته – يبحث عن المناخ الأفضل للاستثمار. وليس أنسب من السلام والاستقرار مناخًا في هذا الصدد.

وترى وجهة النظر هذه أن السلام إنما يعني إتاحة فرصة أكبر للقيادة الإسرائيلية الأشكنازية للعمل في هدوء وأناة على تخطيط عملية صهر المواطنين الإسرائيليين على اختلاف وتباين أصولهم الحضارية.

ومن ناحية أخرى فإن وجهة النظر هذه ترى أن الحرب هي السبيل الحقيقي لكشف تناقضات التجمع الإسرائيلي ودفعها إلى التفام. وأنه إذا كانت الحرب بما تتضمنه من ضغوط اقتصادية واجتماعية قد تسهم في تماسك أي مجتمع"طبيعي" فإن ذلك لا يمكن أن يصدق على التجمع

الإسرائيلي المصطنع وما يتميز به من تباين حضاري وقومي واضح.

وترى وجهة النظر هذه أيضا أن الحرب هي السبيل الحقيقي لتقليل حجم الهجرة إلى التجمع الإسرائيلي أو وقفها. ففضلاً عن سعي المهاجر عامة إلى التماس الأمن، فإن مناخ الحرب والتوتر يساعد على زيادة حجم الهجرة المضادة من داخل التجمع الإسرائيلي.

كذلك ترى وجهة النظر هذه أن الحرب هي السبيل الأمثل لوقف أو تقليل تدفق رؤوس الأموال الاستثمارية على التجمع الإسرائيلي فضلاً عن أن الحرب بما تقتضيه من نفقات باهظة تسهم في خلق نوع من التململ لدى موارد العون الإمبريالي للتجمع الإسرائيلي.

وفضلاً عن ذلك كله، فإن الحرب من وجهة النظر هذه، إنما هي السبيل الوحيد لإنهاء الحلم الصهيوني ولعودة الشعب الفلسطيني إلى دولة فلسطينية تقوم على أرض فلسطينية.

خلاصة ما تراه وجهة النظر هذه، أن الحرب – أيا كان أسلوبها هي في النهاية مكمن النهاية بالنسبة للتجمع

الإسرائيلي، في حين أن حياة وازدهار هذا التجمع رهينة بأن يتوفر له مناخ مستقر من السلام الهاديء.

إن أيا من وجهتي النظر هاتين لا تعدم الأنصار والمدافعين. والصراع بينهما لم يتوقف، بل لعله أخذ في التزايد. والحسم بينهما لصالح إحداهما ليس بالأمر الميسور لأسباب عديدة لعل أهمها أن كلا منهما ترتبط بموقف معين من طبيعة ومستقبل التجمع الإسرائيلي. وأن هذا الموقف إنما هو نتاج لشبكة معقدة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأيديولوجية التي تضرب بجذورها عميقًا في عالمنا العربي. بل وقد تمتد بجذورها هذه بعيدا بعيدا إلى ما وراء حدود العالم العربي بكثير. ومما يزيد في صعوبة الأمر، أن كلا من وجهتي النظر، تستند إلى مشاهدات صحيحة في جزئياتها لواقع التجمع الإسرائيلي، رغم تناقض تلك المشاهدات منطقًا ونتيجة.

أي حرب نعني؟ وأي سلام نستهدف؟

قد يبدو للوهلة الأولى، وكأننا نطرح تساؤلا ساذجا، مسفًا في سذاجته، فالأمر يبدو واضحا لا يحتاج إلى تساؤل"الحرب نوع من أنواع الصراع يحاول فيه كل من الأطراف المتصارعة أن يحقق أهدافه باستخدام القوة" هذا هو التعريف المحدد للحرب. أما عن أنواع الحروب وتصنيفاتها فهي تجل عن الحصر. فثمة حروب محلية وعالمية. ودفاعية وهجومية ووطنية واستعمارية. وشعبية ونظامية. ومحدودة وشاملة وكيميائية وذرية والكترونية وتقليدية وما إلى ذلك من تصنيفات قد تعني أهل الاختصاص في العلوم العسكرية أما ما يعنينا نحن فيما يتصل بموضوعنا فأمر آخر يختلف تماما.

إن فترة القتال الفعلي طالت أو قصرت هي فترة مؤقتة. قد يستمر الاشتباك المسلح عدة سنوات متصلة وقد لا يستغرق أياما أو ساعات معدودة. ولكنه لابد منه بشكل ما، وقد تتمثل النهاية في انتصار أحد الفريقين المتصارعين وتمكنه من بلوغ أهدافه، أو في تدخل قوي أخرى تجبر أطراف الصراع على إيقاف القتال عند مرحلة معينة أو في

فشل كلا الطرفين في بلوغ أهدافه. ومن ثم اضطرارهما إلى تأجيل القتال أو الإقلاع كليا عن القتال كأسلوب لتصارعهما. وتساؤلنا عن الحرب التي نعنيها ينصب فحسب على نوعية نهايتها. وليس بحال على تفاصيلها الفنية. أهي حرب خاطفة يتمكن فيها التجمع الإسرائيلي من إلحاق هزيمة ساحقة بالجيوش العربية؟ أم أنها حرب مفاجئة مدروسة تدفع بالجيش الإسرائيلي إلى التراجع عن أرض عربية ثبت أقدامه فوقها بقوة السلاح؟ أهي حرب تؤدي إلى إقناع إسرائيل وحلفائها بأن الأرض المحتلة مهما اتسعت رقعتها لا تكفل لها أمنًا دائما؟ أم أنها حرب تؤكد بها إسرائيل لنا ولغيرنا أنه مازالت لها اليد الطولى في المنطقة؟ أهي حرب استنزافية تؤدي إلى إنهاك التجمع الإسرائيلي بشريا واقتصاديا؟ أم أنها حرب وقائية تتمكن من إسرائيل من إجهاض أية قوة عسكرية عربية متنامية؟.

ليس ثمة حرب مطلقة. ومن ثم، فإن تأثيرات الحرب – اجتماعيا أو نفسيا أو سياسيا أو اقتصاديا – إنما تتوقف في المقام الأول على نهايتها – بعبارة أخرى فإن تلك التأثيرات

تختلف لدى الطرف المنتصر، عنها لدى الطرف المهزوم. وإن هذا الاختلاف اختلاف نوعي أساسي.

وكذلك الحال بالنسبة للسلام. فقد يبدو للوهلة الأولى أن السلام إنما يعني بالتحديد انتهاء – أو إنهاء – حالة الحرب، وهذا صحيح، ولكنه ليس كل شيء، أو على الأقل فإنه ليس ما نعنيه بتساؤلنا عن السلام الذي نستهدفه. إن قتالاً قد ينشب بين فريقين، وينتهي بنجاح أحدهما في هزيمة الآخر، فيسود سلام. وقد ينتهي بنهاية معاكسة بأن ينهزم المنتصر وينتصر المهزوم، فيسود سلام أيضا. وقد ينتهي بتدخل طرف ثالث يفرض على الفريقين المقاتلين إيقاف القتال، فيسود سلام كذلك.

والسؤال هو: هل"السلام" يعني شيئًا واحدا في تلك الأحوال جميعا؟ هل تأثير السلام على الطرف المنتصر، يشبه تأثيره على الطرف المهزوم، وهل هو يشبه سلاما مفروضا على الطرفين؟.

لقد استمرت"حالة الحرب" العربية الإسرائيلية ما يزيد عن ربع القرن. تشتعل جذوتها أحيانًا، وتخفت أحيانًا أخرى – وتراوحت أشكال الاشتعال بين العمل الفدائي العسكري،

والتظاهرات العنيفة، والغارات العسكرية بأنواعها، كذلك الحروب النظامية. ولعل محاولة تقصي مدى تأثر الكيان الإسرائيلي بكل شكل من هذه الأشكال هي السبيل الموضوعي لتمحيص وجهتي النظر المشار إليهما وبطبيعة الحال فإن مثل هذه المحاولة لكي تتم على الوجه الأكمل ينبغي أن تشمل أوجه تأثر التجمع الإسرائيلي في كافة المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلى آخره، وهو ما يقصر الجهد الفردي دون بلوغه. ولذلك فسوف نركز محاولتنا هذه على مجال واحد من هذه المجالات، هو المجال السيكولوجي الاجتماعي.

ترى ما هو المناخ السيكولوجي الاجتماعي الأمثل لازدهار التكوين السيكولوجي السائد في التجمع الإسرائيلي بخصائصه التي نعرفها؟ وما هي الظروف الاجتماعية التي يسعى إلى توفيرها قادة التجمع الإسرائيلي بحيث تدفع بأصحاب هذا التكوين السيكولوجي إلى استثمار خصائص تكوينهم على الوجه الأفضل؟ ولسوف نبدأ أولاً باستقراء المنهج لنصل إلى فرضية نظرية، ثم نمتحن بعد ذلك فرضيتنا هذه لنرى مدى اتفاقها أو اختلافها مع الواقع.

لعلنا لسنا في حاجة لعميق تخصص في علم النفس، أو في العلوم الإنسانية بعامة، لكي نضع أيدينا على حقيقة علمية بسيطة مؤداها: أن شدة الاستجابة العدوانية تتناسب تناسبا طرديا مع شدة الإحباط أو التهديد. ولكن هذه الحقيقة ليست صحيحة على إطلاقها، فعند بلوغ التهديد أو الإحباط حدا معينًا من الشدة تنغلق عنده السبل أمام التعبير المباشر عن الاستجابة العدوانية، فإن تلك الاستجابة تتغير كيفيا، بعبارة أخرى، حين يواجه الكائن الحي تهديدا لأمنه أو عائقا يحول بينه وبين بغيته، فإنه يسعى لاستجماع طاقته وتوجيهها للقضاء على مصدر هذا التهديد ولإزاحة العائق عن طريقه. وكلما تزايد حجم هذا التهديد، كان الكائن أكثر حرصا على توفير القدر الأكبر من طاقته لمواجهته. أما إذا ما بلغ هذا التهديد حدا بدا معه للكائن ألا طاقة له بمواجهته، فإنه لابد له في هذه الحالة من أن يلتمس لطاقته منصرفًا غير المواجهة، ذلك قانون عام يسري على الكائنات الحية جميعا. تدعمه الملاحظات العامة غير المتخصصة لسلوك البشر فضلاً عن نتائج تجارب علم النفس على الحيوان والإنسان على حد سواء.

لو كان الأمر كذلك وتصورنا – على المستوى النظري – أننا نريد أن نفجر في كائن ما أقصى قدر من طاقاته العدوانية، فما هي مكونات الموقف الذي ينبغي أن نضعه فيه؟ ينبغي أولاً أن يتضمن هذا الموقف مصدرا لتهديد الكائن أو إحباطه. وينبغي ثانيا أن يكون مصدر هذا التهديد مستمرا و إلا تمكن الكائن من القضاء عليه وخفتت بالتالي طاقاته العدوانية بفقدانها مبرر وجودها. وينبغي رابعا ألا يتضمن مصدر التهديد ما يمكن أن يقضي بالفعل على حياة الكائن. أي أن علينا إذا ما انخفض مستوى التهديد عن مستوى معين أن نرفع منه. وعلينا أيضا إذا ما تجاوز التهديد مستوى معينا أن نخفض منه. وغنى عن البيان أن تحديد المستوى "المناسب" الذي لا ينبغي لحجم التهديد أن يتجاوزه ولا أن ينخفض عنه، إنما هو أمر يختلف باختلاف طبيعة الموقف، وطبيعة الكائن أيضا ترى ماذا لو حاولنا أن نطبق هذا المخطط العام على ما نحن بصدده؟.

إن الموقف الأمثل – فيما نرى – لازدهار التكوين السيكولوجي الأشكنازي الإسرائيلي هو موقف يكفل أمنا مضمونًا ويتضمن في نفس الوقت تهديدا محدودا. بعبارة

أخرى فهو ذلك الموقف الذي يحمل قدرا محدودا من التهديد العربي يسمح بتفجير أقصى طاقات العدوان. ويحمل في نفس الوقت ضمانًا كافيا للقدرة على إلزام هذا التهديد حدا لا يتجاوزه. تلك – فيما نرى – هي المعادلة الدقيقة التي تجسد ما يمكن أن نطلق عليه "الاستراتيجية " السيكولوجية للتجمع الإسرائيلي. ولكي تتحقق المحافظة على هذا التوازن فلابد للقيادة الإسرائيلية من توفير أمرين:-

(١) تأكيد وجود التهديد العربي للتجمع الإسرائيلي والسعي لتحقيقه فعلاً وإبراز هذا التفوق بكافة الوسائل.

(٢) تأكيد التفوق العسكري الإسرائيلي والسعي لتحقيقه فعلاً وإبراز هذا التهديد بكافة الوسائل أيضا.

ولعله ليس غريبا والأمر كذلك أن يحرص أصحاب السلطة في التجمع الإسرائيلي وبشكل دائم على إبراز صورتين تبدوان للوهلة الأولى على طرفي نقيض. فهم يحرصون دائما على إبراز صورة التجمع الإسرائيلي "جزيرة يحيط بها طوفان من الكراهية العربية". ثلاثة ملايين من اليهود يواجهون مائة مليون عربي إلى آخره. وهم يحرصون دائما وفي نفس الوقت على إبراز صوره "الجيش

الإسرائيلي الذي لا يقهر" الجيش الإسرائيلي يستطيع دق عظام العرب في أي وقت يشاء. . . . إلخ.

وعلى أي حال، فقد حدث بالفعل أن اختل التوازن الدقيق للمعادلة السابقة مرتين وبصورتين مختلفتين. اختل مره بخفوت "التهديد" العربي إلى أقصى حد أثر حرب يونيو سنة ١٩٦٧م. واختل مرة ثانية باهتزاز التفوق الإسرائيلي أثر حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م. والمتوقع وفقًا لفرضيتنا النظرية أن نلمس جهودا إسرائيلية مكثفة لاستعادة التوازن المطلوب، فهل حدث هذا حقًا؟ سوف نحاول أن نتقصى ما حدثي في المرتين معتمدين ما أمكن على البحوث السيكولوجية المتخصصة المنشورة، فضلاً عما أمكن الإحاطة به مما تضمنته الجرائد الإسرائيلية والكتب متعلقا بهذا الموضوع.

خفوت التهديد

في منتصف مايو ١٩٤٨م، وعلى أرض فلسطين وقف دافيد بن جوريون معلنًا قيام "دولة إسرائيل" وكان ذلك يعني عمليا أن التنظيمات العسكرية الإسرائيلية قد تمكنت من إلحاق الهزيمة بالجيوش العربية التي تصدت لها. والتزمت النظم العربية منذ ذلك الوقت – ومن الناحية العملية أيضا – بعدم اختراق "الحدود الإسرائيلية عسكريا" لقد خفت حجم التهديد العربي دون شك، فكيف كان رد الفعل إسرائيليا؟.

سوف نستشهد في هذا الصدد برسالة تقدم بها الباحث الأمريكي باري بليخمان عام ١٩٧٠م للحصول على درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة جورج تاون الأمريكية. وقد اختار لرسالته هذه العنوان التالي: "الآثار المترتبة على الانتقامات الإسرائيلية: محاولة للتقييم" [١] ولقد أفرد الباحث جانبا كبيرا من دراسته لتناول الانتقامات الإسرائيلية في

---

(١) Biechman, B.M. "The consequences of the Israell reprisals: An assessment", Unpubllshed dissertation, ١٩٧١.

الفترة الممتدة من ١٩٤٨ حتى قبيل ١٩٦٧م، متبعا في تناوله أسلوبا إحصائيا مدققًا، وتقدم الجداول الإحصائية المرفقة بالدراسة تتبعا لتلك الانتقامات من حيث تتابعها تاريخيا، ومضمون التصريحات الإسرائيلية التي صاحبت كل عملية انتقامية مفسرة لأسبابها ولما تستهدفه، وطبيعة كل عملية من حيث موقعها وحجمها، وطبيعة الآثار العملية والإعلامية المترتبة عليها لدى الجانب العربي. وانتهى بليخمان من دراسته التفصيلية إلى ما سوف نوجزه فيما يلي:-.

يصف بليخمان ما أطلق عليه تعبير الانتقام الإسرائيلي بأنه "سلوك قومي إسرائيلي" [٢] ويمضي مفسرا ذلك بقوله "أن إسرائيل – فيما عدا بعض الاستثناءات لا تولي انتباها جادا إلى شروط الشرعية سواء من حيث الواقع أو من حيث المظهر. إنها تعتبر الانتقام صوره شرعية من صور السلوك القومي"[٣] .

ويبرز بليخمان سمة هامة من سمات العدوانية الإسرائيلية وهي سمة الشمولية وعدم الاهتمام كثيرا بتمييز

Op Cit. P. ٣٢. (٢)

Op Cit. P.٤٥. (٣)

هدف الانتقام تمييزا حاسما. يقول بليخمان "إن عددا كبيرا من الانتقامات الإسرائيلية، وخاصة تلك التي وجهت إلى الأردن قبل عام ١٩٥٦م، وكانت بمثابة العمليات المخططة لإيقاع الدمار بالقرى التي يعتقد أن الهجمات العربية داخل إسرائيل تنطلق منها. وفي كثير من تلك الحالات كان يستحيل على الإسرائيليين التمييز بين أولئك الذين يقدمون عونًا ماديا للمتسللين وغيرهم ممن يقبلون مجرد وجودهم فحسب وفي الحقيقة فإن هذا التمييز لم يكن بالأمر البالغ الأهمية بالنسبة لإسرائيل" [٤]،[٥].

لقد حاول بليخمان طوال بحثه أن يلتمس تفسيرا خارجيا مقنعا لتلك الانتقامات الإسرائيلية، ولكن دون جدوى. لقد اتضح أن الانتقامات الإسرائيلية تعد عنصرا ثابتًا في السلوك الإسرائيلي تجاه الأمم العربية "كذا" المجاورة منذ السنوات المبكرة التي تلت الاستقلال (كذا) [٦].

---

(٤) Op Cit. P. ٤٩.

(٥) التأكيد من لدينا..

(٦) Op Cit. P.٢٧٣.

" . . . . . . لقد أسفر تحليل مضمون التصريحات الإسرائيلية التي صاحبت الانتقامات الإسرائيلية خلال العشرون عاما الماضية عن أن تلك الانتقامات إنما كانت تهدف إلى أمرين أولاً: تقليل الاعتداءات التي يشنها العرب على إسرائيل ثانيا: المساهمة في إجبار الحكومات العربية على السلوك بشكل أكثر تعاونية حيال إسرائيل. ودفعهم في النهاية إلى القبول بحل سلمي للصراع"[(٧)] .

ذلك فيما يتعلق بمجمل ما ظل المسؤولون الإسرائيليون يعلنونه كأهداف لما يشنونه من هجمات عسكرية على العرب طوال عشرون عاما. ولقد حاول بليخمان أن يتبين مدى تحقق هذه الأهداف عمليا من خلال رصد رد الفعل العربي حيال كل هجمة عسكرية إسرائيلية، وقد انتهى بليخمان في هذا الصدد إلى النتائج الثلاث التالية:-

---

(٧) Op Cit. P.٢٧٥.

أولاً:

" رغم ما قد يلحظه المرء أحيانًا من انخفاض ملحوظ في إقدام العرب على المبادأة بالصراع في الفترات التي تلي الانتقامات، فإن تلك الفترات لم تكن تدوم طويلاً. وسرعان ما كانت مبادأة العرب بالصراع تعود إلى مستواها الأول أو تفوقه. وكانت فترة الفعالية هذه (أي فعالية تأثير الانتقام) لا تزيد عن الثلاثين يوما . . . ."(٨).

ثانيًا:

لم تؤد الانتقامات إلى تزايد رغبة العرب في تسوية علاقاتهم بإسرائيل، أو في الوصول إلى اتفاق سلام شامل(٩).

ثالثًا:

بالنسبة للآثار المترتبة على الانتقامات الإسرائيلية في مجال العلاقات بين الأمم العربية (كذا) فإن ما أسفر عنه البحث من نتائج يميل إلى تدعيم وجهة نظر الجانب

---

(٨) Op Cit. P. ٢٧٧.

(٩) Ibid.

الإسرائيلي . . . لقد اقتصر التضامن العربي على الأفعال التي لا تتضمن مخاطره مثل إرسال برقيات التأييد أو تحريك القوات داخل الحدود الآمنة للدولة المعنية أو ما إلى ذلك

. . . (فضلا عن إن) الانتقامات قد أشعلت التوترات القائمة داخل العالم العربي، وبالتالي فقد أعاقت من تحقيق الوحدة العربية . . .

. . . . غير أنه ينبغي ملاحظة أن ذلك التأثير أيضا تأثير موقوت.

. . . . إن الانتقام الإسرائيلي الذي وجه إلى قرية السموع الأردنية لم تكن قد مضت عليه سبعة شهور، حين طار الملك حسين إلى عبد الناصر عشية حرب يونيو سنة ١٩٦٧م . . . .[١٠] .

---

(١٠) Op. Cit. pp. ٢٨٣ - ٢٨٤

ويخلص بليخمان من نتائج الجانب الإحصائي لدراسته إلى أنه "في ضوء الاعتبارات السابقة يصعب فهم استمرار تمسك إسرائيل بسياسة الانتقام. . . لقد أخفقت الانتقامات على الأقل كوسائل لتهدئة صراع الحدود . . . وعلى الأكثر من خلال تأثيرها الواضح على النظم السياسية العربية وعلى الأطر العقلية للأفراد العرب من حيث صدهم أو عدم حفزهم إلى المشاركة في السياسة المعادية لإسرائيل. لقد أدت الانتقامات الإسرائيلية إلى تدعيم الصراع، وتصعيد النشاط العسكري وإذا ما كان معروفًا أن القيادة الإسرائيلية تسلم بهذا التقييم على الأقل في نطاق أفكارها الخاصة، فإن استمرار التمسك بسياسة الانتقام يصبح أمرا لا معنى له[١١].

ولقد حاول بليخمان أن يلتمس بعيدا عن جداوله الإحصائية تفسيرا لما عجزت هذه الجداول عن تفسيره، وهو "التمسك الإسرائيلي – بسياسة الانتقام " ويكاد بليخمان أن يضع يده على تفسير لذلك حين يقول "ثمة جو من الإحباط قد

---

(١١) Op. Cit. pp. ٢٨٠ - ٢٨١

تكون في إسرائيل، وهو ما يدركه صانعو السياسة الإسرائيليون. وتبدو الانتقامات كوسيلة لتنفيس هذا الإحباط [١٢] ولكن بليخمان لم يستطع أن يمضي إلى تقرير أن الإسرائيليين لا يدركون هذا الجو الإحباطي فحسب، بل يحرصون على بقائه وتدعيمه أيضا.

وعلى أي حال، فلقد أصاب بليخمان جانبا لا يستهان به من الحقيقة في محاولته توصيف العدوانية الإسرائيلية، وكذلك في محاولته تلمس أسبابها داخل النسيج السيكولوجي الاجتماعي للتجمع الإسرائيلي.

يضع بليخمان يده على خاصية هامة من خواص العدوانية الإسرائيلية. فبعد أن يعرض الباحث لمعاناة إسرائيل من تزايد نشاط منظمة فتح داخل القطاع الشمالي للأرض المحتلة خلال عام ١٩٦٦م، وقناعه الإسرائيليين بدعم الحكومة السورية لهذا النشاط الفدائي، يلاحظ أن الانتقام الإسرائيلي قد اتجه إلى قرية السموع الأردنية ويعلق الباحث على ذلك قائلاً: "إن النتيجة النهائية على أي حال كانت

---

(١٢) Op. Cit. pp. ٢٣٠

إزاحة إسرائيل لإحباطها إلى الأردن، وهي الدولة التي تعلم إسرائيل أنها ليست مسئولة عن عمليات فتح فضلاً عن أنها لا تستطيع السيطرة تماما على هذه العمليات. إن إزاحة الإحباط ظاهرة شائعة بالتأكيد في السلوك الفردي. ويبدو أن إسرائيل قد سلكت في هذه الحالة سلوكًا مطابقًا لذلك تماما[(١٣)] ونحن بالإضافة إلى تحفظنا منهجيا على محاولات استخدام قوانين السلوك الفردي في تفسير السلوك الجماعي[(١٤)]. فإننا نرى أن توجيه العدوان الإسرائيلي إلى قرية السموع الأردنية بدلاً من الحدود السورية، إنما يؤكد من جديد أنه لا يمكن الاقتصار في تفسير العدوانية الإسرائيلية على المثيرات الخارجية الموضوعية فحسب، بل لابد من تقصي جذورها الضاربة في التكوين النفسي الاجتماعي السائد في التجمع الإسرائيلي.

ويكاد بليخمان أن يضع يده للمرة الثانية على سمة أخرى تميز الاعتداءات الإسرائيلية. وذلك حين يشير إلى أن

---

(١٣) Op. Cit. pp. ٢٣٣

(١٤) انظر : قدري حفني "حول التفسير النفسي للتاريخ"، الفكر المعاصر (القاهرة) فبراير ١٩٧٠ ص ٢٤ – ٣٤.

التصريحات الإسرائيلية المصاحبة لتلك الاعتداءات تتضمن نغمة مشتركة متكررة وهي تأكيد أن هذه الانتقامات "واجب و "التزام " و "أن زاحال (المؤسسة العسكرية الإسرائيلية) كانت مجبرة على التحرك " و "إنه لم يكن ثمة اختيار" و "إنه لا توجد بدائل أخرى" ويخلص بليخمان من ذلك إلى قوله

. . . " وتشير هذه النغمة إلى أن الانتقامات إنما تتم – جزئيا – لأن القيادة السياسية تخشى النتائج المترتبة على عدم الانتقام في المجال المدني" ومرة أخرى فإن بليخمان لا يستطيع التوصل إلى حقيقة أن القيادة السياسية لا تخشى نتائج عدم الانتقام بقدر حرصها على استثمار نتائجه وذلك رغم ما يقرره بوضوح بعد صفحات من أن دور المؤسسة العسكرية في التجمع الإسرائيلي لا يقتصر بحال على المجال العسكري إذ "يتخذ تأثير زاحال صورتين: الأولى باعتباره قوه من قوى التنشئة الاجتماعية تؤثر على كل إسرائيلي تقريبا والثانية باعتباره قوة تنظيمية مؤثرة في مجال اتخاذ

القرار. . . وعلى أي حال فإن وجود قادة الجيش

المسرحين في مناصب حكومية هامة، مثل دايان، وآلوان، ورابين.. إلى آخره، يعد دليلاً على انتشار تأثير الجيش" [١٥].

ويخلص بليخمان في نهاية بحثه إلى أن يقرر "لقد اختارت إسرائيل تقبل مختلف النتائج السلبية البعيدة المدى للانتقامات في مقابل ما تحققه من فوائد ذات طبيعة سيكولوجية داخل النظام السياسي الإسرائيلي، فضلاً عما تحققه تكتكيا من فوائد قصيرة المدى في تقليل الاعتداءات العربية ...وفيما يتعلق بالمستقبل فإنه لا يبدو مختلفًا كثيرا عما كان قائما في الماضي. وما هو قائم حاليا... فليس من بادره تشير إلى أن القيادة الإسرائيلية قد أعادت تقييم كفاءة تلك الانتقامات أو حتى أنها بصدد مثل ذلك التقييم "[١٦] .

ويمضي بليخمان في استقرائه للمستقبل مقررا "أن نزوع الإسرائيليين إلى استخدام الانتقامات لا يبدو قابلاً للتغيير طالما ظل الاتجاه العام الذي يدعم سياسة العنف في إسرائيل قويا ومنتشرا. ومن ناحية أخرى فإن ذلك إلا تجاه العام بدوره لا يبدو قابلاً للتغيير تغيرا له دلاله طالما ظل

---

(١٥) Op. Cit. pp. ٢٣٣

(١٦) Op. Cit. pp. ٢٨٠

زاحال متفوقًا على مناوئيه، وطالما ظل الحل العام للصراع العربي الإسرائيلي بعيدا عن التحقق "[١٧] .

وبالفعل فإن شيئًا لم يتغير حتى جاءت حرب يونيو ١٩٦٧م لتزيد "التهديد العربي" خفوتًا. فلقد تمكنت إسرائيل في هذه الحرب، ونتيجة لعوامل عديدة متشابكة لسنا في مجال للتعرض لها. من أن تنزل بالجيوش العربية هزيمة ساحقة، ومازال العالم العربي يعاني من آثارها لقد تأكد اختلال المعادلة التي أشرنا إليها، بخفوت التهديد العربي كثيرا عن الحد المطلوب إسرائيليا، فكيف كان رد الفعل؟.

لقد نشر الباحث الإسرائيلي بنجامين شاليت، وهو من السيكلوجيين الإسرائيليين العاملين في قيادة القوات البحرية الإسرائيلية، مقالا بعنوان " العداوة البيئية والعداوة في التخييل"[١٨] ولقد استغل الباحث في دراسته هذا الموقف المحيط بمعارك ١٩٦٧م كما انعكس على أفراد الجيش الإسرائيلي وقد قامت الدراسة على فرض نظري مؤداه أن

---

(١٧) Op. Cit. pp. ٢٩٠ - ٢٩١

(١٨) Shalit, B. " Environmental hostility and hostility in fantasy", J. Personality and social Psychology, ١٥, ١٩٧٠, ١٧١

المشاركة المباشرة في نشاطات عدائية موجهة لعدو، تقلل من العداوة التي يتضمنها التخييل، وذلك باعتبار أن التخييل العدائي إنما يخدم نفس الوظيفة الدينامية التي يخدمها الفعل العدواني ولكن بدرجة أقل. ولنا أن نتوقع إذن وفقًا لنظرية تخفيف الدافع أن تؤدي المشاركة في الأفعال العدائية والتوحد بها إلى تقليل التخييل العدائي[١٩] . ولقد كانت فترة معارك يونيو ١٩٦٧م فترة "نشاط عدائي واضح وشديد، لقد سبقت الحرب فترة من التهديد الشديد لوجود إسرائيل تهديدا بلغ من شدته أنه ترك أثره في أعمق انفعالات سكانها جميعا"[٢٠] .

إن نظام عملية التجنيد العسكري الإسرائيلي يتطلب تطبيق بعض الاختبارات النفسية الإسقاطية[٢١] التي تتضمن ضمن ما تتضمنه عدة مؤشرات على العداء والقلق وقد كان

---

(١٩) Op. Cit.

(٢٠) Op. Cit.

(٢١) الاختبارات الإسقاطية نوع من الاختبارات النفسية تستهدف التعرف على الجانب الانفعالي للشخصية بشكل غير مباشر، أي دون أن يطلب من الفرد أن يصف حالته الانفعالية بل بأن يقدم له موقف أقرب إلى الغموض أو عدم الاكتمال ويطلب منه إكماله أو تقديم تفسير له، ومن خلال استجابته لهذا الموقف يتمكن الأخصائي النفسي من بلوغ غايته.

في استطاعة شاليت أن يحصل على تلك البيانات، وهو ما حدث بالفعل. واعتمد شاليت على الدرجات التي حصل عليها الجنود الإسرائيليون بالنسبة لتلك المؤشرات، مقارنًا بين الدرجات التي حصلت عليها مجموعات من المجندين قبل نشوب المعارك بعام واحد، وتلك التي حصلوا عليها بعد المعارك مباشرة، وتلك التي حصلوا عليها بعد مضى عام على تلك المعارك. وذلك لتبين ما إذا كان المضمون العدائي للتخييل سوف يقل بعد الحرب مباشرة.

ويؤكد الباحث منذ البداية أن الموقف التجريبي الذي أقام عليه بحثه يكفل توافر أمور ثلاثة هي:-

(١) إن تلك الحرب لم ترتبط بأية مشاعر إثم.

(٢) كان لتلك الحرب مبررها الاجتماعي الكامل من وجهة النظر الإسرائيلية باعتبارها ضرورة للحفاظ على البقاء.

(٣) لم يشارك الأفراد المختبرين مشاركة مباشرة في أعمال القتال، وإن كان توحدهم النفسي بتلك العمليات لاشك في توافره.

وقد قام الباحث باختيار عينة عشوائية تضم مائتي مجند من بين المجموعات التي استدعيت للخدمة العسكرية في شهر أغسطس من أعوام ١٩٦٦م، ١٩٦٧م، ١٩٦٨م وهم جميعا من المجندين الجدد الذين تتراوح أعمارهم بين ١٧,٥ عاما و ١٨,٥ عاما ومستوى ذكاؤهم لا يقل عن المتوسط. ويتمتعون بلياقة بدنية مناسبة. وتضم مجموعة الاختبارات التي يطبقها الجيش الإسرائيلي على مجنديه خلال الأيام التالية مباشرة على استدعائهم للخدمة العسكرية اختبار هولزمان[٢٢]. واختبار تفهم الموضوع[٢٣]،

وخلاصة ما انتهى إليه شاليت من دراسته أن القلق يقل على المستوى التخييلي خلال الممارسة العدوانية، ولكنه لا يلبث بعد انتهاء تلك الممارسة أن يعاود الارتفاع إلى ما يجاوز مستواه السابق كثيرا. كذلك فإن العدوان يقل على

---

(٢٢) اختبار نفسي إسقاطي يتكون من عدة بطاقات تحتوي كل بطاقة على شكل غامض أشبه ببقعة الحبر، يطلب من الفرد أن يحدد ما تشبهه هذه البقعة.

(٢٣) اختبار نفسي إسقاطي يتكون من عدد من البطاقات تحتوي كل بطاقة على صورة تضم أشخاصاً، ولكنها غير محددة المعالم، ويطلب من الفرد أن يروي قصة تدور حول أشخاص الصورة.

المستوى التخييلي خلال الممارسة العدوانية، ثم لا يلبث بعد انتهاء تلك الممارسة أن يعود إلى مستواه السابق ولكنه لا يتجاوزه.

ولم يحاول شاليت أن يقدم تفسيرا لأي من هاتين الظاهرتين. وتفسيرهما – فيما نرى – ليس بالمهمة الصعبة إن عودة العدوانية إلى مستواها الأول إنما يعني أن مصدر هذه العدوانية لا يتمثل في الموقف الخارجي بحال، بل إنه ينبع من المناخ السيكولوجي السائد داخل التجمع الإسرائيلي.

أما عودة مشاعر القلق إلى ما يفوق مستواها الأول، فإنه يعد ظاهرة كان ينبغي لشاليت – كمتخصص في علم النفس – أن يقف أمامها طويلاً. ولكن يبدو أن إسرائيليته قد حالت دون ذلك. أن الأمر المنطقي المتوقع هو أن يخفت القلق بخفوت مصادر التهديد. أما أن يؤدي افتقاد التهديد إلى تجاوز القلق للمستوى الذي كان عليه خلال وجود مصادر التهديد، فهو ما يؤكد بشكل قاطع مدى أهمية توازن تلك المعادلة الدقيقة التي أشرنا إليها فيما سبق.

لقد قامت التنشئة الاجتماعية لهؤلاء الأفراد على التسليم بوجود خطر داهم يهدد وجودهم بشكل مستمر. ومن ثم فقد

تشكل تكوينهم السيكولوجي على أساس حشد أكبر قدر من العدوانية لمواجهة هذا الخطر، وأكبر قدر من التوجس حياله. ولذلك فإن ما أسفرت عنه خبرتهم المباشرة من تأكيد زوال هذا الخطر، وما يعنيه ذلك من اختلال تكوينهم السيكلوجي الذي الفوه، كان لابد أن يثير لديهم من القلق قدرا يجاوز ما كان يثيره لديهم تسليمهم بوجود هذا الخطر الداهم الذي يتهددهم.

وفي عام ١٩٦٨م نشر الطبيب العقلي الأمريكي ليو ألكسندر مقالا بعنوان "الطب العقلي العسكري، والاحتلال، ومشكلات اللاجئين في إسرائيل"[(٢٤)] وهو المقال الذي ألقاه المؤلف في الاجتماع السنوي لجمعية بوسطن للطب العقلي والنيورولوجيا الذي عقد في ٢١ ديسمبر ١٩٦٧م ز وكان المقال نتاجا لزيارة قام بها المؤلف لإسرائيل عقب معارك يونيو مباشرة في الفترة من ١١ إلى ٢٧ يوليو ١٩٦٧م.

(٢٤) Alxander, L. "Military Psychiaty; occupation, and refugee problems in Israel" Military Medicine, ١٣٣, ١٩٦٨, ٢٦٥.

وأول ما يلحظه ألكسندر هو انخفاض نسبة الانهيارات النفسية بين أفراد الجيش الإسرائيلي نتيجة للحرب، وهو يرجع ذلك للأسباب التالية:-

(١) قصر مدة الحرب بحيث كانت الفترة السابقة على الاشتباكات الفعلية أشد إثارة للقلق من فترة القتال نفسها.

(٢) كان كل جندي ومدني في إسرائيل واعيا بأنه ليس من بديل شريف أو حتى بديل يكفل استمرار الحياة سوى الثابت على أرض المعركة. وإلا فليس سوى مواجهة الفناء على أيدي الأمم العربية (كذا).

(٣) يؤدي التدريب الميداني الفعلي، والذي يستمر لمدة شهر كامل سنويا، إلى توثيق روابط العلاقة الأخوية بين أعضاء الوحدة العسكرية.

(٤) الفحص السيكياتري الدقيق لأفراد الجيش الإسرائيلي.

أما الظاهرة الثانية التي استوقفت انتباه الكسندر ورآها – وبحق – جديره بالإشارة فهي " تلك الندرة العامة في احتفالات النصر، وحتى بين وحدات الجيش التي تربط بين

أفرادها علاقات وثيقة. وفي بعض المناسبات التي احتفلت

فيها وحدات قليلة، لم يحضر القادة تلك الاحتفالات. . . . إن إسرائيل نفسها لم تشهد احتفالا يمكن أن يضاهي مثلاً ذلك الاحتفال الذي جرى في كاتدرائية برن بسويسرا بنفس هذه المناسبة في الثاني عشر من يوليو، والذي دعي الحاخام المحلي للحديث فيه".

ولقد اكتفى ألكسندر في تعليقه على هذه الظاهرة بالإشارة إلى تفسير أحد علماء النفس الإسرائيليين لها باعتبار أنها ترجع إلى ما كان يستشعره الجنود والضباط الإسرائيليين من أسى لمن فقدوهم من أحبائهم في الحرب. ولعل سطحية مثل هذا التفسير تبدو واضحة إذا ما وضعنا في الاعتبار ضآلة حجم الخسائر الإسرائيلية في حرب يونيو إذا ما قورنت بحجم الانتصار الإسرائيلي الساحق. وإذا ما وضعنا في اعتبارنا أيضا حقيقة أن الخسائر البشرية أيا كان حجمها لا تحول دون فرحة المقاتلين بالانتصار. ويكفي أن نشير على سبيل المثال إلى أفراح المقاتلين من جيوش الحلفاء أثر الانتصار على النازية في الحرب العالمية الثانية، رغم فداحة ما تكبدوه من خسائر.

ترى لماذا إذن لم يطلق الجنود والضباط الإسرائيليون العنان لفرحتهم بانتصارهم؟ الأمر فيما نرى يمثل ظاهرة نفسية فريدة في مجال سلوك الجماعات. ظاهره تعكس جوهر التكوين السيكولولجي السائد في التجمع الإسرائيلي. لقد اختلت المعادلة اختلالاً واضحا وخفت التهديد العربي كثيرا عن حده المطلوب إسرائيليا. فكانت الاستجابة التلقائية المباشرة غير المخططة هي القلق والعجز عن إبداء الفرحة بالانتصار فالانتصار إنما يعني انتفاء التهديد، وبالتالي انتفاء الشعور بالاضطهاد. وإذا ما انتفى شعور الأشكنازي الإسرائيلي بالاضطهاد اختلت تركيبته السيكولوجية التي ألفها، وكاد معين عدوانيته أن ينضب.

لذلك فسرعان ما بذلت القيادة الإسرائيلية جهدها لإعادة التوازن إلى المعادلة من جديد. وبدأ التركيز على أن التهديد العربي مازال قائما مستمرا: المقاطعة الاقتصادية مازالت قائمة، ومازال العرب يرفضون للتفاوض، والدعم العربي لنشاطات المخربين الفلسطينين "يتزايد" والإصرار على عدم الاعتراف بإسرائيل مازال قائما والأسلحة مازالت تتدفق.

افتقاد الأمن

فلنحاول أن نختزل ما حدث في أكتوبر ١٩٧٣م إلى أبسط صوره ممكنة: لقد تمت مواجهة عسكرية مباشرة بين القوات المسلحة الإسرائيلية وقوات مسلحة عربية. وأسفرت هذه المواجهة – ضمن ما أسفرت عنه – عن اضطرار القوات المسلحة الإسرائيلية، تحت الضغط العسكري العربي، ولأول مرة من نشأة الكيان الصهيوني إلى التراجع عن أرض سبق أن احتلتها بالقوة المسلحة، كما أسفرت هذه المواجهة العسكرية أيضا عن وقوع أكبر قدر من الخسائر البشرية عرفه التجمع الإسرائيلي منذ إقامته.

إن الهزيمة – شأنها شأن النصر – من الأمور التي عرفتها الأمم والدول والجماعات منذ كانت البشرية – بحيث لا نكاد نجد دولة أو أمة لم تعرف في تاريخها قط خبرة الهزيمة والاحتلال والخسائر البشرية. ولو حاولنا أن نقارن بين ما واجهة التجمع الإسرائيلي في أكتوبر ١٩٧٣م بما واجه الدول والأمم والشعوب من هزائم لوجدنا أنه لم يواجه إلا أقل القليل. لقد واجه الشعب الفرنسي مثلاً – في الحرب

العالمية الثانية هزيمة عسكرية ساحقة اجتاحت معها جحافل الجيش النازي أرضه، وأسقطت نظامه، وأخضعته للاحتلال. ولم يواجه الكيان الإسرائيلي شيئًا يقارن بذلك على الإطلاق. فالأرض التي "فقدها" أرض عربية لاشك في عروبتها من وجهه النظر الإسرائيلية الرسمية المعلنة. ودولته مازالت قائمة على الأرض الفلسطينية ومستوطناته ومدنه لم تشهد دمارا كذلك الذي شهدته – ومازالت – مدينة القنيطرة السورية أو السموع الأردنية أو العزية اللبنانية أو السويس المصرية. ورغم كل ذلك فإن رد الفعل الإسرائيلي لما حدث قد فاق كل حد. وكان ذلك أمرا تحتمه طبيعة التكوين الاجتماعي النفسي للتجمع الإسرائيلي. ذلك التكوين الذي يستند إلى دعامتين أساسيتين هما: المؤسسة العسكرية، والأيديولوجية الصهيونية، وقد اهتزت كلتا هاتين الدعامتين في أكتوبر ١٩٧٣م – واختل مع اهتزازهما توازن المعادلة السيكولوجية الدقيقة التي أشرنا غليها. لقد حدث للمرة الثانية اختلال لهذه المعادلة، ولكنه اختلال لطرفها الآخر هذه المرة. لقد تجاوز التهديد العربي حده "المطلوب" إسرائيليا.

ولنحاول قبل أن نمضي في تبين دلاله ما حدث أن ننظر إلى التقييم الإسرائيلي لحجم ذلك الذي حدث. لقد صدرت – ومازالت تصدر كتبا كثير ه عن حرب أكتوبر. ولعل من أهم هذه الكتب ذلك الذي صدر في إسرائيل أثر الحرب مباشرة تحت عنوان "التقصير"[(٢٥)].

يقول الكتاب "يوم الأحد ٧ تشرين الأول ١٩٧٣م، خيم ظل نكبة على دولة إسرائيل. ومنذ طلوع فجر ذلك اليوم حتى غروب شمسه، كان مصير إسرائيل كدوله، متوقفًا على قدرة الصد. ولم تتعرض إسرائيل منذ أصبحت دولة مستقلة وذات سيادة وخلال خمس وعشرين سنة منذ قيامها لخطر الدمار بصورة ملموسة كما حدث في ذلك اليوم

المصيري.... في تلك الساعات من يوم السابع من تشرين الأول هدد إسرائيل خطر الهزيمة العسكرية الساحقة، ولم يكن لمثل هذه الهزيمة في المعطيات الخاصة لدولة

(٢٥) يشعيا هو بن – فورات (وزملائه) التقصير، (مترجم) مؤسسة الدراسات الفلسطينية (بيروت) ١٩٧٤.

التأكيد من لدينا. (*).

إسرائيل، سوى معنى واحد لا احتلال، ولا فقدان للاستقلال، بل محو للشعب ولدولته من الخريطة[٢٦].

لقد صدر هذا التقدير الإسرائيلي لحجم ما حدث في أكتوبر ١٩٧٣م ولم تمض على الحرب شهور قليلة. وقد يبدو للوهلة الأولى أن الكتابة عن الأحداث الساخنة تجعل الميل إلى تضخيمها أمرا طبيعيا متوقعا. وعلى أي حال، فلنحاول تتبع الأمر بعد انقشاع غبار المعارك بفترة.

لقد احتفل الكيان الإسرائيلي في منتصف مارس عام ١٩٧٥م بالذكرى السابعة والعشرين لقيام "دولة إسرائيل". وقد وصف مراسل جريدة هاآرتس الإسرائيلية مظاهر هذه الاحتفالات بيوم الاستقلال السابع والعشرين لدولة إسرائيل هذا العام بانخفاض عدد المحتفلين في شوارع المدن، وبرز غياب الاحتفالات الترفيهية التقليدية، بينما ظهرت دوريات عسكرية بكثرة في شوارع المدن الكبيرة[٢٧].

وتربط صحيفة دافار بوضوح بين هذا المناخ السائد وبين حرب أكتوبر حين تقول في مقالها الافتتاحي يوم

---

(٢٦) المرجع السابق ص ٢٠ – ٢١.

(٢٧) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٧٥/٥/١ ص ٢٧.

١٩٧٥/٤/١٥م يبدو أن مزاج الشعب الإسرائيلي قد تغير فحتى اليوم لم نعد إلى تماسكنا عقب صدمه الذهول التي أحدثتها المفاجأة. لقد وضعت حرب تشرين الأول خطًا مميزا بين الفترة السابقة لها – فترة هدوء وثقة بالنفس مبالغ فيها، وبين الفترة التي أعقبتها – فترة غم وشكوك – وينبغي أن نقول لأنفسنا اليوم: كما لم يكن هناك أساس من الصحة لذلك الإحساس السابق لحرب يوم الغفران، كذلك الحال بالنسبة إلى المزاج القومي المتسم بالكآبة والمفتقر إلى الإيمان، فهو ليس عقيما ومبددا للطاقات فحسب، بل لا أساس له أيضا[(٢٨)].

وتحدثت صحيفة هاعولام هازية في ١٩٧٥/٤/١٥م عن جو الإحباط والشك والتشاؤم السائد وقالت أن إحساس الدولة بالأمن أخذ بالتلاشي وسيحتفل بيوم الاستقلال السابع والعشرين في جو من الكآبة والإحباط والتشاؤم والشك، ولم يحدث أبدا أن ساءل إسرائيليون بهذه الكثرة وبصوت عال إلى هذا الحد "ما إذا كانت هناك فرصة أمام الدولة لكي تبقى على مدى الأيام" ثم لم تلبث الصحيفة أن أضافت "قد يبدو أن

---

(٢٨) المرجع السابق، ص ٢٧٠.

جو الشك الذي ساد في الدولة لا ينبع من حسابات عسكرية

واقتصادية وإنما من جذور نفسية أكثر عمقًا . . . . وإن من يرى مستقبل إسرائيل كمنظر جبلي تمتد الحروب عبره كسلاسل الجبال، واحدة بعد أخرى، حتى الأفق وما بعده يجد نفسه يائسا بالضرورة. وهذا منظر رهيب بالنسبة إلى أم لها أطفال" [(٢٩)].

ويحاول يهودا غوتهيلف في عدد صحيفة دافار الصادر يوم ١٩٧٥/٤/١٨م أن يفسر ظاهرة "اللامبالاة" التي أبدتها أوساط إسرائيلية إزاء الاحتفالات فيقول "يمكن أن يكون الابتعاد عن فرحة الأمة ناجما عن الخوف مما يخبئه المستقبل لأن إسرائيل – على خلاف ما وعد به مؤسسوها الصهيونيون – ليست ملجأ آمنا"[(٣٠)].

أما الكاتب يرميا هومووفال في مقاله المنشور في هاآرتس يوم ١٩٧٥/٤/١٥م تحت عنوان "الاستقلال كقيد ذاتي" فإنه يمضي خطوة أبعد وأكثر إفصاحا إذ يقول"

(٢٩) المرجع السابق، ص ٢٧٠، ٢٧١.

(٣٠) المرجع السابق ، ص ٢٧١.

. . . . وكما أن شعب إسرائيل ليس كسائر الشعوب، كذلك فإن دولة إسرائيل ليس كسائر الشعوب، لا لكونها تقف عزلاء في منطقة تتنكر لها من الناحيتين السياسية والحضارية، ولا لكونها تعتبر نفسها كوطن لليهود في جميع أنحاء العالم فقط، بل لأنها أيضا لم تحظ بعد بالقدر الضروري من الاستقرار والشرعية الدولية اللذين نحتاجهما، لكي يكون في وسعنا القول دون تردد، أن دولة إسرائيل المستقلة قائمة بالفعل. إن الحربين الأخيرتين قد أثرتا في شرعية إسرائيل. لقد أدت حرب الأيام الستة إلى قطع علاقاتنا بالعالم الشيوعي. ورافق حرب يوم الغفران قطع

علاقاتنا بما يسمى بالعالم الثالث . . . . وأكثر من ذلك – وربما أسوأ – فقد تشوهت علاقاتنا، عقب هذه الحرب، بأوروبا الغربية، وأصبحنا معتمدين على الولايات المتحدة بصورة تكاد تكون مطلقة[٣١].

---

(٣١) المرجع السابق، ص ٢٧٣، ٢٧٤.

ولم تمضي على هذه الكتابات خمسة شهور إلا وأطلت ذكرى مرور عامين على حرب أكتوبر. وكتبت صحيفة دافار بهذه المناسبة في ١٩٧٥/٩/١٤م إن محنة حرب يوم الغفران ١٩٧٣م، لن تزول من نفوس الشعب لأيام كثيرة.

ومفاجأة الهجوم المصري السوري . . . . . . والنجاحات الأولى التي لم تحطم الخطوط الدفاعية فحسب، بل أيضا الكثير من الأوهام الإسرائيلية، والخسائر الفادحة في الأرواح التي لم نعرف لها مثيلاً منذ حرب الاستقلال، كل هذه تجعل حرب يوم الغفران ذكرى مؤلمة، حفرت ندوبا في نفوس أبناء الشعب في إسرائيل[٣٢].

وتحت عنوان "جرح مفتوح" كتب موشيه شامير مقالاً في معاريف في ١٩٧٥/٩/١٤م، ذكر فيه أن إسرائيل خرجت من جميع حروبها أكثر قوة ما عدا حرب أكتوبر

. . . . كانت حرب يوم الغفران هي الحرب الأولى التي

---

(٣٢) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٠/١٠ – ١٩٧٥/١١/١٦، ص ٥٣٩ – ٥٤٠.

خرجنا منها ضعفاء . . . ومنذ أواخر تشرين الأول ١٩٧٣م ونحن نسير في عملية مستمرة من ازدياد الوهن وفقدان الموقع. وجميع مسارات التعاظم التي اعتدناها بعد كل واحدة من المعارك العسكرية السابقة غيرت اتجاهها، وأصبحت مسارات وهن. ويسير التدهور السياسي سوية مع الوهن الاقتصادي، وجمود الاستيطان ومع مظاهر الفساد الاجتماعي، وتقلص الهجرة، وازدياد النزوح، ولنكن صرحاء مع أنفسنا، ولو كان ذلك قاسيا لقد أصبحت حرب الغفران، في وعينا القومي، جرحا مفتوحا.

تلك هي أهم ملامح التقييم الإسرائيلي لحجم ما حدث في أكتوبر ١٩٧٣م. ولنعد إلى تساؤلنا:- ترى هل لو واجهت جماعة أخرى – دولة كانت أو أمة أو شعبا – ما واجهه التجمع الإسرائيلي في أكتوبر ١٩٧٣م، سوف تبدي هذا الحجم الهائل من رد الفعل؟ إن ضخامة الأثر الذي خلفته حرب أكتوبر على التجمع الإسرائيلي، لا يرجع فيما نرى، إلى فعالية الإنجاز العربي في هذه الحرب، وقد كان إنجازا رائعا حقًا، بل إنه يرجع بالإضافة إلى ذلك إلى ما تعنيه نتائج هذه الحرب بالنسبة لخصائص النوعية المميزة لبنيان التجمع

الإسرائيلي، وبالتحديد بالنسبة للدور المميز الذي تلعبه المؤسسة العسكرية في هذا البنيان.

إن المؤسسة العسكرية الإسرائيلية – بالإضافة إلى الدور العسكري التقليدي تقوم بأربعة أدوار أساسية أخرى هي:-

أ. على المستوى الاجتماعي، تقوم المؤسسة العسكرية بدور أساسي في صهر شتات المهاجرين الذين يضمهم التجمع الإسرائيلي.

ب. على المستوى الأيديولوجي، تقوم المؤسسة العسكرية بدورها في تجسيد العنف الصهيوني باعتبارها الإدارة العملية لاستعادة أرض الميعاد وتحقيق رسالة شعب الله المختار فضلاً عن نجاحها في إقامة وحماية الدولة الصهيونية.

ج. على المستوى السياسي، تقوم المؤسسة العسكرية بكفالة الأمن الإسرائيلي مؤكدة صورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر والذي لا يكفل أمن أولئك الذين يضمهم التجمع الإسرائيلي فحسب بل أيضا أمن يهود العالم المدعوين للهجرة إلى فلسطين.

د. أما على المستوى السيكولوجي فإن المؤسسة العسكرية تقوم بدورين متكاملين. فهي بما تخلقه وتدعمه من طابع عسكري يسود التجمع الإسرائيلي تكفل مصدرا لا ينضب لتضخيم مشاعر الاضطهاد وتوقع الخطر، وما إلبى ذلك من مصادر لتفجير أقصى قدر من الطاقة العدوانية ثم إنها من ناحية أخرى تقوم بدور الضابط والموجه لتلك الطاقات العدوانية إلى أهدافها المطلوبة.

ومن هنا، فإن اضطرار الجيش الإسرائيلي إلى التراجع تحت ضغط عسكري عن أرض سبق أن أحتلها، وتحمله لخسائر بشرية كثيفة من جراء ذلك، إنما يعني تهديدا خطيرا لكفاءة تلك الأدوار الموكولة إلى المؤسسة العسكرية الإسرائيلية وبالتالي فإنه يعني تهديدا لجوهر الكيان الإسرائيلي تماما.

إن تخلخل صورة الأشكنازي المحارب المنتصر دائما يؤدي من الناحية الاجتماعية إلى مزيد من احتمالات فشل عملية الصهر الاجتماعي بما تستهدفه من ضمان سيادة الطابع الأشكنازي على أبناء التجمع الإسرائيلي.

كذلك فإن التراجع عن جزء تم الاستيلاء عليه من "أرض الميعاد" يعد من الناحية الأيديولوجية سابقة لها دلالتها الخطيرة. فهي تعني أن العنف الصهيوني لا يمثل الحصان الرابح دائما. وإن تفوق أبناء "شعب الله المختار" أمر قابل للمناقشة. وبالتالي فإن الدلالة التاريخية لإقامة دولة إسرائيل كتجسيد للحلم الصهيوني تصبح بدورها عرضة للاهتزاز.

ومن الناحية السياسية فإن اضطرار الجيش الإسرائيلي إلى التراجع فضلاً عن خسائره البشرية الجسيمة، إنما يعني تهديدا لصورة الجيش الذي لا يقهر، وبالتالي لما تمثله المؤسسة العسكرية ليهود إسرائيل، وليهود العالم، من ضمان أكيد للأمن.

أما من الناحية السيكولوجية فإن ما حدث يكتسب دلالتين متكاملتين، فهو يعني من ناحية تهديدا لمشاعر الامتياز والتفوق الحاسم، ويعني من ناحية أخرى تأكيدا لمشاعر الاضطهاد والتعرض للمخاطر، أو بعبارة أخرى فإنه يعني خفوتًا – عن الحد المقبول – لصورة "إسرائيل الكبرى القوية القادرة"، وبروزا – عن الحد المقبول أيضا لصورة "إسرائيل الصغيرة المهددة العزلاء".

إن هذه الخصائص النوعية المميزة لبنية التجمع الإسرائيلي، هي وحدها التي يمكن أن تفسر تفاقم الأزمة التي يعيشها التجمع الإسرائيلي منذ أكتوبر ١٩٧٣م. إنها لم تكن مجرد هزيمة لحقت بجيش، بل كانت صدمة تعرضت لها الأركان الأساسية للتجمع الإسرائيلي. وسببت ومازالت تسبب له ارتباكًا شديدا. ترى كيف بدأ رد الفعل الإسرائيلي لحرب أكتوبر ١٩٧٣م، وكيف تطور؟

أولاً: رفض الواقع:

لقد أصبحت فكرة انتقائية الإدراك من الأفكار الكلاسيكية في علم النفس. وأصبح من المسلم به أن المرء لا يدرك كل ما يقع على حواسه من مؤثرات، بل أنه لينتقي منها أشياء ويترك أخرى. ونستطيع أن نقول – تبسيطًا أن المرء يدرك ما يريد أن يدركه. ويرفض – أو بالأحرى يعجز عن إدراك مالا يود إدراكه. ذلك هو شأن البشر جميعا رغم تفاوت درجات انتقائيتهم هذه من فرد إلى آخر ومن موقف إلى آخر.

ولنضف إلى تلك الصفة العامة التي يشترك فيها البشر جميعا، صفة أخرى تميز الشخصية الإسرائيلية الأشكنازية،

وهي خاصية الجمود. إن البحوث العلمية المتخصصة التي أجريت في مجال دراسة الشخصية الإسرائيلية وتعرضت بالفحص السيكولوجي لتواجد هذه الخاصية، تكاد تجمع على تأكيد اتصاف الأشكنازيين الإسرائيليين ضمن ما يتصفون به بخاصية الجمود. وقد سبق أن أشرنا إلى جانب من هذه الدراسات. ورغم تعدد تعريفات الجمود في التراث السيكولوجي العام، فإن تلك التعريفات جميعا تكاد تتفق رغم تنوعها على أن الجمود يعني ضمن ما يعنيه العجز عن إدراك التغيرات الجديدة التي تطرأ على موقف معين.

- ترى ما هي ملامح التصور الإسرائيلي للعرب قبل أكتوبر ١٩٧٣م؟ لقد نشر يوشانان بيريز مدرس علم الاجتماع بمعهد كابلان بالجامعة العبرية بالاشتراك مع زميلته زيبوراه ليفي عام ١٩٦٩م، دراسة بعنوان "اليهود والعرب – أنماط جماعية إثنية في إسرائيل"(٣٣) وقد استهدفت الدراسة تبين ملامح تصور اليهود الإسرائيليون

---

(٣٣) Peres, Y. and Z. Levy " Jews and Arabs: ethnic group Stereotypes in Israel", Race, ١٠, ١٩٦٩, ٤٧٩.

الأشكنازيون لأنفسهم وكذلك للعرب المقيمين في التجمع الإسرائيلي. وأيضا تصور هؤلاء العرب لأنفسهم وتصورهم لليهود. وتشير نتائج هذه الدراسة ضمن ما تشير إليه إلى سمة هامة ميزت نظرة اليهود إلى أولئك

العرب الذين يعايشونهم، إذ يقرر المقال. . . . "ويؤكد المفحوصون اليهود دونية جماعة الأقلية (أي العرب) خاصة في مجال القدرة العقلية. ويحسون إحساسا بالغًا يتفوقهم هم" ومن الأقوال التي ذكرها اليهود في معرض وصفهم لأنفسهم العبارات التالية:

- يتحدث اليهود باستمرار عن الجيش، معبرا عن ثقته في أنه ما من دولة تستطيع هزيمة إسرائيل.
- يتميز اليهودي بشعور غريب بالاحترام نحو مفاهيم مجردة كالدين والتراث اليهودي.
- يرى اليهودي أن السماح للعرب بدخول الجامعة إنما يعني أننا نخدع أنفسنا.

يشعر اليهودي بالتفوق على يهود الدياسابوراه (الموجودين خارج إسرائيل) ويرى أنهم يرسلون النقود فحسب بينما نتولى نحن المحافظة على الأرض من أجلهم.

وإذا كانت تلك هي ملامح تصور الإسرائيليين للأقلية العربية المقيمة في التجمع الإسرائيلي، فإن تصورهم للعرب بعامة لا يختلف كثيرا. لقد نشرت مجلة التايمز الأمريكية في عددها الصادر في ١٩٧١/٤/١٢ نتائج قياس الرأي العام الإسرائيلي تجاه مسائل الحرب والسلام. وقد تضمن هذا القياس سؤال الإسرائيليين الذين شملهم البحث عما إذا كانوا يوافقون على عدد من العبارات المقدمة إليهم. وكانت النتائج كما يلي مرتبة تنازليا حسب درجة تقبلها:

العبارة	أوافق	لا أوافق
العرب أقل شجاعة من الإسرائيليين	٨٠ %	١٢ %
العرب أشد قسوة من الإسرائيليين	٧٥ %	١٧ %
العرب أقل ذكاء من الإسرائيليين	٧٤ %	١٩ %
يكره العرب إسرائيل كراهية عمياء	٦٨ %	٢٦ %
العرب أدنى من الإسرائيليين	٦٧ %	٢٣ %
العرب أقل أمانة من الإسرائيليين	٦٦ %	٢٠ %
العرب أكثر كسلاً من الإسرائيليين	٥٣ %	٣٦ %

هكذا كانت صورة العرب لدى الإسرائيليين قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣م، صورة المنهزمين المتخلفين، الكسالى، ضعاف الحيلة، الذين مزقتهم خلافاتهم وصراعاتهم، ومخاوفهم من بعضهم البعض، والذين قد يتحدثون جيدا وكثيرا ولكنهم لا يصنعون شيئًا، أو يقدرون على صنع شيء مجد [٣٤]. وكان منطقياً أن تلقى هذه الصورة هوى لأحد له لدى أصحاب السلطة في التجمع الإسرائيلي فهي تجمع بين

---

(٣٤)Beit – Hallahy mi, B. "Some psycholsocial and cultural factors in the Arab- Israeli confict" , The Journal of Confict Resolution ١٦, ١٩٧٢, ٢٦٩.

- ----------------- "Some uses of religion in the Arab – Israel – Iconffict", Unpnbilished, ١٩٧٣.
- ----------------- Hong, S. "Arab National character and Middle East confict", The Jerusalem Post, ١٨ Oct., ١٩٧٠.
- ----------------- Harkabi, Y. " Basic factors in the Arab collapse during the six day war" Orbis, Il, ١٩٦٧, ٦٧٧.
- ---------------- Arab attituies toward Israel, (Translated by : M. Louvish), Hart, ١٩٧٢.

طرفي المعادلة المنشودة في توازن لا مثيل له: فالعرب يكرهون إسرائيل كراهية عمياء، وهم أشد قسوة من الإسرائيليين، ولذلك فهم يمثلون تهديدا ينبغي التوجس منه، والتهيؤ لمواجهته ولكنهم – أي العرب – في نفس الوقت اقل ذكاء، وأقل أمانة أيضا من الإسرائيليين وذلك ضمان لبقاء التهديد العربي في حدوده كتهديد فحسب لا يتجاوزها ليصبح خطرا حقيقيا.

وبدأت استعدادات القتال، أو بتعبير سيكولوجي، بدأت معطيات الموقف الإدراكي في التغير. ولم يعد هناك من يشك الآن – عربيا كان أو إسرائيليا – في إدلاء المعلومات التي كانت متوافرة لدى القيادة الإسرائيلية قبل نشوب القتال، وفي الساعات الأولى من نشوبه كانت تنطق بما لا يدع مجالاً للشك في أن العرب يعتزمون القتال.

يقول يشعيا هوبن – فورات وزملائه "لقد شكل الرئيس السادات في ١٩٧٣/٣/٢٥م وزارة جديدة. وأعلن أن مهمتها

هي أعداد مصر للحرب القريبة. . . . ومنذ ذلك التاريخ، لم يمر يوم واحد تقريبا إلا ونشرت فيه صحيفة من صحف

العالم خبرا أو تقريرا يتعلق بالحرب القريبة التي تنوي مصر شنها على إسرائيل[٣٥] . . . .

ومع ذلك فقد ظل العقل الأشكنازي الإسرائيلي في البداية لائذا بجموده، محتميا به، رافضا – رغم كل ما لديه من معلومات – أن يسلم أن العرب يستعدون بالفعل للقتال. بل لقد استمر حتى البداية الفعلية للقتال عاجزا رغم كل إمكانياته وقدراته – عن الفكاك من أسار ما اطمأن إليه من أفكار قديمة. لقد ظل العقل الأشكنازي الإسرائيلي متمسكًا – رغم كل ما يراه أمام عينيه – بأن التهديد العربي لا يعدو أن يكون تهديدا فحسب، وأن القدرة الإسرائيلية العسكرية لا يمكن إلا أن تكون قادرة على إلزام هذا التهديد حدوده المرسومة. لقد كانوا على حد تعبيرهم وبحق "لهم عيون ولا يبصرون"[٣٦].

ويقول حاييم هرزوج في كتابه حرب الغفران "إن تحليل الأحداث التي أدت إلى حرب يوم كيبور يشير إلى خطأين

(٣٥) يشعيا هوبن – فورات (وزملائه)، مرجع سابق، ص ٣٠.

(٣٦) يشعيا هوبن – فورات (وزملائه) ، مرجع سابق، ص ٣٠.

رئيسيين: الأول هو ذلك الخطأ القاتل في تقييمات أجهزة المخابرات. والفشل على مستوى القادرة العسكريين والوزراء في تقييم دلالة التطورات المتوازية على الجبهات المصرية والسورية. فمن الحقائق الراسخة لتلك الفترة أنه لم يحدث في أي مرحلة وعلى أي مستوى... أن أقدم أحد على الربط بين التجهيزات السورية في الشمال... وبين النشاط والتمركز المصري غير العادي في الجنوب... يبدو كما لو أن الاعتقاد بأن الجيوش العربية لا تستطيع الحرب ولن تقدم عليها، قد سبب إعتاما عقليا كاملاً... [٣٧].

وعلى أي حال فلم يمض وقت طويل، إلا وأقر بهذه الحقيقة المسئولون الإسرائيليون. فبمناسبة مرور عامين على حرب أكتوبر، وفي الفترة ما بين ١٣ – ١٨ أكتوبر ١٩٧٥م، عقدت في القدس المحتلة ندوة عسكرية عالمية لمناقشة نتائج الحرب و "النواحي العسكرية للنزاع العربي الإسرائيلي" وقد تحدث في الجلسة الافتتاحية للندوة شمعون بيريز، وزير الدفاع الإسرائيلي، فقال "لقد ارتكبنا خطأ قبل يوم الغفران،

---

(٣٧) التأكيد من لدينا.

عندما فضلنا تقديرات مفعمة بالأمل، على واقع غير سار. وعلينا تجنب هذا الخطأ والحيلولة دون تكراره [٣٨].

إن العجز عن ملاحقة تغير الواقع، خاصة إذا ما كان هذا التغير يؤدي إلى اختلال التوازن المطلوب، يعد سمة تميز رد الفعل الإسرائيلي بعامة. فلقد حدث أن قامت منظمة التحرير الفلسطينية بعملية فدائية في الأرض المحتلة هاجموا خلالها فندق سافوي في تل أبيب، وذلك ليلة السادس من مارس ١٩٧٥م. ولقد كان رد الفعل الإسرائيلي حيال هذه العملية الفدائية، يكاد يكون نموذجا مصغرا ومجسدا لرد الفعل حيال حرب أكتوبر ١٩٧٣م.

لقد روى مراسل صحيفة هاآرتس في العدد الصادر في ١٩٧٥/٣/١٢م تفاصيل الساعات الأولى للعملية منذ وصول الفدائيين ونستطيع لو أمعنا النظر قليلاً أن نعدل من تفسير سبيرو لتلك الرغبة العارمة في الرحيل التي لا حظها لدى السابرا أن الضيق بالحاضر في حد ذاته لا يكفى لتبرير رغبة الإنسان في الرحيل، بل يشترط لبلوغ تلك النتيجة أن

---

(٣٨) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٠/١٠ – ١٩٧٥/١١/١٦، ص ٥٤٥.

يصحب ذلك الضيق بالحاضر تشكك في المستقبل وتشاؤم فيما يتوقع أن يأتي به. قد يضيق المرء بحاضره أشد الضيق، ومع ذلك فإنه يظل يسعى ما وسعه السعي إلى تغيير ذلك الواقع إلى واقع آخر يرضاه ما دامت لديه بارقة أمل في المستقبل، أما إذا – انطفأت تلك البارقة من الأمل، فليس أمامه إلا الرحيل أمنية أو فعلاً، وهما أو حقيقة. وعلى أي حال فلعل في بحث البرت رابين الذي سوف نعرض له على الفور ما يمكن أن يلقى الضوء على تلك القضية.

نشر عالم النفس الأمريكي ألبرت أ. رابين، وهو رئيس قسم علم النفس في جامعة ميتشجان، نشر عام ١٩٥٩ مقالاً بعنوان "مقارنة بين الأطفال الأمريكيين والإسرائيليين باستخدام أسلوب تكميل الجمل" [٣٩].

وقد استخدم رابين في هذا البحث قائمة من الجمل الناقصة، هي عبارة عن صورة معدلة من اختبار ساكس

---

(٣٩) Rabin, A.I. Comparison of American and Israeli Children by means of a sentence completion technique, The Journal of Social psychology, V. ٥٩. ١٩٥٩, pp. ٣ – ١٢.

وليفي وقد أسفر البحث ضمن ما أسفر عنه عن النتائج التالية: -

(أ) تضمنت القائمة الجملة التالية "عندما لا أكون موجودا مع أصدقائي فإنهم... والمطلوب من المفحوص أن يكمل الجملة. بعبارة أخرى فإن المطلوب منه هو تبيان توقعه لسلوك أصدقائه في غيبته. وقد قام رابين بتصنيف استجابات العينة الإسرائيلية إلى فئتين:-

١- استجابات سلبية مليئة بالشك، ومن أبرز نماذجها إكمال المفحوص للجملة على الوجه التالي: "عندما لا أكون موجودا مع أصدقائي فإنهم يسبونني".

٢- استجابات أخرى متنوعة من نماذجها: ".... لا يصنعون شيئًا" أو .... يبحثون عني".

وكانت النسبة المئويـة للإسـرائيليين الـذين تنـدرج استجاباتهم تحت الفئة الأولى ٦٠% مقابـل ٤٠% تنـدرج استجاباتهم تحت الفئة الثانية.

(ب) تضمنت القائمة كذلك الجملة الناقصة التالية "يبدو المستقبل بالنسبة لي . . . " وقد ميز رابين أيضا بين فئتين من الاستجابات فيما يتعلق بإكمال هذه الجملة:

١- استجابات إيجابية مثل: " . . . . مشرق" أو " . . . . جميل جدا".

٢- استجابات أخرى متنوعة مثل: " . . . غريبا أو . . . . مجهولاً . . . أو . . . . غير صحيح أو . . . . كالحاضر".

وكانت النسبة المئويـة للإسـرائيليين الـذين تنـدرج استجاباتهم تحت الفئة الأولى ٤٢% في مقابل ٥٨% تنـدرج استجاباتهم تحت الفئة الثانية.

(ت) وتضمنت القائمة أيضا الجملة الناقصة التالية: "في يوم

ما سوف . . . . " وقد ميز رابين بين فئتين فيما يتعلق بإكمال هذه الجملة أيضا:-

إلى شاطيء تل أبيب موضحا أنه في تمام الساعة السابعة مساءا، أنزل زورق إلى الماء بواسطة رافعة في السفينة الأم، وركبه ثمانية فدائيين اتجهوا إلى الشاطيء مسترشدين بأضواء المدينة وببوصلة كانت في حوزتهم،

فوصلوا إليه الساعة ١٠,٤٥ . . . . وإن الفدائيين اضطروا إلى تغيير أهدافهم الأصلية. بسبب إطلاق النار عليهم من قبل دورية للشرطة كانت تبحث عن المومسات في هذه المنطقة، فركضوا باتجاه دار للسينما وأطلقوا النار عليها. وقد أبلغت هذه الدورية باللاسلكي قائد دورية أخرى كان على مقربة من مكان الحادث، وكانت أول فكرة خطرت له، طبعا، إن ما

يدور هناك هو حرب عصابات بين زعماء عالم الإجرام حول تقاسم السلطة . . . [٤٠].

ولم يكن ذلك الارتباك قاصرا على قادة دوريات الشرطة وحدهم. لقد تطرقت صحيفة هاعولام هازيت في عددها الصادر في ١٩٧٥/٣/١٢ إلى هذا الارتباك بقولها "إن البلبلة الشديدة التي سادت بين القادة، والتعليمات المتناقضة تعليمات الأركان العامة، ورئيس الحكومة، ووزير الدفاع ووزير الشرطة، أدت إلى تأجيل العملية مرتين (تقصد عملية التصدي للفدائيين) فجاء نجاحها أقل مما كان ممكنا [٤١].

لقد أسفرت العملية عن استشهاد الفدائيين الثمانية وعن مصرع إحدى عشر إسرائيلي من بينهم ثلاثة عسكريين ولكن أصداءها في التجمع الإسرائيلي قد تجاوزت ذلك الحجم بكثير.

تقول صحيفة هاعولام هازيه في عددها المشار إليه والصادر في ١٩٧٥/٣/١٢م لقد أثبتت عملية سافوي

---

(٤٠) المرجع السابق، ص ١٨٣.

(٤١) المرجع السابق، ص ١٨٩.

. . . . أن جهاز الأمن لم يشف بعد من الأمراض التي أصابته منذ حرب الأيام الستة، والتي أدت إلى نتائج سيئة جدا في يوم الغفران. وقد أظهرت هذه العملية من جديد جميع أعراض تلك الأمراض، على نطاق ضيق ومحلي. وكانت ليلة سافوي من ناحية معينة بمثابة يوم غفران مصغر[(٤٢)]، [(٤٣)]. وتمضي الصحيفة محددة "أعراض تلك الأمراض" فتشير إلى " عدم فاعلية جهاز الإنذار والوقاية.

انعدام الخيال في تقدير خطوات العدو المتوقعة . . . . جو الفوضى الذي أخذ طابع الارتجال. وقف العملية قبل نهايتها الحقيقة لسبب الجو العام من الرضى عن النفس، ونشوة النصر، وتجزئة المسئولية والبلبلة في مجال الاختصاصات، والسعي وراء النشر والثرثرة" وتخلص الصحيفة في نهاية عرضها إلى القول: "لو حدث كل ذلك في معركة عسكرية كبرى لادت هذه الظواهر إلى كاريثة عسكرية أخرى، كما

---

(٤٢) المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٤٣) التأكيد من لدينا

أدت في يوم الغفران، من هذه الناحية يجب أن تكون عملية سافوي بمثابة إنذار: عيوب يوم الغفران لم تقوم بعد" (٤٤).

وأورد يوئيل ماركوس في مقال له بصحيفة ها آرتس يوم ١٩٧٥/٣/١٠م ما يراه من تقصيرات إسرائيلية في

صورة التساؤلات التالية . . . . . . كيف حدث إنه لم تكن هناك معلومات أو على الأقل، لم يكن هناك توقع إمكان حدوث عملية من البحر ضد تل أبيب، عشية زيارة كسينجر؟. كيف لم يتم اكتشاف السفينة الأم، وزورقي الكوماندوز، وهي في طريقها إلى الهدف؟ وإذا لم يجر اكتشافها قبل فوات الأوان، لماذا لم تكن قوات الأمن مستعدة، بحيث تتمكن من التحرك الفعال والعمل السريع، لإحباط خطة السيطرة على الفندق؟ وإذا كانوا (الفدائيين) قد سيطروا على المبنى، فلماذا مر وقت طويل حتى عرف المبنى الذي يسيطرون عليه؟ وأين كان الحرس المدني الذي يفاخر بالـ

٦٠,٠٠٠ متطوع العاملين فيه؟ . . . . لقد كان من المحتمل

---

(٤٤) المرجع السابق، ص ١٨٩.

قيام الفدائيين بعملية كعملية سافوي عشية جولة كيسنجر الأخيرة.... إنني لا أتحدث عن ضرورة أن تكون بيد الاستخبارات الإسرائيلية المعلومات حول عملية مبرمجة ومعقدة بهذه الدرجة ضد هدف في تل أبيب ولكن حتى لو لم تصل معلومات كهذه، كان يكفي استخدام الدماغ للتوصل إلى استنتاج[٤٥] أما زئيف شيف في مقاله المنشور في ها آرتس في ١٩٧٥/٣/٧م فقد مضى بعيدا في تحليله لأهداف العملية حيث لم يستبعد كونها جزءا من مخطط الهاء وتمويه وتغطية على الاستعدادات العسكرية لخوض حرب جديدة كما حدث في الفترة التي سبقت حرب السادس من تشرين[٤٦].

ذلك هو رد الفعل الإسرائيلي لكل ما من شأنه أن يحول التهديد العربي إلى خطر واقعي. سرعان ما يؤدي ذلك إلى "بلبلة" العقل الإسرائيلي الأشكنازي و "مفاجأته"، ورفضه أن يصدق ما يجري مهما كان الواقع الجديد متوقعا.

---

(٤٥) المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٤٦) المرجع السابق، ص ١٩١.

ثانيًا: تحجم صورة الواقع:

لم يكن في مقدور العقل الإسرائيلي الأشكنازي مهما كان جموده، ومهما كانت مفاجأته أن يظل على رفضه للواقع، كان عليه مضطرا أن يتعامل معه حتى ولو لم يسلم بأبعاده الحقيقية.

وكان رد الفعل الأول على لسان جولدا مائير رئيسة الوزراء آنذاك، التي أذاعت في مساء السادس من أكتوبر بيانًا جاء فيه: "أن الجيش الإسرائيلي كان مستعدا وهو يصد

الهجوم . . . . لقد اعتقد المهاجمون أننا لن نكون في يوم الغفران متأهبين للرد على الحرب بأشد منها ولكنا لم نفاجأ "[٤٧] ولكن لم تلبث الأحداث أن تتالت، ولم تكن في صالح الإسرائيليين. وأصبحت صورة الواقع واضحة لدى المسئولين في التجمع الإسرائيلي. ولكنهم لم يستطيعوا – ولم يكونوا ليستطيعوا – مواجهة جمهورهم بحقيقة ما يجري دفعة واحدة بل لجأت أجهزة الأعلام الرسمية الإسرائيلية إلى

---

(٤٧) يشعيا هوين – فورات ، مرجع اسبق، ص ٢١.

الحفاظ على الصورة الأسطورية للمؤسسة العسكرية الإسرائيلية.

يقول يشعيا هوبن – فورات: " .... عندما صفع الواقع المرير الإسرائيليين اخذوا بأسلوب إخفاء الحقيقة المفجعة. إنهم (مواطنو إسرائيل) لم يعرفوا بسقوط موقع جبل الشيخ – مثلاً – الذي احتله السوريون منذ الساعات الأولى للحرب إلا في اليوم الأخير من الحرب بعد أن أعادت قوات الجيش الإسرائيلي احتلال الموقع والأدهى من ذلك أن وسائل الأعلام الإسرائيلية اضطرت طوال أيام الحرب، بناء على تعليمات من أعلى، إلى أن ترسم للمواطنين صورة معقمة للحرب. فالخسائر الجسيمة، والقتلى والجرحى، هم من نصيب العدو فقط. ودبابات العدو وطائراته هي وحدها التي تصاب وتدمر العدو وحده يتراجع"[(٤٨)].

ولم يكن ممكنًا لمثل هذا الموقف الإنكاري أن يستمر بالنسبة لبقية تفاصيل وقائع القتال. وكان على القيادة الإسرائيلية أن تلتمس تفسيرا تقدمه لما حدث على جبهات

---

(٤٨) يشعيا هوبن – فورات (وزملائه) ، مرجع سابق، ص ٣١٨ – ٣١٩.

القتال. ولقد وجدت هذه القيادة ضالتها في فكرة بدت لها نموذجية وهي فكرة "المفاجأة العربية". ليس باعتبار أن الإنجاز العربي في أكتوبر ١٩٧٣م قد تضمن فيما تضمنه خطة لمافجأة العدو، ولكن باعتبار أن "المفاجأة" هي كل ما أنجزه العرب. لا أكثر ولا أقل. ولقد كانت هذه الفكرة بالتحديد هي الأنسب والأكثر ملائمة للتكوين السيكولوجي الأشكنازي الإسرائيلي فهي تتيح من ناحية إبراز "النوايا" العدوانية العربية، كما إنها تكفل من ناحية أخرى تأكيد إن إنجاز السادس من أكتوبر ليس سوى الاستثناء العارض، وإن القاعدة هو ما حدث خلال يونيو ١٩٦٧م.

وفي حقيقة الأمر، فإن عبور القوات المصرية لقناة السويس كان احتمالاً واردا لدى القيادة الإسرائيلية منذ نهاية حرب ١٩٦٧م مباشرة. ويكفي أن نشير تأكيدا لذلك إلى ما أورده حاييم هرتزوج في كتابه حرب الغفران إذ يقول " في مناورات الجيش الإسرائيلي عام ١٩٦٨م قام جافيتشي بقيادة القوات الإسرائيلية، في حين قام الجنرال موردخاي جور – الذي عين رئيسا للأركان بعد حرب الكيبور – بدور قائد القوات المصرية. وأقدم جور خلا ل تلك المناورات على

العبور قواته على طول الجبهة الإسرائيلية تماما كما كان على قوات الرئيس السادات أن تفعل بعد خمس سنوات. وهكذا فإن فكرة إمكان هجوم مصري كانت واردة في الاعتبار بالفعل منذ عام ١٩٦٨م لدى أعضاء القيادة الإسرائيلية" [٤٩].

ترى فيم كانت مفاجأة الإسرائيليين إذن في السادس من أكتوبر ١٩٧٣م، لقد أعلن مناحم بيجين في بيان صدر عن كتلة ليكود في ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣م إن الحكومة الإسرائيلية قد فشلت فشلاً ذريعا في اتخاذ إجراءات للردع في فترة الأعياد المقدسة وذلك قبل الهجوم العربي. وذلك على الرغم من أنه قد توفر لديها معلومات موثوق بها عن حشود القوات العدو في الشمال والجنوب[٥٠].

ولقد نشرت صحيفة دافار في ١٩٧٥/١٠/١٧م نص المحاضرة التي ألقاها دافيد العازار، رئيس هيئة الأركان الإسرائيلي السابق، في الندوة التي عقدت بمناسبة مرور عامين على حرب أكتوبر. وقد اختار العازار لمحاضرته

---

(٤٩) Herzug, H. Op. cit.

(٥٠) جريدة الأهرام، (القاهرة)، ١٩٧٣/١٠/٢٥.

عنوان "دروس حرب يوم الغفران" ويقول فيها:

"...... تعلمنا أن المشكلة الأساسية ليست جمع المعلومات وتعقب ما يجري لدى العدو فمن خلال نظرة إلى الوراء، كانت لدى الاستخبارات الإسرائيلية في تشرين الأول ١٩٧٣م المعلومات التي كان يمكن أن تعرف من خلالها ما يجري لدى جيوش مصر وسوريا. وإذا كانت المفاجأة ممكنة، على الرغم من توفر هذه المعلومات لدى جهاز الاستخبارات، فإن السبب في ذلك يمكن في عدم سبر أغوار هذه المعلومات وتفسيرها تفسيرا سليما أن عدم معرفة نوايا العدو من جهة والأسوأ من ذلك – التفسير غير الصحيح لنوايا العدو من جهة أخرى هما السببان الأساسيان اللذان أتاحا المفاجأة"(٥١)، (٥٢).

لم تكن مفاجأة الإسرائيليين نقصا في المعلومات بقدر ما كانت عجزا عن تقبل إمكانية إقدام العرب على القتال وهو العجز الذي لم يستطيعوا رغم إقرارهم به عمليا، أن يقدموا

---

(٥١) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٥/١١/١٦، ص ٥٥١.

(٥٢) التأكيد من لدينا.

له أي تفسير، حتى ولو لم يكن مقنعا. فالكتابات الإسرائيلية عن أكتوبر – رغم كثرتها – لم تحاول أن تقترب مطلقًا من السؤال الأساسي: لماذا كانت المفاجأة؟

وعلى أي حال فقد مضت أجهزة الإعلام الإسرائيلي في الإلحاح على فكرة المفاجأة هذه. محاولة بذلك أن تخفي حقيقة بسيطة واضحة، هي أن ما أنجزه العرب في أكتوبر ١٩٧٣م إنما يعبر بصدق ودقة عن حقيقة ميزان القوى بينهم وبين العدو. تلك هي الحقيقة التي سعى – ويسعى – الإسرائيليون جاهدين لطمسها أو على الأقل لتحجيمها.

لقد نشرت صحيفة يديعون أحرونوت في عددها الصادر في ١٩٧٥/١٠/١٦م جانبا مما قاله اللواء شلومو غازيت رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية في الجيش الإسرائيلي، في الندوة العسكرية التي أشرنا غليها آنفًا. وقد أكد غازيت في حديثه بالنسبة للإنجاز العربي في أكتوبر ١٩٧٣م، إن ما

حققه العرب "... . لم يكن إلى حد ما، نتيجة ما فعلوه، وإنما نتيجة ما أخفقنا نحن في القيام به" [٥٣].

---

(٥٣) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٠/١٠ – ١٩٧٥/١١/١٦، ص ٥٤٨.

أما دافيد أليعازار فقد حرص في محاضراته التي ألقاها في نفس الندوة على إبراز إن ما حدث في اكتوبر ١٩٧٣م لا يعبر بحال عن تغير جوهري في مستوى كفاءة الجيوش العربية – بل إنه يمضي في سبيل إثبات ذلك إلى حد الإشادة

بالقتال العربي عام ١٩٦٧م، حيث يقول ". . . . إنني لأذكر عدة معارك لا بأس بها، خضناها ضد جيوش مصر وسوريا

والأردن. . . وقد تطلبت منا جهودا كبيرة، واستنفاذًا لكل حنكة الحرب، للانتصار فيها. كما أنني لا أشارك في المبالغة في وصف الجيوش العربية، وكأنها حققت ثورة نوعية متطرفة في حرب ١٩٧٣م. والحقيقة أنشه حدث تحسن معين في الجيوش العربية بين الحربين ٦٧، ٧٣م سواء من ناحية التخطيط أو التنفيذ، بيد أن المستوى لا يزال متدنيا كثيرا عن مستوى الجيش الإسرائيلي"(٥٤).

---

(٥٤) المرجع السابق، ص ٥٥١.

ثالثًا: الوعيد والتنمر:

تكتمل حلقات محاولة الاحتواء العقلاني الإسرائيلي لما حدث بصورة الوعيد: إن هذا الإنجاز الهين والاستثنائي الذي حققه العرب في أكتوبر ١٩٧٣م لسوف تسحقه على الفور القوة الإسرائيلية التي لا تقهر، لتعيد نتائج القتال إلى التعبير عن حقيقة توازن القوى بين الأطراف المتحاربة.

لقد صرح موشيه ديان خلال الساعات الأولى للقتال قائلاً "سنضربهم ضربا مبرحا" [(٥٥)] وكتب زئيف شيف المعلق المراسل العسكري لصحيفة ها آرتس في ١٩٧٣/١٠/٨م قائلاً "إن لتفاؤل السيدة جولدا مائير رئيسة الحكومة، والسيج موشيه ديان وزير الدفاع أساسا يعتمد عليه. ليس هناك شك في انتصار الجيش الإسرائيلي في هذه الحرب الجديدة التي فرضت عليه الآن[(٥٦)] ويمضي دان شيفكان الباحث في معهد شيلواخ في مقاله المنشور في ها آرتس في ١٩٧٣/١٠/٩م خطوة أبعد من ذلك مقررا ..."إن

(٥٥) يشعيا هوين – فورات (وزملائه)، مرجع سابق، ص ٢١.

(٥٦) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، العدد ٢٠ ، ١٩٧٥/١١/٦، ص ٦٢٨.

هزيمة القوات المهاجمة أو إصابة الجهاز العسكري إصابة كبيرة لا تكفيان... على إسرائيل أن تسعى لأكثر من ذلك كثيرا. فالجيوش يمكن إعادة بنائها... يجب أن تترك الحرب آثار جروح تبقى وتوجع العرب، مثل فقدان المناطق في حزيران ١٩٦٧م... إن إحدى الطرق للوصول إلى أثر كهذا هي التوجه نحو تدمير مخطط للقاعدة الصناعية، ووسائل النقل، وضرب أماكن استغلال الثروات الطبيعية. فمثلاً في مصر، يمكن ضرب المجمع الصناعي الكبير في حلوان، وإشعال حقول النفط وفي سوريا يجب أن نحاول بالإضافة إلى ذلك توسع الرقعة المحتلة لخلق تهديد دائم لدمشق ضمن مدى المدفعية(٥٧).

وقد يبدو للوهلة الأولى إن ما سبق لا يعدو أن يكون من قبيل التشجيع لقوم يحاربون. دون أن يعكس بالضرورة "وعيدا" أو "تنمرا" يضرب بجذوره عميقًا في التكوين السيكولوجي الاجتماعي الإسرائيلي. ولعل الصورة تزداد

---

(٥٧) المرجع السابق، ص ٦٣٤ ، ٦٣٥.

وضوحا إذا تبين استمرار هذه النغمة، بل وارتفاعها، بعد انتهاء أحداث حرب أكتوبر ١٩٧٣م.

لقد خاص الكاتب الإسرائيلي موشيه شامير في مقال له نشر في صحيفة معاريف في ١٩٧٥/٩/١٤م تحت عنوان "جرح مفتوح" إلى أن العبرة الأساسية من الحرب التي وقعت منذ سنتين، هي "أن على إسرائيل" وشعبها في المنفى وما تبقى من الدول التي تريد حقًا استمرار دولة إسرائيل البقاء في حالة يقظة وحذر دائمين خصوصا وإن شعارات التملق الكاذبة، بأننا نقف على عتبة احتمال التسوية، أو التقدم نحو السلام مع الدول العربية، تسبب لنا ضررا في كل خطوة نخطوها"[(٥٨)].

لقد كان الموقف السيكولوجي الإسرائيلي الذي أسفرت عنه حرب ١٩٧٣م يكاد يمثل انعكاسا دقيقًا لموقف القوة العسكرية الإسرائيلية: قوة عسكرية عدوانية، تعرضت لضربة قوية حقًا، ولكنها – لظروف عديدة – لم تقضي عليها تماما. سيكولوجية عدوانية تقوم أساسا على تضخيم الشعور

---

(٥٨) المرجع السابق، ص ٥٤٠.

بالاضطهاد تلقت ضربة قوية لم تتمكن من احتوائها تهوينا أو تبريرا أو وعيدا. وفي نفس الوقت فإن هذه الضربة وحدها لم تكن كافية للإجهاز تماما على السبل العدوانية المتاحة للتعبير عن الشعور بالاضطهاد.

الآثار النفسية لحرب أكتوبر

لقد عقدت الجمعية الدولية لعلماء النفس اجتماعها السنوي العام ١٩٧٥م في تل أبيب، في الفترة من ٦ إلى ١٠ يناير. وكان الموضوع الرئيسي لهذا الاجتماع هو الضغوط النفسية، والتوافق النفسي في الحرب والسلام وكان من بين المتحدثين الرئيسيين في هذا المؤتمر عالم النفس الاجتماعي الشهير ر يتشارد لازاروس الذي اختار موضوعا لخطابه إلى المؤتمرين: "سيكولوجية المواقف العصيبة ومواجهتها مع إشارة خاصة إلى إسرائيل"[٥٩].

ويحدد لا زاروس موقعه منذ البداية قائلاً: "إنني أخاطبكم اليوم من موقعين أولاً، كواحد من علماء النفس تركزت بحوثه وإسهاماته النظرية في مجال دراسة المواقف العصيبة، والتصرف حيالها، ثانيا، كأمريكي يهودي في

---

(٥٩) Lazarus, R.S. " The psychology of stress and coping, with particular reference to Israel" Adress given at international conference on psychological stress and adjustment in times of war and peace, Tel Aviv, Israel, January, ٦ – ١٠, ١٩٧٥, Unpublished paper..

أواسط العمر يشعر – شأن غالبية أمثاله – بتوحد كامل مع نضال إسرائيل القومي من أجل خلق وتأمين مكان ليهود العالم في مجتمع إنساني متسامح".

ثم يعرض لازاروس لرؤيته السيكولوجية للإسرائيليين مقررا إن الإسرائيليين كأفراد يواجهون ما يواجهه البشر عامة من أضرار ومخاطر. ويبدون حيال ذلك ما يبديه غيرهم من تصرفات. ولكن الإسرائيليين – بالإضافة إلى ذلك – يعيشون في ظل توقع القتل أو فقدان الأحبة أو الأصدقاء نتيجة للحرب أو للأعمال الإرهابية. ثمة خطر مستمر لهجوم معاد قد يسبقه نذير وقد يكون مفاجئًا ...ويعاني الإسرائيليون أيضا إحساسا مستمرا بالوحدة في عالم كاره أو غير مبال... ولابد أن هذا الإحساس قد تزايد بحدة في الخريف الماضي حين تراجعت إحدى الحكومات عن مواقفها المؤيدة السابقة نتيجة القدرة الجديدة للدول العربية المنتجة للبترول على التحكم في أسعار وكميات تلك المادة الحيوية بالنسبة للعالم الصناعي، هذا بالإضافة إلى ما لاقاه ياسر عرفات من ترحيب حار في الأمم المتحدة وما تقرر بشأن طرد إسرائيل من اليونسكو،

وكلا الأمرين نتيجة لسيطرة العالم الثالث على التصويت في هذه المؤسسات.

ويمضي لا زاروس مبرزا لآثار حرب أكتوبر على الفعل الإسرائيلي قائلاً: "لقد أدت حرب يوم الكيبور بنتائجها غير الحاسمة، وخسائرها الكبيرة إلى تغير التقييمات الإسرائيلية السابقة تغيرا جذريا. وقد حدد لي بعض أصدقائي وزملائي الإسرائيليين عددا من المسلمات والافتراضات الشائعة التي انهارت نتيجة لهذه الخبرة. ومنها على سبيل المثال إن العرب لن يتحدوا أبدا ضد إسرائيل. إنهم لن يحاربوا بشجاعة أبدا. إن قوات الدفاع الإسرائيلية على درجة عالية من الكفاءة، وأن المخابرات الإسرائيلية تضمن انتصارا دائما بأقل قدر من الخسائر. إن لدى قيادة الدولة من الحكمة والخبرة ما يسمح بترك كل شيء لتصرفها. إن الرأي العالمي سوف يبقى مؤيدا لإسرائيل إن الوقت في صالحنا..."ويؤكد لازاروس" ...أن الجمهور الإسرائيلي كان على ثقة في بداية حرب الكيبور من القدرة على التصدري لما يواجه الأمة من مصاعب، ولم يفقد الثقة كثيرا في القدرة القتالية لقوات الدفاع الإسرائيلية في البداية إلا إن مسار

الحرب بعد ذلك قد تطلب تعديلات أساسيا لتقييم طبيعة ومدى التهديدات، وكيف ينبغي مواجهتها.

ويستشهد لازاروس بما نشرته إحدى الصحف الإسرائيلية بعد مضي عام على الحرب، حيث قالت: "ثمة شيء ما قد تحطم في حرب يوم الكيبور في العام الماضي. لقد أنقذت الدولة حقًا، ولكن إيماننا قد تداعى، ويقيننا قد تحطم وقلوبنا قد تمزقت حتى الأعماق وفقدنا ما يقرب من جيل كامل".

ويشير لازاروس إلى ما لاحظه من انتشار اللامبالاة لدى العديد من الإسرائيليين قائلاً: "... إن العديد من الإسرائيليين الذين كانوا يدمنون الاستماع إلى نشرات الأخبار في الإذاعة وقراءة الجرائد. قد بدأوا في تحاشي ذلك قدر الإمكان، مما يشير من الناحية السيكولوجية إلى مدى تدهور الموقف من وجهة نظرهم ..".

ويبرز لازاروس الفرق بين حرب أكتوبر وبقية الحروب التي خاضتها إسرائيل قائلاً: " ...ورغم إن الحروب مع العالم العربي كانت بمثابة النمط السائد منذ البداية إلا إنها كانت لحسن الحظ حروبا قصيرة. وكان كل انفجار للعنف

يترك إسرائيل أكثر قوة، بل واتساعا إلى حد ما لقد كانت النتائج إيجابية دائما، حتى مؤخرا. فرغم إن الحروب المستمرة قد كبدت إسرائيل الكثير، إلا أنها لم تعان أبدا من هزيمة كبيرة..." وبعد أن يعرض لازاروس لأثر حرب أكتوبر في كشف زيف الاعتقاد بأن إسرائيل تسيطر تماما على ميدان الصراع، وتضمن فرض النتيجة التي تريدها على العرب، يقول بوضوح " ...لقد كانت حرب يوم الكيبور كارثة سيكولوجية، بمعنى أنها قد هددت أو دمرت هذه العقيدة. ولسنا نعرف على وجه اليقين ما الذي حل أو سوف يحل محلها، والخطر الأعظم هو أنها يمكن أن تستبدل بتعاظم الإحساس بالتهديد، وانعدام الحياة... ".

ولا يفوت لازاروس قبل أن ينهي خطابه أمام المؤتمر أن يقدم نصائحه وتحذيراته للإسرائيليين مقررا أنه " ينبغي على الإسرائيليين إيجاد أسلوب عمل جديد للتصدي للخطر العربي المستمر سواء على المستوى الفردي أو على المستوى الجماعي". ويمضي لازاروس محددا ملامح هذا الأسلوب المقترح ناصحا الأجيال الشابة من الإسرائيليين بتمثل الخبرة التي اكتسبها يهود الداسبورا في ظروف العزلة

والاضطهاد وذلك لأن حرب الكيبور، والموقف السياسي العالمي المؤيد للعرب والذي تبلور بعد هذه الحرب سوف يحيي الصورة القديمة لليهودي كعاجز معزول، لا يستطيع الاعتماد على نفسه بل على معونة الآخرين. ...لذلك فإنه لمن الضروري تماما تقوية وتدعيم وتشجيع الروابط السيكولوجية بين الإسرائيليين الجدد وأسلافهم، وكذلك بينهم بين يهود الأقطار الأخرى.

ويمضي لازاروس في تقديم المزيد من النصائح قائلاً: " لقد كان المطلوب أولاً في فترة ما بعد حرب يوم الكيبور هو التفكير والتخطيط بعيد المدى، وطرح أفكار جديدة قائمة على إعادة التقييم الواقعي للموقف. ولست أعني بذلك إنه لم يكن هناك تخطيط فيما قبل حرب الكيبور، ولكن ما أعنيه هو أن التخطيط كان مرتكزا على مسلمات وتقييمات خاطئة ... ويبدو من الضروري حاليا توفير الجهد الأكبر لمراجعة المشكلة ككل. وإعداد الترتيبات لنضال طويل المدى مع العالم العربي والبحث عن طريقة جديدة للتصدي لما يفرضه العداء العربي من تهديد مستمر.

لقد كشف هذا الخطاب الذي ألقاه ريتشارد لازاروس عن عدة آثار هامة خلفتها حرب أكتوبر على السيكولوجية الإسرائيلية الأشكنازية. لقد تزايد الإحساس بالخطر وتزايد الشعور بالعزلة. وانهارت لدى الإسرائيليين مسلمات عديدة تتعلق بقدرة إسرائيل المطلقة... وكفاءة قيادتها وتفوقها على العرب. وتقدم لازاروس عالم النفس الاجتماعي ناصحا الإسرائيليين بمزيد من شحذ عدوانيتهم، بل وصهيونيتهم أيضا. ولقد أخذ الإسرائيليون بنصيحته، وما زالوا.

أما فكتور صنوع، وهو عالم نفس يهودي أمريكي صريح في صهيونيته وفي عدائه للعرب، فقد نشر في الفترة من ديسمبر ١٩٧٣م حتى أغسطس ١٩٧٤م سلسلة من المقالات في إحدى المجلات العلمية المتخصصة في علم النفس تحت عنوان "الآثار النفسية لحرب يوم الكيبور"(٦٠). وقد أورد صنوع في مقالاته هذه أن نسبة المصابين بصدمة نفسية من بين المصابين الإسرائيليين في حرب أكتوبر قد

---

(٦٠) Sanua, V.D., " The psychological effects of the yom kppur war", New York state psychologist, Dec. ١٩٧٣, June ١٩٧٤, Aug. ١٩٧٤.

تراوحت بين ٥ % إلى ١٠ % وهي نسبة عالية تماما، حيث أن عدد مثل هؤلاء المصابين في الحروب السابقة لم يكن ليذكر ويرجع صنوع ارتفاع هذه النسبة إلى "المفاجأة العربية للجيش الإسرائيلي في يوم الكيبور أقدس الأعياد اليهودية".

ويشير صنوع إلى أنه "قد ظهرت خلال حرب يوم الكيبور العديد من مظاهر الاعتماد على التفكير السحري أو الخرافي لدى أولئك الذين قتل أو فقد أبناؤهم أو أزواجهن. لقد استأجرت بعض الأسر الثكلى الوسطاء الروحانيين لمعرفة ما إذا كان أحباؤهم المفقودون مازالوا أحياء... كما اشترك بعض الأرامل والأباء الثكالى تحت وطأة يأسهم في جلسات تحضير الأرواح للاتصال بالموتى. وقد لوحظ انتشار هذا السلوك حتى بين جماعات الشباب المثقفين اللامعين".

ولقد نشر صنوع عام ١٩٧٤م بالعبرية مقالا بعنوان "هل السلام الدائم في الشرق الأوسط، أمر ممكن؟ [٦١] يقرر فيه "أن قراءتنا للمواد الصادرة عن الدول العربية تقنعنا بأن

---

(٦١) Sanua, V.D. " Is Iasting pease possible in the Middle East ? " Bamaaracha, No. ١٥٩, ١٩٧٤ (In Hebrew).

شيئًا أساسيا لم يتغير في نوايا العرب... إننا نشعر أن خطتهم لتدمير إسرائيل ما زالت قوية – إن لم تكن أقوى – في عام ١٩٧٤... وحتى إذا ما افترضنا أن الحكومات العربية راغبة في التوصل إلى اتفاق سلا م مع إسرائيل، فلسوف يظل على إسرائيل التصدي للمنظمات الإرهابية".